

أشجار على قبور العشاق

أساطير شهداء الحب في الشرق والغرب

مرايا 25

طرقات على باب الكون..

رحلة في الزمن والضوء

«نوبل» عبد الرازق قرنج

وإشكاليات الترجمة

مصر النقابية في مئة عام

1921 - 2021

دراسات - مقالات - شهادات

محرر كتاب مرايا: يحيى فكري

مرايا-25

مصر النقابية فى مئة عام

دراسات - مقالات - شهادات

تكوين الطبقة العاملة ١٨٩٩ - ١٩١٤

زكاري لوكماني

العمال وثورة ١٩١٩.. هل تعادلت كفتا الميزان؟

فرح مروان

الحركة النقابية ١٩٢١ ولادة تنظيم ومعارك تشريح

أحمد حسن

الوعي المقدس.. الحركة العمالية بين ثورتين ١٩١٩ - ١٩٥٢

محمد دوير

العمال ودولة يوليو.. الحركة النقابية المصرية.. المصادرة والاستقلال

مصطفى بسيوني

الفن والنضال.. هل لدينا أدب عمالي؟

محمود الورداني

..وشهادات عن

عايدة فهمي - صابر بركات - محمد حسن عوف - محمد عبد السلام -
كمال عباس -

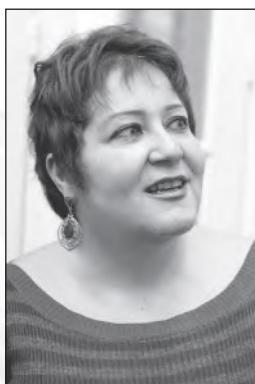
..وبروفيلات عن

يوسف درويش - فتح الله محروس - نبيل الهلالي - فاطمة زكي -
فوزي محمددين - مصطفى عبد الغفار - أحمد شرف الدين - سيد فتحي

مرايا-25

مهر النقاية في مئة عام
2021 - 1921

الناشر: دار المرايا للإنتاج الثقافي



دينا جميل

رئيسة تحرير مرايا

2020 - 2017

حضور دائم

الكُتَّاب

انتصار بدر
أحمد حسن
أسماء زيدان
أميمة صبحي
أحمد عبد الحميد عمر
إيمان عوف
إسلام نبيل منسي
بسسام مرتضى
دينا قابيل
رانية خالاف
صلاح الأنصاري
عادل عوض
عمار فايد
عاطف معتمد
فؤاد مرسي
فرح مروان
محمد الخولي
محمود الورداني
مصطفى بسيوني
محمد حسن عوف
محمد دويبر
محمد عبد النبي
محمد عبد السلام
محمد يحيى
نهى مصطفى
هيثم محمدين

المشرف العام على التحرير

يحيى فكري

المحرر التنفيذي

يحيى وجدي

تحرير

أسماء يس

سكرتير التحرير

حسن جمال

المدير الفني

سامح الكاشف

الإخراج الفني

أحمد نجدي

المحتويات

- بداية المحرر 5
- هوامش
 - صاحب الحوت! هشام سلام.. ابن الفقراء الذي وضع مصر على الخريطة العلمية.....محمد الخولي 8
 - الإخوان المسلمون بعد عقد الثورة.. ماذا يحدث داخل الجماعة؟.....عمار فايد 14
 - عبد الرازق جرنه فائز نوبل الغائب عن المكتبة العربيةإسلام نبيل منسي 20
- رؤى
 - طرقات على باب الكون.. رحلة في الضوء والزمن.....عادل عوض 26
 - نظرة أخرى للأشياء! أفغانستان.. طالبان.. والاحتلال الأمريكي.....ترجمة: نهى مصطفى 31
- ثقافات
 - أشجار على قبور العشاق.. أساطير شهداء الحب في الشرق والغربمحمد عبد النبي 48
 - أثر أمينة رشيد الذي لا يزولدينا قابيل 56
 - قراء جديدة في مشروع قاسم عبده قاسمعاطف معتمد 62
- دراسات
 - أهل الصنایع طوائف الحرف.. رابطات العمال قبل النقاباتفؤاد مرسي 68
- قضايا
 - مصر النقابية في مئة عام -1921 2021المحرر 79
 - تكوين الطبقة العاملة 1899 - 1914عرض وترجمة: أميمة صبحي 80
 - العمال وثورة 1919.. هل تعادلت كفتا الميزان؟.....فرح مروان 88
 - الحركة النقابية 1921.. ولادة تنظيم ومعارك تشريع.....أحمد حسن 98
 - الوعي المقدس.. الحركة العمالية بين ثورتين 1952 - 1919.....محمد دوير 104
 - العمال ودولة يوليو الحركة النقابية المصرية.. المصادرة والاستقلال.....مصطفى بسيوني 114
 - الفن والنضال.. هل لدينا أدب عمالي؟.....محمود الورداني 122
 - عايدة فهمي.. النقابية الوحيدة بين الرجال!انتصار بدر 126
 - صابر بركات.. مناضل من طراز خاصإيمان عوف 130
 - محمد حسن عوف.. عامل الغزل مرشحا للرئاسة!محمد حسن عوف 133
 - كنت هناك.. شهادتي على أخصب سنوات العمرمحمد عبد السلام 136
 - كمال عباس.. من مصادفة يناير 77 إلى حلم الحديد والصلبأسماء زيدان 140
 - يوسف درويش.. محامي العمال بتوصية من الحزب الشيوعي الفرنسي.....أحمد حسن 144
 - فتح الله محروس.. النقابي المشاغب.. المناضل المثالبسام مرتضى 147
 - نبيل الهلالي.. الماركسي ابن الباشا عدو طبقتهأحمد حسن 150
 - فاطمة زكي.. مسيرة نضال من نار ونور.....إيمان عوف 153
 - فوزي محمدین.. قبضة العامل وقلب الفلاح.....هيثم محمدین 157
 - مصطفى عبد الغفار.. درة تاج الحركة العمالية في مصرصلاح الأنصاري 160
 - أحمد شرف الدين.. القائد اليساري المدافع عن العمالمحمد عبد السلام 162
 - سيد فتحي.. ابن العامل الذي ورث نبيل الهلالي.....إيمان عوف 164
- فنون
 - شجّي وراقص.. بليغ حمدي مجرباً أحمدعبد الحميد عمر 168
- مراجعات
 - عصر نادي السينما.. القاهرة السبعينيات في زمن الصراع والثورة.....محمد يحيى 174
 - فتناديل البحر المبعثرة في «الكل يقول أحبك»رائية خلاف 178

مرايا-25

- «مرايا» كتاب ثقافي/ نظري يعنى بنشر المساهمات ذات القيمة في الفلسفة والفكر، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، والنقد الأدبي والفني.
- يعطي كتاب «مرايا» الأولوية لنشر الكتابات التي تلقي ضوءاً على الواقع المصري والعربي والشرق أوسطي.
- يرحب كتاب «مرايا» بالإسهامات المتميزة غير المنشورة سابقاً، ويترجم نصوصاً منتقاة منشورة بلغات أخرى.
- لا ينشر كتاب «مرايا» نصوصاً تروج للرجعية والطائفية والعنصرية والذكورية، أو تحرض على الكراهية، أو تحتوي على عبارات السب والقذف.
- يلتزم كتاب «مرايا» بالرد على مقدمي المقترحات والنصوص، مع احتفاظه بالحق في تحديد توقيت نشر النصوص المقبولة، وفي تحريرها وفقاً للحدود المتعارف عليها.
- يتلقى كتاب «مرايا» المراسلات على البريد الإلكتروني marayajournal@elmaraya.net

الآراء المنشورة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي كتاب «مرايا»

المراسلات

23 شارع عبد الخالق ثروت، وسط البلد، القاهرة ،

جمهورية مصر العربية

تليفاكس: 223961548

البريد الإلكتروني:

marayajournal@elmaraya.net



١٨٤ صفحة

المقاس ٢٧,٥ × ١٩ سم

العدد - ٢٥

بداية

ما من شك في أن النقابات في مصر، هي مؤسسات المجتمع المدني الفاعلة حصراً طوال سنوات، في ظل دولة مركزية رسخت صياغتها واستحوادها وحدها على اتخاذ وتنفيذ القرارات فيما يخص كل شيء، ومع المشكلات البنيوية التي تعترى الأحزاب السياسية على مدى عقود، وغياب أشكال التنظيم الشعبي الأخرى ظلت النقابات وحيدة تعادل هذه السلطة.

عرفت مصر أقدم اتحاد للعمال في المنطقة؛ إذ تأسس عام 1921، وفي هذا العدد من «مرايا» نحتفل بمرور مئة عام على هذا التأسيس، ونستعرض الظروف السياسية والاجتماعية التي خرج منها، والمحاولات التي سبقته.. ففي باب دراسات يقدم فؤاد مرسي دراسة وافية عن طوائف أهل الصناعات، والتي كانت بتكوينها على بدايته أول تنظيم للعمال والصناع، ثم يلي هذا الباب، باب قضايا الذي يتضمن ملفنا الشامل «مصر النقابية في مئة عام» وما قبل تأسيس الاتحاد الأول للعمال، بداية من إرهابات تكون الطبقة العاملة نهايات القرن التاسع عشر، وصولاً إلى النقابات التي أسستها الدولة بعد ثورة يوليو 1952.

في أبوابنا الأخرى مقالات تتناول موضوعات متنوعة، يكتب محمد الخولي عن الدكتور هشام سلام أستاذ الحفريات الذي وضع باكتشافاته مصر على خريطة العلوم في العالم، ويقود عادل عوض القراء في رحلة يطرق من خلالها أبواب الكون الفسيح ليريهم مجرتنا وكواكبها وموقعنا في هذا النظام اللانهائي.

وفي باب رؤى، ننشر مقالاً مترجماً يحمل وجهة نظر مختلفة عن طالبان وما حدث في أفغانستان خلال العقدين الماضيين وانتهى بانسحاب أمريكا من هذا البلد المنكوب بالحروب طوال تاريخه، وإذ ننشر هذا المقال فإننا أيضاً ندعو المهتمين للسجال حوله وما يتضمنه من أفكار عبر مقالات ننشرها في أعدادنا القادمة.

وفي باب ثقافات يتتبع محمد عبد النبي أساطير العشاق في القصص والسير الشعبية في ثقافات مختلفة، ممسكاً بخيط واحد يجمعها من الشرق إلى الغرب، ويقدم عاطف معتمد قراءة جديدة لثلاثة كتب للراحل الدكتور قاسم عبد قاسم تمثل جانباً مهماً من مشروع الفكر والأكاديمي، إلى جانب مقالات أخرى في أبواب هوامش وفتون ومراجعات.

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع



- عندما يتحدث هشام سلام عن مصر تتزاحم تلك الشعارات الرنانة التي يرددتها البعض، لكن هشام يقولها بنبرة صادقة "أنا بحب البلد دي وهدفي أعمل فيها حاجة تستمر طول العمر".

صاحب الحوت!

هشام سلام.. ابن الفقراء الذي وضع مصر على الخريطة العلمية

محمد الخولي

ألا تسقط في بئر الفقر، يعيشون في تلك المساحة الرمادية التي يسميها المصريون "الستر". يقول هشام سلام "كنا نأكل نصف كيلو لحمة كل أسبوع، وأحياناً كل أسبوعين.. تخيل هذه الكمية كانت تكفي 8 أشخاص". وهشام هو الطفل الثاني بين ستة أخوة مقسمين؛ ثلاثة إناث ومثلهم ذكور، هو الذكر الأكبر في الأبناء، فكان الابن المدلل لوالدته، "كان أبوي يقول دائماً: هشام دا ابن أمه، وكنت فعلاً كذلك". يتغير صوت هشام وهو يتحدث عن والدته، يُرجع إليها الفضل في كل ما وصل إليه الآن، "كانت تعمل ممرضة في القرية، وكانوا يسمون الممرضة حكيمة... وأمي كانت حكيمة في الوظيفة وحكيمة في الحياة"، تلخصت حكمة الست "الحكيمة" في أن التعليم الجيد هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أبنائها من الفقر، فسعت إلى أن يحصل أبنائها على تعليم عالي، وبالفعل حدث.

في سنة 1993 انتقل هشام إلى مدينة المنصورة ليلتحق بكلية العلوم، ويسكن في المدينة الجامعية، "كنت كأى طالب منتقل من الثانوية العامة إلى الجامعة، أحاول اكتشاف عالمي الجديد"، التزم سلام في حضور المحاضرات و"السكاشن"، لكنه لم يكن

التسعينيات؛ موجة الصحة الإسلامية مرتفعة جداً، ومصطلح "الإعجاز العلمي في القرآن" يتسدد، ومحاضرات زغلول النجار ومصطفى محمود، مسجلة على شرائط كاسيت يتناقلها الشباب بينهم، ومشايخ السلفية، يحتلون أكبر المساجد، وسوق الكاسيت، كان هناك أيضاً الشاب هشام سلام يدرس علم الجيولوجيا في كلية العلوم جامعة المنصورة.

وقع هشام كغالبية الطلبة تحت تأثير هذه الموجة، لكنه لم يفرق فيها، تمكن في اللحظة المناسبة أن يرى المشهد بصورة مختلفة، ويخلق عالمه الخاص، كأول عالم مصري في مجال الحفريات الفقارية، تنشر أبحاثه في كبرى الإصدارات العلمية في العالم، ويتحدث العالم عن اكتشافاته المهمة على رأسها "منصوراسورس".

لا يعرف هشام سلام أنه يملك ما لا يملكه الكثير غيره، يقول إنه "مصري عادي"، لكنها نصف الحقيقة فقط، مصري صحيح لكنه ليس عادياً.

مصري قادم من إحدى قرى الدلتا المهملة، تتبع مركز "مشتول السوق" في محافظة الشرقية، لأسرة تحاول



هشام سلام

هشام

في قسم الحفريات هناك فرعين للدراسة؛ الأول المعروف للجميع وهو الحفريات اللافقارية، (القواقع والأصداف والمرجان وحبوب اللقاح)، والثاني فرع الحفريات الفقارية، (الديناصورات غيرها من الكائنات الحية) لا يدرسه أحد "المصري الوحيد الذي حصل على درجة الدكتوراه في هذا الفرع، وله بعض الاكتشافات الحفرية في منطقة الفيوم، هو الدكتور يوسف شوقي مصطفى في الخمسينيات، لكنه لم يكمل الطريق واتجه نحو الموسيقى.

ترك يوسف شوقي مصطفى علم الحفريات، في ستينيات القرن الماضي، واحترف التلحين والتأريخ الموسيقي وأجاد العزف على العود، وانتقل للحياة في سلطنة عمان إلى أن توفي ودفن هناك في عام 1987. يقول هشام إن المشكلة الحقيقية في ترك الدكتور شوقي علم الحفريات الفقارية، أنه لم يترك بعده مدرسة تكمل من بدأه، لذلك كان هذا أحد أهدافه بعدما بدأ دراسة الحفريات الفقارية.

حصل هشام سلام على درجة الماجستير في 2003، وفشلت كل محاولته للمشاركة في الرحلات الاستكشافية، رغم أن هذه الرحلات جزء أصيل في هذا العلم، "كانت هذه الرحلات للأجانب فقط"، يقول هشام وهو يحكي عن العقبات الكثيرة التي واجهته

يذاكر إلا في الشهر الأخير قبل الامتحانات، "أقيم في المدينة الجامعة الشهر الأخير قبل الامتحانات وأذاكر لساعات طويلة، ونجحت بتفوق وكنت الأول على الدفعة"، استمر هذا الوضع طوال سنوات الدراسة، ليتخرج في الجامعة بتقدير عام "جيد جداً مع مرتبة الشرف"، عام 1997، وتقرر إدارة الكلية تعيينه معيدا في قسم الحفريات، "لم أكن أعرف شيئاً عن هذا العلم.. درست مادة الحفريات الفقارية مرة واحدة في العام الثاني من الجامعة.. لكنني في النهاية لن أرفض وظيفة معيد لأن القسم لا يعجبني".

لم يكن هشام هذا الفتى المدلل بالمعنى الذي توحى به الكلمة، إذ نزل إلى سوق العمل في سن مبكرة، تلك المهن التي يلجأ إليها أبناء الفقراء للمساعدة على تسيير الحال، عمل في مهن كثيرة؛ في شركة لمنتجات الألبان والأغذية، ومحطة وقود، وفي صيدلية، وعامل في مزرعة دواجن، ومنجد كراسي، وفي ورشة لحام، ونقاش، وحداد، وعامل يغسل الأطباق في قرية سياحية في نوبيع، وعامل في مزرعة مانجو.

يقول "آخر شغلانة قبل استلام وظيفة المعيد، كنت بشيل رمل وزلط مع عامل بناء، حصلت منه على أجره عشرة جنيهه هي نفسها التي سافرت بيها إلى المنصورة لاستلام الوظيفة الجديدة".



في موقع الحضريات

صديقة "أنا بحب البلد دي وهدفي أعمل فيها حاجة تستمر طول العمر".

لكن الحياة في مصر ليست وردية كما يعتقد محبوبها، اصطدم هشام بواقع بيروقراطي يحاول إيقافه عن التقدم، لكنه قرر ألا ييأس، بدأ في تكوين نواة لفريق عمل، يضم مجموعة من الطلاب "يلعبون علم"، تمكن هشام من الحصول على غرفة صغيرة داخل معمل الجيولوجيا بجامعة المنصورة، وجعلها نقطة الانطلاق لمشروع كبير يحلم به، مشروع "سلام لاب": "كان المشرف على المعمل يطرد الطلبة، ورأيت اليأس يتمكن منهم، فافتحرت عليهم جائزة لأكثر طالب يطرد من المعمل"، تبدو الفكرة مضحكة، لكن تأثيرها كان رائعاً، "تعلمنا أن نواجه البيروقراطية بالسخرية.. وأيضاً سنواجه بها كل العقبات التي ستواجهنا بعد ذلك".

والد هشام كان موظفاً مديناً في مركز الشرطة، لكنه يرى أن والدته كانت "فارساً حقيقياً" تمكنت من إدارة البيت بعبقرية "صحيح كنت ابنها المدلل، لكن أيضاً أخوتي كانوا يعتقدون أن كل واحد منهم هو الابن المدلل، وهذا جزء من حكمتها".

استدعى هشام طريقة والدته في تربية أبنائها ليطبقها مع فريق عمله، فنجح هشام في خلق حالة تتجاوز حالة المعلم الأكاديمي، لتصل لمرحلة الصداقة والأبوة، يقول هشام "طريقة أمي جعلت كل

في بداية عمله، ويضيف "طردت من مكتب مسؤول لأنني طلب المشاركة في رحلة استكشافية.. قال لي الأجنب مبيحبوش المصريين في المعسكرات الاستكشافية... قلت له اعتبرني طباح أو سواق فطرديني من مكتبه"، لم ييأس هشام وذهب إلى رئيس هذا المسؤول وأخبره أنه المصري الوحيد الذي يدرس هذا العلم، ويجب أن يشارك في هذه الرحلات، ونجحت محاولة هشام وسمح له بالمشاركة.

تمكن هشام من الحصول على منحة لدراسة الدكتوراة في جامعة أكسفورد، وانتقل إلى هناك حيث المجتمع المنفتح، والثقافات المختلفة "في البداية صنعت لنفسني قوقعة أعيش داخلها.. صحيح في إنجلترا لكني أعيش بنفس العقلية التي جئت بها، أعتقد أن المصري أفضل من غيره، وأنا الأذكى وأؤمن بأن نظرية التطور كفر"، لكن هذا الوضع لم يستمر كثيراً. قرر هشام أن يندمج في المجتمع الجديد. يشارك في الحفلات والرحلات الاستكشافية، "تغيرت كثيراً، وأصبح لدي وجهة نظر مختلفة عن تلك التي جئت بها من مصر".

أنهى هشام الدكتوراة وقرر العودة إلى مصر، تعجب زملاؤه في الجامعة من القرار، لكنه كان أحد أهدافه التي وضعها لنفسه، "أجيب العلم دا لمصر". عندما يتحدث هشام سلام عن مصر تتزاحم تلك الشعارات الرنانة التي يرددتها البعض، لكن هشام يقولها بنبرة



- "آخر شغلانة قبل استلام وظيفة المعيد، كنت بشيل رمل وزلط مع عامل بناء، حصلت منه على أجره عشرة جنيهه هي نفسها التي سافرت بيها إلى المنصورة لاستلام الوظيفة الجديدة"

- "لم أكن أعرف شيئاً عن هذا العلم.. درست مادة الحفريات الفقارية مرة واحدة في العام الثاني من الجامعة.. لكنني في النهاية لن أرفض وظيفة معيد لأن القسم لا يعجبني"

يشبه نفسه بـ"المايسترو" الذي يختار أفضل العازفين وهو من يدير المجموعة لكن تميز أحد العازفين هو نجاح للعازف نفسه في الأساس ونجاح لـ"المايسترو" الذي اختاره ووضعه ضمن هذا الفريق.

تكللت جهود فرقة العازفين في مقطوعة تحدث عنها العالم كله؛ اكتشاف "منصوراصورس"، أحد أهم الاكتشافات الحفرية في العالم، يقول هشام، "وضعنا كفريق قبل منصوراصورس اختلف 360 درجة بعد الاكتشاف".

يرى هشام أن منصوراصورس هو "الاكتشاف الأعظم"، فهذا الديناصور هو الأول من نوعه في أفريقيا الذي يوثق آخر 30 مليون سنة من العصر الطباشيري (منذ 135 إلى 65 مليون سنة)، ويضيف "جميع الديناصورات المكتشفة من قبل كانت تنتمي إلى عصر ما قبل السينوماني، (أول مرحلة من فترة الطباشيري المتأخر، تعود إلى أكثر من 95 مليون سنة).

يشير هشام، الذي قاد الفريق البحثي، إلى أن "منصوراصورس"، أكمل ديناصور مكتشف في أفريقيا لهذه الفترة، طوله 10 أمتار، وعمره نحو 75 مليون سنة ووزنه نحو 5 أطنان، وهو وزن منخفض نسبياً، بالمقارنة بالديناصورات النباتية العملاقة من نفس نوعه، التي عاشت في العصر الطباشيري، والتي كان وزنها يصل إلى 70 طنًا.

وتمكن هذا الكشف من إيجاد أول دليل في تاريخ العلم يثبت وجود اتصال جيولوجي بين قارتي أفريقيا وأوروبا في هذه الفترة الزمنية، وتؤكد على أن الفقاريات الأرضية تشتت وانتشرت بين أوراسيا وشمال أفريقيا بعد انفصال أفريقيا عن أمريكا الجنوبية قبل 100 مليون سنة.

أرسل هشام بيانات كشفه إلى الجهات الرسمية، لكن لم يهتم أحد "لم يكن لنا سابقة أعمال فكيف يتقنون

واحد فينا يفكر أنه هو المدلل ودا كان له تأثير كبير في ثقنا بنفسنا، طبقت هذه الطريقة مع الطلاب فنجحت.. عندي حكايات مع كل طالب في الفريق، وكل واحد فيهم يعتقد أنه الأقرب إليّ".

رغم هذا القرب لا يتنازل هشام سلام عن مجموعة من الشروط في فريقه، "الحفريات الموجودة في الصحراء دي ملك التراث الطبيعي المصري، ويجب أن أضع عليها حراس من الطراز الرفيع يكتشفوها ويعرفوا العالم بها.. يعتقد الكثير أن شروطي قاسية لكني أراها ضرورية".

وضع هشام سلام مجموعة من الشروط في اختياره لأعضاء الفريق على رأسها الشغف، وامتلاك الطالب عقل علمي منفتح، ويجب هذا المجال "ويجي يقعد معايا سنة في القسم عشان أعرف هل هذا الشخص يتمتع بروح الفريق والتعاون ولا هيجي يخرب الفريق.. احنا بنقعد مع بعض بالأيام في الصحراء ولازم نبقي متوافقين".

يضم فريق هشام سلام تنوعاً كبيراً، من محافظات مختلفة، ومستويات اجتماعية مختلفة، وكذلك طلاباً من الشباب والإناث. وفكرة إقامة الفتيات في معسكر في الصحراء، أمر غير مألوف خاصة مع أن هؤلاء الفتيات القادمات من بيئات ترى أنه لا يجوز للبنات النوم خارج المنزل بشكل عام، وعلى مريض يسمح لهن الإقامة في المدن الجامعية، "أنا أول واحد يدرّب بنات على الحفريات الفقارية ونجحت جداً، لكن عانيت كثيراً مع أهالي الطالبات، لكن لما شافوا النجاح في عيون بناتهم، الآن يفخروا بهن".

يرى هشام إنه إنسان "شبعان علم"، فلا ينسب كل شيء لنفسه، وإنما يعطي كل طالب حقه في النجاح، "بستمتع بلعبة النجاح في عيون الطلاب"، يقول هشام، ويضيف "دا انتصار في حد ذاته، عمري ما أخذت حق حد، أنا بس بحاول ابني الطلاب"، يفضل هشام أن



- "الحفريات الموجودة في الصحراء دي ملك التراث الطبيعي المصري، ويجب أن أضع عليها حراس من الطراز الرفيع يكتشفوها ويعرفوا العالم بها.. يعتقد الكثير أن شروطتي قاسية لكني أراها ضرورية".

الآن. يقول هشام سلام إن الحوت المصري المكتشف مؤخرًا هو من العائلة الرابعة التي تعرف باسم "بروتوستيدي"، وهذه العائلة ذاتها مقسمة إلى ثلاثة مراحل، "هي عائلة كبيرة، وبها تحورات كثيرة.. القسم الأول من هذه العائلة كانت برمائية ومنه فيوميستيس - أنوبيس، ويسد الفجوة بين العائلة الثالثة والرابعة". يرى هشام أن كشف "فيوميستيس أنوبيس"، له أهمية علمية كبيرة لكنه أيضًا له أهمية شخصية لفريق "سلام لاب"، (الذي أسسه في جامعة المنصورة لدراسة الحفريات الفقارية)، فبينما كان هشام هو المؤلف الرئيسي لاكتشاف "منصوراصورس"، قاد الكشف الأخير الباحث عبد الله جوهر، أحد طلاب سلام لاب، وبذلك يرى هشام أنه يخطو خطوات جادة نحو هدفه بنقل هذا العلم إلى مصر، وخلق أجيال من العلماء يحملون المهمة ذاتها بعده، لإنارة الطريق الذي حرمت مصر منه لسنوات. يقول هشام "هذه هي الثمرة الأولى للمدرسة التي عملنا على تأسيسها.. احنا بنحتفل بفيوميستيس على أنه جنس ونوع جديد من الكائنات الحية التي عاشت في مصر من 43 مليون سنة واحتفال بالعلماء المصريين من هذا الجيل الجديد".

ويؤمن هشام سلام أن العلم وحده هو القادر على أن يعيش للأبد "لا يزعجني الهجوم عليّ على فيسبوك، ولا أشخصن الأمور أبدًا"، بل يرى أن من واجبه أن يستمر في التأكيد على أن العلم هو علم، وما دونه شيء آخر، لا يريد أن يدخل في مواجهة مع الأديان في أي مسألة علمية، "لن نحدث أي تقدم لو فعلنا ذلك"، يقول هشام ويضيف "العلم له مقصلة، فمن أراد أن يدخل في مواجهة العلم عليه أن ينتظر المقصلة في أي لحظة، وهذه المقصلة لا ترحم أحدا مهما كان شأنه أو وضعه".

يجيب هشام على السؤال التقليدي "لماذا نبحت عن حفريات من ملايين السنين، وماذا نستفيد من ذلك"،

لكن الدوريات العلمية العالمية، تناولت الحدث، وبدأ العالم كله يتحدث عن الكشف الجديد، "وجدنا بعد ذلك اهتماما كبير بعملنا، على سبيل المثال في الكشف الأخير فيوميستيس أنوبيس".

نشر الكشف في دورية "وقائع الجمعية الملكية للعلوم البيولوجية" المرموقة في العلوم، وكذلك صدر به بيان من وزارة التعليم العالي، يؤكد هشام على أن تناول الحكومة مع الاكتشاف الأخير اختلف تمامًا "صدر بيان رسمي من وزارة التعليم العالي ونشره مجلس الوزراء على فيسبوك.. وهذا يحدث للمرة الأولى".

يمثل "فيوميستيس - أنوبيس" أهمية علمية كبيرة، إذ يتمكن من سد فجوة زمنية كبيرة كان العلم حائرا فيها، وتمتد البشرية بمعلومات وبيانات عن تلك الفترة من الزمن، فالعلماء يقسمون تطور الحيتان إلى خمس عائلات، تنتهي بالحيتان الموجودة بالمحيطات حاليًا، وتبدأ قبل نحو 56 مليون سنة، عندما كانت هناك حيوانات تشبه الذئب، تعيش في المنطقة التي تعرف حاليًا بباكستان، تتغذى على اللحوم، وأحيانًا الأسماك، وعندما شح الطعام على اليابسة نزل هذا الحيوان إلى البحر بحثًا عن الطعام، وانتقل نوعا ما من اليابسة إلى الماء.

في عام 1981 اكتشفت حفزية هذا الحيوان وأطلق عليها اسم "الباكيسيتس" وأظهرت خصائصه التشريحية ارتباطه ب"الحيتانيات الحديثة"، يملك جسم حيوان بري، لكن جمجمته طويلة قريبة الشبه بجمجمة لحوت.

توالت الاكتشافات الحفزية بعد ذلك لتكشف عن سلسلة تحورات في جسد هذا الحيوان، وجدت في العائلة الثانية والثالثة، للتكيف أكثر على المعيشة في الماء، حيث استطال الذيل وتحورت عظام الحوض والأطراف، واستمرت التحورات وبدأت أطرافها الأربعة تتحول إلى زعانف تساعد على السباحة بكفاءة، والسير على اليابسة أيضًا تشبه التماسيح التي نعرفها حاليًا، ثم تطورت أكثر لتصل إلى ما عليه

”

- يتعاطف هشام سلام مع من ينتقدونه بسبب حديثه عن "نظرية التطور"، ويرى أن المشكلة في أنهم لا يعرفون، والإنسان عدو ما يجهل بشكل عام، "كنت مثلهم في يوم من الأيام" ..

”

- "منصوراصورس"، أكمل ديناصور مكتشف في أفريقيا لهذه الفترة، طوله 10 أمتار، وعمره نحو 75 مليون سنة ووزنه نحو 5 أطنان، وهو وزن منخفض نسبيًا، مقارنة بالديناصورات النباتية العملاقة من نفس نوعه.



الأمر بشكل مختلف، وبالتالي، حتى لو لم يعملوا في هذا المجال مستقبلاً، يكون لديهم قدرة على تقييم الأمور بشكل علمي، يضيف "في دول كثيرة حول العالم نرى متاحف حفريات فقارية تذهب إليها الأطفال، بل ويشاركون في رحلات استكشافية أيضاً".
على عكس ما يعتقد البعض، يتعاطف هشام سلام مع من ينتقدونه بسبب حديثه عن "نظرية التطور"، ويرى أن المشكلة في أنهم لا يعرفون، والإنسان عدو ما يجهل بشكل عام "كنت مثلهم في يوم من الأيام وعندما اطلعت وانفتحت على العلم تغيرت أفكارى.. وأراهن على أنه إذا عرفوا تغيروا، أو على الأقل أراهن على أبنائهم، ربما يكون بينهم ألف هشام سلام".

فيقول: "في البداية المعرفة في حد ذاتها لا تقدر بمال، وعلم الحفريات الفقارية يمنحنا تلك المعرفة التي تجعلنا أكثر قدرة على التخطيط".
ويتساءل هشام؛ هل يمكن أن نسأل الآن لماذا يبحث علماء الآثار عن ملوك مصر القديمة، أو كيف كانت حياتهم؟ ويجيب على نفسه، "بالتأكيد هناك أهمية كبيرة لهذا العلم، فنحن هنا نعرف تاريخنا كبشر، وفي الحفريات الفقارية فنحن نبحث عن تاريخ الكون وهذا يجعلنا نمتلك رؤية أعظم وأشمل للكون الذي نعيش عليه".
يقول هشام إن هذا العلم أيضاً يساعد في تشكيل العقل العلمي، فعلى سبيل المثال اهتمام الأطفال بهذا العلم، يخلق لديهم عقل علمي يجعلهم ينظرون إلى



- تميل بعض الكتابات إلى الفصل بين شباب
جماعة الإخوان المسلمين وبين مجمل حالة
الجماعة وتوجهاتها الرسمية. تفترض هذه
الكتابات أن شباب الجماعة تيار متجانس وموحد
إزاء كل القضايا..

الإخوان المسلمون بعد عقد الثورة.. ماذا يحدث داخل الجماعة؟

حوامش

عمار فايد

في مصر، المواطن الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين، لا يبدو الوضع مختلفاً تماماً، وإن كان له خصوصية لا يمكن إغفالها. فالإخوان في مصر لم يخسروا الانتخابات مثل العدالة والتنمية المغربي مع الاحتفاظ بوضع قانوني وأفق سياسي واضح يمكنهم من مواصلة العمل السياسي واستعادة شعبيتهم الانتخابية مجدداً. كما أنهم ليسوا في معادلة مماثلة للحالة التونسية التي ما زالت مفتوحة على سيناريوهات متعددة، ليس من المرجح أن يكون بينها صدام واسع مع الدولة كما في الحالة المصرية.

منذ 2013، وعقب أسابيع من الإطاحة بالإخوان من الحكم، تم تصنيف الجماعة كمنظمة إرهابية، ووجهت الأجهزة الأمنية، ولا زالت، حملة واسعة

لا شك أن الحديث عن مستقبل الأحزاب والحركات الإسلامية في المنطقة العربية يستمد أهميته من حقيقة أن هذه الجهات مازالت من الأطراف الفاعلة الرئيسية في المشهد السياسي الإقليمي. مؤخراً، مع التطورات في تونس وخسارة العدالة والتنمية المغربي، فضلاً عن عودة طالبان لحكم أفغانستان، تجدد السؤال حول مستقبل ما يطلق عليه "الإسلام السياسي"، وهل هو إلى أفول بعد الحملة الإقليمية عليه؟ أم أنه مثل باقي التيارات السياسية معرض لفترات من الصعود والتراجع لكنه مازال يحتفظ ببنية تحتية اجتماعية تجعل منه فاعلاً سياسياً لا يمكن تجاهله، أو التسرع بطي صفحته.



- آلية اتخاذ القرار ، وتقييم المرحلة السابقة، والتطوير المؤسسي، صارت من النقاشات الأساسية التي هيمنت على المناخ الداخلي للجماعة، بل وتسببت أحياناً في انشقاقات وتوترات خرجت إلى العلن



حسن البنا



الإخوان المسلمين وبين مجمل حالة الجماعة وتوجهاتها الرسمية. تفترض هذه الكتابات أن شباب الجماعة تيار متجانس وموحد إزاء كل القضايا، وهم دائماً في حالة تناقض مع مواقف الجماعة الرسمية ومع قيادتها. لكن هذه الكتابات تعجز بعد ذلك عن تقديم تفسير مقنع لبقاء هؤلاء الشباب في الجماعة إذا كانت الفرضية الرئيسية السابقة صحيحة. تستمد هذه الفرضية قوتها من ملاحظات لا جدال حولها، مثل غياب أجيال الشباب عن الأطر القيادية في الجماعة. بالإضافة إلى مناسبات ومواقف عبرت فيها مجموعات من شباب الجماعة عن مواقف تخالف مواقف الجماعة عبر شبكات التواصل، أو حتى من خلال الفعل خاصة في الأشهر القليلة التي تلت ثورة يناير 2011.

نجحت في إيقاف أي نشاط للجماعة داخل البلاد بصورة شبه كاملة، خاصة مع اعتقال غالبية قياداتها وكوادرها المؤثرة، باستثناء عدد محدود غادر البلاد. هذا الانهيار المدوي من أعلى هرم السلطة في البلاد إلى حالة الاستهداف الشامل، أطلق تساؤلات داخلية حول تحديد المسؤوليات وأسباب الإخفاق. ومن ثم، صار الحديث حول آلية اتخاذ القرار الداخلي، وكيف يجب أن تدار الجماعة، وتقييم المرحلة السابقة، والتطوير المؤسسي، ورؤية الجماعة.. إلخ، من النقاشات الأساسية التي هيمنت على المناخ الداخلي للجماعة، بل وتسببت أحياناً في انشقاقات وتوترات خرجت إلى العلن.

أين يقع شباب الجماعة؟

تميل بعض الكتابات إلى الفصل بين شباب جماعة

ولكن لأنهم ليسوا واثقين ابتداءً بأن الجماعة لديها خيارات سياسية واضحة ورؤية كاملة حول إنهاء الأزمة الراهنة.

من ناحية إدارة الجماعة، ربما يكون الشباب أكثر حماسة لإجراء تغييرات داخلية، تسمح بمشاركة أوسع في إدارة الجماعة، وتضع آليات أكثر شفافية لعملية اتخاذ القرار بما يضمن خضوعه لاعتبارات علمية احترافية وأسس جماعية، فضلاً عن تفعيل آليات المراجعة والمحاسبة. لكن هذه المطالب ليست حكراً كذلك على أجيال الشباب، ويتبناها بالفعل قيادات بالجماعة بمستويات تنظيمية وإدارية متنوعة. كما أن مقاومة هذه المساعي والتخوف من دوافع أصحابها أو من تبعاتها على التماسك الداخلي في الظرف الراهن لا تقتصر على القيادات العليا بل تجد لها بعض الدعم أيضاً بين أعضاء أصغر سناً. ومن الملاحظ هنا أن التوتر الرئيسي داخل الجماعة يكاد يكون محركه الرئيسي هو هذا الجانب الإداري والتنظيمي. إذ بات الاقتناع متزايداً بأنه ليس من الممكن تطوير رؤية الجماعة السياسية، وليس بإمكانها العودة كرقم مؤثر في العملية السياسية دون إحداث تغييرات جذرية في وضعها الداخلي يتلافى أسباب الإخفاق السابق، ويمهد لاستعادة الثقة الداخلية التي تضررت بصورة ملموسة.

الحاجة لاستعادة الثقة

التساؤلات المستقبلية حول وضع الجماعة وتحديد دورها وعلاقتها بالدولة والعمل السياسي.. إلخ، باتت أيضاً مرتبطة بتغير داخلي يفتح الباب لقيادة جديدة يمكنها إدارة وتوجيه هذه العملية التي يلزمها مناخاً داخلياً مواتياً ومنفتحاً يتم خلاله مناقشة هذه التساؤلات ورسم السيناريوهات والبدائل في ظل المعطيات الراهنة والتحديات التي تواجه الأحزاب الإسلامية في المنطقة عموماً، وفي الحالة المصرية بصورة خاصة. لكن هذه القيادة أيضاً، وربما قبل ذلك، ينتظر منها أن تعيد لشباب الجماعة، وكل أعضائها، الثقة بقدرة الجماعة على تحقيق مشروعها وعلى تجاوز الأزمة التي تهدد بقائها. من خلال متابعة تعليقات بعض شباب الجماعة، والإسلاميين عموماً، الناشطين على شبكات التواصل، ثمة اتجاه واضح بأنهم لم يعودوا بنفس الثقة بالذات. طوال العقود السابقة، كان الانضمام للجماعة

لكن الواقع يبدو أكثر تعقيداً وتركيباً من هذه الصورة المبسطة القائمة على رسم حدود طولية بين أجيال الإخوان. ليس من الدقيق توصيف التوترات الداخلية في جماعة الإخوان باعتبارها "صراع أجيال" فقط. فلا يمكن رسم خط فاصل بين شباب الجماعة وشيوخها باعتبارهما معسكرين متميزين بصورة كاملة. في الحقيقة، على الأقل منذ 2013 وما بعدها، صارت التوترات داخل الجماعة نابعة من خلافات حول السياسة، ونمط الإدارة، وموضع الجماعة المستقبلي في الواقع المصري وتعريف دورها. وفي كل هذه القضايا، يخرط الشباب ليس بناء على اصطفاك جيلي، ولكن بناء على تحيزات ورؤى تجمعهم مع غيرهم من أجيال الجماعة الأكبر.

من ناحية السياسة، كما هو متوقع، تظهر الاختلافات في النهج الأمثل للتعامل مع النظام المصري ورؤية الخروج من المأزق الراهن الذي يهدد بقائها ذاته. تتوزع الانحيازات للخيارات السياسية بين كل أجيال الجماعة ومستوياتها الإدارية. فليس من الممكن مثلاً القول بأن أجيال الشباب تميل إلى التصعيد ضد النظام وعدم تقديم تنازلات، أو أن الأجيال الأكبر تميل ناحية التفاوض أو حتى التنازل. تتوزع هذه التوجهات بصورة رأسية وأفقية داخل الجماعة، ولا يمكن ربطها بشريحة عمرية، أو توزيع جغرافي، أو حتى مستويات إدارية. ربما بإجراء مسح منهجي دقيق نصل إلى استنتاجات حول "التوجهات الغالبة" في شريحة معينة، أو في جغرافيا معينة (الخارج والداخل على سبيل المثال). لكن مثل هذا المسح لا يمكن أن يدعي أي طرف قيامه به، ومن ثم لا يمكننا ببساطة التسليم بدقة الانطباعات العامة التي يخلص لها البعض من خلال متابعة ناشطي الإخوان والإسلاميين على شبكات التواصل، أو مواقف الجماعة الرسمية التي يعبر عنها رموزها في الإعلام.

ويتمثل المأزق الأساسي لشباب الجماعة في هذا الصدد، ليس في إجراء هذا المسح، ولكن في قيام الجماعة بحوار داخلي حقيقي، تشارك فيه أجيال الجماعة وتوقعاتها المختلفة، وصولاً إلى تبني رؤية واضحة تجيب على التساؤلات السياسية التي مازالت معلقة، وتنتظر في الغالب مبادرات النظام نفسه أو وساطات خارجية تقوم هي بطرح تصورات للحل. أي أن الأزمة هنا، لشباب الجماعة ولكافة أعضائها بصورة عامة، ليس في عدم موافقتهم على خيارات الجماعة السياسية،



- ربما يكون الشباب أكثر حماسة لإجراء تغييرات داخلية، تسمح بمشاركة أوسع في إدارة الجماعة، وتضع آليات أكثر شفافية لعملية اتخاذ القرار بما يضمن خضوعه لاعتبارات علمية احترافية وأسس جماعية



إبراهيم منير



- كان الانضمام للجماعة يلبي لدى أعضائها متطلبات متنوعة، بعضها يتعلق بالجوانب الروحية والأخلاقية، وبعضها مرتبط أكثر بالجوانب الاجتماعية، وبعضها بلاشك مرتبط بالطموح السياسي والرغبة في الانخراط في العمل العام



محمد بديع

بها من السلطة في يوليو 2013، لم يكن مقنعاً بالقدر الكافي لشريحة من أعضائها خصوصاً الشباب. ومع طول فترة الأزمة التي بلغت عامها الثامن الآن، ظهرت الجماعة في حالة ضعف عزز من الخلافات الداخلية التي تظهر على السطح بين الحين والآخر. ومن ثم لم تعد كفاءة الجماعة محل إجماع، ولم يعد من المسلم به، كما السابق، أن الجماعة قادرة على تحقيق مشروع التغيير الذي تسعى إليه.

وقد تنوع التعبير عن حالة فقدان الثقة هذه في عدة مظاهر. بعضها تحول لفقدان الثقة في جدوى التغيير السلمي ومن ثم بحث هؤلاء عن مسارات أخرى خارج الإخوان فلنا منهم أنها أكثر قدرة على الإنجاز. وتحول بعضها لفقدان الثقة في قيادة الجماعة، دون أن ينسحب هذا بالضرورة على مشروعها أو منهجها السلمي، وبالتالي لجأ هؤلاء إلى تحدي القيادة والضغط من أجل تغييرات جذرية داخلية. كذلك، تحول بعض فقدان الثقة إلى ظواهر من الإحباط والعزوف تماما عن المشاركة في الشأن العام سواء من خلال الإخوان

يلبي لدى أعضائها متطلبات متنوعة، بعضها يتعلق بالجوانب الروحية والأخلاقية، وبعضها مرتبط أكثر بالجوانب الاجتماعية، وبعضها بلاشك مرتبط بالطموح السياسي والرغبة في الانخراط في العمل العام. بالنسبة للجانب السياسي، كان ثمة ثقة واسعة لدى أعضاء الإخوان في كفاءة الجماعة وتميز مشروعها في ضوء القاعدة الجماهيرية الواسعة، والانتصارات الانتخابية التي تعودوا عليها حتى في ظل سقف المشاركة المقيد خلال سنوات حكم مبارك. من بين مشروعات التغيير الإسلامي، كان أعضاء الإخوان ينظرون لمشروعهم باعتباره الأكثر فاعلية وواقعية مقارنة بالجمعيات السلفية، وأيضا الأكثر اعتدالا مقارنة بحركات العنف التي اصطدمت بالدولة. من خلال الحضور الواسع في النقابات المهنية، والنشاط الطلابي في الجامعات، ثم في البرلمان كأكبر كتلة معارضة، اكتسب أعضاء الجماعة ثقة متزايدة في مشروعها، من حيث الإنجاز ومن حيث الجدوى على حد سواء. لكن أداء الجماعة بعد الثورة، وخصوصاً إخفاقها في مواجهة مخطط الإطاحة

أو من خلال أي مسار آخر. من الصعب، وربما من غير الممكن، تحديد نسب دقيقة لكل من هذه الاتجاهات. أولاً لأنها تتطلب بالأساس مسجلاً داخلياً ليس متاحاً إلا لقيادة الجماعة وأجهزتها الداخلية. وثانياً، لأن هذه الاتجاهات مازالت غير نهائية، ومن ثم قابلة للتغير من الحين للآخر. وبالإضافة إلى ذلك، اتجهت مجموعات من شباب الجماعة، سواء احتفظوا بوضعهم التنظيمي أم لا، إلى مبادرات فردية أو من خلال مجموعات صغيرة، تحقق لهم الثقة التي يبحثون عنها، وتمكنهم من المساهمة الفاعلة في المشهد الحالي الذي يرون فيه الجماعة أقل فاعلية مما كانوا يتوقعون. وليس من المفاجئ أن تقتصر هذه المبادرات على الخارج كونهم أكثر قدرة على التحرك والتواصل دون ملاحقة أمنية. كما فتح لهم مجتمع المهجر المفتوح القدرة على التواصل وبناء شبكات من العلاقات فيما بينهم لم يختبروها خلال عملهم التنظيمي في مصر الذي يتسم بمركزية شديدة وعدم وجود قنوات اتصال أفقية داخل الجماعة. ومن المهم هنا ملاحظة أن هذه المبادرات الفردية قد تتطور لتقديم رؤى أو الدفع بجهود الإصلاح الداخلي، أو قد يفضي بعضها لإطلاق مسارات عمل خارج أطر الجماعة وبعيد عنها، حتى لو كانت محدودة من حيث العدد أو من حيث مجال تأثيرها (إعلامي، سياسي، حقوقي، ثقافي.. إلخ).

إلى أين تتجه الجماعة؟

تواجه جماعة الإخوان حالياً الحملة القسوى في تاريخها. لم تتعرض الجماعة مسبقاً لهذا النمط من الإجراءات الأمنية الممتدة الآن لأكثر من ثماني سنوات. وربما يرجع السبب لأن يعتبر البعض هذه الإجراءات أشد قسوة من العهد الناصري لأن الجماع نفسها أكثر تماسكاً مقارنة بتنظيم الإخوان في الأربعينيات والخمسينيات.

يعتبر "التنظيم" أحد أهم إنجازات حسن البنا. بل إن سيد قطب رأى أن عبقرية (البنا) الأساسية تجلت في قدرته على (بناء) تنظيم هرمي تربطه علاقات روحية وأخوية عميقة، جنباً إلى جنب مع بناء إداري محكم متسلسل من القيادة وحتى وحدة البناء الأولى في الجماعة: "الأسرة". لكن تنظيم حسن البنا كان منفتحاً؛ كونه يمثل جميعاً رسمية قانونية تعمل بصورة معلنة وفي أجواء الثلاثينيات والأربعينيات الليبرالية نسبياً. لم يكن الانضمام للجمعية صعباً أو يتطلب الكثير من

الشروط والإجراءات، والمتتبع لمذكرات حسن البنا ورجال الجماعة الأوائل يجد سهولة في ضم الأعضاء للجمعية، بل وتكليفهم على الفور بمهام تنفيذية ومنحهم صلاحيات واسعة في نطاقهم الجغرافي. لذا، لم يكن من المستغرب فعلاً أن تتبخر الجماعة بمجرد دخولها في صدام مع نظام يوليو 1952. ما إن بدأ جمال عبدالناصر حملته لاستئصال الجماعة، واعتقل قادتها وكوادرها النشطة، حتى اختفت عضويتها المليونة، وذابت في المجتمع الجديد، رغم أنها تعرضت لإجراءات أقل بكثير، وأقصر، مما تتعرض له الجماعة حالياً. في المقابل نجد أن التنظيم الجديد الذي أعيد بناؤه في السبعينيات وحتى أواسط الثمانينيات كان مختلفاً بصورة جوهرية. تم التخطيط منذ اللحظة الأولى لبناء تنظيم مغلق، يفترض أنه لا يتمتع بالشرعية القانونية التي تسمح لها بممارسة نشاط طبيعي علني، واستبطن في كل ممارساته ومناهجه التربوية والثقافية حالة صراع مع نظام الحكم تحتم عليه العمل بقدر كبير من الخصوصية والسرية. مع الوقت، صارت آليات استقطاب الأعضاء ومعايير اكتساب العضوية مرتبطة في جزء منها بقدرة الفرد على العمل السري وعلى تحمل تبعات الصراع وقمع الدولة. مع أجواء الجمود السياسي في التسعينيات صار التنظيم أكثر انغلاقاً، وفي أجواء الانفتاح السياسي التي بدأت 2004 وحتى قيام ثورة يناير، لم تتغير طبيعة التنظيم بصورة جوهرية، وهو ما يعني أن الجماعة دخلت مرحلة الثورة وما تلاها بتنظيم شديد المركزية مؤهل قبل كل شيء للعمل ضد نظام الحكم وتحت ضغط أجهزته الأمنية القمعية. صحيح أنه طوال عهد مبارك لم يتعرض لحملات قمع تستهدف القضاء عليه، لكن تعرض أعضاء الجماعة بصورة متكررة ومنتظمة للاعتقال والتعذيب والمنع من العمل في الوظائف الحكومية.. إلخ كان يغذي لدى التنظيم حالة "المحنة"، ويعتبر تدريباً عملياً على تحمل تبعات الانضمام للجماعة. ليس معنى هذا أن الجميع كان بالضرورة ينتظر لحظة صدام واسعة مع الدولة كما حدث، لكن هذا الاستعداد المبدئي، وسنوات التربية على ثقافة الصبر والمواجهة، أعيد انتاجه وصقله ضمن سياق الثورة الذي ألهم الكثيرين وشجعهم على تحدي القمع والتضحية من أجل لحظة التغيير التي باتت قريبة.



محمد حسين

خاتمة

يستمد "الإسلام السياسي" معناه الحقيقي وجدواه من التساؤل العام الذي شغل قادة الإصلاح في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ كيف يمكن للمجتمعات الإسلامية أن تحيا وفق الإسلام في ظل الدولة الحديثة؟ وأين موقع الإسلام وشريعته في الحياة العامة؟ ومن المسؤول عن تحديد ذلك ومن المسؤول عن الدفاع عنه؟

لذلك لا يعتبر بقاء جماعة الإخوان، أو غيرها من الحركات الإسلامية لنحو قرن من الزمان محض عبقرية من حسن البنا أو نتيجة مؤامرة تعدها هو ومجموعة ضيقة من معاونيه. هذه التساؤلات ملك للمجتمع العربي والإسلامي، والإخوان وغيرهم سعوا للإجابة عنها نظرياً وعملياً. ومن ثم فإن ما يغذي الحركات الإسلامية أوسع من مسألة الصدام حول السلطة في دولة معينة. كما أنه أوسع من مستقبل حالة تنظيمية محددة، حتى لو كانت هي الحالة الأم كما في حالة الإخوان في مصر. لذلك، فرغم الملاحق الأمنية، رغم الانتقادات الداخلية الحادة، ما زال التيار الرئيسي من شباب الإخوان إما في حالة رهان على إمكانية استعادة المشروع وأحيائه، أو أنه بالفعل منحرف في الوضع الراهن للجماعة ومتقبل له. ربما يضع هذا شكوك حول إمكانية عودة الجماعة لقوتها السابقة قريباً وقدرتها على استقطاب شبابها الغاضب أو العازف مجدداً، لكن الشكوك أقل عموماً فيما يتعلق ببقاء الإسلاميين كطرف سياسي أساسي بغض النظر عن الأطر التنظيمية الذي تمثلهم، خاصة وأن الدولة العربية نفسها ما زالت بعد عقد من الربيع العربي تكافح لإقناع شرائح واسعة من شعوبها بأهليتها وقدرتها على تحقيق آمالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.



- التوترات داخل الجماعة نابعة من خلافات حول السياسة، ونمط الإدارة، وفي هذه القضايا ينحرف الشباب ليس بناء على اصطفا جيلي، بل على تحيزات ورؤى تجمعهم مع غيرهم من أجيال الجماعة الأكبر..

مستوى الاستنفار طوال السنوات السابقة، ليس محرکه فقط رغبة الأجهزة الأمنية في الانتقام من الانتقام من الإخوان، أو حتى تأتي كرد فعل على استئناف التنظيم لأنشطته. تقريباً توقف التنظيم تماماً داخل البلاد على القيام بأي شيء. لكن الاستنفار مبعثه أن الدولة ليست واثقة تماماً أنها تمكنت من القضاء على الجماعة حتى مع توقف أنشطتها. ليس بسبب عدم الاعتراف بنظام يوليو 2013، ولكن لأن الجماعة ببساطة ما زالت قائمة، وما زال تحتفظ بقيادتها بخطوط الاتصال مع القواعد، حتى لو لم تكن مفعلة كما السابق. يمتلك التنظيم قدرة عالية على التكيف مع الإجراءات الأمنية، ويستمد أعضائه من الأدبيات الإسلامية ومن حالة الثورة حافزاً للصبر في مواجهة الإجراءات الأمنية.

لذلك، وعلى الرغم من جدية الإجراءات الأمنية وقسوتها، فإن التهديد الأساسي الذي يهدد مستقبل الجماعة ربما هو التهديد القادم من داخلها وليس من خارجها.

يتمثل هذا التهديد الداخلي في قدرة الجماعة على الحفاظ على وحدتها في مواجهة تناقضاتها الداخلية، ليس فقط المتمثلة في التدافع بين أجيالها العمرية؛ ولكن بالأساس المتمثلة في قدرتها على إقناع أعضائها وجمهورها باستمرار الرهان على مشروعها، واستعادة الثقة مجدداً في أهليتها السياسية. وهي مهمة تتطلب تغيرات داخلية حقيقية وصعود قيادة داخل الجماعة تعوض غياب قيادتها في السجون، وتكون قادرة على توحيد القواعد وإقناعهم بأن لديها رؤية للخروج من الأزمة الراهنة، ولديها مشروع ممكن لمستقبل الجماعة. أو على الأقل، أنها قادرة على إدارة حوار داخلي واسع يفضي لتبني رؤية ومشروع.



يتميز عبد الرزاق جرنه بسرد للأحداث يخلو من أي مساومة لآثار الاستعمار ومصير اللاجئين العالقين بين الثقافات والقارات. ويكسر بوعي التقاليد، ويقطب المنظور الاستعماري لتسليط الضوء على منظور السكان الأصليين..

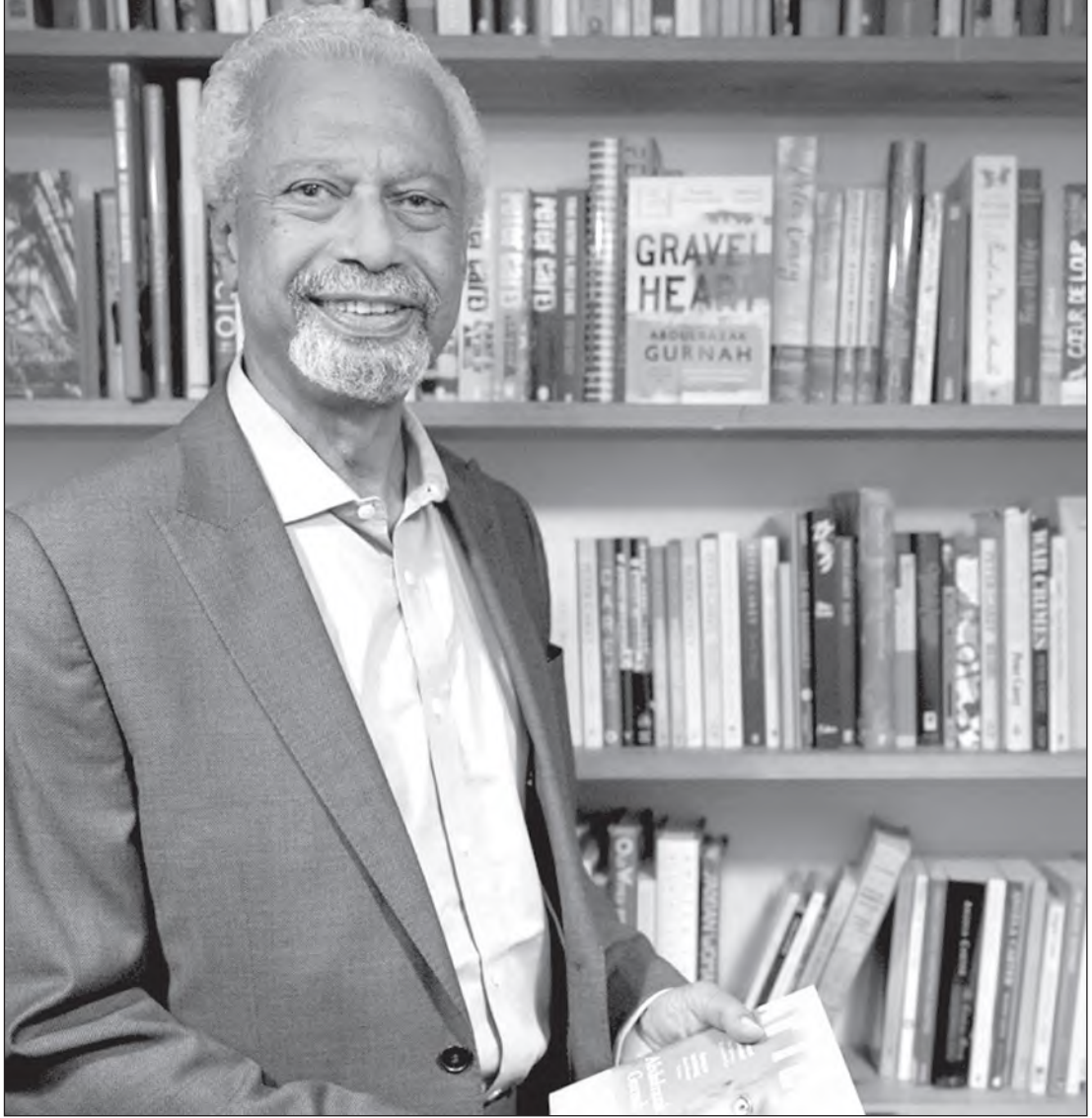
عبد الرزاق جرنه

فائز نوبل الغائب عن المكتبة العربية

إسلام نبيل منسي

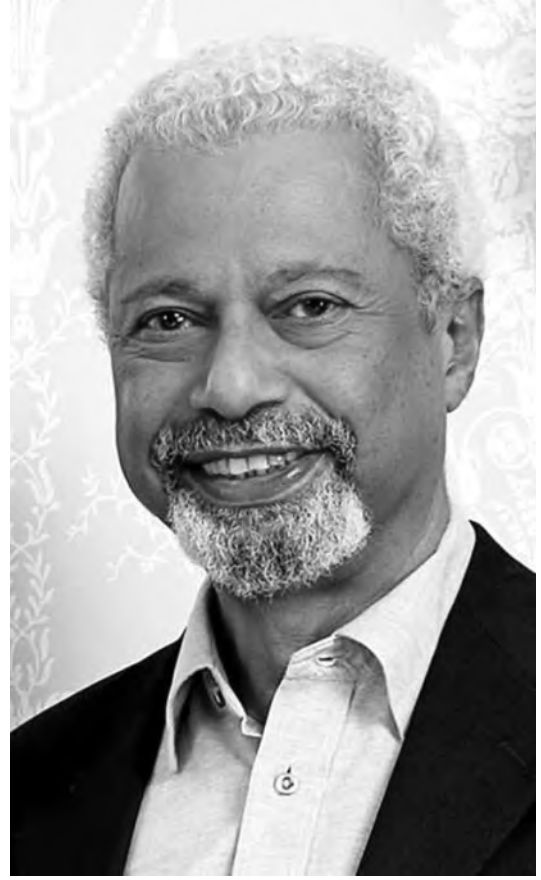
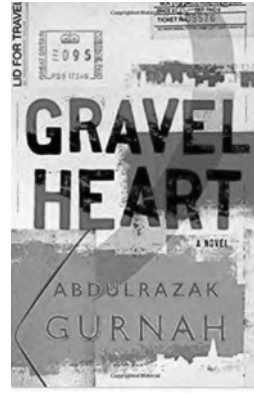
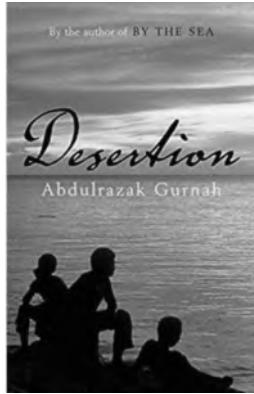
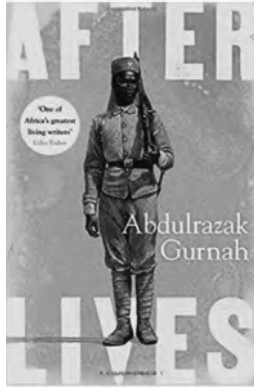
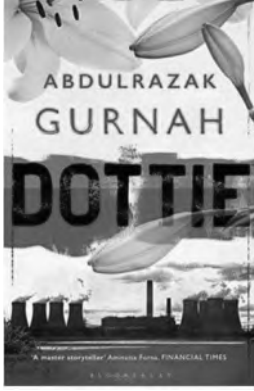
اسمه عبد الرزاق سالم جرنه، ولد عام 1948 في زنجبار، ثم هاجر عام 1968 عقب الثورة وما حدث بين الهند والعرب والأفارقة، إلى المملكة المتحدة بهدف الدراسة، ثم حصل على الدكتوراه عام 1982 من جامعة كنت حيث يعمل حتى الآن أستاذًا للغة الإنجليزية والأدب ما بعد الكولونيالي. له كتابان عن الكتابة الأفريقية، ونشر مقالات عن عدد من الكتاب، كما أنه محرر كتاب "دليل أدب سلمان رشدي" الصادر عن كمبردج عام 2007. صدر له عدة روايات أبرزها الفردوس عام 1994 والتي وصلت للقائمة القصيرة لجائزة البوكر وجائزة ويتبريد للخيال، كما

كعادتها تستأثر جائزة نوبل للأدب باهتمام القراء والمهتمين في الحقل الثقافي كل عام، بيد أنها هذا العام جعلت قراء العربية يتساءلون عن هذا الكاتب الذي حاز أرفع الجوائز الأدبية ولم نسمع عنه من قبل.. أطلقت علينا الأكاديمية السويدية بخبر فوز الكاتب التنزاني عبد الرزاق جرنه، الذي حار الكثيرون حول كيفية كتابة ونطق لقب عائلته، واكتشف الكثيرون كاتب جديد على مسامعهم، قديم وذائع الصيت في الصحافة الغربية وقوائم الترشيحات للجوائز الأدبية.



استرجاعهما للذكريات، نتعرف على ما يدفع الناس إلى الهجرة والشتات، وعلى مصير أمة مزقتها الفتن والصراعات. ورواية هجران التي ترسم صورة زنجبار أيام الاستعمار في منتصف القرن العشرين، وتتأرجح شخصيات الرواية بين المنفى البارد الذي يزيد من وحشة الهجران والخسارة والهلاك، وبين البلد الذي يئن تحت وطأة الاستعمار ورفض ما بعد الاستقلال. وتظهر أيضًا من خلال الحوارات التي أجريت معه، بجانب كتاباته، مواقفه تجاه قضية اللاجئين وتعامل أوروبا وخصوصًا المملكة المتحدة معها؛ إذ وصف موقف المملكة بالمقزز في سياستها تجاه

وصلت روايته جوار البحر 2001 إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر وجائزة لوس أنجلوس للكتاب، رواية ذاكرة الرحيل 1987، ورواية طريق الحج 1988، ودوتي عام 1990، ورواية الهجر 2005، ورواية الهبة الأخيرة 2011. تتناول أعماله الإرث الاستعماري وأثره على المجتمع، وتلقي الضوء على حالات الهجرة والشتات والهويات العابرة للثقافات. تتجلى هذه الصورة في روايته الفردوس التي تتناول تاريخ زنجبار إبان الحرب العالمية الأولى والغزو الألماني، ورواية جوار البحر التي تتناول الهجرة والشتات من خلال رجلين مهاجرين من زنجبار إلى بريطانيا ومن خلال



الجوائز الأدبية، والتي تجعل الاهتمام، بل وانتظر الرواية الفائزة على أحر من الجمر دون النظر بعين الاعتبار إلى القائمة الطويلة أو القصيرة، فكم من قوائم طويلة وقصيرة تضم أعمالاً أدبية ترقى لمستوى العمل الفائز بل وتتفوق عليه أحياناً. إلى جانب ذلك، الصورة النمطية في أذهان الكثيرين عن الدول المصدرة للكُتاب؛ تلك الصورة التي تجعل العديد من الأسماء الأفريقية لا تزال غير معروفة في العالم العربي. فلولا جائزة الأورانج ما عرفنا تشيماماندا نجوزي أديتشي وروايتها الرائعة نصف شمس صفراء، ولولا نوبل ما عرفنا نادين جورديمير، وولي سوينكا، وجون ماكسويل كويتزي، ولولا المان بوكر ما عرفنا تشينوا أشيبي، وبالمثل هذا ما حدث مع الكاتب عبد الرزاق جرنه، الذي يكتب من الثمانينيات ورشح لأرفع الجوائز العالمية دون أن يحصدها، وهو ما جعله بعيداً عن قراء العربية حتى حصل على جائزة نوبل وعمره ناهز 78 عاماً. ولعل ما

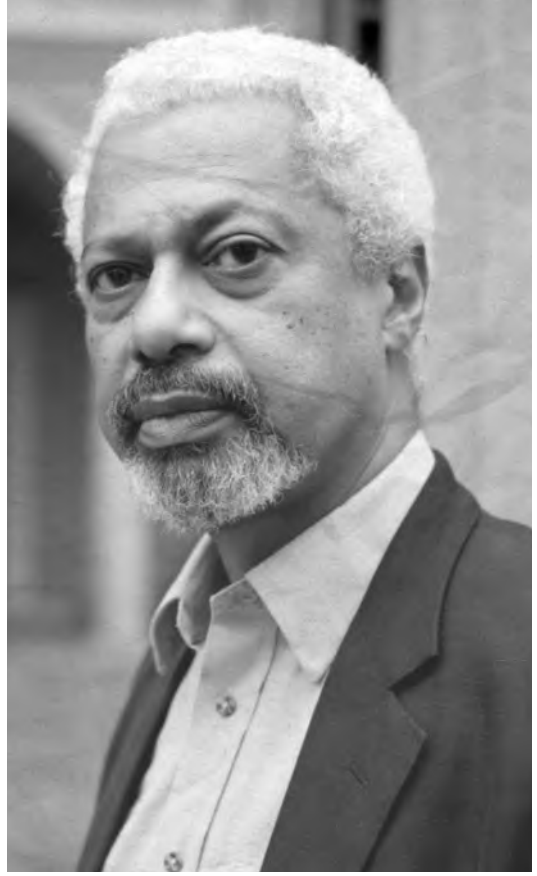
اللاجئين. ودعا القارة الأوروبية إلى اعتبار الوافدين من أفريقيا ثروة، مشدداً على أن هؤلاء لا يأتون فارغي الأيدي. أما السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا بدا فوزه أمراً مثيراً للدهشة؟ أعتقد أن هناك أسباباً عديدة وراء ذلك، أولها البحث من قبل العديد من دور النشر العربية على ترجمة الأعمال الأدبية التي تصدر قوائم الأعلى مبيعاً، مما يحرم القارئ من مطالعة أعمال وكتاب لم يحالفهم حظ الأعلى مبيعاً وهوس الترندات. لا أعني بذلك أن قوائم الأعلى مبيعاً لا تقدم أعمال ذات قيمة أدبية، وإنما يجب ألا تكون المعيار الأوحيد في اختيار الأعمال، والشواهد على ذلك كثيرة، فهناك العديد من الروايات سواء العربية أم الأجنبية لا تصدر المبيعات ولكنها مهمة وذات قيمة أدبية، بل إن بعض الروايات يُعاد اكتشافها بعد مدة طويلة، حين يتبين أنها كانت تحمل رؤية. علاوة على ذلك، هناك النظرة السطحية في التعامل مع

”

- في رواية "هجران" رسم جرنه صورة زنجبار أيام الاستعمار منتصف القرن العشرين، وتأرجح شخصيات الرواية بين المنفى البارد الذي يزيد من وحشة الهجران والخسارة والهلاك، وبين البلد الذي يئن تحت وطأة الاستعمار ورفض ما بعد الاستقلال..

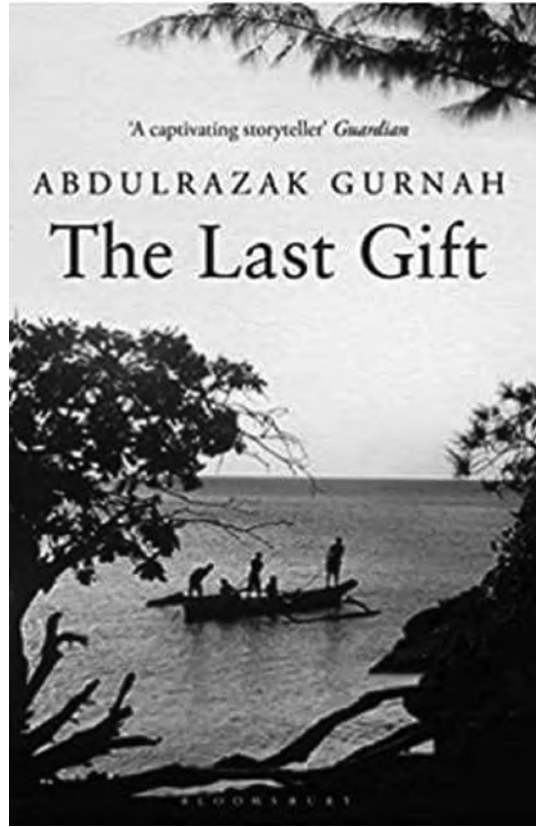
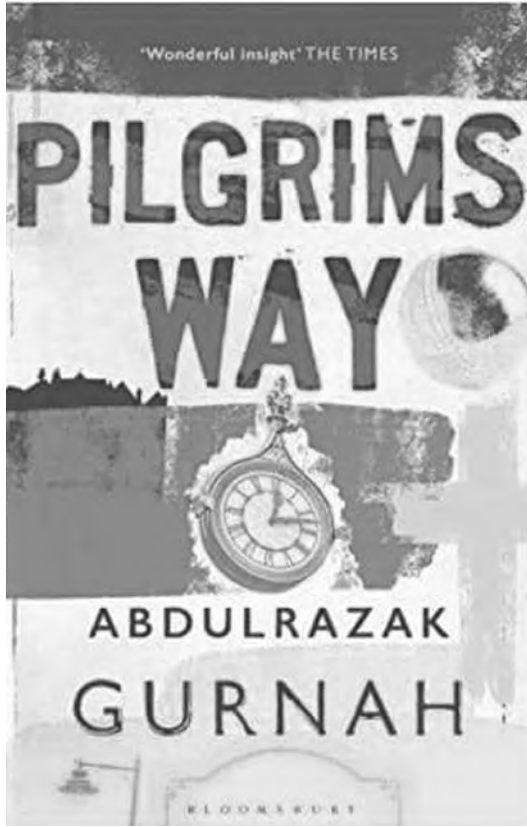
”

- هناك العديد من الروايات سواء العربية أم الأجنبية لا تصدر المبيعات ولكنها مهمة وذات قيمة أدبية، بل إن بعض الروايات يُعاد اكتشافها بعد مدة طويلة، حين يتبين أنها كانت تحمل رؤية. علاوة على ذلك، النظرة السطحية في التعامل مع الجوائز الأدبية..



يثير الدهشة أكثر، تلك الآراء والأقوال التي تبين أن الكاتب جذوره عربية ترجع إلى اليمن، إذ يُقال إن أسرته هاجرت من بلدة الديس الشرقية إلى جزيرة زنجبار القريبة من الساحل الشرقي لأفريقيا في أربعينيات القرن الماضي. ومن هنا، نحن في حاجة إلى أن تفتح دور النشر العربية والمؤسسات الثقافية التي تعمل على ترجمة الأدب، على الثقافة الأفريقية وما تحمله في ذاكرتها من التجارب الحياتية، والصراعات العرقية والدينية، ومخلفات العهد الاستعماري، وتحديات ما بعد الاستقلال. وكما هو معروف فالأدب مرآة المجتمع وذاكرة الشعوب، فهو خير دليل لمن يريد التعرف على تاريخ أمة أو ثقافتها، فكيف نتقرب ونسعى إلى أدب القارة العجوز والأدب الآسيوي، بل ونجاهد في التعرف على ثقافات من لا يشاركونا محيطنا الجغرافي وتاريخنا، وفي الوقت ذاته نجهل من هم على مقربة ذراع منا، بل ومروا بما مررنا به.

لا أقول إننا مخطئون بترجمة الأدب الآسيوي أو الأوروبي، ولكن ما ألاحظه أن هناك معايير متعلقة بسياسات النشر العربي، تحرم القارئ والمكتبة العربية من الاطلاع على الثقافات الأخرى وما تحمله من تنوع وثراء. وعلى الرغم من أن خبر الفوز كان غير متوقع من قبل القراء العرب، فإنه كان منتظرًا من قبل الصحافة الأجنبية، إذ دائمًا ما يتصدر عبد الرزاق جرنه والكاتب الصومالي نور الدين فرح الترشيحات من قبل الصحف والقراء لجائزة نوبل. وعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك العديد من الكتاب الشباب الأفارقة في الآونة الأخيرة تُطالعنا أسماءهم في أبرز الجوائز العالمية، إذ ترشح أميناتا فورنا لجائزة الأورانج ودبلن ونيوستاد وحازت جائزة الكومنولث، ولم تترجم أي من أعمالها. ورشحت الأنثيوبوية مازا مينجست لجائزة البوكر عن رواية ملك الظل، ولا يعلم عنها القارئ العربي شيئًا. أما من نشر لهم فقليلون أبرزهم الكاتب آلان مابانكو الذي حاز أرفع



للكثيرين في العالم. ففي عالم جرنه كل شيء يتغير، من الذكريات والأسماء للهويات، ثمة استكشاف لا نهاية له مدفوع بشغف فكري في جميع كتاباته. وتابع البيان: في معالجة عبد الرزاق لتجربة اللاجئين، تم التركيز على الهوية البصرية والذاتية، تجد الشخصيات نفسها في فجوة بين الثقافات والقارات، بين حياة ماضية وأخرى ناشئة، إنها حالة غير آمنة ولا يمكن حلها أبداً.

وأخيراً ربما يفتح هذا الفوز وما صاحبه من اندهاش واستنكار من قبل البعض، أعيننا أمام تقييم حركة الترجمة العربية، وألويات وسياسات النشر العربي، وألا نجرم أنفسنا من رؤية أدب قد يكون حديث العهد إذا ما قورن بالأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الروسي، لكنه صاعد واستطاع أبناؤه أن يلتمسوا فيه نافذة التي يقدمون خلالها تاريخهم، وثقافتهم، وتنوعهم.

الجوائز الفرنسية، والكاتبة ياجياسي والتي رُشحت لجائزة المرأة للخيال (الأورانج سابقاً)، إلى جانب الكاتبة نادفة محمد الصومالية التي وصلت للقائمة القصيرة للبوكر. الجوائز كثيرة، والترشيحات أكثر، والأدب الأفريقي في جعبته الكثير؛ إذ يلجأ الكثيرون للأدب لسرد أهوال ما شاهدوه أو حُكي لهم، أو كنوع من النوستالجيا التي تطرق أذهان وعواطف المهاجرين وضحايا الشتات. اليوم أعاد الكاتب الترناني، بهذا الفوز، القارة الأفريقية إلى جائزة نوبل بعد عقدين من الغياب، وقالت اللجنة في بيانها: يتميز عبد الرزاق بسرد للأحداث يخلو من أي مساومة لآثار الاستعمار ومصير اللاجئين العالقين بين الثقافات والقارات. وأضافت أنه يكسر بوعي التقاليد، ويقلب المنظور الاستعماري لتسليط الضوء على منظور السكان الأصليين. تفانيه في الحقيقة ونفوره من التبسيط مذهلان، تبتعد رواياته عن الأوصاف النمطية وتفتح أعيننا على شرق أفريقيا المتنوع ثقافياً غير المؤلف

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع

طرقاآ علمة باب الكون رحلة ففة الضوء والزمن

عادل عوض ●

نظرة أآرمة للأشفااء! أفغانسآان.. طالبان .. والاحتلال الأمرفكفة

نانسفة لففندفسفاران وكونانآان نفل ●

آرآمة: نهم مصطفف ●

رؤف



طرقات علمه باب الكون رحلة في الضوء والزمن

عادل عوض

مسبقًا والتي تسير بسرعة الضوء قاصدين الشمس لتكون نقطة البداية لرحلتنا خارج مجموعتها الأليفة. الآن نطلق بالسفينة وسرعان ما نقابل عطارد بعد 3.3 دقائق، الزهرة بعد 6 دقائق، الأرض بعد 8.3 دقائق، المريخ بعد 12.7 دقيقة. مجموعة الكواكب السابقة تسمى الكواكب الداخلية ويفصلها عن الكواكب الخارجية منطقة تسمى حزام الكويكبات. هذا الحزام يحتوي على عدد كبير من الكويكبات والنيازك المكونة من الصخور والمعادن والتي يتراوح قطرها ما بين ألف كيلومتر وبضع مليمترات. بعد 43 دقيقة نقابل المشترى، أول الكواكب الخارجية، ثم زحل بعد 1.3 ساعة، أورانوس 2.7 ساعة، ثم نبتون بعد 4.2 ساعة، وبذلك تنتهي مجموعة الكواكب الخارجية. بمرورنا بجانب نبتون ندخل منطقة حزام كايبر؛ وهي مثل حزام الكويكبات مكونة أيضًا من عدد كبير من الكويكبات والمذنبات، إلا أنها مكونة من خليط من الثلوج والأمونيا والميثان. منطقة حزام كايبر هي حدود مجموعتنا الشمسية وأحد كويكباتها هو

لطالما نظرنا إلى النجوم ونحن صغار متسائلين: ماذا سنرى لو ذهبنا إليها؟ مم تتكون تلك النجوم؟

للأسف لن نستطيع تحقيق حلم الذهاب إليها في المستقبل القريب. لكن سنذهب إليها بخيالنا مزودين بمعارفنا العلمية، إنها رحلة عقلية، رحلة تأخذنا خارج مجموعتنا الشمسية، بل خارج مجرتنا المسماة "درب التبانة"، كي نتعرف على ذلك الكون الذي نحيا فيه.

قبل أن نفعل ذلك، من المهم أن يكون بحوزتنا مقياس للطول مناسب للمسافات الشاسعة لتلك الرحلة، لقياس تلك المسافات يستخدم الفلكيون ما نسميه المسافات الضوئية، كالدقيقة الضوئية والسنة الضوئية. الدقيقة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة وهي 18 مليون كيلومتر. الضوء يقطع في الثانية الواحدة 300 ألف كيلومتر، هذه هي سرعته المقاسة تجريبيًا. لنقفز الآن في سفينتنا الفضائية [1] المعدة لنا

فاصطدام المجرتين سوف يكون كاصطدام سحابتين من الغاز، تمر كل سحابة خلال الأخرى دون أدنى ضرر. الفضاء بين النجوم في المجرتين شاسع جداً واحتمالية التصادم بين النجوم أو المجموعات غاية في الصغر. نحن نعرف أن اصطدام المجرات هو حدث شائع في الكون ولا يؤثر على الأنظمة الصغيرة مثل النجوم والكواكب، ولكنه يدمج المجرات في مجرة أكبر.

مع استمرار رحلتنا وتعاقب أجيالها من المستكشفين، نجد أن هناك تكويناً أكبر من المجموعة المحلية وهو ما نسميه "العنقود المجري" والذي يتكون من المئات إلى الآلاف من المجرات وهو أكبر تكوين معروف ويصل عرضه إلى خمس عشر مليون سنة ضوئية.

تبدو المجرات كنقاط غبار صغيرة على مسافة 200 مليون سنة ضوئية أو أكبر، ولكنها موزعة في الكون بشكل متجانس عجيب. هذا التجانس هو من أهم خصائص الكون والذي أتاح لنا بناء نموذج دقيق له من خلال النظرية النسبية العامة، مما جعل وصفه كنظام فيزيائي واحد ممكناً. لكن لنترك هذا الموضوع لمناقشة أخرى.

قد تسأل الآن بعد كل هذه المسافات الهائلة، هل الكون متناه في الكبر أم محدود؟ في الحقيقة لا نعرف إجابة هذا السؤال ومن المحتمل ألا نعرف أبداً. لكن دعني أقول إن هذا لا يهم! إن عمر هذا الكون 13.7 مليار سنة وبناءً على النظرية النسبية فإن الأجسام لا تستطيع أن تتفاعل مع بعضها بسرعة أسرع من سرعة الضوء. معنى ذلك أنه من غير الممكن لمرصد على الأرض أن يستقبل أي إشارة ضوئية أو غير ضوئية من جسم فلكي على مسافة أكبر من 13.7 مليار سنة ضوئية. أي أن حدود كوننا الفيزيائي تقف عند هذه المسافة. لذلك ما نستطيع إدراكه ككون هو كل ما بداخل كرة متخيله نصف قطرها 13.7 مليار سنة ضوئية ومركزها الأرض.

بلوتو [2]، الذي يقع على بعد أكثر قليلاً من خمس ساعات. تذكر أننا نسير بسرعة الضوء، أسرع المسافرين في الكون. نعتبر منطقة حزام كايبر بعد مرور ساعة أخرى.

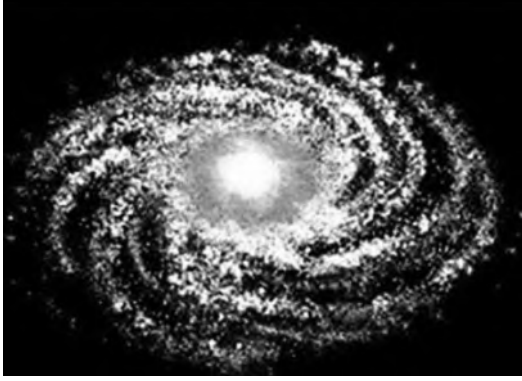
هدفنا التالي هو أقرب نجم لشمسنا، وهذا النجم يسمى "قنطور الأقرب" أو "Proxima Centauri" وهو نجم غير مرئي بالعين المجردة وعضو في مجموعة مكونة من 3 نجوم. بعد رحلة شاقة وطويلة نصل لهذه المجموعة النجمية بعد 4.3 سنوات، نقترّب من النجوم الثلاثة: "رجل القنطور" أو "رجل القنطور ب" وهما نجمان في شبابهما كالشمس، ويكونان نظاماً نجمياً ثنائياً بالإضافة إلى "رجل القنطور ج" أو قنطور الأقرب وهو نجم أحمر خافت الضوء ذو كتلة أقل من كتلة الشمس.

بعد أن نترك جيراننا الأقربين ونسير عدة سنين ضوئية أخرى نبدأ في إدراك حقيقة جديدة. أننا نعيش في تكوين أكبر بملايين المرات من المجموعة الشمسية يسمى "مجرة" ويحتوي على عدد هائل من النجوم يقدر بـ400 مليار نجم تقريباً. وتصنف مجرتنا "درب التبانة" ضمن المجرات الحلزونية [3]، وعرضها نحو 100 ألف سنة ضوئية. لكن ما المجرة؟ المجرة تكوين ضخم يحتوي على مئات المليارات من النجوم. المجرات بدأت تظهر في كوننا منذ أكثر من عشرة مليارات سنة. منها ما هو حديث ويافع ذو نجوم مشتعلة ساطعة ومنها ما هو قديم ذو نجوم باهتة وأقل، ومنها ما هو كبير جداً، ومنها ما هو قزم يتبع مجرة أكبر.

بعد مرور أكثر من 25 ألف سنة على رحلتنا (وظهور أجيال متعاقبة من مستكشفي الكون في سفينتنا ذات التكنولوجيا الفائقة)، وقبل أن نخرج من درب التبانة نلاحظ شيئاً غريباً، أن لمجرتنا عشرات التوابع من المجرات الصغيرة التي تدور في فلكها. لكن الأغرب هو وجود مجرة أخرى على بعد 3 ملايين سنة ضوئية، ولها تقريباً نفس حجم وعدد نجوم مجرتنا؛ إنها مجرتنا التوأمة "أندروميديا"، والتي تتبعها أيضاً عشرات المجرات الصغيرة. هاتان المجرتان بالإضافة إلى توابعهما الصغيرة يكونان ما نطلق عليه "المجموعة المحلية"، وهي مجموعة المجرات القريبة منا. لكن أحد أهم الحقائق المثيرة عن درب التبانة وأندروميديا أنهما في طريق الاصطدام ببعضهما بعضاً، وسوف يحدث ذلك في غضون خمسة مليار سنة. هل معنى هذا أننا مقبلون على كارثة كونية، هل النجوم وكواكبها سوف تتصادم في المجرتين مدمرة بعضها بعضاً؟ لا، هذا غير صحيح،



الدقيقة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة وهي ١٨ مليون كيلومتر. ويقطع الضوء في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كيلومتر، وهذه هي سرعته المقاسة تجريبياً!



ما نعرفه عن الكون اليوم هو نتيجة للتطور الكبير الذي شهده علم الفيزياء الفلكية، وهو أحد علوم الفيزياء، ويختص بتفسير سلوك وخصائص الأجسام والتكوينات الفلكية مستخدمًا ما نعرفه من علوم الفيزياء المختلفة

لندرس عن قرب الآلاف من النجوم ونتعرف على أطوار حياتها آملين في رسم صورة ذهنية لها. هذه النجوم منها ما قد نشأ حديثًا ومنها ما يعيش شبابه ومنها ما يمر بشيخوخته ومنها ما قد مات بالفعل. ما تعلمناه ورأيناه نوجزه: بداية النجم تكون من سحابة ضخمة من الغاز والغبار بحجم أكبر بكثير من المجموعة الشمسية. تدور هذه السحابة نتيجة لعدم تجانس توزيع مكوناتها من الغاز والغبار. مع الوقت تتكثف السحابة بفعل الجاذبية فيزداد الاحتكاك بين مكونات السحابة وترتفع درجة حرارتها أكثر فأكثر. يساعد الدوران السحابة على أن تأخذ شكل قرص تدريجيًا، يسمى "القرص التراكمي". تساعد الجاذبية القرص على الانكماش ببطء فيزداد الاحتكاك وتزداد الحرارة حتى يشتعل لب القرص مكونًا كرة ملتهبة من الغاز تستقر سريعًا مكونة البذرة الأساسية للنجم. تأخذ هذه العملية 100 ألف سنة تقريبًا لمعظم النجوم. يتجمع حول هذه الكرة المشتعلة المزيد من الغازات والغبار فيزداد الضغط على اللب وتزداد درجة حرارته حتى تبدأ عملية الاندماج النووي. في هذه العمليات يتحول الهيدروجين إلى هيليوم عن طريق الاندماج النووي منتجًا كمًّا عظيمًا من

ما نعرفه عن الكون اليوم هو نتيجة للتطور الكبير الذي شهده علم الفيزياء الفلكية في القرن الماضي، علم الفيزياء الفلكية هو أحد علوم الفيزياء ويختص بتفسير سلوك وخصائص الأجسام والتكوينات الفلكية مستخدمًا ما نعرفه من علوم الفيزياء المختلفة. كي نعطي مثالًا، نبدأ بالسؤال التالي، مم تتكون الشمس؟ هي كرة ضخمة من الهيدروجين والهيليوم، سطحها له درجة حرارة تساوي 5500 درجة مئوية تقريبًا. هنا استخدمنا علم الأطياف الذرية، فتعرفنا على طيف الهيدروجين [4] والهيليوم القادم في ضوء الشمس، بل عرفنا نسبة الغازين في الشمس من شدة طيفهما مقارنة بأطياف العناصر الأخرى. كذلك استخدمنا علم الديناميكا الحرارية لكي نعرف درجة حرارة الشمس تجريبيًا من الطريقة التي تتغير بها شدة الضوء مع طول الموجة. سؤال آخر، من أين تأتي الشمس بهذه الطاقة التي تجعلها تشع هذا الكم الهائل من الحرارة والضوء؟ تأتي الإجابة، إن طاقة الشمس هي نتاج الاندماج النووي الذي تتحد فيه ذرات الهيدروجين، عند حرارة تقدر بملايين الدرجات المئوية، فتنتج ذرات هيليوم بالإضافة إلى حرارة. في العقدين الأخيرين تطورت الفيزياء الفلكية وفيزياء الكون تطورًا سريعًا لدرجة جعلتهما في مقدمة العلوم الفيزيائية التي تسبر أغوار المادة والكون. كان ذلك التطور نتيجة التقدم التكنولوجي الكبير الذي حدث في أجهزة الرصد الفلكية. نمتلك الآن أجهزة رصد أرضية دقيقة، بالإضافة إلى معامل رصد فلكية خارج الغلاف الجوي ذات دقة تفوق نظيرتها الأرضية. قد تتعجب من مرورنا سريعًا على النجوم دون أن نتحدث عنها. دون النجوم يكون الكون مجرد سحابة ضخمة من الغاز والغبار ليس به حرارة، أو ضوء، أو كواكب، أو أقمار، كون ميت حقًا. نعم، قد حان وقت الحديث عن النجوم ولنبدأ بالسؤال، ما النجوم؟ النجوم شمس بعيدة جدًا لذلك نراها كنقاط صغيرة مضيئة في السماء. بعض النجوم لها مجموعات من الكواكب التي تدور حولها كشمسنا والبعض الآخر ليس له أي كواكب. أحيانًا يوجد نجمان أو أكثر معًا في المركز ويدور حولها الكواكب وأقمارها. واكتشف علماء الفيزياء الفلكية منذ أكثر من 50 عامًا أن للنجم دورة حياة! لكن ماذا نقصد بدورة حياة؟ إن النجوم مثل شمسنا لا تستطيع أن تبسط أشعتها ودهتها علينا وعلى الكواكب الأخرى للأبد، بل يأتي وقت تأفل فيه وتموت. النجوم لها مراحل عمر مختلفة سوف نتعرف عليها فيما يلي.

الآن نأخذ سفينتنا ونذهب لرحلة في مجرتنا

التكوينات الصغيرة ببعضها وعلى مدى ملايين السنين تتكون منها كتل أكبر فأكبر حتى تصير كويكبات صغيرة ساخنة كقلب الأرض. تتصادم الكويكبات هي الأخرى ببعضها لتصبح كواكب أكبر فتتكون مع الوقت الكواكب الداخلية للمجموعة، مثل عطارد، والزهرة، والأرض والمريخ. تكون كمية المركبات الثقيلة، مثل السليكا والمعادن، في القرص التراكمي غير كافية لتكوين كل الكواكب. تبرد الغازات والسوائل في المنطقة البعيدة عن النجم في القرص لتكون كواكب من الغازات والثلج مثل المشتري وزحل وأورانوس ونبتون بنفس الطريقة السابقة. كواكب الثلج والغاز لها كتل أكبر عشرات المرات من كتل الكواكب الداخلية لأن مادة هذه الكواكب موجودة بوفرة في القرص التراكمي منذ البداية.

تعلمنا أن حياة كرات الغاز المشتعلة التي نسميها النجوم، مثل شمسنا، تكون مستقرة وتمتد عدة مليارات من السنين. هذا العمر الطويل هو نتيجة وفرة الوقود الهيدروجيني وتوازن القوتين الأساسيتين في النجم: الضغط الناتج عن الحرارة والذي يحاول أن يزيد من حجم النجم (كما نزيد حجم البالون بدفع الهواء فيه) والجاذبية التي تحاول أن تجذب أجزاء النجم للداخل فتقلل حجمه. تساوى هاتين القوتين هو الذي يجعل النجوم مستقرة وذات أعمار طويلة. لكن ما الذي يمكن أن يغير هذا الوضع المستقر. يتغير هذا الوضع عندما ينفد الوقود النووي للنجم بعد عشرات المليارات من السنين.

تعتمد حياة النجم بشكل كبير على كتلته، بدقة أكثر، هناك مجموعتان من النجوم، مجموعة 1-، هي نجوم تكون كتلتها 0.1-10 كتلة الشمس وتنتمي شمسنا لهذه المجموعة. مجموعة 2-، هي نجوم أكبر من سابقتها ولها كتلة أكبر عشر مرات من شمسنا. ويتطور النجم في المجموعة 1- كالتالي: عند قرب نفاد الهيدروجين ينكمش النجم على نفسه لفترة ترتفع فيها درجة حرارته مرة أخرى فيندمج الهيليوم ليكون عناصر أثقل، وينتج عن ذلك طاقة كبيرة فتزداد حرارة النجم ويتمدد حجمه كثيراً عن ذي قبل. يسمى النجم حينها العملاق الأحمر ويتبع معظم الكواكب الداخلية لمجموعته. بعد ذلك بفترة وجيزة يكون هذا العملاق الأحمر كرة غاز غير مستقرة تطرد أجزاءها خارجياً ويتعري لب هذا النجم ويسمى قزماً أبيض. وهذا النجم ذو لب مستقر لكن الاندماج النووي ليس مصدر طاقته، لذلك يعيش فترة زمنية قصيرة حتى يأفل تماماً فيكون قزماً أسود. هذه هي نهاية نجم متوسط الكتلة مثل



المجرات بدأت تظهر فيه كوننا منذ أكثر من عشرة مليارات سنة، منها ما هو حديث ويافع ذو نجوم مشتعلة ساطعة ومنها ما هو قديم ذو نجوم باهتة وآفلة

الطاقة التي تزود النجم بالحرارة والضوء. طاقة الاندماج النووي في النجم لا تتفد قبل مرور مليارات السنين لأن وقودها هو الهيدروجين أكثر العناصر وفرة في كرة الغاز.

وجدنا أيضاً أن كتلة النجم فارقة في تحديد طوره المستقبلي، فإذا كانت كتلة النجم بين 80-13 كتلة المشتري يكون النجم قزماً بنياً، وهي نجوم تأفل سريعاً نتيجة لنفاد وقودها النووي في مدة قدرها مئات الملايين من السنين. أما إذا كانت كتلة النجم أكبر من ذلك، مثل شمسنا، فمن المنتظر أن تعيش عشرات المليارات من السنين قبل أن ينفد وقودها النووي.

قبل أن نتحدث عن حياة النجوم وأطوارها، دعنا نتحدث عن كيفية تكوين الكواكب حول نجم كشمسنا. تتكون الكواكب في القرص بعد تكون النجم وخلال فترة زمنية قصيرة مقدارها 10 ملايين سنة. تلك الفترة ما هي إلا الزمن المتبقي من حياة القرص بعد تكون النجم، بعدها يتبعثر القرص في الفضاء للأبد. في البداية تكون حرارة هذا القرص كبيرة ثم تقل نسبياً مكونه بعض المركبات الصلبة مثل السليكا، أحد مكونات الرمال. مع الحرارة والاصطدام الدائم لهذه



هناك تكوين أكبر من مجموعتنا المحلية، نسميه "العنقود المجري" ويتكون من المئات إله الآلاف من المجرات وهو أكبر تكوين معروف ويصل عرضه إله خمس عشر مليون سنة ضوئية..



شمسنا. بالنسبة الى نجوم المجموعة 2-، يتطور نجمها الى عملاق أحمر فائق عند نفاذ الوقود الهيدروجيني ويكون هذا العملاق حجمه أكبر 1000 مرة من العملاق الأحمر. يكون العملاق الأحمر الفائق غير مستقر أيضاً، وبالرغم من مروره بمراحل تمدد وانكماش عديدة فإنه ينفجر في النهاية انفجاراً عظيماً. وهذا الانفجار ضخيم إلى الحد الذي يجعل الضوء الناتج عنه يفوق ضوء مجرة كاملة بها آلاف الملايين من النجوم الساطعة. يسمى هذا الحدث بـ "السوبر نوبا" وهو من أهم الأحداث الكونية التي نتعلم منها الكثير ليس فقط عن فيزياء النجوم، بل أيضاً عن تطور الكون نفسه كنظام فيزيائي. لكن هل هذه هي النهاية؟ لا ليس بعد، فبعد انفجار النجم يتبقى ليه فيكون إما نجماً نيوترونياً إذا كانت كتلته صغيرة، أو ثقباً أسود إذا كانت كتلته كبيرة. هذا النجم النيوتروني له كثافة خيالية ومجال مغناطيسي قوي جداً، فحجم ليمونة من مادة هذا النجم لها كتلة تساوي ثلاث مليارات طن!

أما الثقوب السوداء فهي ببساطة أغرب التكوينات الفلكية على الإطلاق وهي تتكون عندما يصير للنجم كتلة كبيرة تكفي لأن تكون الغلبة لقوى الجاذبية في المعركة النجمية. في هذه الحالة تكون الجاذبية أقوى من أي قوة أخرى، ينهار النجم تحت تأثيرها فيُندك إلى نقطة صغيرة في الفضاء، حولها منطقة غريبة نسميها أفق الحدث. هذه المنطقة يمكن تصورها كسطح كرة متخيله مركزها مركز النجم ولها نصف قطر يزداد بازدياد كتلته. إذا لم تعبر هذا السطح إلى الداخل فأنت آمن، أي إنك تستطيع الهروب من قبضة الجاذبية الشيطانية. لكن إذا عبرت السطح للداخل فليس هناك قوى في هذا الكون بمقدورها أن تشدك للخارج أبداً. سوف تسحق إلى نقطة مع المادة النجمية. حتى الضوء، أسرع الجسيمات، لا يستطيع أن يهرب من قبضة الجاذبية داخل أفق الحدث. معني ذلك أنه إذا وضعنا أي مصدر ضوئي داخل أفق الحدث فسوف يظهر النجم مظلماً تماماً، لأن الضوء إذا حاول الخروج سوف ينثني على نفسه ويعود للداخل ثانية!

والحلزونية، وأنواع أخرى وشكل المجرة مرتبط بعمرها ومراحل تطورها.

[4] كل عنصر له طيف مميز كيصمة أصابع الإنسان، نحصل عليه عندما يمر ضوء أبيض على غاز مصنوع من هذا العنصر ثم يمرر على منشور زجاجي فنرى خطوط سوداء على مسافات مختلفة تكون مميزة للعنصر. فالهيدروجين له مجموعة خطوط مسافات مختلفة عن خطوط أي عنصر آخر.

[1] حتى الآن لا يوجد سفينة فضائية تسير بهذه السرعة، ولكن من الممكن بناء هذه السفينة مستقبلاً.

[2] صار بلوتو كويكباً، أي كوكباً قزمًا منذ أغسطس 2006، بعد قرار مسبب من الاتحاد الفلكي الدولي.

[3] تنقسم المجرات إلى أنواع عديدة منها الكروية



نظرة أخرى للأشياء!

أفغانستان.. طالبان.. والاحتلال الأمريكي

● نانسي لينديسفارن وجوناثان نيل (*)

● ترجمة: نهى مصطفى

وهو ما سيؤدي إلى إضعاف قوة الإمبراطورية الأمريكية في جميع أنحاء العالم. سادساً: لقد تم استغلال خطاب إنقاذ النساء الأفغانيات على نطاق واسع لتبرير الاحتلال، وقد انحازت العديد من النسويات في أفغانستان إلى جانب الاحتلال. وكانت النتيجة مأساوية للنسوية.

تتصدى هذه المقالة لهذه النقاط، ولأنها مقالة قصيرة، فإننا هنا نؤكد أكثر مما ثبتت. لكننا كتبنا كثيراً عن الجنس والسياسة والحرب في أفغانستان منذ أن قمنا بعمل ميداني هناك كعلماء أنثروبولوجيا منذ خمسين عاماً تقريباً. ونقدم روابط كثيرة لهذا العمل في نهاية هذه المقالة، حتى يتمكن القارئ من استكشاف حججنا بمزيد من التفصيل. [1]

هناك الكثير من الهراء يُكتب في بريطانيا والولايات المتحدة حول أفغانستان، ولكن تخفي معظم هذه الترهات عدداً من الحقائق المهمة: أولها أن طالبان هزمت الولايات المتحدة. وثانياً: أن حركة طالبان انتصرت لأن لديها دعماً شعبياً أكبر. وثالثاً: أن هذا الانتصار ليس لأن معظم الأفغان يحبون طالبان، ولكن لأن الاحتلال الأمريكي كان قاسياً وفاسداً بشكل لا يطاق. ورابعاً: أن الحرب على الإرهاب هزمت أيضاً في الولايات المتحدة. وأغلبية الأمريكيين حالياً يؤيدون الانسحاب من أفغانستان ويعارضون المزيد من الحروب الخارجية. وخامساً: هذه نقطة تحول في تاريخ العالم، فقد خسرت أعظم قوة عسكرية في العالم معركتها على يد شعب بلد صغير شديد الفقر.

انتصار عسكري

يعتبر هذا انتصار عسكري وسياسي لحركة طالبان، لأن طالبان انتصرت في الحرب؛ فعلى مدى عامين على الأقل، كانت القوات الحكومية الأفغانية - الجيش الوطني والشرطة- تفقد عددًا من القتلى والجرحى شهرياً أكثر مما تنجح في تجنيدهم، لذا فهذه القوى كانت آخذة في الانكماش. فعلى مدى السنوات العشر الماضية، سيطرت حركة طالبان على المزيد من القرى والبلدات، وفي الاثني عشر يوماً الأخيرة سيطروا على جميع المدن. ولم يكن مجرد تقدم سريع عبر المدن ثم إلى العاصمة كابول، فقد كان الأشخاص الذين استولوا على كل مدينة موجودين في الجوار منذ فترة طويلة، يقبعون في القرى، ينتظرون هذه اللحظة. وبشكل دؤوب، في جميع أنحاء الشمال، كانت طالبان تجند الطاجيك والأوزبك وغيرهم. وهذا أيضاً انتصار سياسي لطالبان. فلا يمكن لأي حرب عصابات على وجه الأرض أن تحقق مثل هذه الانتصارات دون دعم شعبي. لكن ربما

كلمة "دعم" ليست الكلمة الصحيحة. لقد كان على الأفغان أن يختاروا جانباً من الجانبين. واختار غالبية الشعب الأفغاني الوقوف إلى جانب طالبان ضد المحتل الأمريكي. ليس كل الشعب، فقط الكثير منهم. كما اختار عدد أكبر من الأفغان الوقوف إلى جانب طالبان أكثر من اختيارهم لحكومة الرئيس "أشرف غني". مرة أخرى، ليس

كلهم، لكن أكثر ممن دعموا "غني". وقد اختار عدد أكبر من الأفغان الوقوف إلى جانب طالبان عن الوقوف مع أمراء الحرب القدامى. والدليل المذهل على ذلك هزيمة دستم في شبرغان وإسماعيل خان في هرات. وفي عام 2001، كانت أغلبية ساحقة من حركة طالبان من البشتون، ويتسمون بسياسات تفضيلية للبشتون. وفي عام 2021، استولى مقاتلو طالبان الذين ينتمون للعديد من الأعراق على السلطة في المناطق التي يسيطر عليها الأوزبك والطاجيك. لكن الاستثناء المهم هو المناطق التي يهيمن عليها الهزارة في الجبال

الوسطى، وسنعود إليه لاحقاً.

بالطبع، لم يختر كل الأفغان الوقوف إلى جانب طالبان. وهي بالتأكيد حرب ضد غزاة أجنبي، ولكنها أيضاً حرب أهلية؛ إذ حارب الكثيرون إلى جانب الأمريكيين أو الحكومة أو أمراء الحرب. وقدم الكثيرون تنازلات لكلا الجانبين للبقاء على قيد الحياة. وآخرون لم يكونوا متأكدين ما الجانب الذي يجب أن ينحازوا إليه وينتظرون بمزيج من الخوف والأمل رؤية ما سيحدث في المستقبل. ولأن هذه تعتبر هزيمة عسكرية للقوة الأمريكية، فإن مطالبات بايدن لفعل هذا أو ذلك بلا جدوى. فلو أن القوات الأمريكية بقيت في أفغانستان، لكان عليها الاستسلام أو الموت، وسيكون هذا إذلالاً لها أسوأ بكثير من الكارثة الحالية، لذلك لم يكن أمام بايدن، مثل ترامب من قبله، أي خيارات.

لماذا اختار الكثير من الأفغان طالبان

حقيقة أن المزيد من الشعب اختاروا حركة طالبان لا تعني بالضرورة أن معظم الأفغان يدعمون طالبان. بل يعني أنه في ضوء الخيارات المحدودة المتاحة، كان هذا هو خيارهم.. لماذا؟ الإجابة المختصرة أن طالبان هي المنظمة السياسية المهمة الوحيدة التي تقاوم الاحتلال الأمريكي، والذي أصبح معظم الأفغان يكرهونه. ولم يكن هذا هو الوضع دائماً؛ فعندما أرسلت الولايات المتحدة لأول مرة طائرات قاذفة وعدد

قليل من القوات إلى أفغانستان بعد شهر واحد من أحداث 11 سبتمبر، كانت قوات تحالف الشمال -تحالف من أمراء الحرب في شمال البلاد من غير البشتون- تدعم الولايات المتحدة. لكن جنود وقادة التحالف لم يكونوا في الواقع مستعدين للقتال إلى جانب الأمريكيين. فبالنظر إلى التاريخ الطويل للمقاومة الأفغانية للغزو الأجنبي، وآخرها للاحتلال الروسي من 1980 إلى 1987، لو أن ذلك قد حدث -القتال إلى جانب الأمريكيين- لصار وضعاً مخجلاً للغاية.

من ناحية أخرى، لم يكن أحد تقريباً مستعداً



**لا أحد يعرف ماذا سيحدث فيه
أفغانستان فيه السنوات القليلة
المقبلة، لكن يمكننا تحديد بعض
الضغوط، الأول والأكثر تفاقماً هو التوق
العميق للسلام فيه قلوب الأفغان،
لقد عاشوا حته الآن ثلاثاً وأربعين عاماً
من الحرب**



نفس جدار الغضب. ولم يكن السبب ببساطة أن طالبان لم تكن تقاتل، لكن لأن الناس العاديون، حتى في معقل طالبان في الجنوب، كان لديهم أمل في أن يجلب الاحتلال الأمريكي السلام إلى أفغانستان، وينمي الاقتصاد لينهي الفقر المدقع. كان السلام ضرورة حتمية؛ فبحلول عام 2001، كان الأفغان عالقون في فخ الحرب لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، في البداية حرب أهلية بين الشيوعيين والإسلاميين، ثم حرب بين الإسلاميين والغزاة السوفييت، ثم حرب بين أمراء الحرب الإسلاميين، ثم حرب في شمال البلاد بين أمراء الحرب الإسلاميين وطالبان. ثلاثة وعشرون عاماً من الحرب كانت تعني الموت والتشويه والنفي ومخيمات اللاجئين والفقر وأنواع كثيرة من الحزن والخوف والقلق اللامتأهني. ربما يكون أفضل كتاب يصف الوضع هو من تأليف أليكس كلايتس، الحب والحرب في أفغانستان (2005). كان الناس في أمس الحاجة إلى السلام. وبحلول عام 2001، شعر أنصار طالبان أن السلام السيئ أفضل من الحرب الطويلة. كما كانت الولايات المتحدة غنية بشكل خرافي، واعتقد الأفغان أن

للقاتل دفاعاً عن حكومة طالبان التي كانت في السلطة آنذاك. وواجهت قوات التحالف الشمالي وطالبان بعضها بعضاً في حرب زائفة. ثم بدأت الولايات المتحدة والبريطانيون وحلفاؤهم الأجانب في القصف. وتفاوض الجيش الباكستاني والمخابرات الباكستانية على إنهاء المأزق. لتتولى الولايات المتحدة السلطة في كابول وتنصب رئيس من اختيارهم. في المقابل، يسمح لقادة طالبان ورتبها بالعودة إلى ديارهم وقراهم أو إلى المنفى عبر الحدود في باكستان. ولم تنتشر هذه التسوية على نطاق واسع في الولايات المتحدة وأوروبا في ذلك الوقت لأسباب واضحة، لكننا كتبنا عنها، وكان هذا الوضع مفهوماً على نطاق واسع في أفغانستان. وأكبر دليل على هذه التسوية التفاوضية هو ما حدث بعد ذلك. لمدة عامين لم تكن هناك مقاومة للاحتلال الأمريكي في أي قرية. وبقي الآلاف من مقاتلي طالبان السابقين في تلك القرى. وهذه حقيقة تتناقض مع ما حدث في العراق، حيث كانت المقاومة منتشرة منذ اليوم الأول للاحتلال في عام 2003. أو ما حدث مع الغزو الروسي لأفغانستان عام 1979، الذي واجه

تصاعد انعدام المساواة والفساد

كان الأفغان يأملون في تنمية اقتصادية تنهض بالأغنياء والفقراء على حد سواء. بدأ الأمر واضحاً، ويسهل القيام به. لكنهم لم يفهموا السياسة الخارجية الأمريكية. ولم يفهموا التفاني الشديد لـ 1٪ في الولايات المتحدة لتفاهم عدم المساواة في بلادهم. صحيح أن الأموال الأمريكية تدفقت على أفغانستان. لكنها ذهبت للتابعين للحكومة الجديدة برئاسة حامد كرزاي، وذهبت إلى الأشخاص الذين يعملون مع الأمريكيين وقوات الاحتلال من الدول الأخرى. وإلى أمراء الحرب وأعوانهم الذين انغمسوا في تجارة الأفيون والهيروين الدولية، التي سهلتها وكالة المخابرات المركزية والجيش الباكستاني. ذهبت الأموال إلى الأشخاص المحظوظين بما يكفي لامتلاك منازل فاخرة محمية جيداً في كابول يمكنهم تأجيرها للموظفين الأجانب. وذهبت إلى الرجال والنساء الذين عملوا في المنظمات غير الحكومية الممولة من الخارج، وبالطبع تداخلت دوائر هؤلاء الناس.

لطالما اعتاد الأفغان على الفساد، وتوقعوه وكرهوه، لكن هذه المرة كان الفساد غير مسبوق. وفي نظر الفقراء ومتوسطي الدخل، بدت كل الثروات الفاحشة الجديدة، بغض النظر عن كيفية تحقيقها، وكأنها نتيجة فساد. وقد أدارت حركة طالبان نظاماً قضائياً نزيهاً في المناطق الريفية التي سيطرت عليها، كانت سمعتهم ذائعة

لدرجة أن العديد من الأشخاص المتورطين في دعاوى مدنية في المدن كانوا يتفقون على أن كلا الطرفين سيلجأ إلى قضاة طالبان في الريف، وهو ما سيتيح لهم عدالة سريعة ورخيصة وعادلة دون رشاوى كبرى، ولأن الأحكام كانت عادلة، يمكن للطرفين التعايش معها. وبالنسبة لسكان المناطق التي تسيطر عليها طالبان، كانت العدالة حماية لهم من عدم المساواة. عندما يستطيع الأغنياء

الاحتلال يمكن أن يؤدي إلى تنمية اقتصادية من شأنها أن تنقذهم من الفقر. لكن على عكس ما توقعه الأفغان، قدمت الولايات المتحدة الحرب لا السلام. واحتل الجيش الأمريكي والبريطاني قواعد في جميع أنحاء القرى والبلدات الصغيرة في معقل طالبان، وخاصة مناطق البشتون في الجنوب والشرق. لم يتم إبلاغ هذه القوات قط عن التسويات غير الرسمية التي تم التفاوض عليها بين الأمريكيين وطالبان. لا يمكن إخبارهم بذلك، لأن هذا سيلحق العار بإدارة الرئيس بوش. لذلك اعتبرت الوحدات الأمريكية أن مهمتها هي استئصال باقي "الأشهرار"، الذين من الواضح أنهم ما زالوا هناك. وانتهت المدهامات الليلية على أبواب الأفغان، مما أدى إلى إذلال وترهيب العائلات، وأخذوا الرجال بعيداً لتعذيبهم للحصول على معلومات عن "الأشهرار" الآخرين. في هذا المكان، وفي مواقع سوداء أخرى في جميع أنحاء العالم، طور الجيش والمخابرات الأمريكية أساليب جديدة للتعذيب، يمكن للعالم أن يرى

لمحة منها باختصار في سجن أبو غريب الأمريكي في العراق. وبعض هؤلاء الرجال المعتقلين كانوا من حركة طالبان وإن لم يقاتلوا بها. كان بعضهم مجرد أشخاص تعرضوا للوشاية للقوات الأمريكية من قبل أعداء محليين طمعوا في أرضهم أو كان بينهم ضعيفة.

وتستعرض مذكرات الجندي الأمريكي "جونى ريكو" Blood Makes the Grass Grow Green (الدم يجعل العشب ينمو أخضر) وصفاً مفيداً

لما حدث بعد ذلك: أطلق الأقارب والقرويون الغاضبون بضع طلقات نارية على الأمريكيين في الظلام. ونتيجة لذلك هجم الجيش الأمريكي على المزيد من البيوت وعذبوا المزيد من الرجال. وأطلق القرويون المزيد من الرصاص، فاستدعى الأمريكيون غارات جوية قتلت قنابلها الكثير من الأسر، واندلعت الحرب من جديد في جنوب وشرق البلاد.

كان الأفغان يأملون فيه تنمية تنهض

بالأغنياء والفقراء، ولم يفهموا

لماذا تفاهمت عدم المساواة فيه

بلادهم. تدفقت الأموال الأمريكية

عليه أفغانستان، لكنها ذهبت

إلى الأشخاص الذين يعملون

مع الأمريكيين، وإلى أمراء الحرب

وأعوانهم الذين شاركوا فيه تجارة

الأفيون والهيروين ..





رشوة القضاة، يمكنهم فعل أي شيء يريدونه بالفقراء. كانت الأرض هي الهدف. يمكن للرجال الأثرياء والأقوياء وأمراء الحرب والمسؤولين الحكوميين الاستيلاء أو السرقة أو الغش للسيطرة على أراضي صغار المزارعين، وقمع المزارعين الأفقر، لكن قضاة طالبان، كما فهم الجميع، كانوا على استعداد للحكم لصالح الفقراء. لقد اندمجت كراهية الفساد وعدم المساواة والاحتلال معًا.

بعد 20 عامًا..

منذ 20 عامًا سقطت حركة طالبان في أيدي الأمريكيين بعد 11 سبتمبر 2001. حدثت تغييرات هائلة في الحركة السياسية الجماهيرية على مدى عشرين عامًا من الحرب والأزمات. لقد تعلمت طالبان وتغيرت.. كيف لا يحدث ذلك؟ علق العديد من الأفغان والعديد من الخبراء الأجانب على هذا. وقد استخدم الباحث جوستوتزي عبارة neo-Taliban "طالبان الجديدة" لوصف الحركة الحالية. [2] وهذا التغيير كان له عدة جوانب. لقد أدركت طالبان أن تفضيل البشتون على غيرهم كانت نقطة ضعف كبيرة لديهم.

والآن هم يؤكدون أنهم مسلمون، إخوة لجميع المسلمين الآخرين، وأنهم يريدون ويحصلون على دعم المسلمين من العديد من الجماعات العرقية. لكن كان هناك انقسام مرير في قوات طالبان على مدى السنوات القليلة الماضية. تحالفت أقلية من مقاتلي وأنصار طالبان مع تنظيم الدولة الإسلامية (داعش). الفرق هو أن الدولة الإسلامية تشن هجمات إرهابية على الشيعة والسيخ والمسيحيين. وتفعل حركة طالبان في باكستان الشيء نفسه، وكذلك شبكة حقاني الصغيرة التي ترعاها المخابرات الباكستانية. لكن غالبية حركة طالبان كانت تدين هذه الهجمات. وسنعود إلى هذا التقسيم لاحقًا، لما له من انعكاسات على ما سيحدث بعد ذلك. كما أكدت حركة طالبان الجديدة على اهتمامها بحقوق المرأة. يقولون إنهم يرحبون بالموسيقى ومقاطع الفيديو، وقد عدلوا أعنف الجوانب وأكثرها تشددًا في حكمهم السابق. ويؤكدون الآن مرارًا وتكرارًا إنهم يريدون أن يحكموا بسلام، دون ضغائن مع أبناء النظام القديم. ومن الصعب قول كم من هذا الكلام يعتبر للدعاية وما مقدار الحقيقة. علاوة على

عام 1979 لدعم الحكومة الشيوعية. تبع ذلك سبع سنوات من الحرب الوحشية بين السوفيت والمجاهدين. في عام 1987 غادرت القوات السوفيتية بعد هزيمتها. عندما كنا نعيش في أفغانستان، في أوائل السبعينيات، كان الشيوعيون من بين أفضل الناس. كانوا مدفوعين بثلاثة مشاعر قوية: الرغبة في تطوير البلاد، أرادوا كسر سلطة كبار ملاك الأراضي وتقاسم الأرض. وأرادوا المساواة للمرأة. وفي عام 1978 استولى الشيوعيون على السلطة في انقلاب عسكري بقيادة ضباط تقدميين. لكن لم يحظوا بالدعم السياسي لغالبية القرويين، في بلد أغلبه أرياف. وكانت النتيجة أن الطريقة الوحيدة التي أمكنهم من خلالها التعامل مع المقاومة الإسلامية الريفية كانت بالاعتقال والتعذيب والتفجير. وكلما ارتكب الجيش الشيوعي مثل هذه الأعمال الوحشية، زادت الثورة ضددهم. ثم غزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان لدعم الشيوعيين، وكان سلاحهم الرئيسي هو القصف الجوي، وأصبحت أجزاء كبيرة من البلاد مناطق إطلاق نار، وقتل ما بين مليون ونصف مليون أفغاني، وشوّه ما لا يقل عن مليون شخص آخر مدى الحياة. وطرد ما بين ستة وثمانية ملايين إلى المنفى في إيران وباكستان، وأصبح ملايين آخرون لاجئين داخليين. كل هذا في بلد لا يتجاوز عدد سكانه 25 مليون نسمة. فعندما وصلوا إلى السلطة، كان أول ما حاول الشيوعيون فعله هو قوانين الإصلاح الزراعي والتشريع لحقوق المرأة. عندما غزا الروس البلاد، انحاز أغلب الشيوعيين إلى جانبهم. كان العديد من هؤلاء الشيوعيين من النساء، وكانت النتيجة تشويه اسم النسوية لدعمها للتعذيب والمجازر. تخيل لو أن الولايات المتحدة تعرضت للغزو من قبل قوة أجنبية قتلت ما بين اثني عشر مليوناً وأربعة وعشرين مليون أمريكي، وعذبت الناس في كل مدينة، ودفعت 100 مليون أمريكي إلى المنفى. تخيل أيضاً أن جميع النسويات تقريباً في الولايات المتحدة

ذلك، فإن ما سيحدث بعد ذلك يعتمد بشدة على ما سيحدث للاقتصاد، وعلى تصرفات القوى الأجنبية. وسنتناول المزيد عن هذا لاحقاً. ووجهة نظرنا هنا أن الأفغان لديهم أسباب للانحياز لطالبان ضد الأمريكيين وأمراء الحرب وحكومة أشرف غني.

ماذا عن إنقاذ المرأة الأفغانية؟

سيسأل الكثير من القراء الآن، بالحاح، لكن ماذا عن النساء الأفغانيات؟ الإجابة ليست بسيطة. علينا هنا أن نعود إلى السبعينيات، حين تشابكت أنظمة عدم المساواة بين الجنسين مع نظام عدم المساواة الطبقي في جميع أنحاء العالم. لم تكن أفغانستان مختلفة.

في أوائل السبعينيات، أجرت نانسي عملاً ميدانياً أنثروبولوجياً مع نساء ورجال من البشتون في شمال البلاد، حينها كانوا يعيشون على الزراعة ورعي الحيوانات. يشرح كتاب نانسي، مقايضة العرائس: السياسة والزواج في مجتمع قبلي،

الروابط بين الطبقة والجنس والانقسامات العرقية في ذلك الوقت. وإذا كنت تريد معرفة رأي هؤلاء النساء أنفسهن

في حياتهن ومشكلاتهن وأفراحهن، فقد نشرت نانسي وشريكها السابق ريتشارد تابرم مؤخراً أصوات القرية الأفغانية، وهي ترجمة للعديد من الأشطرطة التي سجلها لهم الرجال والنساء هناك. كان ذلك الواقع معقداً ومريراً وقمعياً

ومليئاً بالحب. وهو بهذا المعنى، لم يكن مختلفاً عن تعقيدات التمييز الجنسي والطبقي في الولايات المتحدة. لكن مأساة نصف القرن التالي ستغير الكثير من ذلك. أنتجت تلك المعاناة الطويلة التحيز الجنسي لدى طالبان، وهو ليس نتاجاً تلقائياً للتقاليد الأفغانية. إذ يبدأ تاريخ هذا المنعطف الجديد في عام 1978، حين بدأت الحرب الأهلية بين الحكومة الشيوعية والمجاهدين الإسلاميين. كان الإسلاميون ينتصرون، لذلك وقع غزو الاتحاد السوفيتي وأختر

قدمت طالبان شيئين، الأول أنهم ليسوا فسدة، والثاني أنهم القوة السياسية الوحيدة في البلاد. وفي الحقيقة أدارت طالبان نظاماً سياسياً نزيهاً في المناطق الريفية التي حكمتها، وكانت سمعتهم طيبة حتى إن الأشخاص المتورطين في دعاوى مدنية

قندهار، مدينة معظمها من البشتون وهي المدينة الأكبر في جنوب أفغانستان. لم تكن حركة طالبان مثل أي حركة من قبلها في التاريخ الأفغاني. كانت نتاج عاملين مهمين في القرن العشرين، القصف الجوي ومخيمات اللاجئين في باكستان. كانوا ينتمون إلى طبقة اجتماعية مختلفة عن النخب التي حكمت أفغانستان. وكان الشيوعيون من أبناء وبنات الطبقات الوسطى الحضرية والمزارعين متوسطي المستوى في الريف، ويملكون ما يكفي من الأرض، ويقودهم أشخاص التحقوا بالجامعة الوحيدة في البلاد في كابول. لقد أرادوا كسر سلطة كبار ملاك الأراضي وتحديث البلاد. وعلى الجانب الآخر، كان الإسلاميون الذين حاربوا الشيوعيين رجالاً من خلفيات طبقية مماثلة، ومعظمهم طلاب سابقون في نفس الجامعة. وهم أيضاً أرادوا تحديث البلد، لكن بطريقة مختلفة. وتطلعوا إلى أفكار الإخوان المسلمين وجامعة الأزهر بالقاهرة. تعني كلمة طالبان الطلاب في مدرسة إسلامية، ليست مدرسة حكومية أو جامعة. كان مقاتلو طالبان الذين دخلوا قندهار في عام 1994 من الشباب الذين درسوا في المدارس الإسلامية المجانية في مخيمات اللاجئين في باكستان. كانوا أطفالاً لم يملكوا أي شيء. وكان قادة طالبان ملالي القرى الأفغانية.

لم يكن لديهم صلات النخبة التي حظي بها أئمة مساجد المدينة. كان ملالي القرية قادرين على القراءة، ولديهم مكانة محترمة بين القرويين. لكن وضعهم الاجتماعي كان أقل بكثير من وضع الملاك أو خريجي مدرسة ثانوية يعملون في وظيفة حكومية. وقادت حركة طالبان لجنة مكونة من اثني عشر رجلاً. وقد فقد كل منهم يداً أو قدماً أو عيناً بسبب القنابل السوفيتية في الحرب. كانت طالبان، من بين أمور أخرى، حزب الرجال القرويين البشتون الفقراء ومتوسطي الحال [3].

لقد تركت عشرات عاملاً من الحرب مدينة قندهار دون قانون وتحت رحمة الميليشيات المتحاربة. جاءت نقطة التحول عندما طاردت طالبان قائداً محلياً اغتصب صبياً وامرأتين (ربما ثلاثة). قبضت عليه طالبان وشنقته، ما جعل تدخلهم لافتاً للنظر لم يكن فقط تصميمهم على وضع حد للاقتتال الداخلي واستعادة كرامة الناس وسلامتهم، ولكن اشمئزازهم من نفاق الإسلاميين الآخرين.

منذ البداية كان تمويل حركة طالبان يأتي من



دعم الغزاة. بعد هذه التجربة، كيف سيشعر معظم الأمريكيين تجاه غزو ثان لقوة أجنبية أخرى، أو تجاه النسوية؟ وكيف سيكون شعور معظم النساء الأفغانيات حيال غزو آخر، هذه المرة من قبل الأمريكيين، والذي تبرره الحاجة إلى إنقاذ الأفغانيات؟ تذكر أن هذه الإحصائيات حول الموتى والمشوهين واللاجئين تحت الاحتلال السوفييتي لم تكن مجرد أرقام. كانوا نساء أحياء ولديهن أبناء وبنات وأزواج وأخوة وأخوات وأمهات وآباء، لذلك عندما هزم وغادر جيش الاتحاد السوفيتي، تنفس معظم الناس الصعداء. لكن بعد ذلك أصبح القادة المحليون للمجاهدين المقاومين للشيوعيين والغزاة أمراء حرب محليين، وقاتلوا بعضهم البعض من أجل غنائم النصر. غالبية الأفغان دعموا المجاهدين، لكن مع الوقت أصبحوا يشعرون بالاشمئزاز من الجشع والفساد والحرب التي لا نهاية لها.

خلفية طالبان الطبقية واللاجئين

في خريف عام 1994، وصلت حركة طالبان إلى

اسأل نفسك، كما فعلت صبا محمود في ذلك الوقت: لماذا كانت ظروف الحرب، (الهجرة، العسكرية) والجوع (تحت حكم المجاهدين) تعتبر أقل ضرراً على المرأة من نقص التعليم والتوظيف، وخاصة، في حملة إعلامية، بنمط الملابس الغربية (تحت حكم طالبان)؟ [5]

ثم اسأل مرة أخرى بشكل أكثر شراسة: كيف يمكنك "إنقاذ النساء الأفغانيات" بقصف السكان المدنيين الذين شملوا، إلى جانب النساء أنفسهن، أطفالهن وأزواجهن وأبائهن وإخوانهن؟ كان ينبغي أن يكون هذا هو السؤال الذي ينهي الجدل، لكنه لم يكن كذلك. وجاء التعبير الأكثر فظاعة عن الإسلاموفوبيا النسوية في الحرب بعد أكثر من شهر بقليل في الحرب. فحرب انتقامية غير متكافئة إلى حد كبير لا تبدو جيدة في نظر العالم، لذا من الأفضل أن تفعل شيئاً يبدو فاضلاً. قبل عطلة عيد الشكر الأمريكية، في 17 نوفمبر 2001، أعربت "لورا بوش"، زوجة الرئيس، عن أسفها على محنة النساء الأفغانيات المحجبات. كررت

شيري بليز، زوجة رئيس الوزراء البريطاني، نفس المشاعر بعدها بأيام قليلة. كانت زوجات هؤلاء الأثرياء من دعاة الحرب يستخدمون كل ثقل النموذج الاستشراقي لإلقاء اللوم على الضحايا وتبرير الحرب. وتبرير الحرب ضد بعض أفقر الناس على وجه الأرض. وأصبحت عبارة "إنقاذ النساء الأفغانيات" صرخة مستمرة للعديد من النسويات الليبراليات لتبرير الحرب الأمريكية.

[6] ومع انتخاب أوباما في عام 2008، أصبحت جوقة الإسلاموفوبيا مهيمنة بين الليبراليين الأمريكيين. في ذلك العام حل التحالف الأمريكي المناهض للحرب نفسه بشكل فعال لمساعدة حملة أوباما. الديموقراطيون والنسويات الذين دعموا وزيرة خارجية أوباما صقر الحرب، هيلاري كلينتون، لم يقبلوا حقيقة أن أفغانستان والعراق كانتا حربيين من أجل النفط. [7] وكان لديهم

السعوديين والأمريكيين والجيش الباكستاني، فقد أرادت واشنطن دولة مسالمة يمكنها إيواء خطوط أنابيب النفط والغاز من آسيا الوسطى. برزت حركة طالبان لأنها لم تتقبل أي استثناء للأوامر التي سعوا إلى فرضها، والصرامة التي طبقوا بها القواعد. وكان العديد من الأفغان ممتنين لعودة النظام والقليل من الأمن، لكن طالبان كانت حركة طائفية وغير قادرة على السيطرة على البلاد. وفي عام 1996، سحب الأمريكيون دعمهم لها. عندما فعلوا ذلك، أطلقوا العنان لنسخة جديدة وقاتلة من الإسلاموفوبيا ضد طالبان. بين عشية وضحاها تقريباً، اعتبرت النساء الأفغانيات عاجزات ومضطهدات، في حين تم تعريف الرجال الأفغان -المعروفين أيضاً باسم طالبان- باعتبارهم متوحشين متعصبين ومغتصبين للأطفال ضمن مجتمع أبوي سادي، بالكاد يمكن القول إنهم ناس على الإطلاق. لمدة أربع سنوات قبل 11 سبتمبر، استهدف الأمريكيون حركة طالبان، بينما تطالب النسويات وغيرهن بحماية النساء الأفغانيات. مع

بداية القصف الأمريكي، كان من المفترض أن الجميع قد فهموا أن النساء الأفغانيات بحاجة إلى المساعدة. ما الخطأ الذي يمكن أن يحدث؟



هناك قدر كبير من الالتباس حول الصور النمطية لطالبان التي تشكلت على مدى السنوات الخمس والعشرين

الماضية، لكن فكر جيداً عندما تسمع الصور النمطية بأنها إقطاعية ووحشية وبدائية، هؤلاء الأشخاص لديهم أجهزة كمبيوتر محمولة، ويتفاوضون مع الأمريكيين في قطر منذ عامًا..

11 سبتمبر والحرب الأمريكية

بدأ القصف في أفغانستان في 7 أكتوبر، وفي غضون أيام، تم إجبار طالبان على الاختباء -أو تم إخصاؤهم حرفياً- كما أظهرت صورة على

الصفحة الأولى لصحيفة ديلي ميل. كانت الصور المنشورة للحرب مروعة حقاً في العنف والسادية التي صوروها. أصيب كثير من الناس في أوروبا بالفزع من حجم القصف والإهمال المطلق لحياة الأفغان. [4] ومع ذلك، في ذلك الخريف في الولايات المتحدة، كان هناك مزيج من الرغبة في الانتقام والوطنية، مما يعني أن الأصوات المعارضة كانت نادرة وغير مسموعة في الغالب.



الأفغانيات إلى جانب الغزاة الجدد في محاولة لكسب حقوق للمرأة. حلمهن أيضًا انتهى بالتعاون والخزي والدم. كان بعضهن بالطبع، يتشدقن بالتقاهات مقابل التمويل. لكن كثيرات أخريات كن مدفوعات بحلم صادق ونكران للذات. وقد كان فشلهن مأساوي.

القوالب النمطية والاضطرابات

خارج أفغانستان، هناك قدر كبير من الالتباس حول الصور النمطية لطالبان التي صنعت على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية. لكن فكروا جيدًا عندما تسمعون عن الصور النمطية التي تصفهم بأنهم إقطاعيون ووحشيون وبدائيون، فهؤلاء الأشخاص في الحقيقة لديهم أجهزة كمبيوتر محمولة، ويتفاوضون مع الأمريكيين في قطر منذ أربعة عشر عامًا. حركة طالبان إذن ليست نتاج العصور الوسطى. بل هي نتاج بعض أسوأ الأوقات في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. وإذا بدوا رجعيين في بعض النواحي في الوقت الحالي، فهذا ليس مفاجئًا. فقد تشكلت الحركة من خلال الحياة تحت القصف الجوي، ومخيمات اللاجئين، والشيعوية، وحرب ضد الإرهاب، والاستجابات بالتعذيب، وتغير المناخ، وسياسات الإنترنت، وعدم المساواة المتصاعدة للنيوليبرالية. لكنهم يعيشون مثل أي شخص آخر الآن. ويمكن أن

مبرر واحد فقط لحروب النفط اللانهائية: معاناة النساء الأفغانيات. كانت الحركة النسوية حيلة ذكية. فقد حالت دون إجراء مقارنات بين الحكم المتحيز ضد المرأة، الذي لا شك فيه لطالبان، والتحيز الجنسي في الولايات المتحدة نفسها. والأمر الصادم أكثر هو أن الحركة النسوية دجنت وأزاحت فعليًا الحقائق البشعة عن حرب غير متكافئة بشكل صارخ. وفصلت بين "النساء المراد إنقاذهن" وبين عشرات الآلاف من النساء الأفغانيات، والرجال والأطفال الذين قتلوا أو أصيبوا أو يتموا أو أصبحوا بلا مأوى وجائعين بسبب القنابل الأمريكية.

العديد من أصدقائنا وأفراد عائلتنا في أمريكا من النسويات مقتنعات بالفعل بالكثير من هذه الدعاية. طلب منهن دعم شبكة من الأكاذيب، وتحريف للنسوية. كانت نسوية الغزاة والنخبة الحاكمة الفاسدة. لقد كانت نسوية الجلادين والطائرات دون طيار. فهل نعتقد أن حركة نسوية أخرى ممكنة؟ يظل صحيحًا أن طالبان متحيزة بشدة ضد المرأة. لقد حقق التحيز الجنسي انتصارًا في أفغانستان. لكن لا يجب أن يبقى الأمر على هذا النحو. كان الشيوعيون الذين وقفوا مع قسوة الغزاة السوفيت قد أفقدوا الحركة النسائية مصداقيتها في أفغانستان لجيل كامل على الأقل. ولكن بعد ذلك قامت الولايات المتحدة بالغزو، وانحاز جيل جديد من المهنيات

حكومات تشكلها النخب الحضرية. ولا ينبغي لأي من هذا أن يصرف الانتباه عن حقيقة أن طالبان تتوي أن تكون ديكتاتورية وليست ديموقراطية.

تغيير تاريخي في أمريكا

يمثل سقوط كابول هزيمة ساحقة للقوة الأمريكية حول العالم. ويمثل أيضًا، أو يوضح، تحولًا عميقًا بعيدًا عن فكرة الإمبراطورية الأمريكية بين الأمريكيين. وأحد الأدلة هي استطلاعات الرأي. في عام 2001، بعد 11 سبتمبر مباشرة، وافق ما بين 85% و90% من الأمريكيين على غزو أفغانستان. وكانت الأرقام تنخفض بشكل مطرد. في الشهر الماضي، وافق 62% من الأمريكيين على خطة "بايدن" للانسحاب الكامل، وعارضها 29%. وهذا الرفض للحرب شائع لدى اليمين واليسار. تعارض قاعدة الطبقة العاملة في الحزب الجمهوري وترامب الحروب الخارجية، حيث ينتمي العديد من الجنود والعائلات العسكرية للمناطق الريفية والجنوب حيث يتمتع ترامب بالشعبية، إنهم ضد المزيد من الحروب، لأنهم ومن أحبهم هم الذين حاربوا وماتوا وجرحوا.

وطنية الجناح اليميني في أمريكا حاليًا موالية للجيش، هذا يعني تأييد للجنود وليس تأييدًا للحرب. عندما يقولون "لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى"، فإنهم يقصدون أن أمريكا ليست رائعة الآن للأميركيين، وليس تشجيعًا لأن

تتخطى الولايات المتحدة أكثر في شؤون العالم. وبين الديموقراطيين أيضًا، تقف الطبقة العاملة ضد الحروب. هناك أناس يؤيدون المزيد من التدخل العسكري. إنهم ديمقراطيون "أوباما"، والجمهوريون التابعين لرومني، والجنرالات، والعديد من المحترفين الليبراليين والمحافظين، وتقريبًا كل فرد من نخبة واشنطن. لكن الشعب الأمريكي ككل، وخاصة الطبقة العاملة، السود والبيض، انقلبوا على الإمبراطورية الأمريكية. إذ بعد سقوط سايجون، لم تكن الحكومة الأمريكية قادرة على إطلاق تدخلات عسكرية كبيرة خلال

تكون جذورهم في المجتمع القبلي مريكة أيضًا. لكن كما قال "ريتشارد تابر"، فإن القبائل ليست مؤسسات مؤيدة. إنها الطريقة التي ينظم بها الفلاحون في هذا الجزء من العالم ارتباطهم بالدولة. وتاريخ أفغانستان ليس مجرد مسألة مجموعات عرقية متنافسة، بل تحالفات معقدة عبر مجموعات وانقسامات داخل مجموعات. [8] هناك مجموعة من الأحكام المسبقة في اليسار والتي تجعل بعض الناس تميل إلى التساؤل: كيف يمكن لطالبان أن تقف إلى جانب الفقراء وتعادي الإمبريالية إذا لم تكن "تقدمية".. اترك جانبًا للحظة كلمة "تقدمية" التي لا تعني شيئًا. بالطبع طالبان حركة معادية للاشتراكية والشيوعية. هم أنفسهم، أو أبائهم أو أجدادهم، تعرضوا للقتل والتعذيب على أيدي الاشتراكيين والشيوعيين. علاوة على ذلك، فإن أي حركة خاضت حرب عصابات لمدة عشرين عامًا وهزمت إمبراطورية عظيمة هي معادية للإمبريالية. والواقع أن حركة طالبان هي حركة فلاحين فقراء، ضد احتلال

إمبريالي، كارهة للنساء بشدة، تدعمها العديد من النساء، وأحيانًا تكون عنصرية وطائفية، وأحيانًا لا. هذه مجموعة من المتناقضات التي أنتجها التاريخ. ومصدر آخر لارتباك هو السياسات الطبقة لطالبان. كيف يمكن أن يكونوا إلى جانب الفقراء، كما هو واضح، ومع ذلك يعارضون الاشتراكية بشدة؟ والجواب هو



**لقد رأينا عددًا كافيًا من ثورات الفلاحين
تصل إلى السلطة في القرن الماضي
وأكثر، فقط لتصبح حكومات من قبل
النخب الحضرية، ولا ينبغي لأي من هذا
أن يصرف الانتباه عن حقيقة أن طالبان
تتوي أن تكون ديكتاتورية وليست
ديمقراطية..**

أن تجربة الاحتلال الروسي جردتهم من إمكانية تقبل الصياغات الاشتراكية عن الطبقة. لكنها لم تغير من واقع الطبقة. لم تقم حركة استولت على السلطة على الإطلاق ببناء جماهيرية بين فقراء الفلاحين دون أن يُنظر إليها على أنها تقف إلى جانب الفقراء. لن نتحدث حركة طالبان بلغة الطبقة بل بلغة العدل والفساد. هذه الكلمات تصف نفس الجانب. ولا يعني هذا أن طالبان ستحكم بالضرورة لصالح الفقراء. لقد رأينا عددًا كافيًا من ثورات الفلاحين التي تصل بهم إلى السلطة في القرن الماضي وأكثر، فقط لتصبح



الخمسة عشر عاماً التالية، وقد يمر وقت أطول بعد سقوط كابول.

العواقب الدولية

منذ عام 1918، أي طوال 103 سنة، كانت الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم. كانت هناك قوى منافسة، ألمانيا واليابان في البداية، ثم الاتحاد السوفيتي والآن الصين. لكن الولايات المتحدة كانت المهيمنة. لكن هذا "القرن الأمريكي" يقترب الآن من نهايته. والسبب الأكبر هو الصعود الاقتصادي للصين والانحدار الاقتصادي النسبي للولايات المتحدة. لكن جائحة كوفيد-19- والهزيمة في أفغانستان يجعلان العاميين الماضيين نقطة تحول. كشفت جائحة كورونا عن انعدام الكفاءة المؤسسية للطبقة الحاكمة وإدارة الولايات المتحدة. فشل النظام في حماية الناس. وكان هذا الفشل الفوضوي المخزي واضحاً للناس في جميع أنحاء العالم. ثم هناك أفغانستان. إذا كنت تحكم من خلال حجم الإنفاق والمعدات، فإن الولايات المتحدة هي القوة العسكرية المهيمنة على مستوى العالم. لكن هذه القوة هزمتها فقراء يرتدون الصنادل في بلد صغير لا يملك سوى القدرة على التحمل والشجاعة. كما أن انتصار حركة طالبان سيعطي دفعة للإسلاميين من مختلف الأجناس في سوريا واليمن والصومال وباكستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان

ومالي. لكنه سيصبح انتصاراً على نطاق أوسع. سيقبل كل من الفشل في مواجهة الجائحة والهزيمة في أفغانستان من القوة الناعمة للولايات المتحدة. لكن أفغانستان تعتبر أيضاً هزيمة للقوة الصلبة. اعتمدت قوة الإمبراطورية غير الرسمية للولايات المتحدة لمدة قرن على ثلاث ركائز مختلفة: الأول هو أن تكون أكبر اقتصاد في العالم، والسيطرة على النظام المالي العالمي. والثاني هو سمعة ذائعة في كثير من الأساطير الديمقراطية والكفاءة والقيادة الثقافية. والركيزة الثالثة هي أنه إذا فشلت القوة الناعمة، فسوف تقوم الولايات المتحدة بالغزو لدعم الديكتاتوريات ومعاينة أعدائها.. لقد ولت تلك القوة العسكرية، ولن تصدق أي حكومة بعد الآن أن الولايات المتحدة يمكن أن تنقذها من غزاة أجنبي، أو من شعبها، وستستمر عمليات القتل بطائرات دون طيار وتتسبب في معاناة كبيرة. لكن لن يكون للطائرات دون طيار بمفردها دوراً عسكرياً حاسماً في أي مكان. وهذه بداية نهاية القرن الأمريكي.

ماذا يحدث الآن؟

لا أحد يعرف ماذا سيحدث في أفغانستان في السنوات القليلة المقبلة. لكن يمكننا تحديد بعض الضغوط: الأول والأكثر تفاؤلاً هو الرغبة العميقة في السلام في قلوب الأفغان. لقد عاشوا حتى الآن ثلاثاً وأربعين عاماً من الحرب. تخيل كيف

لتجويد الأطفال الأفغان باسم حقوق الإنسان. ثم هناك خطر التدخل الدولي من قبل قوى مختلفة تدعم قوى سياسية أو عرقية مختلفة داخل أفغانستان. سيكون الوضع مغرباً للولايات المتحدة والهند وباكستان والمملكة العربية السعودية، وإيران والصين وروسيا وأوزبكستان. حدث ذلك من قبل، وفي حالة الانهيار الاقتصادي يمكن أن يؤدي إلى نشوب حروب بالوكالة. لكن في الوقت الحالي، من الواضح أن حكومات إيران وروسيا وباكستان تريد السلام في أفغانستان. كما وعدت طالبان بعدم استخدام العنف في الحكم، وهو ما يصعب القيام به. ماذا تعتقد سيفعل الجنود المساكين من القرى في مواجهة العائلات التي جمعت ثروات كبيرة من الفساد والجريمة؟ ثم هناك حالة المناخ. في عام 1971، دمر الجفاف والمجاعة في الشمال والوسط قطعان ومحاصيل وأرواح. كانت هذه أولى العلامات على تأثير تغير المناخ على المنطقة، والتي تسببت في مزيد من حالات الجفاف على مدى الخمسين عاماً الماضية، وعلى المدى المتوسط والطويل، ستصبح الزراعة والرعي أكثر تهديداً. [9]

كل هذه المخاطر حقيقية. لكن الخبر الأمني أنطونيو جوستوتزي، المطلع على التفكير السائد بين كل من طالبان والحكومات الأجنبية، كتب مقالة في صحيفة الجارديان في 16 أغسطس مفعمة بالأمل، وختمها قائلاً: نظراً لأن معظم الدول المجاورة تريد الاستقرار في أفغانستان، فمن غير المرجح في الوقت الحالي أن تستغل الجهات الخارجية أي انشقاقات في الحكومة الائتلافية الجديدة لإحداث انقسامات. وبالمثل، سيكافح الخاسرون في 2021 للعثور على أي شخص مستعد أو قادر على دعمهم لبدء نوع من المقاومة. طالما أن الحكومة الائتلافية الجديدة تضم حلفاء رئيسيين من جيرانها، فهذه بداية لمرحلة جديدة في تاريخ أفغانستان. [10]

تترك خمس أو عشر سنوات فقط من الحرب الأهلية والغزو ندوباً كثيرة في العديد من البلدان، ثم تخيل تأثير ثلاثة وأربعين عاماً من الحرب. لقد سقطت كل من كابول وقندهار ومزار، وهي المدن الثلاث الأكثر أهمية، دون عنف، هذا لأن طالبان، كما يقولون باستمرار، تريد دولة تعيش في سلام، ولا تريد الانتقام. لكن السبب أيضاً هو أن الأشخاص الذين لا يدعمونها، بل أولئك الذين يكرهون حركة طالبان، اختاروا أيضاً عدم القتال. ويدرك قادة طالبان بوضوح أنهم يجب عليهم تحقيق السلام. لذلك من الضروري أيضاً أن تستمر طالبان في تحقيق العدالة العادلة. لديهم سجل جيد، لكن إغراءات وضغوط الحكومة أفسدت العديد من الحركات الاجتماعية في العديد من البلدان قبلهم. ويمكن بالطبع أن يحدث انهيار اقتصادي، فأفغانستان بلد فقير وقاحل، حيث أقل من 5% فقط من أراضيها صالح للزراعة. في السنوات العشرين الماضية تضخمت المدن بشكل هائل، وقد اعتمد هذا النمو على الأموال المتدفقة من



الاستغلال الجنسي للنساء من قبل الدولة الإسلامية أمر بغيض للغاية لقيم طالبان، التي تتسم بالتمييز علمه أساس الجنس لكنها متزمتة ومتواضعة، ولسنوات عديدة، ظلت حركة طالبان الأفغانية ثابتة في إدانتها العلنية لجميع الهجمات الإرهابية علمه الشيعة والمسيحيين والسيخ..

بلاد الاحتلال، وبدرجة أقل على أموال زراعة الأفيون. دون مساعدات خارجية كبيرة للغاية من مكان ما، هناك مخاطر انهيار اقتصادي. ولأن حركة طالبان تعرف ذلك، فقد عرضت صفقة صريحة على الولايات المتحدة. سوف يقدم الأمريكيون المساعدات المالية، وفي المقابل لن توفر طالبان مأوى للإرهابيين الذين يمكنهم شن هجمات مثل 11 سبتمبر. قبلت كل من إدارتي ترامب وبايدن هذه الصفقة، لكن ليس من الواضح على الإطلاق ما إذا كانت الولايات المتحدة ستفي بوعدها في هذه الصفقة. في الواقع يمكن حدوث ما هو أسوأ تماماً. عاقبت الإدارات الأمريكية السابقة العراق وإيران وكوبا وفيتنام لتحديهم لها بعقوبات اقتصادية طويلة الأمد ومدمرة. سيكون هناك أصوات كثيرة تتعالى في الولايات المتحدة مطالبة بمثل هذه العقوبات،



تسببت الولايات المتحدة ودول الناتو في معاناة هائلة لهم على مدار عشرين عاماً. على الأقل، يجب أن يعملوا على إنقاذ هؤلاء الأشخاص الذين دمروا حياتهم. وهناك قضية أخلاقية أخرى هنا. ما تعلمه الكثير من الأفغان في السنوات الأربعين الماضية كان واضحاً في العقد الأخير من المعاناة في سوريا. من السهل جداً فهم الخلفية والتاريخ الشخصي الذي يدفع الناس إلى القيام بالأشياء التي يقومون بها. يجبرنا التواضع على النظر إلى المرأة الشيوعية الشابة، النسوية المثقفة العاملة في منظمة غير حكومية، الانتحاري، جندي البحرية الأمريكية، ملا القرية، مقاتل طالبان، الأم التكللي لطفل قتل جراء القنابل الأمريكية، صراف من السيخ، الشرطي، الفلاح الفقير الذي يزرع الأفيون، ونقول كان يمكن أن أكون مكانهم.

كان فشل الحكومتين الأمريكية والبريطانية في إنقاذ الأشخاص الذين عملوا لصالحهما مخزياً وكاشفاً؛ لم يكن فشلاً حقاً، بل اختياراً. لقد أثرت العنصرية ضد المهاجرين على "جونسون" و"بايدن" بقوة أكبر من ديون الإنسانية. ولا تزال حملات الترحيب بالأفغان ممكنة. بالطبع، ستظهر

ما الذي تستطيع القيام به؟ مرحباً باللاجئين! ماذا يسأل الكثير من الناس في الغرب الآن، "ماذا يمكننا أن نفعل لمساعدة النساء الأفغانيات؟" يفترض هذا السؤال أحياناً أن معظم النساء الأفغانيات يعارضن حركة طالبان، وأن معظم الرجال الأفغان يدعمونها. هذا غير صحيح. يكاد يكون من المستحيل تخيل المجتمع الذي يكون فيه هذا صحيحاً. لكن هناك سؤال آخر: كيف يمكن مساعدة النسويات الأفغانيات؟ هذا سؤال صحيح ولائق. الجواب هو الترتيب لشراء تذاكر طيران ومنحهم حق اللجوء في أوروبا وأمريكا الشمالية. لكن ليس النسويات فقط من سيحتجن إلى اللجوء، هناك عشرات الآلاف من الأشخاص الذين عملوا مع قوى الاحتلال في أمس الحاجة إلى اللجوء مع عائلاتهم. وكذلك الأمر بالنسبة لأعداد أكبر من الأشخاص الذين عملوا لصالح الحكومة الأفغانية. وبعض هؤلاء الأشخاص مشيرون للإعجاب، وبعضهم من الوحوش الفاسدة، والكثير منهم يقع في الوسط، والكثير منهم مجرد أطفال. لكن هناك واجب أخلاقي هنا. لقد

طالبان الباكستانية شبكة أكثر مرونة لا يسيطر عليها الأفغان. ونفذوا تفجيرات متكررة ضد الشيعة والمسيحيين في باكستان. من المعروف أن تنظيم الدولة الإسلامية وشبكة حقاني هم الذين نفذوا التفجيرات الإرهابية العنصرية الأخيرة ضد الهزارة والشيخ في كابول. وأدانت قيادة طالبان كل تلك الهجمات. لكن الوضع في حالة تغيير مستمر. تنظيم الدولة الإسلامية في أفغانستان هو أقلية منشقة عن طالبان، ومقرها إلى حد كبير في إقليم "نجرهار" في الشرق، وهم معادون للشيعة بشدة. وكذلك شبكة حقاني، وهي مجموعة من قدامى المجاهدين تسيطر عليها إلى حد كبير المخابرات العسكرية الباكستانية. ومع ذلك، في المزيج الحالي، تم دمج شبكة حقاني في تنظيم طالبان، وزعيمها هو أحد قادة طالبان. لكن لا أحد يستطيع تخيل ما يخبئه المستقبل، ففي عام 1995، حالت انتفاضة عمال الهزارة في مزار دون سيطرة طالبان على الشمال، لكن تقاليد الهزارة في المقاومة تعود إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. وقد يكون لاجئو الهزارة في البلدان المجاورة في خطر الآن. بعد تحالف حكومة إيران مع طالبان، والتي تتوسل إليهم أن يكونوا مسالمين، وذلك لأن هناك نحو ثلاثة ملايين لاجئ أفغاني في إيران بالفعل، موجودون هناك منذ سنوات، ومعظمهم من عمال المدن الفقراء وأسرههم، والأغلبية من الهزارة. في الآونة الأخيرة، بدأت الحكومة الإيرانية، بسبب ضائقة اقتصادية يائسة، بترحيل هؤلاء اللاجئين الأفغان إلى أفغانستان. وفي باكستان هناك نحو مليون لاجئ من الهزارة أيضًا. وفي المنطقة المحيطة بمدينة كويتا، قتل أكثر من 5000 منهم في اغتيالات ومذابح طائفية في السنوات القليلة الماضية. ولا تفعل الشرطة والجيش الباكستاني شيئاً، ونظراً للدعم الطويل للجيش الباكستاني والمخابرات لحركة طالبان الأفغانية، فقد أصبح هؤلاء الأشخاص في خطر أكبر الآن.

ماذا يجب أن تفعل خارج أفغانستان؟ مثل معظم الأفغان، صلوا من أجل السلام. وانضموا إلى الاحتجاجات من أجل فتح الحدود. سنترك الكلمة الأخيرة لجراهام نايت، الذي قتل ابنه، الرقيب بن نايت من السلاح الجوي الملكي البريطاني، في أفغانستان في عام 2006. وصرح جراهام نايت أمام رابطة الصحافة هذا الأسبوع أنه كان ينبغي على حكومة المملكة المتحدة التحرك

مثل هذه الحجة الأخلاقية القوية ضد العنصرية وكرهية الإسلام في كل منعطف. لكن في الأسبوع الماضي علقت حكومتا ألمانيا وهولندا أي عمليات لترحيل الأفغان. يجب على كل سياسي، في أي مكان، يتحدث مؤيداً للمرأة الأفغانية، أن يطالب بفتح الحدود أمام جميع الأفغان. وهناك ما يمكن أن يحدث للهزارة. كما قلنا من قبل، توقفت حركة طالبان عن كونها مجرد حركة من البشتون وأصبحت حركة وطنية، حيث قامت بتجنيد العديد من الطاجيك والأوزبك. ويقولون أيضاً بعض الهزارة. ولكن ليس الكثير. والهزارة هم الناس الذين يعيشون بشكل تقليدي في الجبال الوسطى، هاجر الكثيرون منهم إلى مدن مثل مزار وكابول، حيث عملوا حمالين وفي وظائف أخرى منخفضة الأجر، ويشكلون نحو 15% من السكان الأفغان. تعود جذور العداء بين البشتون والهزارة جزئياً إلى خلافات طويلة الأمد حول الأرض وحقوق الرعي. ولكن مؤخراً، أصبح من المهم أيضاً أن نقول إن الهزارة من الشيعة، وأن جميع الأفغان تقريباً من السنة. وقد أدى الصراع المرير بين السنة والشيعة في العراق إلى انقسام بين الإسلاميين المتشددتين. هذا الانقسام معقد، لكنه مهم، ويحتاج إلى القليل من الشرح. في كل من العراق وسوريا ارتكب تنظيم الدولة الإسلامية مجازر بحق الشيعة، مثلما ذبحت ميليشيات الشيعة السنيين في كلا البلدين.

ظل تنظيم القاعدة الأكثر تقليدية يعارض بشدة مهاجمة الشيعة ويطالب بالتضامن بين المسلمين. ويشير الناس إلى أن والدة أسامة بن لادن كانت شيعية، لكنها في الواقع كانت علوية من سوريا، لكن ضرورة الوحدة كانت أكثر أهمية، كانت هي القضية الرئيسية في الانقسام بين القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية. وفي أفغانستان، دافعت طالبان بقوة من أجل الوحدة الإسلامية. كما أن الاستغلال الجنسي للنساء الذي يتم من قبل تنظيم الدولة الإسلامية أمر بغض للغاية ومخالف لقيم طالبان، التي تتسم بالتمييز العميق على أساس الجنس لكنها مستقيمة ومتواضعة. لسنوات عديدة، ظلت حركة طالبان الأفغانية ثابتة في إدانتها العلنية لجميع الهجمات الإرهابية على الشيعة والمسيحيين والشيخ. لكن هذه الهجمات تحدث. كان لأفكار تنظيم الدولة الإسلامية تأثير خاص على حركة طالبان الباكستانية. بخلاف حركة طالبان الأفغانية المنظمة، فإن



- جريجوري، توماس. 2011. "إنقاذ نساء أفغانستان: النوع الاجتماعي والوكالة وسياسة الذكاء"، رسالة دكتوراه في جامعة مانشستر.

- هيرشكيند، تشارلز، صبا محمود. 2002 "النسوية وطالبان وسياسة مكافحة التمرد". الأنثروبولوجيا الفصلية، 75 (2): 339-354.

- هيوز، دانا، 2012، "نادي السيدات الأوائل: هيلاري كلينتون ولورا بوش من أجل نساء أفغانستان" إيه بي سي نيوز، 21 مارس.

- جلالاي، زوبيدا وديفيد جيفريس، محرران. 2011. عولمة أفغانستان: الإرهاب والحرب وخطاب بناء الأمة. دورهام: مطبعة جامعة ديوك.

- كلايتس، ألكس. 2005. الحب والحرب في أفغانستان، نيويورك: سبع قصص.

- كولهاكار، سونالي وجيمس إنجلز. 2002. نزيه أفغانستان: واشنطن، أمراء الحرب، ودعاية الصمت. نيويورك: سبع قصص.

- لينديسفران، نانسي. 2002. الجندرية في الحرب الأفغانية. الكسوف: مراجعة مناهضة الحرب، 4: 2-3.

- 2002. "البدء من الأسفل: العمل الميداني. 45

بسرعة لإنقاذ المدنيين: نحن لسنا مندهشين من سيطرة طالبان على السلطة لأنه بمجرد أن أعلن الأمريكيون والبريطانيون أنهم سيغادرون، عرفنا أن هذا سيحدث.. لقد أوضحت طالبان نيتها بشكل واضح للغاية، بمجرد خروجنا، سوف ينتقلون إلى السلطة.. أما فيما يتعلق بأرواح الناس فقد راحت في حرب لم نكن لنكسبها.. أعتقد أن المشكلة تكمن في أننا كنا نقاتل أشخاصًا هم سكان البلد الأصلي. لم نكن نحارب الإرهابيين، بل كنا نحارب أشخاصًا يعيشون في بلدنا بالفعل ولم يرحبوا بوجودنا هناك. [11]

المراجع

- فلوري وجنيفر ل. وراشيل لير. 2017. حاملو السجاد في كابول والتشابك الأمريكي الأفغاني الآخر. أثينا، أوهايو: مطبعة جامعة جورجيا.

- جوستوتزي، أنطونيو. 2007. القرآن، كلاشينكوف وأجهزة الكمبيوتر المحمول: تمرد طالبان الجديدة في أفغانستان. لندن: هيرست.

- 2021، طالبان استعادت أفغانستان - هذه المرة، كيف سيحكمونها؟ الجارديان، 16 أغسطس.

- الجنديرية والإمبريالية الآن. نقد الأنثروبولوجيا، 22 (4): 403-423، وفي أرمبروستر ولارك، -23-44.
- 2012. "البشتون المتميزون؟ السياسة الطبقية والإمبريالية والتاريخية". في مارسدن وهوبكنز.
- لينديسفارن ونانسي وجوناثان نيل، 2015. "إمبراطوريات النفط والمقاومة في أفغانستان والعراق وسوريا". آن بوني بايرت.
- 2019، "وظائف النفط والحرارة والمناخ في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، في التحديات البيئية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: الطريق الطويل من الصراع إلى التعاون، تحرير حميد بوران وحسن حكيمان، 94-72. لندن: جينكو.
- مانشاند، نيفي. 2002. تخيل أفغانستان: تاريخ وسياسة، إمبريالية المعرفة. كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج.
- مارسدن، ماجنوس وبنجامين هوبكنز، محرران. 2012. ما وراء سوات: التاريخ والمجتمع والاقتصاد على طول الحدود الأفغانية الباكستانية. لندن: هيرست.
- موسوي، سيد عسكر، 1998. وزارة أفغانستان: دراسة تاريخية، ثقافية، اقتصادية وسياسية. لندن: كرزون.
- نيل، جوناثان. 1981. "المأساة الأفغانية". الاشتراكية الدولية، 12: 32-1.
- 1988. "أفغانستان: الحصان يغير الفرسان، رأس المال والطبقة"، 35: 48-34.
- 2002. "عذاب أفغانستان الطويل". الاشتراكية الدولية 93: 59-31.
- 2008. "أفغانستان: القضية ضد الحرب الجيدة". الاشتراكية الدولية، 120: 60-31.
- نجومى، نعمة الله. 2002. صعود حركة طالبان في أفغانستان. نيويورك: بالجريف.
- ريكو، جوني. 2007. الدم يجعل العشب ينمو أخضر: عام في الصحراء مع فريق أمريكا نيويورك: بريسيديو.
- تابري (لينديسفارن)، نانسي. 1991. مقايضة العرائس: السياسة والجنس والزواج في مجتمع قبلي أفغاني. كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج.
- تابري، ريتشارد. 1983. صراع القبيلة والدولة في إيران وأفغانستان. لندن: كروم هيلم.
- تابري، ريتشارد، مع نانسي لينديسفارن. 2020. أصوات القرية الأفغانية: قصص من مجتمع قبلي. لندن: آي بي. توريس. الجارديان، 2021. "أفغانستان لايف نيوز". 16 أغسطس.
- وارد، لوسي. 2001. "زوجات الزعيم ينضمون إلى حرب الدعاية". الجارديان، 17 نوفمبر.
- ضعيف، عبدا لله، 2010. حياتي مع طالبان. لندن: هيرست.
- زيليزر، باربي. 2005. "الموت في زمن الحرب: الصور الفوتوغرافية والحرب الأخرى في أفغانستان". مجلة هارفارد الدولية للصحافة / السياسة، 10 (3): 55-26.
- [1] انظر بشكل خاص نانسي تابري (لينديسفارن) 1991، لينديسفارن، 2002a و 2002، و 2012، لينديسفارن ونيل، 2015، نيل، 1981، 1988، 2002 و 2008، ريتشارد تابري مع لينديسفارن 2020.
- [2] جوستوتزي، 2007 و 2009 مفيديان بشكل خاص.
- [3] طالبان على أساس الطبقة، انظر لينديسفارن، 2012، والعديد من الفصول لمؤلفين آخرين في Marsden and Hopkins، 2012. وانظر موسوي، 1998؛ نوجومي، 2002؛ جوستوتزي، 2008 و 2009، ظريف، 2010.
- [4] زيليزر، 2005.
- [5] هناك مؤلفات كثيرة حول إنقاذ المرأة الأفغانية انظر جريجوري، 2011؛ لينديسفارن، 2002a؛ هيرشكيند ومحمود، 2002، كولهااتكار وإينجلس، 2006، جلالاي وجيفريس، 2011، فلوري وليهر، 2017، مانشاند، 2020.
- [6] وارد، 2001.
- [7] لينديسفارن ونيل، 2015.
- [8] ريتشارد تابري، 1983.
- [9] للجفاف في عام 197، انظر لينديسفارن وتابري، 2002. للاطلاع على أحدث تغيرات مناخية، انظر لينديسفارن ونيل، 2019.
- [10] جوستوتزي، 2021.
- [11] الجارديان، 2021.

(*) نشر المقال في جورنال جاكوبيان Jacobian.

**أشجار علمه قبور العشاق..
أساطير شهداء الحب في الشرق والغرب**

● محمد عبد النبي

**أثر أمينة رشيد
الذي لا يزول**

● دينا قابيل

**قراءة جديدة في مشروع
قاسم عبده قاسم**

● عاطف معتمد

ثقافات

حسن وخوض

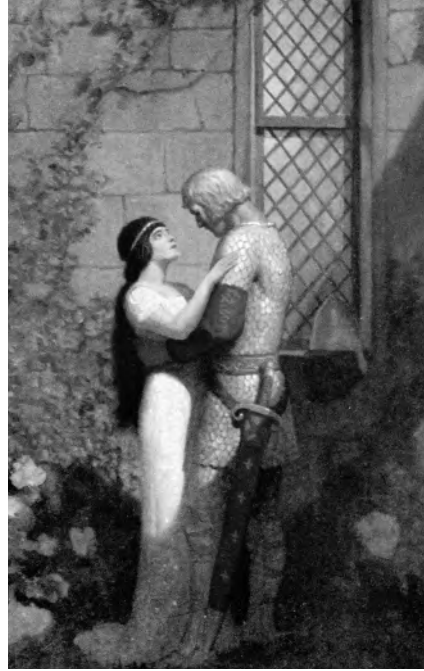
من بين الحوادث التي كانت تحكيها لنا أمي ونحن صغار، ولا بد من أنها ورثتها عن أمها وجداتها، حكاية عن شاطر اسمه حسن، أظن أنه كان أميراً، أحب غجرية اسمها خوض. ما أغرب هذا الاسم وأندر، ليس اسمها خوص بالمرة، بل خوض كأنه فعل أمر: خَض. لم أعد أذكر من تلك الحدوتة القديمة سوى شيئين. الأول أن الشاطر حسن، ترك حياة القصور والنعيم، وظل يتتبع الخيام التي يضربها الفجر الرُّحَل، أهل حبيبته الراضين لارتباطه بها. وكانت هي تعرف ذلك وترأف به، فتترك له في كل مرة فطيرة ساخنة وتدفعها في الأرض وتترك فوقها علامة ما، مثل غطاء رأس أو منديل، فيعرف هو العلامة وينبش الأرض ويأكل الفطيرة ويكمل سيره وراءها، متتبّعاً العلامات.

الشيء الثاني الذي لم أزل أتذكره، وهو مدار هذا المقال، أن حسن بعد أن فاز بخوض في نهاية الحكاية وماتا معاً (أم قتلاً معاً، لا أدري)، دُفنا معاً أيضاً في قبر واحد، فطلعت على قبرهما شجرتان متعانقتان. لم تحدد حكاية أمي نوع الشجرتين، لكنها أكدت أن أحد رجال الدين، أو أكثر من واحد في الحقيقة، ذبح الشجرة الملتفة،

نشرها بمنشار، وعندما سئل عن سبب ما فعل، قال المقولة التي تختم الحكاية ولا بد أنها الدرس المستفاد منها: (عشان مش كل واحد يحب واحدة ياخذها ويهرب زي حسن وخوض).

في ذاكرتي على

الأقل، تذبح الشجرة مرة بعد أخرى، لكنها تطلع من جديد كل مرة، هذا قبل أن أقرأ هذا نفسه في حكايات أخرى من تراث شعوب مختلفة بعيدة تماماً عن قرية أمي في دلتا مصر. عندما ذكرت أمي بالحكاية منذ فترة قريبة، وهي الآن على مشارف الثمانين، وكنت ترددت كثيراً قبل أن أفعل، ربما خشية أن أكتشف أن ما أتذكره لا علاقة له بالأصل تقريباً، اكتشفت أنها لا تكاد تتذكر منها شيئاً أكثر مما ذكرت به. لم أعرف هل أحزن لذلك أم أفرح، المهم أن تلك الحكاية ظلت معي أكثر من ثلاثة عقود ونصف، وظلت معها ولا بد لأكثر من سبعين عاماً على الأقل، وهأنذا ألتقي بها من جديد، أو بالأحرى بنسخ أخرى منها في كتاب حكايات أمازيغية، ثم في كتاب آخر من حكايات الشعوب بعنوان صفوة الأساطير من الشمال البارد البعيد، ثم في



أشجار على قبور العشاق..

أساطير شهداء الحب في الشرق والغرب

● محمد عبد النبي



تظهر، بين حين وآخر، قصص صحفية متشابهة المادة، واردة من مناطق مختلفة من العالم، مثل كازاخستان أو أوكرانيا أو الهند، مضمونها الأساسي اكتشاف مقبرة ثنائية تجمع رفات رجل وامرأة، بيدوان كأنهما متعانقين



غلاف كتاب غزلان الليل

تلمع الملكة من شُرفتها فاضل على حصانه الرمادي الجميل الذي أحسن رعايته وتدريبه، فترسل جارتها، واسمها مسعودة، لتستدعيه آه يا مسعودة، يا أجمل الخادמות، قولي لفاضل أن يهرع فيشفي قلبي. قولي لفاضل إن هو أبطأ على فأن القبر مصيري. قول غريب. فكَانَ القبر ليس مصيرَ كل إنسان، كأن القبر لن يكون مصيرَ الملكة أبداً، أم أن مصيرها البعيد سيصير قريباً سريعاً إذا ما تأخر عليها المعشوق؟ وأيضا، كأن القبر حاضر، في خيال الحكاية من سطورها الأولى، منذ أن وقعت عينا الملكة على فاضل. وهما هي مسعودة تلمس ركاب سيدي فاضل فينتبه إليها، وتقل رسالة سيدتها. يرد هو قائلاً آه يا مسعودة، يا أفضل الخادמות، ليس لي، وحق أمي، قدرة على خوض حرب مع الملك. فتجيبه مسعودة: "خُضها يا سيدي وسوف تنتصر". لماذا يعلن فاضل منذ البداية عدم قدرته على (أم عدم رغبته في؟) خوض حرب مع الملك، زوج الملكة؟ فَمَنْ الذي ذكر شيئاً عن الحرب؟ إذا كانت الملكة تستدعي القبر منذ اللحظة الأولى، فما هو فاضل يستدعي الحرب منذ البداية كذلك. ربما لم يقصد الحرب في صورتها المعهودة، بل قصد أنه لن ينافس الملك على قلب (أم على فراش؟) الملكة، وهو الاحتمال الذي يرجحه جواب مسعودة، مرسال الغرام، إذ تقول: "خُضها يا سيدي وسوف تنتصر"، أي لا تخش من منافسة الملك لأن قلب الملكة معك فإنك فائزٌ سلفاً، وأنا أضمن لك هذا.

الحكاية الكردية مَم وزين للشاعر أحمد خاني. نعم، كنتُ أتتبع العلامات مثل الشاطر حسن، وأمشي وراءها وأنبش الأرض بحثاً عن الفطيرة الساخنة التي تدفنها لي ست الحسن التي أخذت تتغير وتتجدد، بينما تنتقل بين اللغات والثقافات، فلا تكاد تموت حتى تولد.

يوسف عاشق الملكة أو: فاضل وعطوش

يضم كتاب (غزلان الليل) (1)، واحد وعشرين حكاية صغيرة (أقرب إلى الحواديت) تُرجمت للعربية، من بين مئة حكاية ضمها الأصل الفرنسي وهو كتاب (حكايات بربرية من المغرب)، صدر عام 1949، وقد جمعها وترجمها إلى الفرنسية وحققها إيميل لاوست، بعد أن استقاها من أفواه الرواة مباشرة خلال جولات مديدة في مناطق مختلفة من المغرب ما بين السنوات 1913 و1920. أوّل حكايتين في الكتاب مُرتبطتان، فكأن أولاهما، وهي حكاية يوسف عاشق الملكة، ليست سوى نسخة مُختصرة للغاية وبلا تفاصيل واضحة من الحكاية الثانية، أي حكاية فاضل وعطوش التي تهمن في هذه السطور، تحديداً بسبب نهايتها المُشتركة مع حكايات أخرى في ثقافات مختلفة ومناطق متباعدة.

في الحكاية الأولى، يتخفى يوسف العاشق في زي نساء ليوصل معشوقته الملكة، وتظهر هي بأن أمها أتت لزيارتها، وبعد أن تحمل الملكة وتلد طفلاً وفي وليمة يُمسك الملك (المخدوع حتى الآن) بوردة عثر عليها في القصر، ويسأل فرسانه وحاشيته عنّ يستطيع أن يخبره ماذا تشبه هذه الوردة، فيقول واحدٌ إنها تشبه ثيابك يا مولانا، ويقول آخرٌ إنها تشبه سرج حصانك يا مولانا، لكن حينما يأتي دور يوسف، عاشق الملكة، يقول: "لقد رأيت في قصرك يا مولاي سيده حسناء مثل هذه الوردة"، ولا ندري كيف يدرك الملك بذلك التصريح أن يوسف والملكة يخونانه، فيأمر بضرب عنقه، ويطلب يوسف أن يُقتل أسفل مقصورة الملكة التي تطل من نافذتها وتراه يذبح أمام عينيها فتلقي نفسها من النافذة فوق جثة عاشقها وتلفظ أنفاسها الأخيرة. هنا تنتهي هذه الحكاية المقتضبة، فلا حديث عن قبر يُدفن فيه العاشقان معاً أو عن شجرات شبه سحرية تتعانق فروعها فوق قبرهما، كما سنلاحظ في النسخة التالية.

في حاشية تعليقاً على هذه الحكاية، لإيميل لاوست في كتابه حكايات بربرية من المغرب، يؤكد أن هذين العاشقين مشهوران باسم سيدي فاضل وعطوش، وأن قصة فاضل مع السلطان قصيدة قصيرة موزونة جُزئياً، في قبائل حاحا. ما يعني أن هذه الحكاية الأولى، ويطلقها يوسف ذلك، ليسا سوى نسخة تالية زمنياً على الحكاية الأصلية المنسوجة شعراً والأشد ثراءً بالتفاصيل، وهي إجمالاً كما يلي:

العاشقين، فهما يسميان: تريسترام أو تريسترم، وإيزولت أو يزوليت. اعتمدت مبدئيًا على نسخة مختصرة وردت في كتاب (صفوة الأساطير) (2)، ثم نسخ أخرى متاحة بالإنجليزية على شبكة الإنترنت. فقدت القصيدة الأصلية التي اعتمدت عليها جميع النسخ التالية للأسطورة المنتمية إلى العصور الوسطى، ومع ذلك فيمكن إيجاز الخطوط العامة لحبكته كالتالي:

يسافر الفارس الشجاع تريستان (واسمه يعني الحزين) إلى أيرلندا لكي يطلب يد الأميرة إزولد لعمه مارك ملك كورنول، الذي رباه ورعاه منذ كان قتي يتيمًا، وينجح في مسعاه بعد أن يذبح التين الذي كان يدمر البلاد ويشتر الذعر فيها. خلال الرحلة البحرية رجوعًا إلى بريطانيا وعن طريق الخطأ يشرب الفارس والأميرة من شراب سحري أعدته لها أمها لتشربه الأميرة والملك مارك، لأنه قادر على إشعال قلب من يشربه بالغمغام تجاه

من ينادمه، فلا تتعذب ابنتها مع زوج أكبر سنًا منها أجبرت على الزواج منه لاعتبارات سياسية. لكن القدر يلعب لعبته، ويقع تريستان وإزولد في الغرام المشبوب والمحرم كذلك، غرام يظل في صراع مع الإحساس بالواجب والوفاء. في أغلب نسخ الحكاية يظل العاشقان عفيفين رغم كل شيء إلى النهاية حتى يجمعهما قبر واحد بعد سنوات عديدة، حتى إنهما كانا ينامان بينهما سيف. تتواصل أسطورة العشق بعد موتهما حين تنمو على قبريهما شجرتان تتشابك فروعهما بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأية وسيلة ولا بأي سيف. نسخ هذه الأسطورة،

أن العاشقين مفعول بهما على الدوام، فالحب غير المعقول ليس سوى نتيجة للشراب السحري الذي تناولاه بالخطأ، وما كان ذلك كله ليكون لو أن من شرباه هو الأميرة الشابة وزوجها الشرعي الملك

يُقسَم فاضل في قوله هذا بحق أمه، يختارها هي تحديدًا، في هذا السياق، من بين كل عزيز وغال لديه، كأن النسب الأمومي أقرب إلى حكاية تحتفي باللذة وكسر عهد الزواج لصالح العشق، وتؤمن للعاشقين، كما سيتضح، حياة أسطورية تمتد لما بعد موتهم. وفي النسخة الأولى أيضًا، يتنكر يوسف في زي أم الملكة وقد أتت لتزور ابنتها. بصورة أو بأخرى، تحضر الأم، في قسم فاضل وفي تنكر يوسف، شجرة مُتخيلة تظل مخدع العاشقين ولو باللغة ولو بالزور.

تمر الخادم مع العاشق المتنكر، في طريقهما إلى الحريم، من باب إلى باب إلى باب. نسمع مسعودة تردد "أفسحوا الطريق للشريفة"، والمقصود السيدة النبيلة، التي لا بد أن وجهها كان مغطى، ولا يفوت الحكاية أن تشير إلى مفارقة أن الحراس يغرقون في أريج عطور السيدة الشريفة، وقد لفهم في رحلة أحلام حسية سريعة، متخيلين الجمال المخفي وراء الأحجية والبراق.

إذن لا يتم مراد الفارس العاشق بوصول الملكة إلا إذا وضع جانبًا، ولو لبعض الوقت، رجولته وعدة الفروسية وزخرفها، ودخل في تنكر آخر، يصير أنثى أولاً، ولو بالشكل والهيئة، حتى يرجع بعد ذلك ذكرًا فيملك المرأة المرغوبة المحظورة وتملكه هي. ثم يقتل فاضل تحت شرفة عطوش، فترمى نفسها منها، ثم يجملان إلى مقبرة واحدة ويدفنا معًا. وتطلع نخلتان (هكذا؟) بهذه السرعة؟ أم أن الأمر احتاج لأشهر أو سنين؟) واحدة من قبر عطوش وأخرى من قبر فاضل، وتلتف أغصانها في عنان السماء. "سبع مرات والسلطان يأمر بقطعهما. غير أن أحدًا لم يقدر على أن يفصل بينهما. حتى جاء ساحر ليقول للملك: - كم تعطيني إذا فصلت هاتين النخلتين؟ فوعده الملك بمنحة سخية. وقطع الساحر الشجرتين. ولم تنبت النخلتان بعد ذلك. ثم انفجرت عين ماء من قبر فاضل. وعين أخرى من قبر عطوش. والتقت مياههما لتجوب العالم".

ماذا فعل ذلك الساحر حتى يقدر على منع النخلتين العاشقتين من النمو؟ ولماذا لم يقدر على منع انفجار عين الماء من قبرهما؟ أم أن أحدًا لا يقدر على احتجاز تدفق مياه العشق؟ أم أن لعبة التحولات كانت قد بدأت ولا سبيل لإيقافها عند حد، وهكذا فما الماء إلا نقطة البداية في سلسلة تحولات عديدة، برعاية الطبيعة الأم القادرة على الخلق والتجديد وإعادة التشكل لما لا نهاية، تمامًا مثل حكاية شعبية قديمة أخذت تتنكر مرتحلة بين اللغات والبيئات والهيئات، كلما انتقلت مع التجار والحجاج والمطاردين والمغامرين من أرض إلى أرض؟

تريستان وإزولد
ثمة نسخ كثيرة للحكاية الرومانسية العتيقة، تريستان وإزولد، بل إن ثمة تنويعات مختلفة أيضًا لاسمي



ثمة نسخ

كثيرة للحكاية

الرومانسية

العتيقة، تريستان

وإزولد، بل إن ثمة

تنويعات مختلفة

أيضًا لاسمي

العاشقين، فهما

يسميان: تريسترام

أو تريسترم،

وإيزولت أو يزوليت.

اعتمدت مبدئيًا

على نسخة

مختصرة وردت

في كتاب (صفوة

الأساطير)



أوبرا تريستان وإيزولد

إن فاجنر نفسه مرَّ بصراع نفسي مشابه بدافع من غرامه بسيدة متزوجة من أحد أصدقائه. ثم لم تتوقف الأعمال الفنية المستلهمة عن هذه الأسطورة وصولاً إلى نسخة سينمائية للمخرج الأمريكي كيفين رينولدز (2006) تخلصت من جميع العناصر السحرية وركزت على السياقات السياسية والتاريخية في العلاقة بين الممالك الإنجليزية وإيرلندا آنذاك.

رجوعاً إلى نقطتنا الأساسية هنا، وهو الشجر الطالع على قبور العشاق، ووفقاً لبعض النسخ أيضاً، نما التوت البري بكثافة على قبر تريستان، حتى شكّل كرمة (تعريشة) ويضرب بجذوره في قبر إزولد، وتمضي الحكاية لتروي أن الملك مارك حاول أن يجثت النبتة ويقتلع الجذور وينتزع الفرع ثلاث مرات متتالية وكانت تنمو مجدداً وتتشابك مرة بعد أخرى. وفي نسخ تالية، طلع التوت البري على قبر تريستان بينما طلعت شجرة ورد على قبر إزولد، وهُنا أيضاً لم يطل الوقت قبل أن يتشابكا ويتواشجا.

مم وزين

مم وزين حكاية كردية قديمة تناقلها الرواة شفاهةً لأمد طويل إلى أن دونها شعراً أحمد خاني، سنة 1105 هجرية (1694 ميلادياً)، وفقاً لما كتبه هو نفسه في الأبيات الأخيرة من ملحمة المؤلف من حوالي 2660 بيتاً شعرياً.

كان الأكراد على زمن خاني محصورين بين قوتين

مارك. ولعل تلك العناصر القدرية والسحرية هي المبرر الوحيد الذي قد يجعل متلقي الحكاية لا يدينهما في ذلك الزمان. ولعل الحب نفسه، في كل زمن ومكان، نتيجة ذلك الشراب السحري الذي تقطره الآلهة في أفواه البشر، بلا حول منهم ولا قوة على تغيير المكتوب.

في بعض النسخ يزول تأثير الشراب السحري بعد فترة، غير أن العاشقين يواصلان نفس المصير المكتوب لهما، بحكم العادة أو خشية الرجوع عمّا اختاراه. وحسب مقال للباحث الكبير عبد الفتاح كيليطو، ففي إحدى النسخ وهي حسب قوله (صيغة فظيعة ومذهلة في آن) (3)، فإن تريستان، بعد عامين أو ثلاثة من معاشرته لإزولد، ردها إلى زوجها الملك ثم جمع الناس وسط السوق واستل سيفه، وهدد بقطع رأس كل من يتحدث مستقبلاً عن علاقته بها.

إذا حدث هذا حقاً فإن تهديده لم يأت بالنتيجة المرجوة بكل تأكيد. فقد تجدد الاهتمام بهذه الأسطورة خلال القرن التاسع عشر عند اكتشاف بعض القصائد التي ترويها، واسلتهما الموسيقار ريتشارد فاجنر في الأوبرا المعروفة باسميهما (أديت للمرة الأولى عام 1865)، ومادتها مستمدة مباشرة من قصيدة للشاعر الألماني جوتفريد فون ستراسبرج. عكست الأوبرا هذا الصراع المرير بين العاطفة الحارة وضرورة الإذعان للواجب وقيم الشرف، وقيل

استدعى في روايته شخصيات كثيرة، أكثر من عشرين، لتتحدث كلها عن خاني، انطلاقاً من مشهد جنازته وسقوط مطر أسود حلو الرائحة كالحرير، فكأن السماء تبكي حبراً لوفاة أمير الشعراء الكردي. ظل الحبر، منذ السطور الأولى وحتى الأخيرة، علامة مركزية في الرواية، وخيطاً يمر عبر طبقاتها وفي حياة وأصوات أغلب شخصياتها، بل ولعب دوراً في حبكة مصرع خاني كوسيلة للقتل في أكثر من موضع. وكما قد يختفي الكاتب كثيراً وراء أقنعة شخصياته وحكاياته، فإن خاني لا يكاد يظهر بشخصه وبصوته وبحضوره طوال النص، (ألم تبدأ الرواية بمشهد جنازته؟)، إلا عبر أقنعة شخصيات عرفها وعرفته، وجمعت بينهما مشاعر المحبة والصداقة أو العداوة والخصومة، كانوا قريبين منه أو بعيدين، اطلعوا على أسرار نفسه وتبل عواطفه أو لم يكتروا له إلا كعقبة لا بد من إزاحتها. وفي الصفحات الأخيرة من الرواية نقرأ سطوراً تبقّت من رسالة ممزقة، ذوبتها الأمطار وداست عليها أقدام المشيعيين في الطريق إلى قبره، كان قد أرسلها للأمير في الليلة السابقة على يوم وفاته، لم يفتحها الأمير أو يهتم بالإطلاع على ما فيها. توحى الرواية بأن حكاية مَم وزين كانت مرآة عكس فيها خاني قصة غرام تخصه، لم يكتب له أن يكلل بالوصال والزواج، وربما لذلك حرص على إضفاء ذلك البعد الصوفي الواضح على الحكاية الشعبية العاطفية القديمة، ويُذكر أن خاني مضى حياته

في تدريس العلم والتعلم ولم يتزوج ولم يكن له أبناء. كما تشير رواية جان دوست إلى استلهام خاني حكاية مَم وزين من جزيرة بوطان التي عاش فيها فترة في شبابه طالب علم، ومحبه لزيارة قبر العاشقين الشهيرين فيها وتعلق قلبه بهما. وجزيرة بوطان، هي المكان المفترض لأحداث ملحمة مَم وزين، أو هي جزيرة ابن عمر كما أسماها العرب، وأسمائها الأتراك جزيرة وأسمائها السريان جزرتا، وهي محاطة بنهر دجلة من الشمال والشرق والجنوب، ولذلك سميت

عُظميين، هُما الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الصفوية، ظلت هاتان القوتان طويلاً تتقاذبان مدنه وتؤلب بعض شعبيهم على بعض، من غير أن يرتفع صوت مندداً يكون الأكراد حطياً ووقوداً في معاركهما وأن من حقهم أن يكون لهم أمير وسلطان وقومية ولسان يكتب به الأدب مثل بقية الشعوب الكبيرة، وباستثناءات قليلة لم ينهض إلى هذه المهمة إلا خاني، وهو شاعر ورجل دين متصوف، وكتب ملحمة الشهيرة باللغة الكردية، متجنباً اللغتين المهيمنتين على اكتساب العلم والأدب آنذاك؛ العربية والتركية. يُعتبر أحمد خاني من الأوائل الذين ساهموا في تعزيز القضية القومية الكردية والدفاع عنها، داعياً للوحدة بين كل الأكراد ونبذ الخلافات والخونة من الصف الكردي. ويرى بعض الباحثين أن ملحمة (مَم وزين) (4) تعتبر

بدايات الفكر القومي الكردي وبداية الرغبة في تأسيس دولة قومية كردية. وللملحمة أكثر من ترجمة للعربية، لكن أكملها وأحدثها قد أنجزها جان دوست، الكاتب والروائي والباحث السوري الكردي، وهي التي اعتمدت عليها هنا، وقد زودها المترجم بمقدمة طويلة ووافية يُمكن الرجوع إليها للتعرف أكثر على الشاعر الكردي القديم وزمنه وسياق إنتاج هذه الملحمة، فلم يدخر دوست جهداً في شرح كل ما رآه قد يكون غامضاً على القارئ المعاصر، لا سيما الإشارات التي تنتمي للعالم الصوفي بدرجاته، وهي ليست غير في الملحمة.

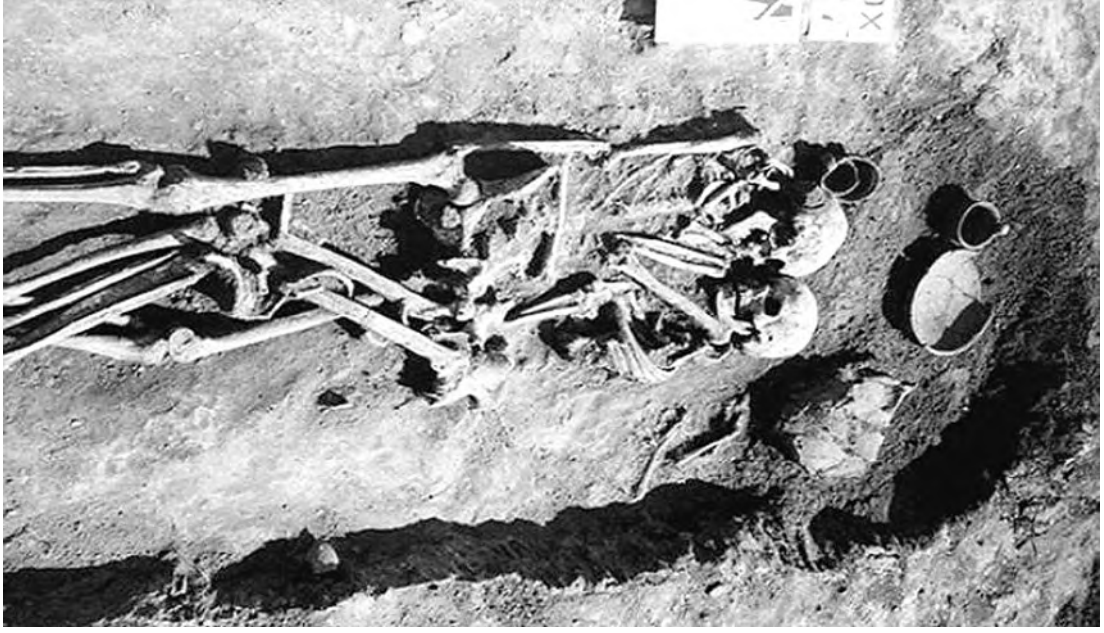
لم يكتب جان دوست بترجمته لملحمة مَم وزين، بل أضاف مساهمة أخرى كروائي لذكرى الشاعر أحمد خاني، إذ كتب دوست روايته (ميرنامه - الشاعر والأمير) (5) عن حياة خاني، منطلقاً من نقطة موته. سار جان دوست أيضاً على نهج خاني، إذ كتب رواياته ميرنامه وفي صميم فؤاده أنها ليست عن الشاعر العظيم القديم فقط، بل عن الأكراد، وعن تلك اللحظة التي أخذت تتكرر في تاريخهم، على صورة أو أخرى، منذ القرن السابع عشر وحتى الراهن المؤسف.



إنها رسالة من عالم آخر، رسالة من الراحلين الذين عشقوا وتعذبوا، رسالة إلينا، تحت علم الاستمرار والمواجهة والمحبة، رسالة تقول بأن ثمة أشجار ونباتات لا سبيل لاجتثاثها، مهما حاول الناقمون وخصوم العشق



لا تعوزنا الحكايات الشعبية التي تنتهي بدفن حبيبين معاً في القبر نفسه، مهما تباينت الأحداث والتفت الطرق التي قادتهما إله تلك النهاية. حكايات لا تنتهي بالموت بقدر ما تبشر بالحياة..



المقبرة الأوكرانية

عن كتب. وللمفارقة تتنكر الأميرتان زين وستي في ثياب شبابين، ربما حتى لا يكون عليهما حرج أو تكليف هُما أيضًا. يرى كل زوج منهما الزوج الآخر، فتنزّل عليه لوثة فورية من فرط جمال الآخرين. الأميرتان تجنّان بالفارسيين اللذين في ثياب الفتيات، أما الأميران فيطيش عقلمهما تمامًا بسبب الفتاتين المتكترتين في ثياب فتیان، في لعبة مرايا عجيبة وطريقة قليلاً.

سبق لبعض العشاق في حكايات شبيهة أن اضطر، من أجل وصال المحبوبة، أن يتكرّر في زي النساء، كما فعل يوسف عاشق الملكة في الحكاية الأمازيغية، حيث كان على الذكر أن يمر بطقس عبور من نوع ما، عبر التحول لأنثى ولو من حيث الشكل الخارجي، ولوهلة يسيرة، حتى يصل إلى مبتغاه ويحقق رجولته إزاء الأنوثة المحجوبة والمرغوبة. أما هنا فأن لعبة التنكر تتضاعف وتزداد إرباكًا. فمن الذي أحبّ من؟ هل فتنّ الشابان بشابين آخرين؟ أم فتنت الفتاتان بفتاتين أخريين؟ هل كان بالأميرتين أي ميل لنفس النوع حتى يهزهما جمال الفتاتين المجهولتين؟ والسؤال يصدق على الأميرين الفارسيين بالقدر نفسه؟

الحكاية، فيما تلا من أحداث، تستبعد احتمال الميل المثليّ تمامًا، بل وتدنيه صراحةً على لسان مربية الأميرتين العجوز عند علمها بولعها بفتاتين. إنها ترفض وتشجب وتتهم بالجنون والعتة:

(لقد ذهبتما لمشاهدة الشبان، لا لمشاهدة الفتيات. -إن ما رأيتماه وهم لا أصل له، وانجذابكما إلى النساء مستحيل.

-إن البشر يميلون إلى البشر، ولكنّ الفتيات يجذبين إلى الرجال.

جزيرة أو ربما لنأيها نسيبًا عن المدن المجاورة لها. وقيل إن من شيد هذه المدينة هو رجل يقال له عبد العزيز بن عمر، فسميت باسمه، وسكنتها في العصور القديمة قبائل عربية مثل بكر بن وائل، وكانت ذات أهمية خاصة في العصر العباسي وفي عهد الصليبيين كونها بوابة تربط أعالي الرافدين بأرمينيا. كما ارتبطت باسم الإسكندر، فقيل إنه عبرها نحو نهر دجلة، بل ويوجد بها قبر آخر غير قبر العاشقين الأسطوريين، وهو قبر النبي نوح، إذ يرد في بعض الموروث الإسلامي أن جزيرة ابن عمر هي نفسها موقع ثمانين، وهي البلدة التي أسسها نبي الله نوح عند سفح جبل الجودي حيث استقرّ به الفلك بعد نهاية الطوفان وظهور اليايسة. ولعلها مفارقة لا تخلو من مغزى، أن تولد حكاية ممّ وزين في نفس الموضع الذي بدأت فيه الحياة من جديد، فكأنهما صدى حديث لحكاية آدم وحواء أصل الحياة على الأرض.

إذا صرفنا النظر عن سلسلة الأحداث المأساوية المتواليّة لحكاية العاشقين ممّ وزين، يمكننا أن نتمهل قليلاً إزاء مشهد اللقاء والوقوع في الغرام، إذ تتبدّى فيه لعبة التنكر في زي الجنس الآخر، وهي نقطة التقاء إضافية مع حكايات أخرى. إنه مشهد عيد النيروز واحتفال أهل الجزيرة به، إذ يخرج الفارسان الجميلان ممّ وتاجدين، وهما من أسبل وأشهر فرسان الأمير زين الدين، للاحتفال مع الناس في عيد النيروز، فيقرران التنكر في هيئة فتاتين، هكذا ببساطة يتخيلان عن رجولتهما في لعبة، ربما لأنها مأمونة ومضمونة وليست محل سؤال أو ريبية. وربما كان الهدف الأوّل إطلاق الزمام لنفسيهما ومشاهدة الحسان من الفتيات

من أي تحديد للأدوار الجنسية وفقاً لتشريح الأعضاء والتربية الاجتماعية والتكوين النفسي؟ أي جمال هذا؟ أهي إشارة إلى تلك الحالة الصوفية التي سوف ينتهي إليها مَم وزين، نفسيهما، حين لا يُكَلل عشقهما بالاقتران، مثل الآخرَيْن ستي وتاجدين، فينتقلان تدريجياً إلى عشق صوفي يتجاوز الجسد والرغبة في الوصال، ولا يروم إلا ذوبان الروحين في نور الواحد الأحد؟

وكما يحدث في الحكايات الأخرى، يموت العاشقان ويُدفنان معاً ويطلع النبات على قبريهما، سرورة رشيقة وصنوبرة خضراء ورافة وطبعاً تعانقت الفروع، لكن، هنا، وبخلاف الحكايات السابقة، تنتظرنا مفاجأة صغيرة في النهاية، عنصر غريب ينضم إلى نبات الحب الذي يجعل قبور العشاق روضة خضراء، حضور للعادل، الوزير بكر، الذي كان السبب الأساسي في جميع المحن التي مرا بها وافتراقهما في الحياة الدنيا. نجده ينضم إليهما هنا، في ثلوث عجيب، قد يذكرنا مرة أخرى بآدم وحواء والشيطان الذي طردهما من الجنة.

(-أما من قبر ذلك الشرير فقد نبتت شجرة على هيئة النبق -كانت تلك الشجرة ذات أشواك كصاحبها. - فَنَمَت حتى وصلت إلى تينك الشجرتين، وأصبحت مانعاً لوصال الحبيبين.

- ما كان بكر يستطيع

الراحة والهدوء، حتى أظهرَ عداوته للعيان) يواصل الشرير عمله السيء المكتوب عليه ولو من وراء القبر، متخذاً صورة نبات شائك يفصل بين شجرتي العاشقين. ربما يختلف دور بكر عن دور الشيطان بصورة ما هنا، فإذا كانت وسوسة إبليس كانت وراء طرد آدم وحواء من الجنة وهبوطهما للأرض حيث العناء، فإن أفعال بكر الرديئة زكت نيران الغرام عند مَم وزين، وامتحن معدن عواطفهما، بل وحولتها من معدن خسيس فان إلى جوهر خالد، أي نقلتهما إلى مقام أسمى.

بعد مشهد القبور الثلاثة، ثمة عاقبة ترد من العالم الآخر، حيث رحلت تلك الأرواح، يدافع فيها بكر عن نفسه وعن أفعاله، قائلاً:

-أن الفتاة لا تعشق فتاة أخرى، ولا بدَّ من شاب تعشقه).

وتواصل حديثها مستشهدة ببعض قصص الغرام القديمة الأخرى، مثل قيس وليلى، وفرهاد وشيرين، ورواق وعذرا، وغيرها. كأنما للتدليل، بتلك القصص على أنه لا مجال للخطأ. ترى أهذا هو رأي الشاعر أحمد خاني أيضاً، وليس مجرد رأي السيدة المريية التقليدية الخائفة على ضياع عقل الأميرتين الصبيتين؟ لا نجد ما يشير إلى غير ذلك في النص، وهذا يتسق مع تربيته الدينية وثقافته الشرقية الإسلامية.

وماذا عن عشق الرجل للرجل، وهو موقف الأميرين بعد أن طاش عقليهما وقبل أن تتكشف لهما الحقيقة؟ لماذا لم يظهر في الحكاية، بالمقابل، مَنْ يحاول أن يعيدهما إلى صوابهما ويعلن صراحة أن هذا لا يجوز وأن على الفتى أن يعشق فتاة، ويردد لهما أسماء نفس قصص الغرام القديمة؟ أم أن قصص الغرام بين الذكور، حتى في عصر خاني وثقافته، كانت أشد انتشاراً من أن تكون جنوناً محضاً، وبدرجة صار تقبلها أمراً ممكناً ولو خالفت صحيح الدين والعرف.

في تعليق المترجم والكاتب جان دوست على هذه النقطة يجزم برفض خاني للمثلية الجنسية، مستشهداً بما قالته المريية للفتاتين، لكنه يستدرك أن (خاني هنا لا يدين المثلية الجنسية بقدر ما يقول إنها منافية لمبدأ الحب الذي تقوم معادلته على ذكر وأنثى فقط)، أي هذا الحب الذي لا ينشأ إلا باجتماع الأضداد ويتطور إلى رحلة لطلب الوصال، رحلة قد يُكْتَب لها أن تستمر حتى أعلى نقطة في السمو الروحي. بمعنى ما؛ من دون ذكر وأنثى في الحكاية لن يكون هناك مجاز الوردة والبلبل، أو مجاز الفراشة والشمعة وهذا الثاني من أكثر المجازات تردداً في هذه الملحمة ويلجأ إليه كثيرون من الشعراء والمتصوفين الفُرس والأتراك. هل كان سيبتدد أو يتخلخل هذا الإطار المجازي/الروحي إذا وُجِدَت حكاية عاطفية شعبية بطلاها اثنان من نفس النوع، فتاتان أو شابان؟ هل كان هذا الإطار المجازي/الروحي ضرورة لا مفر منها، لإزاحة علاقة الغرام الإنسانية العادية، بكل حمولاتها الشهوانية والدنيوية، إلى فضاء متجاوز وسام، بحيث لا يعدو الافتتان بالآخر سوى باب يؤدي إلى الانفتاح على اللانهائي، خطوة أولى لازمة للارتحال نحو سدرة المنتهى والمحبة القصوى ثم الفناء النهائي في سر الوجود.

وبمناسبة العشق الصوفي، هل يمكن أن يكون الجمال الذي أطاح بعقول الشباب الأربعة بضربة واحدة، في عيد النيروز الرائع ذلك، جمالاً يتجاوز التقسيم الجنسي وحدوده ومواضعه، أي من نوع يجرد الإنسان من جنسه ومن ميوله ويسمو به إلى نقطة أعلى من الأنوثة والذكورة، حيث ميل الجسد للجسد أسبق وأشد



ثمة حكايات ستظل

تبزغ من طين الأرض،

ومن بين تراب

القبور، فيه ثقافات

وأراض وبيئات

متباينة ومتباعدة،

ولا يهم منته

ظهرت أول حكاية

طلع فيها نبات

أخضر ملفف عليه

قبر عاشقين



-مم-وزين



فيلم تريستان وإزولدا



رواية ميرنامه

ذلك فلا تعوزنا الحكايات الشعبية التي تنتهي بدفن حبيبين معاً في القبر نفسه، مهما تباينت الأحداث والتفت الطرق التي قادتهما إلى تلك النهاية. حكايات لا تنتهي بالموت بقدر ما تبشر بالحياة، حكايات لا تختتم بمشهد جماعة من علماء الآثار يقتحمون عزلة وحميمية قبر عاشقين متعانقين، بل تكون صورتها الختامية شجرة أو بالأحرى شجرتان متعانقتان أو حتى ثلاثة إذا فرض نفسه عليهما عدول شرير كأنه إبليس.

إنها رسالة من عالم آخر، رسالة من الراحلين الذين عاشوا وشافوا، الذين عشقوا وتعذبوا، رسالة إلينا، نحن الأحياء على وجه الأرض، رسالة تحث على الاستمرار والمواجهة والمحبة، رسالة تقول إن ثمة أشجار ونباتات لا سبيل لاجتثاثها، مهما حاول الناقمون وخصوم العشق وامتدت سيوفهم وأشواكهم إلى جذوعها وفروعها، كما أن ثمة حكايات

(أو ربما جوانب بعينها من حكايات) ستظل تبرز من طين الأرض، ومن بين تراب القبور، مرة بعد أخرى، في ثقافات وأراض وبيئات متباينة ومتباعدة للغاية، أو هكذا تبدو لنا على الأقل، ولا يهم - إلا قليلاً - متى ظهرت أول حكاية طلع فيها نبات أخضر ملتف على قبر عاشقين.

-) لقد أفقدتهما اللذة والسرور في الحياة الدنيا، وآلمتهما باللذعات والجراح. اتبعت معهما تلك السياسة، حتى أصبحت صاحبي مقام عال).

لا يدخر الشاعر أحمد خاني جهداً لتأكيد أفضلية المصير الذي آل إليه العاشقان، منتصراً لأفكاره وعقيدته الصوفية بالأساس، ومدافعاً عن إيمانه بالجبر والقدرية حتى السطر الأخير. وما كان دور الشيطان/ بكر إلا امتحاناً لمعدن مم وزين أو آدم وحواء على هذه الأرض القاسية، حتى يتطهرا ويرجعان لنقطة البداية، الجنة والخلد، حيث ينكشف الحجاب أمامهما لرؤية وجه مالك الملك ذي الجلال، أما العظام فتتسمي لعالم الفناء، ولو تكلت بالأخضر الزاهي، لبعض الوقت.

في عناق أبدي تظهر، بين حين وآخر، قصص صحافية متشابهة المادة، واردة من مناطق مختلفة من العالم، مثل

كازاخستان أو أوكرانيا أو الهند، مضمونها الأساسي اكتشاف مقبرة ثنائية تجمع رفات رجل وامرأة، يبدو أن كأنهما متعانقين. تلك العظام الرميمة تكون قادرة على تحريض المخيلة العاطفية لعلماء الآثار ومن ورائهم بقية الناس، لتخيل ونسج شكل الحكاية التي كالت بعناق أبدي، بقدر ما يمكن للعظام أن تحظى بحياة أبدية.

قد نلمح شيئاً من المُبالغة في التعامل مع تلك المكتشفات أو إضفاء قيمة وجدانية عليها، ومع



غلاف كتاب صفوة الأساطير

وراء الابتسامة الدمثة، ورقة التعامل، كانت أمينة تستأنس الآخر المختلف وتستحوذ على قلبه. ولا بد أن هذا الخليط العجيب من الالتزام الفكري على طول مسيرتها، مع الإيمان العميق بالحرية هو ما جعلها في مكانة فريدة وسط اليسار المصري التقدمي..



أثر أمينة رشيد الذي لا يزول

● دينا قابيل

وتتزوج ممن أحبت، وهي طالبة العلم التي أرسلتها جامعة القاهرة للحصول على دكتوراه الدولة الفرنسية فاختارت أن تتخصص في الأدب المقارن وعادت إلى جامعتها لتجذب - دون قصدية - أجيال كاملة لدراسة هذا المنهج الذي يُعلي من قيمة الاختلاف ويمد جسور التواصل الفكري مع الآخر، وهي التي رفضت التطبيع الثقافي مع إسرائيل فهرعت مع نخبة من المثقفين لتكوين "لجنة الدفاع

هي المناضلة اليسارية التي نشطت في صفوف الشيوعيين في فرنسا 1968، تخلت عن المركز المرموق في كبرى المراكز البحثية في باريس من أجل أن تعمل في بلدها، وتسعى لتنفيذ ما آمنت به على أرض الواقع، هي سليمة الباشوات، حفيذة إسماعيل صدقي باشا، الوزير في عهد الملك فاروق، التي تركت بمحض إرادتها طبقتها الأرستقراطية لتتغمس مع حياة الناس العادية



أمينة رشيد وزوجها الراحل سيد البحراري

نذرت حياتها للنضال فصارت محطات حياتها كلها تطبيقاً لما آمنت به.. وتجلت صفة الأستاذ هنا في معناها الذي نحت في القرن التاسع عشر لوصف المعلم الموسوعي والذي رغم معارفه الغزيرة يسعى للتواصل مع الآخر ومساعدته للوصول إلى الطريق، وربما يمد يده إليه ليحلماً معاً بتغيير العالم.

إذ يكفي أن تتأمل الكتابات والشهادات التي تبارى محبتها في تدوينها بعد رحيلها، أو تلك التي كتبها زملاؤها وتلاميذها في حياتها وقدموا خلاصة فكرهم من دراسات قيمة أهدوها لاسم أمينة رشيد خلال السنوات العشرة الأخيرة، يكفي هذا لنعلم أن الهالة التي تحيط بالأستاذة والمثقفة النادرة تتجاوز دوائر الزملاء والأكاديميين وتتعدى دوائر

عن الثقافة القومية"، وحين اشتد الحصار الأمني على الحياة الجامعية كونت مع زملائها من الأكاديميين جماعة 9 مارس من أجل استقلال الجامعة.

بين كل هذه النعوت التي تحاول أن تلخص شخصية الدكتورة أمينة رشيد ومسيرة النضال التي رسمتها لنفسها منذ صباها، أستعذب وصفها بـ"الأستاذة" على وجه الخصوص. ليس فقط لتلميذي -مثل كثيرين غيري- على يديها في قسم اللغة الفرنسية وآدابها بكلية الآداب في جامعة القاهرة، بل أيضاً لأن هذا اللقب يعكس شخصيتها العميقة ويعبر عنها بصدق. فالأستاذية هنا تتجاوز مجرد تلقي العلم من ذوي الخبرة لتشمل القدوة والمثال، الأستاذة الجليلة التي

تلميذتها د. سلمى مبارك، عندما انتهت من الدكتوراه في باريس 1976 وصممت على العودة إلى مصر تاركة وراء ظهرها منصب باحثة في ال CNRS وحياة ثقافية وسياسية حيوية.

كانت قاعات الدرس بالنسبة لأمينة رشيد نموذج للحرية، تفتح لطلابها أبواب النظرية الأدبية هنا البنيوية، والشكلانيين الروس، وهنا النظرية الماركسية، ودائمًا إدوارد سعيد ونظريات ما

بعد الكولونيالية، لكنها قط لم توجه طلابها لاعتناق فكرها الماركسي، بل تشير - من غير أن تقصد - إلى مناهج الدراسات المقارنة في الأدب، هذا الذي اختارته في أثناء بحثها في أطروحة الدكتوراه.

راحت تنقب في العلاقة بالآخر، في ثنائية الاستقلال والتبعية، ترفض الامتثال لنظريات التأثير والتأثر الكلاسيكية في الأدب المقارن، وتلفظ المركزية الأوروبية التي تتطلق منها مناهج البحث المقارن، فالأدب الغربي أو أدب الآخر ليس

النموذج أو الأنموذج، بل يسمح هذا التخصص في الأدب بالغموض في الأدب المحلي وفي معرفة الذات من خلال مرآة الآخر، فيجد فيه الطلبة والدارسين ضالتهم، ليس فقط في الأدب، ولكن في الدراسات البينية بين الأدب والمسرح والأدب والسينما أو الفن التشكيلي.

أعطت أمينة دروسا في الالتزام والجسارة

اليسار لتشمل مئات الطلاب والدارسين المتابعين لمسيرتها النضالية والعلمية والذين لم يتعاملوا معها عن قرب، ولكن لفهمهم "أثر أمينة رشيد" الأخاذ والممتد، إذ كم من مرة تسمع في السنوات الأخيرة ومع بدايات اعتلال صحتها- نفس التعليق المتكرر: "أمينة رشيد لم تدرس لي، لم أكن في نفس القسم، أو في نفس الكلية، أو حتى في نفس الجامعة، لكنها تركت فيّ، دون أن تعلم، أبلغ الأثر".

إذ وراء هذه الابتسامة الدمثة، ورقة التعامل التي لا تتناقض مع مواقفها الحاسمة التي لا تلين، كانت أمينة تستأنس الآخر المختلف وتستحوذ على قلبه. لا بد أن هذا الخليط العجيب من الالتزام الفكري على طول مسيرتها، مع الإيمان العميق بالحرية هو ما جعلها في مكانة فريدة وسط اليسار المصري التقدمي.

إذ يتجلى الالتزام لديها في محطات حياتها المختلفة، غير أنه تجسد في عملها بالتدريس (في جامعة القاهرة)، بصفته تجربة إنسانية للإثراء

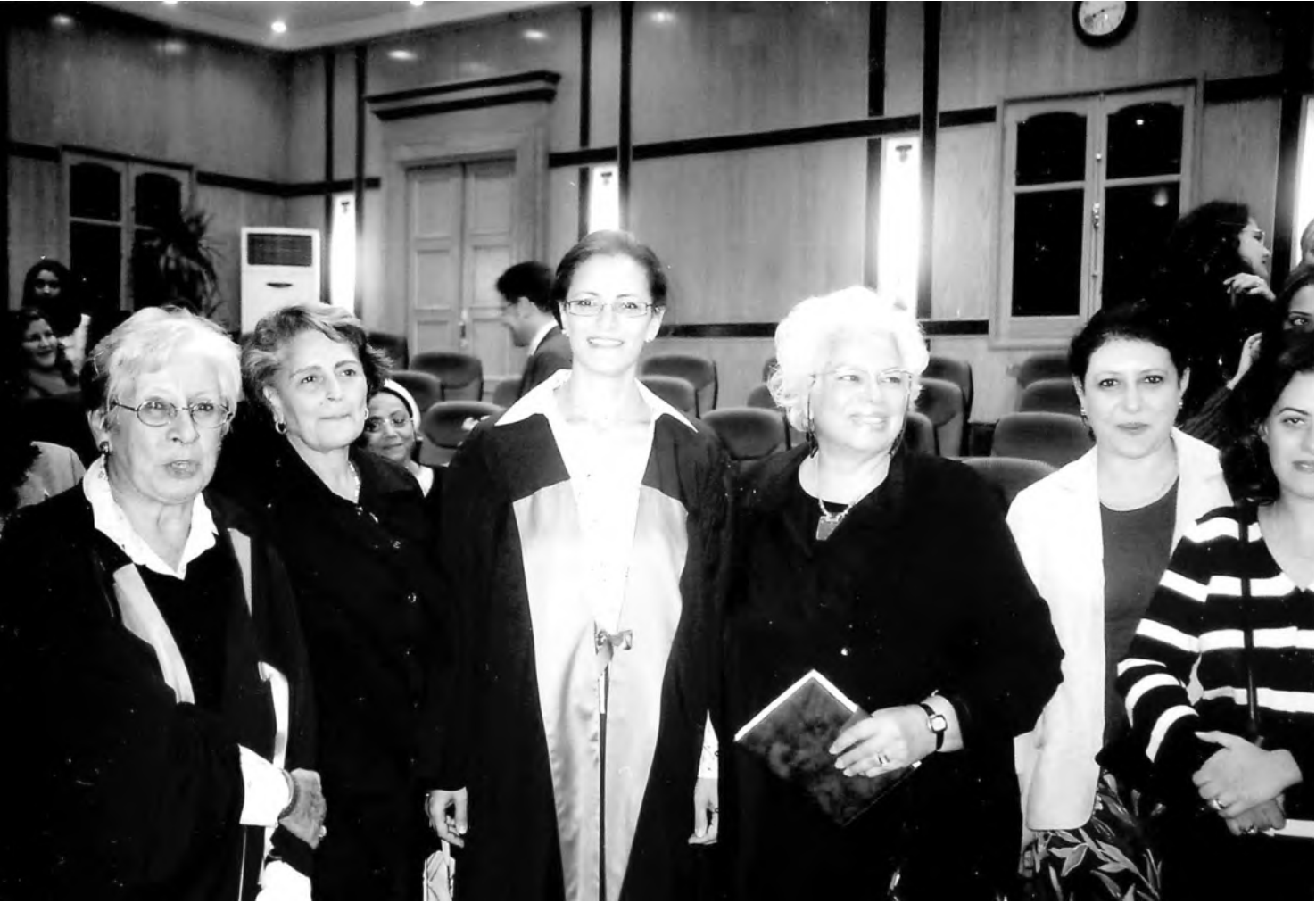
المتبادل، وإيمان بالعقول والشابة وقناعة بأن التغيير ممكن وأن الإسهام في ذلك ممكن. "الإنسان في حاجة إلى التواصل، وهذا من الأسباب التي جعلتني أتوق للعودة إلى مصر. فأنا أهتم كثيرًا بالبحث العلمي، ولكني كثيرًا ما أتساءل إن كان يمكنني أن أعيش دون تدريس"، كما تروي في كتاب يحمل عنوان "أمينة رشيد" خطته بكثير من الشغف



**يتجلى الالتزام
لديها في محطات
حياتها المختلفة،
غير أنه تجسد في
عملها بالتدريس
في جامعة
القاهرة، بصفته
تجربة إنسانية
للإثراء المتبادل،
وإيمان بالعقول
الشابة وقناعة بأن
التغيير ممكن وأن
الإسهام في ذلك
ممكن..**



**في السنوات
الأخيرة وبعد
رحيل رفيقها سيد
البحراوي، وإصابة
ذاكرتها بالوهن،
كانت تستعيد
أحداثًا قديمة؛
في قصر حلمية
الزيتون، ثم بيت
الزمالك الذي تخلت
عن إرثها فيه، عن
السيدات التي
أحاطوا طفولتها
وجعلوها تعبي
مبكرًا بالقضية
النسوية..**



أمينة رشيد في مناقشة ماجستير دينا قابيل

رأس الأولويات تحملها أمينة في ضميرها ووجدانها. وحين علمت أن أستاذها اليساري، مشرف أطروحتها، مؤيد لإسرائيل، وذلك في لحظة قائمة في أثناء حرب الأيام الستة في 1967، حين وقع إيتاميل على عريضة ضد البلدان العربية، ضمن العديد من المثقفين الفرنسيين .

لم تسكت أمينة رشيد، وتروي في حوار أجرته معها د. رنده صبري أستاذة الأدب الفرنسي والنقد الأدبي تضمنه كتاب "إلى أمينة رشيد"، (دار العين، 2010):

"ذهبت لأقبله وأفهمته أننا لم نكن ضد اليهود، ولكننا ضد إسرائيل، رافضين الأسلوب الذي تم به الاستيلاء على فلسطين وطردهم الفلسطينيين

أيضاً حين كانت طالبة غضة ذهبت في منحة دراسية في 1962 لنيل دكتوراه الدولة (من أرفع الدرجات العلمية في فرنسا) واختارت نموذجاً يؤيد ما تؤمن به هو الفيلسوف الإسباني رايموند لول والباحث في علم اللاهوت (الذي صار بعد احتكاكه بالحضارة الإسلامية في العصور الوسطى أحد أبرز المفتونين بها ولعب دوراً مهماً في الوساطة بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي)، بينما كان مشرف رسالتها اسم لامع يكاد يكون مؤسس الأدب المقارن وهو الفرنسي رينيه إيتاميل. كانت الحركة الأممية في أوجها في سنوات الستينيات من القرن الفائت، والقضية الفلسطينية على

الأتوبيس الفارغ في أنصاف الليالي وأنا أقوم بمهامي السرية ولا أعرف إذا كنت أرتعش من البرد أو من الخوف" كما تروي أمينة رشيد عن "سنوات اليسار الصعبة" وتحلل اختيارها للماركسية بعد مرور خمسين عاماً، في مجلة الهلال 2002:

"عندما قامت حركة الضباط الأحرار، أو ثورة 1952 كما سميت - كنت على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية، التي تمت في 1954 في بداية 1954 أيضاً قررت الانتماء إلى الماركسية، منهجاً للثورة وللحياة، لم أنم في تلك الليلة -ليلة اختياري هذا! - التي ما زلت أتذكر تاريخها: 3 مارس 1954، كانت أوضاع أسرتي قد تدهورت نتيجة للإصلاح الزراعي، وخاصة وضع أبي وأمي، إذ لم تكن لأبي ملكية خاصة أو عمل ثابت مثل زوجي أمينة وبهية (خالاتها)، وانقسمت حياتي من جديد إلى نصفين: نصف سعيد بوعد التغيير، ونصف يشاهد انهيار من أحبهم، وبصراحة كان انتمائي الأساسي للنصف الأول".

وحتى هذا الاختيار المبكر كان له جذوره في شخصيتها منذ طفولتها، إذ نشأت في حي حلمية الزيتون الذي تأسس في بداية القرن العشرين ليكون سكن الأسرة المالكة والطبقة الأرستقراطية، وكانت الفيلا التي تسكنها مع عائلتها الكبيرة ملكاً لجدها إسماعيل صدقي باشا، رئيس الوزراء في عهد الملك فاروق ما بين أعوام 1930 و1946. وتروي سلمى مبارك في كتابها عن أمينة رشيد، العبور نحو الآخر: "كان العبور الأول نحو الآخر، خلف أسوار المنزل العائلي وطبقة ملاك الأراضي التي تنتمي إليها، من خلال صداقتها بماري، طفلة بالتبني لعامل نجارة تعيش على مقربة من القصر. كانت الزيارات التي تقوم بها لماري في عشة مكونة من حجرة بأئسة تكسر الطبقة الشديدة التي تعم حياة البيت الكبير، فيعشش بداخلها وجع لازمها منذ الطفولة".

ظلت أمينة رشيد تحمل تاريخاً لا يد لها فيه، هي حفيدة صدقي باشا الذي الذي وقع على المعاهدة الشهيرة صدقي بيغن التي تتحاز للمستعمر البريطاني على حساب أهل البلد، رغم تخليها عن كل ما يمت لطبقتها بصلة،

من ديارهم. وأظن أنه لو كان أصّر على موقفه لكنت قررت ألا أعمل معه أبداً".

بنفس هذه القوة النفسية للطالبة التي تتحدى، بل تفهم أستاذها، استمرت أمينة رشيد تقوم بما تؤمن به، ففي زمن السادات، وبعد اعتقالها ضمن اعتقالات 1981 التي طالت الإخوان والشيوعيين، عادت أمينة أكثر إصراراً من ذي قبل وصارت عضواً مؤسساً في لجنة الدفاع عن الثقافة القومية،

وهو أول تكتل جمع

المتقنين المصريين

المعارضين لمعاهدة

السلام بين مصر

وإسرائيل. وبعدها

بسنوات حين طال

التضييق الأمني

الحياة الجامعية

والبحث العلمي

والترقيات العلمية،

كونت أمينة رشيد مع

مجموعة من أساتذة

الجامعة من الكليات

المختلفة جماعة

9 مارس لاستقلال

الجامعة.

أما اختيار الشيوعية

في سن السادسة

عشر، فكانت بالنسبة

إليها منهجاً للثورة

وللحياة، "رحت

أترجم المنشورات،

أخفي كتباً وكتابات،

أشتري تذكرة

طائرة لرفيق سوف

يستبدلها فيما بعد

للسفر إلى دمشق،

أسهم في إخفاء إنجي أفلاطون، أشعر بفخر

وسعادة، إذ كنت أسهم في بناء عالم جديد

وتغيير قيم، أحلم بالمساواة بين البشر،

أحب الاستراتيجية وأنقر من التكتيك! وأيضاً

تنتابني لحظات الرعب، فلا أنسي أبداً شتاء

1959 القارس، شتاء اعتقال الشيوعيين

وبداية الحملة الوحشية ضد اليسار،



وراء الابتسامة

الدمثة، ورقة

التعامل، كانت

أمينة تستأنس

الآخر المختلف

وتستحوذ عليه

قلبه. ولا بد أن هذا

الخليط العجيب

من الالتزام

الفكري عليه طول

مسيرتها، مع

الإيمان العميق

بالحرية هو ما

جعلها فيه مكانة

فريدة وسط

اليسار المصري

التقدمي..

بالمعاهدة.. كانت تلك هي الصدمة التي لم أنج منها أبداً. أي أنها كانت الصدمة الأولى التي عرفت منها أن هناك من يهاجموني، وأن من يهاجمني كان معه الحق في ذلك".

في السنوات الأخيرة وبعد رحيل رفيقها د. سيد البحراوي، وإصابة ذاكرتها بالوهن مع تقدمها في العمر، كانت تستعيد أحداثاً ومشاهد قديمة - كما يحدث دائماً في استعادة الذاكرة البعيدة - في قصر حلمية الزيتون، ثم بيت الزمالك الذي تخلت عن إرثها فيه، عن السيدات التي أحاطوا طفولتها وجعلوها تعي مبكراً بالقضية النسوية مثل أمها وخالاتها إلى درجة جعلت أمينة تكتب في جانب من سيرتها "في مجتمعنا الذكوري، كنت أشعر أننا نعيش منحدرين من سلالة نسائية"، ومع مرور السنوات لم تعد تحمل نفس النظرة التي شيطنت في الماضي صاحب صدقي/ بيفن. كانت في لقاءاتنا المتباعدة تتحدث عن مذكراتها التي كتبت أجزاءً متناثرة منها، وعند حثها على جمعها بمساعدة تلاميذها وأحبائها، كانت تستبعد الفكرة، ربما لم تكن تريد أن تتناول تاريخاً شديد الحساسية، أن تتعري فيتأذى في الوقت نفسه كثيرون غيرها... وعندما جاءت سيرة جدها، بدأت تتحدث عن ذكرى الجد المثقف الحنون في طفولتها البعيدة (هل يخطئ حدس الأطفال؟) وليس رجل الدولة الموصوم بعلاقته بالإنجليز. لم أندھش من ذلك فلطالما كانت أستاذتي تلتقط الإنساني في كل شيء تتناوله، فقد علمتنا أمينة - كما علمتنا الحياة - من خلال دراسة السيرة الذاتية، أن الشخصية التاريخية تتجاوز ثنائية الأبيض والأسود، وأن الإنسان أكثر تعقيداً وله وجوه عديدة ينبغي فهمها أولاً من أجل التعامل معها.

أستعيد الآن مشوار أمينة رشيد شديد الثراء، وتلازمي فكرة "أثر أمينة" الذي يجذب كل من قاربها حتى يضيء له السبيل، فلا أجد غير كلمات محمود درويش تدوي قلوب محبيها:

أثر الفراشة / أثر الفراشة لا يُرى / أثر الفراشة لا يزول
هو جاذبية غامض / يستدرج المعنى، ويرحل / حين يتضح السبيل



تروي أمينة رشيد عن هذا الجرح الساكن منذ الطفولة، في فيلم أربع نساء من مصر للمخرجة تهاني راشد (الذي تناول مسيرة 4 مناضلات مصريات هن أمينة رشيد ووداد متري وصافي ناز كاظم وشاهنده مقلد):

"في يوم، كان ذلك في 1947، رمتني طفلة بالحجارة لأن جدي إسماعيل صدقي كان قد وقّع للتو معاهدة صدقي/بيفن التي تعطي امتيازات أكبر للإنجليز وتربط مصر بهم بشكل أكبر، وكانت هناك مظاهرات تندد

"فقدت الأوساط العلمية والأكاديمية والثقافية، في شهر سبتمبر الماضي، المؤرخ والمترجم الدكتور قاسم عبده قاسم، عن عمر يناهز 79 عاما.

ولد قاسم في 26 مايو 1942 بمحافظة القاهرة، وهو مؤرخ ومترجم وأستاذ متفرغ بقسم التاريخ بكلية الآداب، وحصل على ماجستير في تاريخ العصور الوسطى من جامعة القاهرة سنة 1972 بتقدير امتياز، و على الدكتوراة في الفلسفة في العصور الوسطى من قسم التاريخ بجامعة القاهرة سنة 1975 بمرتبة الشرف الأولى، وكان

تخصصه "تاريخ العصور الوسطى" الذي قدم فيه قاسم عبد قاسم إبداعه الخاص، وأسماه بالعصر الوسيط.

حصل قاسم عبده قاسم على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية

من المجلس الأعلى للثقافة عام 1983، وشهادة تقدير للتميز في الإنتاج الأدبي من جمعية الآداب بمصر عام 1985، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من مصر، عام 1983، وجائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى للثقافة عام 2000، وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام 2008.

هنا يقدم الدكتور عاطف معتمد قراءة جديدة لإبداع قاسم عبد قاسم، من خلال ثلاثة كتب للراحل العظيم".

في وداع قاسم عبده قاسم



الجغرافيا مسرح التاريخ، والتاريخ مجموعة من الأحداث يقوم بها أبطال وضحايا على رقعة من الأرض عبر الزمن. الزمن الذي اهتم به قاسم عبده قاسم هو "العصر الوسيط". العصر الوسيط مصطلح يناسبنا في المشرق الإسلامي وليس "العصور الوسطى" الذي يناسب الغرب الأوروبي. إذا كان مصطلح العصور "الوسطى" قرينا بالظلامية والاضطهاد الديني والتأخر فقد عمد فريق من المؤرخين والجغرافيين العرب - ومن بينهم قاسم عبده قاسم - على ترسيخ مصطلح العصر "الوسيط"، وفيه شهدت رقعتنا الجغرافية عصر تقدم وتطور خلافا لنظيره الغربي.

اهتمت بحوث قاسم عبده قاسم بفترة مفصلة من تاريخ إقليمنا الكبير وهي الفترة التي تعرضت فيها للحملات الصليبية، وعلاوة على البحث والتأليف قام الراحل الجليل بجهود كبيرة في الترجمة. وفي السطور التالية عرض لثلاثة من أعماله.

قراءة جديدة في مشروع قاسم عبده قاسم

عاطف معتمد

ماهية الحروب الصليبية

في عام 2005 تسبب الفيلم الأمريكي الشهير "مملكة السماء Kingdom of Heaven" في دهشة لنا نحن المتابعين العرب. لقد كان العوام منا يعتقدون أن فيلم يوسف شاهين "الناصر صلاح الدين" كان متحيزا لبني قومه ضد الأوروبيين فأظهر الشرق ضحية تدافع عن نفسها وتناصر الحق بينما أظهر الغزاة الأوروبيين مستغلين للصليب رافعين إياه خديعة لنهب الشرق.

مصدر الدهشة أن الفيلم الذي أنتج في والت ديزني وحقق شهرة واسعة لا يخرج كثيرا عن رؤية شاهين في فيلمه الذي ظهر للنور في عام 1963. وإذا كان شاهين قد جعل صلاح الدين الأيوبي بطلا للفيلم المصري فإن الفيلم الأمريكي "مملكة السماء" والذي جاء بعده بأربعين سنة جعل البطل حدادا فرنسيا بسيطا انضم لإحدى الحملات الصليبية مخدوعا بأهدافها المقدسة.

في الفيلم الأمريكي يصبح الحداد بطل معركة القدس

تلك المدينة التي كان يجب أن تكون "مملكة السماء" أو كما يحلو للبعض ترجمة الفيلم ترجمة حرفية بعنوان "مملكة الجنة"، والعارفون للفقهاء المسيحي يفضلون بالطبع "السماء" لا "الجنة".

ملايين البشر يشاهدون الأفلام حول العالم، وأقل منهم بكثير يقرأون كتب المؤرخين. ومن بين كتب المؤرخين التي تستحق أن نطالعها في مسألة الحروب الصليبية الكتاب المرفق غلافه الذي ألفه المؤرخ المصري الجليل - الذي رحل عن دنيانا الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم - والصادر في الكويت قبل 30 سنة أو يزيد.

في كتابه "ماهية الحروب الصليبية" يدخل قاسم مباشرة في الموضوع دون مواربة أو زيغ أو هروب فيقول لك فيما معناه: "على مدار 300 سنة تسبب العدوان الذي قام به الاستعمار الأوروبي على العالم الإسلامي - والذي بدأ من 1095م واستمر حتى

1400م - في إنهاك بلادنا وإضعاف قواها وتعطيل

الطريق لما احتاجت إلى حماية عسكرية مسيحية، وكانت هذه نقطة البداية على ما يبدو لوضع البذرة الأولى لما سيعرف لاحقاً باسم "الحج المسلح" أو "عسكرة الحج" المسيحي إلى القدس والذي سيمهد الطريق إلى الحملات الصليبية الشاملة..

لا يوجد حدث في التاريخ ترك أثراً على الفكر والسياسة والفنون والآداب في الشرق والغرب يمثل ما تركته الحروب الصليبية التي دامت 300 سنة. ويعود الكتاب الذي بين أيدينا إلى مراجع عديدة لا تحلل فقط الحروب من الناحية العسكرية والتاريخية بل تعرض للأساطير التي مهدت لهذه الحملات على شاكلة نهاية العالم عند حدود الألفية.

الظاهر بيبرس.. نموذجاً للعهد المملوكي المملوكية العنوان الذي يحمله البحث الذي بين أيدينا عنوان حماسي للغاية أقرب إلى كتب التربية الوطنية المدرسية. وهو عنوان آمن ذكي حصيف لمن يرغبون فقط في قراءة العناوين.

لكن ما إن تتوغل في قراءة البحث إلا وتحاصرك الدهشة والعجب بين صفحاته المؤلفة من 170 صفحة.

يمتد مسرح الأحداث من مصر إلى العراق مع وضع بلاد الشام في المركز وفلسطين في بؤرة الأحداث. أما الإطار الزمني فيشمل الفترة من نهاية الدولة الأيوبية (1250 م) وحتى الغزو المغولي أو بالتحديد معركة عين جالوت (1260) التي كانت إيذاناً بترسيخ دولة المماليك التي ستعمر في مصر حتى الغزو العثماني في 1517م.

تحد كبير يواجهك في التعرف على عشرات أسماء الشخصيات التاريخية المتداخلة المختلطة. ما إن تتعرف على واحد منهم ودوره في التاريخ إلا وينتهي أمامك فجأة نهاية مأسوية قتلاً وغدراً أو اغتيالاً وخلعاً.

ما إن تقنعك المصادر التاريخية بدور أحدهم البطولي في حماية مصر والمشرق العربي من خطر أجنبي (صليبي ومغولي) حتى تكشف لك التفاصيل عن ما دبره هذا البطل من دسائس وخديعة للإطاحة بأصدقائه/خصومه أو قتلهم أو نفيهم لتخلو له الساحة بمفرده، ثم سرعان ما يأتي بطل جديد في التاريخ يطيح به ويذيقه من نفس الكأس الدموي الغادر.

المدهش الذي لا تكاد تفهمه أنه رغم كل هذه الفوضى تسير عجلة التاريخ دون توقف. عشرات الشخصيات التي يتم اغتيالها وخيانتها بين سطور هذا البحث ومع ذلك لا يتوقف التاريخ بل تمضي مصر على

قوى الإبداع فيها، فضلاً عن تعطيل عوامل النمو في الحضارة الإسلامية، بل إن المنطقة العربية بعد انتهاء هذه الحروب دخلت في مرحلة ضعف ووهن وتهالك مما مهد المسرح تماماً لأن تقع فريسة للسيطرة العثمانية. صحيح أن العثمانيين قدموا حماية للعالم العربي من الاستعمار الأوروبي لثلاثة قرون لاحقة لكنهم قدموا حماية لجسد واهن مريض منهك دون أن تظهر فيه روح الحضارة والتطور والنمو والازدهار".

الكتاب متوفر على الإنترنت في عديد من المواقع

ويمكن تحميله بسهولة وهو من ثمار سلسلة عالم المعرفة التي نشأ عليها جيلنا وتعلم منها الكثير. وهو كتاب رشيق الحجم واللغة، لا يزيد عن 200 صفحة ويتناول تحرير المصطلحات والظروف التاريخية التي نشأت فيها حروب الفرنج (وهو الاسم الذي كان يطلقه المؤرخون المسلمون على ما سيعرف بعد قرون لاحقة باسم الحروب الصليبية).

يتناول الكتاب أيضاً كيف أن الحملات الصليبية التي لقيت هزيمة وفشلاً في معظم الأحوال صورت بألة الدعاية الغربية إلى مثال لانتصار الشجاعة والإقدام والنزاهة ونصرة الدين رغبة في استمرار

استنزاف الشعوب الأوروبية وجمع التبرعات لتمويلها ورغبة في استمرار استغلال اسم الصليب في منح عشرات آلاف مرتكبي الذنوب الدنيوية صك "الغفران الصليبي" وتطيرهم من الآثام نظير مشاركتهم أو تبرعهم للحملات.

لا يفوت الكتاب التمهيد للموضوع بعرض رحلات الحج المسيحي قبل الحروب الصليبية والتي كانت حملات سلمية جراحة إلى القدس ينضم إليها الآلاف في مناسك مقدسة، ولولا تعرضها لغارات ونهب في



العصر الوسيط

مصطلح يناسبنا

فيه المشرق

الإسلامي،

فمصطلح العصور

"الوسطى"

قريين بالظلامية

والاضطهاد،

وقد عمد فريق

من المؤرخين

والجغرافيين

العرب، ومن

بينهم قاسم

عده قاسم، على

ترسيخ مصطلح

العصر "الوسيط" ..

الفترة، وخاصة مصدرين رئيسيين: "المقريزي" و"ابن تغردى بردى". وصحيح هناك عشرات المصادر الأخرى بالعربية والإنجليزية لكن يظل المقريزي وابن تغري بردى يتكرران في كل صفحة لرواية ما حدث في مصر من هذه الأحداث الجسام.

يعود عمر هذا البحث لأكثر من 20 سنة مضت وقد كتبه صاحبة بطريقة تصلح للقراءة دوماً وساهم في ذلك اللغة الانسيابية الأقرب في بعض الصفحات إلى مطبوعات الثقافة العامة التي تناسب القارئ غير المتخصص.

وينبها المؤلف إلى أنه ليس من الصواب أن نحاكم التاريخ بمنطق ولغة عصرنا الحالي بل بمنطق زمانه. يستشهد المؤلف بما قاله المقريزي من منطق ذلك الزمان الذي كان يقوم على فكرتين رئيسيتين:

- المكر والدهاء والمهادنة إلى أن تحين الفرصة فيصل الحاكم إلى درجة من "التمكن" و"التمكين".

- أن الوصول إلى السلطة في مصر كان يقوم على مبدأ شهير في التاريخ السياسي هو "الحكم لمن غلب"

لا عجب في المنهج السابق، إذ لا شرعية لهؤلاء المماليك في حكم مصر فهم أصلاً ضحايا جاءوا هنا أسرى تم خطفهم من تلك البلاد القوقازية وسهوب البحر الأسود وبحر قزوين بل بعض بلاد أرمينيا التي يرجح أن جاءت منها شخصية محورية في هذا البحث وهي السلطانة "شجر الدر". ولأنه لا شرعية في الحكم تصبح القوة والدماء هي الشرعية ويصبح القانون الصائب دوماً هو "الحكم لمن غلب".

حالة من التناقض تسيطر على القارئ غير المتخصص في التاريخ مردها كيف يتجاوز كل



درب التاريخ إلى الأمام وليس بالضرورة تتقدم نحو المستقبل !!

ففي خضم مؤامرات القصر في القاهرة يتمكن الصليبيون من احتلال دمياط والتوغل إلى المنصورة ولكن الجيش المملوكي يهزمهم شر هزيمة رغم كل الانقسامات والخيانة والغدر والمؤامرات الداخلية !

وفي وقت متزعزع للحكم في مصر بين المماليك يشن التتار حملتهم على مصر فيخرج لهم حاكم مصر الجديد "سيف الدين قطز" فينزل بهم شر هزيمة وينقذ المشرق العربي ومصر من توغلمهم.

وقبل أن يعود هذا الملك المظفر إلى القاهرة التي كانت قد تزينت لاستقباله بالنصر يقوم قرينه في النصر ورفيقه "بيبرس البندقداري" بغدره واغتياله والجلوس مكانه على عرش مصر. لا تنزل القاهرة زينتها التي تزينت بها لاستقبال الملك المظفر قطز وهو عائد من فلسطين والشام منتصرا على التتار بل تستخدم نفس زينتها لاستقبال "بيبرس" قاتل رفيق الجهاد وحاكم مصر الجديد.

مؤرخنا هنا ملتزم للغاية بالمصادر العربية عن تلك

والطرافة والذكاء والخيال أيضا . كيف ينظر هذا المؤرخ إلى خلافة المسلمين بعد وفاة النبي (ص)؟ كيف يقيم الشخصيات الإسلامية الخالدة مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بل وكيف يحلل حدث الخلافة بعد وفاة النبي (ص) ولماذا يعتبر هذا الحدث "انقلابا"؟

لماذا يرى المؤلف أن حروب الردة كانت فرصة تاريخية عظيمة للمسلمين اكتشفوا من خلالها أنفسهم فيما يشبه التمرين والتدريب العسكري على الفتوحات الإسلامية التي توسعت وغزت الشرق والغرب فيما بعد؟ ولماذا سقطت بسرعة الإمبراطوريات الكبرى أمام جيوش متواضعة من أولئك العرب المجريين من أي تقنيات حربية

حديثثة سوى القيادة الماهرة، وخفة الحركة، والروح المعنوية الفريدة؟

هذه ليست كل الأسئلة بل هي أسئلة "فاتحة للشهية" يستهل الكتاب من خلالها مشواره الطويل بحكاية طريفة لأحد الرهبان المسيحيين في



العراق الذي كان يدون تاريخ العالم بعيد الفتوحات العربية وقد اندهش من سرعة الفتح وشمولية الخريطة التي احتلها المسلمون وحاول أن يجيب عن السؤال: لماذا حدث كل ذلك؟ وكيف تم ذلك بهذه السرعة؟ لم يجد الراهب سوى إجابة واحدة: "إنها إرادة الرب!".

لا يستسلم مؤلف الكتاب لمقولة الراهب العراقي، ويتجاوز القول القدري بإرادة الرب إلى البحث في مئات المراجع عن إجابة لهذا السؤال التاريخي المهم. "الفتوح العربية الكبرى" كتاب رائع لمؤرخ إنجليزي ذكي الفكرة واسع الاطلاع، وتأتي فائدة الكتاب أيضا من العنوان الفرعي الذي يسأل "كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه؟"

هذا الكتاب نقله بعربية راقية وملتزمة ورسينة المؤرخ المصري الجليل الذي رحل عن دنيانا أ.د. قاسم عبده قاسم.

هذه المشاهد المتقلبة في عصر المماليك ويغمض عينيه عن تلك الدماء والغدر لينظر فقط إلى 10 سنوات غيرت تاريخ مصر حين انتصر هؤلاء المماليك المتقاتلون على كل من الصليبيين في المنصورة والتتار في عين جالوت؟

لا يكتمل المشهد "الفضوي المنظم" إلا بقراءة علاقات هذه الدول الإسلامية في مصر والشرق بالإمارات الصليبية التي كانت قد نجت في احتلال بعض مناطق بلاد الشام واتخذت منها حصونا منيعة. هنا تجد الحكام



اهتمت بحوث

قاسم عبده قاسم

بفترة مفصلة

من تاريخ إقليمنا

الكبير وهيه الفترة

التي تعرضت فيها

للحملات الصليبية،

وعلاوة على البحث

والتأليف قدم

جهداً كبيرة فيه

الترجمة..

مصر مع تعليقات حذرة وملتزمة منهجيا.

الفتوح العربية الكبرى!

اختار قاسم عبد قاسم في مشروعه الكبير للترجمة نقل كتاب المؤرخ الإنجليزي هيو كينيدي الذي يزيد حجمه عن 500 صفحة والذي يحمل عنوان "الفتوح العربية الكبرى: كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه؟".

هذا الكتاب يكشف عن معالجة مهمة للغاية عاد فيها المؤلف إلى مصادر عربية مثل تاريخ الطبري لكنه وازن النصوص مع مصادر بيزنطية وأوروبية معاصرة لتلك الفترة. وأجمل ما في الكتاب أن المؤرخ يقرأ علينا الأحداث التي نعرفها لكنه ليس أسيرا مثلنا، هو متحرر من الانتماء العقائدي، متحرر من أي مخاوف من تصنيف الأقران (العرب والمسلمين) ولذلك جاءت معالجته بالغة الجدة

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع

أهل الصنایع
طوائف الحرف.. رابطات العمال قبل النقابات

فؤاد مرسي

دراسات



يمكن التعامل مع نظام طوائف الحرف بوصفه المفهوم المبكر لنظام النقابات الحديث الذي عرفته مصر في مطلع القرن العشرين، حين قضى ذلك النظام انضواء العاملين في كل حرفة تحت لواء رابطة واحدة يقودها شيخ الطائفة

أهل الصنائع

طوائف الحرف..

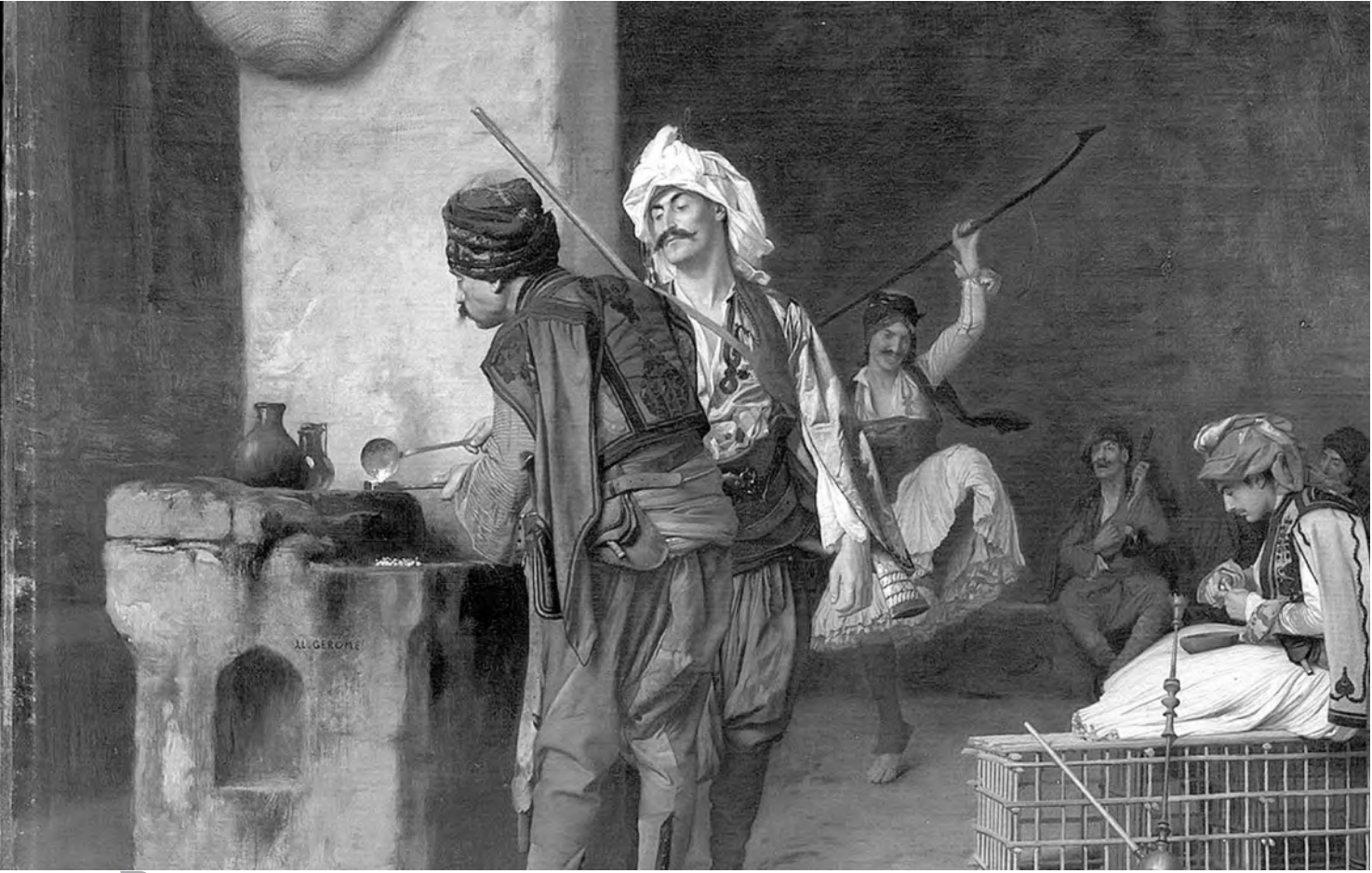
رابطات العمال قبل النقابات

دراسات

● فؤاد مرسي



قبل أن يطلق الزعيم محمد فريد دعوته التاريخية لتأسيس نقابات للعمال، كانت طوائف الحرف في هزيعها الأخير، تعاني شحوب سلطانها الاقتصادي والاجتماعي، كما أن أصابع الرأسمالية كانت تعبت في هياكل المجتمعات، بما استلزم إيجاد صيغة لضمان حقوق العمال، الذين أقبلوا على المصانع الحديثة، وتخلوا عن المظلة القديمة التي جمعتهم على مدار قرون عديدة داخل سياق واحد، مع ذلك يمكن التعامل مع نظام طوائف الحرف بوصفه المفهوم المبكر لنظام النقابات الحديث الذي عرفته مصر في مطلع القرن العشرين، حين قضى ذلك النظام انضواء العاملين في كل حرفة تحت لواء رابطة واحدة يقودها شيخ الطائفة، فيما الروابط مجتمعة تخضع لشيخ مشايخ الطوائف وهو الرئيس الأعلى لها، الذي حمل في العصر العثماني لقب "شاهبندر التجار" وكان يمثل حلقة الوصل بين الطوائف والحكومة.



عدم الغش، كذلك منعت بعض الطوائف عمالها من الاشتغال بحرف أخرى، أو الدعاية والإعلان عن منتجاتهم.

وإن كانت طوائف الحرف قد بزغ نجمها في العصر العباسي، وأدت دوراً بارزاً في حياته العامة، فإن نفوذها اتسع في العصر الفاطمي، ومُنحت امتيازات، والتفت إليها الفاطميون ووجهوا إليها الأموال من أجل تمكين مذهبهم الشيعي في نفوس المصريين؛ لذا نجد أن الدعوة الإسماعيلية حاولت النفاذ بين صفوفها لتكوين ظهير اجتماعي واقتصادي كبير يؤازر دعوتها من جانب، واستخدامه عند الضرورة في مواجهاتها السياسية من جانب آخر. كذا ارتبطت بعض الطوائف بالطرق الصوفية، بدافع تعزيز وجودها الاجتماعي.

ويتضح من تصفح الحالة الاجتماعية في مصر المملوكية أن طوائف الحرف شكلت الجانب الأكبر من الطبقات الاجتماعية، وإذا كان معظمها انتقل سكنياً إلى أحياء القاهرة المملوكية فإن البعض منها ظل باقياً في مكانه المتوارث منذ العهود الأولى،

استقرت تلك الطوائف على هيئة كيانات اقتصادية واجتماعية ذات طبيعة إنتاجية، قائمة بذاتها، ضمت أصحاب المال والعمال معاً، وأوجدت نظاماً محكماً لضبط بنيتها، فوضعت اللوائح التنظيمية والتنفيذية لتقنين شؤونها الداخلية، وتحديد العلاقات بين العمال وأصحاب العمل بما يضمن حقوق وواجبات كل طرف من جانب، وبين المنتج والمستهلك من جانب ثان، بما يضمن حقوق المشتري وعدم التدليس عليه أو الغش والمبالغة في الأسعار، كما أقرت فيما بينها نظاماً تعاونياً قضى بتقديم الإعانات للعمال في حالات المرض أو البطالة، فلضمان جودة الإنتاج قامت الطوائف بالإشراف على العملية الإنتاجية، وبالتفتيش على أصحاب الأعمال أو الحرف، لتتأكد من جودة منتجاتها ومدى مطابقتها للمواصفات الموضوعية، ومنعت العمل ليلاً حتى لا يتدهور مستوى الإنتاج من جهة، ولا يزيد عن حاجة السوق من جهة أخرى فينخفض الثمن، كما حتمت بعض الطوائف على الحرفي العمل في محله أمام الجمهور، ليسهل عليهم مراقبتهم وضمان

هيكل طوائف الحرف

انبنى الهيكل الإداري للطائفة نزولاً من القمة إلى القاعدة على النحو التالي:

أولاً: شيخ الطائفة: هو الشخص الأول المسؤول عن أبناء طائفته، وينتخبه العاملون بالحرفة، وتعتمد السلطة العليا هذا الانتخاب، وفي كثير من الأحوال تركز ذلك المنصب بطريق الوراثة في عائلة بعينها ولم يكن ينتقل إلى آخر إلا في حالات الوفاة أو الاستقالة أو العزل من قبل الحاكم سواء لعدم التوافق معه أو بسبب مطالب أبناء الطائفة. وكان لشيخ الطائفة صلاحيات واسعة في تأديب أعضاء الطوائف، ووضع القواعد الضامنة للالتزام بتقاليد الحرفة وأخلاقياتها، في سياق لائحته الخاصة.

تولى شيخ الطائفة حل الخلافات بين الحرفيين أو بينهم وبين عملائهم، كما كان ضامناً للحرفيين العاملين تحت رئاسته لئلا يهربوا إلى مكان آخر تخلصاً من ديون عليهم أو إتاوات مفروضة من جانب السلطة، أو فراراً من مشكلات تورطوا فيها، ورغم كونه الشخص الأول المسؤول عن أعضاء طائفته، فإنه من العادات التي التزمها أصحاب الصناعات أن شيخهم حين يتعرض لضائقة مالية كانوا يتعاونون معاً من أجل فك ضائقته.

ومن وقائع كثيرة يُستدل أن بعض هؤلاء الرؤساء، ربما، اشتروا مناصبهم سواء بالرشوة أو ببذل الأموال، إضافة إلى اعتيادهم تقديم مبلغ من المال لكل محتسب جديد يتولى شؤون الحسبة.

ولتحقيق شرعية مناصب هؤلاء الشيوخ كانت المحكمة الشرعية تقر تعيينهم على رئاسة طوائفهم بحضور أعضائها وشهودهم بذلك، وتصدر مرسوماً يحدد نطاق عمله ومسؤولياته وواجباته، والالتزام بطاعته من قِبَل طائفته.

ورغم عدم التدخل المباشر من جانب الحكومة في ذلك النظام، فإن شيوخ الطوائف وفق هذه الخلفية

على نحو ما نجد من تركز لطائفة الفخاريين والخزافين في الفسطاط، جنوب غرب القاهرة الفاطمية. حيث كانت الفسطاط واحدة من مراكز الصناعات الكبرى منذ دخول الإسلام مصر. وقد أطلق عليهم أحياناً مسمى: أهل الصناعات، وأحياناً أخرى اسم "الأصناف"، وتارة ثالثة: أصحاب الحرف. وكانت كل حرفة تتركز في منطقة جغرافية بعينها ترتبط بأسواق تصريف منتجاتها، كما كان أصحاب كل حرفة يسكنون، غالباً، حارة بعينها، وهو الأمر الذي نستشفه من أسماء الحارات: الصنادقية، المغربيين، الصاغة، الخيامية، والسقايين.. إلخ، وإلى جانب خضوع كل طائفة مهنية إلى شيخ يرأسها، فقد كانت هذه الحارات من جانب ثان يضطلع بأموورها الإدارية شيخ الحارة، ضمن الهيكل التنظيمي الذي وضعته الحكومة لتمكينها من مفاصل المجتمع.



طوائف الحرف بزغ نجمها في العصر العباسي، وأدت دوراً بارزاً في حياته العامة، واتسع نفوذها في العصر الفاطمي، ومُنحت امتيازات، والتفت إليها الفاطميون من أجل تمكين مذهبهم الشيعي في نفوس المصريين

وإذا كانت هذه الطوائف قد نشأت من تلقاء نفسها تلبية لاحتياجات أعضائها وتنظيم شؤونهم وسنّ الحدود والحقوق والواجبات وضبط علاقاتهم من جانب، فإنها من جانب آخر عملت على تنظيم العلاقة مع أسواق منتجاتهم ووضع الأسعار المناسبة لمجهوداتهم، والتحكم في كمية المعروض منها بالأسواق، حدث ذلك دون تدخل مباشر من السلطة المملوكية التي اكتفت بإسناد الرقابة عليها إلى وظيفة المحتسب، وهو الرجل الذي كان معنياً بشؤون الأسواق، ومن خلاله كان يمكن السيطرة بطريق غير مباشر على حركة هذه الطوائف، سيما أنها كانت تمثل مصدر قلق دائم للحكومات،

عبر هبات وانتفاضات كانت تقوم بها ضد القرارات الاقتصادية الجائرة وتعسف الولاة أو نوابهم تجاههم، خصوصاً في أزمنة الأوبئة والمجاعات، سواء للمطالبة بتحسين أوضاعهم أو توفير الخامات اللازمة لصناعاتهم، وفي يوميات ثورة القاهرة الثانية نطالغ الكثير من الصفحات المشرفة لكفاح تلك الطوائف ضد الحملة الفرنسية.

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع

مايا 25

والصبيان، وغالبًا كان هو صاحب العمل نفسه ومالك رأس المال، ويمثل شيخ الطائفة داخل ورشته. وقد أطلق عليه أحيانًا لقب المختار.

رابعًا: العمال: وهم المزاولون للحرفة، ولم يكن مسموحًا لهم الانتقال من حرفة إلى أخرى إلا بعد إجراءات شديدة التعقيد ضمانًا لاستمرار الحرفة واستقرار شؤونها، فيما كان مسموحًا لهم بعد اكتساب خبرة معينة وإتقانهم مهارات العمل وادخار المال اللازم أن يستقلوا بأنفسهم وينتقلوا إلى ورشة أخرى أو يؤسسون ورشة جديدة لهم والاشتغال لحسابهم الخاص.

وفي كثير من المشغولات القديمة التي نطالها في المساجد أو أسواق التحف نثر على اسم الصانع محفورًا على جانب المشغولة، كما هي العادة المتبعة حتى الآن لدى الخطاطين الذين يحرصون على تذييل اللافتة بأسمائهم، وهو أمر كان مُحضراً بالطبع لإتقان العمل وإبراز المهارة، وقد بلغت صور المنافسة بين أصحاب الصناعات، وفقًا لابن الوزان، الشهير بـ"الإفريقي" أنه حين كان يقوم أحدهم "بعمل شيء يدل على الابتكار الذي لم يسبقه فيه أحد، كان يضع ما صنعه على كسوة حريرية ويطوف به على الدكاكين مصحوبًا بموسيقيين، فيعطيه كل واحد بعض النقود مكافأة له على الابتكار والمهارة وقد بين ليو الإفريقي أن أحد السقائين الذين كانوا يتجولون حاملين القرب المعلقة برقابهم، راهن بأنه سيجمل قرية مليئة بالماء ومربوطة بسلسلة حديدية لمدة سبعة أيام من الصباح إلى المساء إلى أن ربح الرهان وقد تلقى الحفاوة لفوزه وسار في موكب ضم الموسيقيين وجميع سقائي القاهرة"^[2].

وكأي هيئة اجتماعية؛ ظهر بين أعضاء الطوائف ثلة من الأدباء النابهين، ذوي الخصوصية اللافتة، فالشاعر الكبير أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم: من كبار شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية، كان جزازًا، ثم احترف الأدب، ونظم الأشعار، وكذا معاصرٍه: الشاعر بن أبي الربيع الخياط، والأديب السراج الوراق (ت: 695 هـ/ 1295م) والشاعر النصير الحمامي، والشاعر الصوفي أبو الحسن بن الصباغ (ت: 613 هـ) واللغوي البارع أبي منصور الثعالبي الضراء، الذي كان يعمل بخياطة جلود الثعالب، والإمام أبو حامد الغزالي، المنسوب اسمه لحرفة أبيه، وكان يعمل في الغزل.

خامسًا: الصبية: وهم المبتدئون، المتدربون الناشؤون، أصغر حلقة في هذا البناء، ولم تكن هناك مدة محددة لتدريبه، بل كانت ترتبط غالبًا



اعتبروا ذراع الحكومة في عالم الصنائع، وكانت الحكومة تستعين بهم دائمًا لتوفير احتياجاتها من منتجات بعينها، أو إمدادها بصناعات مهرة لإنجاز أعمال مخصوصة بها، ففي عام 1828 أُلزم الديوان الخديو شيخ الخياطين بتدبير مائتي خياط وإرسالهم إلى ورشة الخياطة بالدوايرية، وذلك لإنهاء خياطة الملابس المطلوبة قبل العيد، كما كلف الديوان شيخ الترزية بتدبير 300 ترزي مصري ومائة ترزي من الأرناؤوط وخمسين من ورشة الترزية بالقلعة وإرسالهم إلى ورشة ترزية الجوخ لإنهاء الملابس المطلوبة للأليات^[1].

ولضمان هذه السيطرة في العصر العثماني كان "الكتخدا" (نائب الوالي) يدير شؤون الطوائف حال غياب شيخها. ثم استحدثت الدولة العثمانية في عام 935 هـ، الموافق 1528 م وظيفة أمين الخردة وكانت مهمته: إدارة الطوائف التابعة له والإشراف عليها وجمع الضرائب من أصحابها.

وكان شيوخ الطوائف يحصدون دخولهم من حاصل الضرائب الذي كانوا يجمعونه من أعضاء طائفتهم، وهو النظام الذي ألغي في عهد الخديو إسماعيل، الذي جعل تحصيل الضرائب في يد الحكومة وحدها.

ثانيًا: النقيب: وهو نائب شيخ الطائفة في إدارة أمورها، كما كان حلقة الوصل بين الطريقة الصوفية التابع لها وأعضائها من الحرفيين، فضلاً عن قيامه بتنظيم حفلات الترقية من مكانة إلى أخرى داخل دوائر العمل.

ثالثًا: المعلم أو الأسطى: وهو أكبر الشخصيات في مكان العمل (الورشة) ويشرف على العمال



فيه المهنة التي تعلمها باختباره، فإن اطمأن إلى إجادته للصناعة يقترب منه ويشد حول وسطه حزاماً أو شالاً، وهنا يعتبر (الشد) شعيرة مميزة لدخول الشخص في الحرفة، كما أنه دلالة على تقيد الداخل في الحرفة بواجبات بعينها نحو الجماعة كلها.

وفي أثناء عملية الشد تعقد عدة عقد أقلها ثلاث وأكثرها ست بالنسبة لعدد المعلمين الكبار الموجودين في الاحتفال، ولهم في ذلك اصطلاح فالعقدة الأولى تعد هي الأسطاوية، ويحلها معلمه الذي رباه وعلمه الصنعة، والثانية تسمى الرتبة ويقوم بحلها شيخ الطائفة، والثالثة يحلها أحد الأسطاوات الموجودين في الحفل.

وبعد الشد يخلق للمحتفى به أحياناً جزء من شعره ثم يلبس ملابس خاصة كاللباس أو السراويل عند أهل الحرفة أو الخرقعة على الكتفين، ويؤخذ عليه العهد وبعض التعاليم المتعلقة بواجباته الجديدة مع إجازته بممارسة الصنعة، ثم يأخذ مكانه على السجادة إلى جانب زملائه لتناول الطعام التقليدي ويطلق عليه الوليمة أو التلميح. (ص 151).

ومن اللافت هنا أن أعضاء الطائفة كانوا يتمتعون بحق الاعتراض على ترقية أحد العمال في حال إذا ما تقدم أحدهم بما يثبت عدم إتقانه لحرفته، أو لم يراع اعتباراتها وأخلاقياتها.

ببلوغه مرحلة الرجولة واكتسابه مهارات الحرفة وإتقان أشغالها حتى يرتقي إلى مرتبة العامل، كما لم يكونوا يحصلون على أجور إلا في أضيق الحدود، مع السماح لهم بالحصول على البقشيش من الزبائن.

وكان الصبي يعيش فترة تدريبه غالباً لدى معلمه، إذ يتولاه بين أبنائه إيواء ورعاية مقابل طاعة الصبي إلى أن يتعلم الحرفة ويصبح قادراً على تحمل مسؤولية العمل. وهذه العلاقات كانت تنتهي غالباً بزواج الصبي من ابنة معلمه، إضافة إلى أن معظم الصبية كانوا من أبناء الأسطوات أو الحرفيين أنفسهم، فأساس العمل الحرفي في مصر يتسم بالنظام العائلي ضمناً لتناقل وتوارث الحرفة، ومن هنا نطالع أسماء عائلات تخصصت في حرفة بعينها، وتوارثتها فيما بينها، حتى باتت تُعرف بها وتحمل لقبها، مثل عائلة الزيّات، نسبة لصناعة الزيوت، والطباخ نسبة لاشتغالهم بشؤون الطبخ والمطابخ، السقا، العسال، السراج، اللبان، القفاص، الشمع، النساج، النشار، النجار، الطحان، الدباغ، القزاز، والوزان... إلخ.

طقوس العبور

كان الانتقال من مرحلة حرفية إلى أخرى أعلى مكانة حدثاً مهماً، ذا طبيعة طقوسية تشبه "طقوس العبور"، التي يقوم بها المجتمع عند انتقال الإنسان من طور إلى طور حياتي آخر (الميلاد، الختان، الزواج، الحج، الوفاة)، وهي طقوس رمزية محتشدة بالدلالات والتلميحات، فانتقال الصبي إلى مرحلة العامل كان يتم من خلال احتفال يُقام في بيت والد الصبي وهي الاحتفالية التي أطلق عليها لدى الطوائف مسمى "الشد والحزم".. تصف لنا "محاسن الوقاد" مراسم الاحتفال بترقية الصبي إلى حرفي، بقولها: عند انتهاء الصبي من تدريبه تحت إشراف أحد المعلمين، فإن معلمه يخبر شيخ الحرفة بذلك فيدعو الشيخ أهل الحرفة لحضور حفل ترقيته، فيأخذ النقيب باقة من أي عشب أو من زهور ويوزعها على المدعوين، ثم يعلن عن ميعاد الاحتفال، وفي الاحتفال كان المعلم يصطحب صبيه إلى مكان الاحتفال حيث يكون هناك شيخ الطائفة والنقيب والمخاترة مجتمعين وتبدأ مراسم ذلك الاحتفال بأن يقرأ الجميع الفاتحة، وبعد ذلك يسأل الشيخ المعلم والصبي سؤالاً تقليدياً يستفهم به عن سبب مجيئهما، فيجيب المعلم بأن الصبي قد أتم تعلم الصنعة ويرغب في فتح حانوت يمارس

المعتقدات واللغة السرية

على المسار الثقافي؛ تكونت لدى الطوائف الكثير من الأدبيات والعادات والمعتقدات الثابتة، خصوصاً المتعلق منها بنسب الحرفة، فالخطاطون والخياطون ينسبون أنفسهم إلى سيدنا إدريس، الذي كان "أول من خط وخاط". والحدادون ينتسبون إلى سيدنا داود الذي عمل بحرفة الحدادة، ولذلك فإن كثيرا من الخطاطين والخياطين بمن فيهم صانعي الخيام أو المطرزين لا يعملون فإن كانوا متوضئين، كما أن الحدادين يرفضون صناعة أعمال سحرية



من عنصر الحديد، فإن كان فيما يفيد، على نحو مانجد في بعض التماثم ومنها "الماسكة" وهي قلادة تصنع للمرأة التي تتعرض للإجهاض المستمر بغرض تثبيت حملها، وكذلك لا يسمح الخبازون أبدا بإلقاء أي قطعة من العجين رسمت على هيئة شخص في جوف النار بغية حرقها، في إطار ما يعرف بالسحر التشاكلي، الذي يظن أنه يمتلك إحدى تأثيراته من تمثّل صورة الشخص المطلوب إيذائه على قطعة العجين وإحراقها... إلى آخر هذه السلسلة من المعتقدات المرتبطة بالحرف التقليدية.

ومن خصائص "أهل الصنایع" وجود لغة اصطلاحية خاصة، تسري بين أبناء الحرفة الواحدة، لا يتقنها غالبا إلا من يصل إلى مرحلة الصانع/ العامل، وعلى الصبية ملاحظتها والتقاطها من خلال المحادثات وإدراك رموزها حتى يجيدونها، وهي لغة اصطلاح على تسميتها بـ "السيم"، وتقوم على استبدال الألفاظ التقليدية بمصطلحات مستخدمة داخل الحرفة ومن بينها استخدام أسماء العدد والأدوات للإشارة

إلى دلالات أخرى، بحيث لا يفهمها إلا أبناء الحرفة، وهذه اللغة تتيح لأبناء الحرفة أن يتحدثوا معا دون أن يفهم الزبون ما يقولونه، بل إنها تسمح لهم بالسخرية من الزبون نفسه أو التهكم عليه أو الإيعاز بغشه دون أن يفهم ما يدور بينهم.

فطائفة النقاشين على سبيل المثال استخدمت لفظ (الجفت) للإشارة إلى الرجل، و(السكينة) للإشارة إلى المرأة. والجفت هو الأداة المعروفة من أدواتهم وتستخدم في تغذية الأماكن الضيقة بالمعجون، أما السكينة فتستخدم للغرض ذاته ولكن في المساحات الكبيرة. كما يُشار هنا أن طائفة المنجدين والخياطين يستخدمون لفظ الإبرة للإشارة إلى المرأة، أما (الكستبان) للإشارة إلى الرجل، وهي ألفاظ مستمدة من أدواتهم في العمل كما هو معروف.

وعن المشروبات؛ فالشاي يُطلق عليه بين النقاشين (الشيخ سرور) لما يحدثه من انتشاء، والقهوة (الشيخ حبشي) إشارة إلى لونها البني الغامق. أما أسماء العملات؛ فالجنيه يسمى: قايم، والجمع: قوايم، والخمسة جنيهات يطلق عليها كف، توظيفا لأسماء الأدوات المستخدمة في المهنة، أما العشرة فيطلق عليها (المادنة)، مستلمهم من مئذنة الجامع. والخبز يطلق عليه (المدماك) والجمع "مداميك"، والمدماك هو الدعامة المعمارية. أما اللحم فيطلق عليه (الصُرفان)، وهو المصطلح المتداول مهنيًا للإشارة إلى بقايا الجير التي تتراكم في قاع البرميل بعد تذويب أحجار الجير في الماء، وخلافه.

كرنفالات الطوائف

ورغم توتر العلاقات في غالب الأوقات بين الحكومة وأهل الصنایع بسبب القرارات المجحفة، فقد كانت الحكومة تستخدمهم كفقرة أساسية في الاحتفالات العامة والمناسبات الدينية، إلى جانب حفلات زواج الأنجال (آل الأسرة الحاكمة). وحين نطالع وصف موكب الاحتفال بخروج المحمل أو موكب رؤية هلال شهر رمضان أو الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فإن مشهد حرفيي مصر وهم ينتظمون في هذا الموكب أو ذاك، كان من الأمور المدهشة

تولده شيخ الطائفة حل

الخلافاً بين الحرفيين أو

بينهم وبين عملائهم، كما

كان ضامناً للحرفيين العاملين

تحت رئاسته لتلا يهربوا إليه

مكان آخر تخلصاً من ديون

عليهم أو إتاوات مفروضة



علمه المسار الثقافي؛

تكونت لدى الطوائف الكثير

من الأدبيات والعادات

والمعتقدات الثابتة، خصوصاً

المتعلق منها بنسب الحرفة،

فالخطاطون والخياطون

ينسبون أنفسهم إلى سيدنا

إدريس، والحدادون إلى سيدنا

داود..

تتميز بها عن غيرها، وما يحتاجه أيضًا من أخشاب وجمال وحمير أو رجال يسحبونها، فتصير في الشكل كأنها محل والبائع جالس فيها.. وبلغت جملة العربات ٩١ عربة بخلاف أربع عربات مخصصة للعروس، وكان أمام كل عربة أهل حرفتها وصناعها مشاة خلف الطبول والزمر، وهم مزينون بالملابس الفاخرة، التي كان أكثرها مستعارة. وأخذوا منذ يوم الأربعاء يمشون من تحت بيت الباشا. ويأتي كبير الحرفة بورقته الى المتعين لملاقاتهم، فينعم عليه بخلعة ودرهم كما يعطي البعض شال كشميري وألفين فضة، أو البعض طاقية تفصيلة قطن وأربعة أذرع جوخ، على قدر مقام الصنعة وأهلها، واستمر مرورهم من أول النهار إلى آخره ولما أصبح يوم الخميس رتبوا مرور الزفة [3].

أطياف أخرى

لم يكن نظام طوائف الحرف منتشرًا فقط بين أصحاب الحرف الإنتاجية، ذات البعد الاقتصادي المباشر، بل كانت هناك أيضًا تشكيلات من الطيوف الاجتماعية الأخرى تتبع ذلك النظام، فالخانقاوات الصوفية كان لها شيخها المشرف على شؤون الخانقاة واحتياجات المتصوفة، وذلك المنصب لم يكن يُعهد به إلا للورعين الأتقياء، العارفين بالعلوم الشرعية.

والخانقاوات هي منشآت دينية، عرفتها مصر في العهد الفاطمي، ووجدت خصيصًا من أجل إقامة المنقطعين للعبادة بها، وتوسع الموسرون في إقامتها ووقف الممتلكات للإنفاق عليها.

كذلك خضعت المنافع العمومية كالحمامات الشعبية لذلك النظام المحكم، حفاظًا على صحة الناس

وحرمة أسرارهم. فالحمام مسؤول عنه شخص يسمى "الحمامي" وكانت لهذه المهنة شروط صحية لا بد أن تتوافر فيمن يشغلها، من أهمها النظافة الشخصية إلى جانب الأمانة والاستقامة، وكان يساعده في عمله مجموعة من الناس، منهم من

والمحتشدة بالدلالات والمعاني الاجتماعية. فقد كان الحرفيون جميعًا يشاركون في ذلك الموكب بأن يقوم كل واحد منهم بتقديم نموذج مصغر لورشته محمولًا فوق عربة كارو يستأجرها خصيصًا ويزينها لهذه المناسبة، فيبدو وكأنه انتقل بمحله ليمضي في هذا الطابور مستعرضًا أدائه لحرفته، فهذا جزار وقد علق أمامه ذبيحة وإلى جانبه (قُرمة) تقطيع اللحم والميزان، وبدا كأنه يزن لزبون رطل لحم، أما الكفاني فقد وقف أمام الفرن يرش فوق صينيته النحاس عجين الكنافة السائل ثم يجمعها

بيديه أمام الجماهير، وذلك الإسكافي جلس أمام البنك يخيط حذاء، أما الترتزي فتراه منهما في تركيب أزرار جلاباب.. إلى آخر هذه اللوحة البديعة التي كان يستعرض الصُّناع من خلالها فنون صناعاتهم وإبراز مهاراتهم وعرض بضاعتهم أمام الجماهير المحتشدة لرؤية هذا الكرنفال البديع، الذي لم يكن يقل فخامة عن أكبر معرض للصناعات في عصرنا الحديث، يتولى تعريف الجماهير المحتشدة بالصناعات المحلية وأشهر رجالها، بما كان يعمل، من جانب، على دعم أهل الصناعات وترويج منتجاتهم.

يذكر "محمود الشرقاوي" في كتابه "مصر في القرن الثامن عشر" أن أهل القاهرة أقاموا مهرجانًا شعبيًا احتفالًا بختان ابنة زعيمهم عمر مكرم، وسار فيه أصحاب الحرف المختلفة، يقودون عرباتهم وهي تمثل الحرفة أو العمل، الذي تمارسه الطائفة منهم.. وعندما احتفل محمد علي في 31 ديسمبر سنة 1٨١٢ بعقد قران ابنه إسماعيل، استمر الحفل إلى ليلة الجمعة التالية ليلاً ونهارًا، وخلال تلك

الفترة نبه على أصحاب الحرف والصناعات بعمل عربات مشكلة وممثلة لحرفتهم وصنائعهم ليمشوا بها في زفة العروس، ولذا فرض رئيس كل حرفة على أفرادها فرائض ودرهم يجمعها وينفقها على العربة، وما يلزمها من زينة وأدوات الصنعة التي



من خصائص "أهل الصنائع" وجود لغة اصطلاحية خاصة بين أبناء الحرفة الواحدة، لا يتقنها إلا من بلغ مرحلة الصانع/ العامل، وعلوه الصبية ملاحظتها والتقاطها، وهي لغة اصطلاحية تسميتها بـ "السيم"



لم يكن نظام الطوائف منتشرًا فقط بين أصحاب الحرف الإنتاجية، بل وجدت تشكيلات من الطيوف الاجتماعية الأخرى تتبع ذلك، فالخانقاوات الصوفية كان لها شيخها المشرف على شؤونها واحتياجات المتصوفة



الضريبة المفروضة على مهنة البغاء [4]. وكان من بين مهام ضامانات المغاني البحث عن الأصوات الجديدة المميزة بين الجوّاري واكتشاف مواهبهن وتعهدهن بالرعاية لإمداد حفلات السلاطين والأمراء بهن، من هنا نستطيع أن نفهم كيف نفذ هؤلاء إلى بلاط السلاطين وحظين بمكانة مهمة لدى أولي الأمر، بل ضالعات أحياناً في توجيه القرارات. كذا اتسعت سلطة ضامنة المغاني لتشمل الإشراف على الواعظات والقارئات والندابات والعازفات والمغنيات وجميعهن أدرجن تحت مسمى "المغاني"!

ومع الربع الأخير من القرن السابع عشر باتت البغايا تسجلن في سجلات الشرطة وتحصى أعدادهن، وتحفظ الشرطة هذه السجلات التي تضم أسماء محترفي البغاء من النساء ومن الذكور لأغراض الضرائب، وكانت هناك ثلاثة نطاقات لمن يسمون (شيوخ العرصات) يعمل أحدهم في القاهرة، والثاني في بولاق، والثالث في مصر القديمة. كانت مهمة هؤلاء الشيوخ هي جمع الضريبة من النساء والصبية، وكان تحت إدارة قائد الشرطة (الصوباشي) أربعون رجلاً يعرفون بجاويشية باب اللوق مهمتهم حصر الصبية والبغايا ومعرفة من قضى منهم الليل خارج منزله أو داخله. وظل هذا النظام سارياً حتى أبطله الوالي حسين باشا جنبلات (1673—1675م) [5].

ورغم أن القوانين كانت تحدد أماكن ممارسة البغاء وحصرها داخل أحياء بعينها، لسهولة السيطرة

يختص بحفظ ملابس الرواد ومنهم من يقوم بتدليك أجسام المترددين على الحمام، أو حلاقة شعرهم. وكان "الحمامي" يشرف على كل العاملين بالحمام، بل ويختارهم بنفسه وفقاً لآداب ومتطلبات المهنة، متخذاً مجلسه في مدخل الحمام ليتمكن من متابعة العمل. وهؤلاء الحمامية جميعاً يخضعون لشيخ طائفة الحمامية.

ضامنة المغاني

حتى الطوائف المنبوذة اجتماعية، كالبغاة واللصوص، عرفت هذا النظام فيما بينها، فقد توسع العصر المملوكي في الاعتراف ببنات الخطأ أو الخواطيء، إلى الصورة التي جعلت منهن طائفة مهمة تجني الحكومة من ورائها الضرائب، وعينت لهذا الشأن مشرفة عرفت باسم "ضامنة المغاني"، تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها، وكانت هذه الضامنة تتعهد بدفع مال إلى الدولة في مقابل أن تتولى جمع ضريبة المغاني من النساء البغايا في مقابل حماية الدولة لهن... ويبدو أن الموقف الرسمي للدولة المملوكية من ممارسة البغاء ارتبط بالظروف الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة من يتولى السلطنة، فعندما ينقص منسوب مياه النيل؛ يسود اعتقاد بأن ذلك مرجعه إلى غضب من الله سبحانه وتعالى على الرعايا لانتشار الرذيلة والفساد ومن هنا يأتي تحريم الحرف المرتبطة بهذا الفساد ومنها البغاء، وحينما يتولى سلطان جديد السلطنة تصدر بعض القرارات لاسترضاء الرعايا منها إلغاء

وهاجر بعائلته إلى بلد آخر، فراراً من الملاحقة، وهو ما جعل محمد علي يقوم بتأسيس مراكز لتدريب وتعليم الحرفيين للتعويض عن الفارين. وإزاء تلك الحركة انقسم الحرفيون إلى فصيلين، الأول انخرط في ورش الحكومة التي أنشأها الباشا، والآخر ظل يعمل بمفرده تحت إشراف الحكومة، وفيما راح الأول يتقاضى أجوراً ثابتة وكبيرة نسبياً، فقد عانى الثاني من القرارات المالية التي كان يتحمل عبئها لتمويل الحكومة، وهو ما أدى إلى اختيار القطاع الثاني للعمل في مصانع الحكومة، وهو المسلك الذي عكسه المثل الشعبي القائل: إن فاتك الميري اتمرغ ف تراه.

ومع التوسع الرأسمالي في صبيحة القرن العشرين وإقبال الأجانب على الاستثمار في مصر، بالاستفادة من الامتيازات والحماية الممنوحة لهم؛ تفاقمت مشكلات الحرفيين على المستويين: المادي والفني، بصورة واضحة، وانسحب إسهامهم الاجتماعي والاقتصادي الأصيل، وذوت المواهب الفردية جراء إدماج العاملين في قالب نمطي واحد، فطفت على السطح مشكلات نفسية واجتماعية جديدة، فرضت البحث عن نظام بديل يضمن حقوق العمال، وهي الفكرة التي التقطها الزعيم "محمد فريد" وجرى بها بين ربوع البلاد.

- [1] - عبد السلام عبد الحلیم عامر، طوائف الحرف (1914-1805م)، هيئة الكتاب، صص 54-55.
- [2] - راجع: محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، هيئة الكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، 1999، ص 150.
- [3] - انظر: عبد السلام عبد الحلیم عامر، مرجع سابق، صص 42-43.
- [4] - محاسن الوقاد، مرجع سابق، صص 147، 148.
- [5] - د. عبد الوهاب بكر، مجتمع القاهرة السري (-1900 1950)، العربي للنشر والتوزيع، 2011، صص 12-13.
- [6] - المرجع السابق، ص 18.

عليها ومراقبتها إلا أنها كانت تتمكن من اختراق هذه السيطرة والنفوذ إلى الأحياء الأخرى.

يذكر الجبرتي في "عجائب الآثار" أن الحملة الفرنسية، استحدثت بغيط النوبي المجاور لحي الأزيكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة وقرروا على كل من يدخل إليها قدرًا مخصوصا يدفعه أو أن يكون قد حصل على إذن بذلك من السلطات.

كما كانت الحكومة تقوم بتوقيع الكشف الطبي على تلك الطائفة من الممارسات للتأكد من خلوهن من الأمراض المعدية، وكن يمنحن رخصة لمزاولة المهنة هي التي عرفتها السجلات باسم (أورنيك نمرة 11)

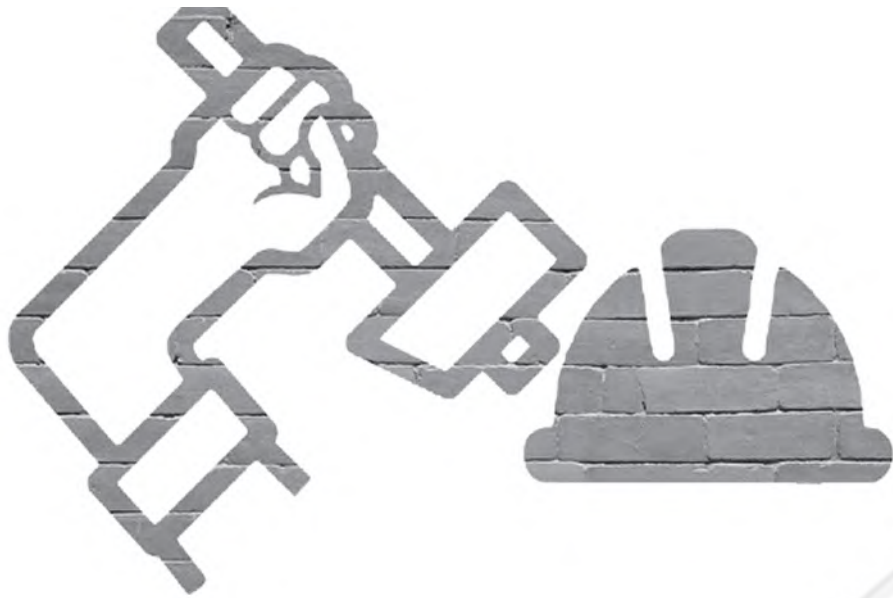
وإذا كان نظام طوائف الحرف بدأ في الانسحاب النهائي من الحياة مع أواخر القرن التاسع عشر، فإن طائفة البغايا، ظلت تعمل بنظامها القديم حتى الأربعينيات من القرن العشرين، حيث بدأت تغلق تلك المحال على مراحل، ففي "عام 1942 صدر أمر عسكري بإغلاق (بيوت العاهرات) في البلاد ما عدا عواصم المديرية والمحافظات - أي "المدن" بما فيها القاهرة التي ظلت مسرحاً لممارسة الدعارة المنظمة.

تبع ذلك صدور الأمر العسكري رقم 384 لسنة 1943 بإعطاء الحق للمديرين والمحافظين في إغلاق بيوت العاهرات في عواصم المديرية والمحافظات التي كانت مستثناة من الإغلاق في الأمر العسكري وفي النهاية صدر الأمر العسكري رقم 76 لسنة 1949 بإغلاق بيوت العاهرات في جميع أنحاء البلاد" [6].

نهاية عصر الطوائف

إن التوسع الصناعي ونظام الاحتكار الذي شهده عصر محمد علي؛ لاشك كان لها تأثيراته السلبية الواضحة على أصحاب الحرف، فقد راحت مصانع الباشا تمنح العمال أجرًا ثابتًا، وتغريهم بمزايا الالتحاق بها وتعويدهم على نظام الإنتاج الكبير، مما جعل الكثير من الحرفيين يؤثرونه على العمل الحر، الخاضع لقوانين السوق وتقلبات الأحوال السياسية والاقتصادية بالبلاد، مع ذلك لم يكن العمل في مصانع الباشا على هذه الصور الحسنة، فقد كان سوء المعاملة داخل هذه المصانع من قبل المشرفين على العمل يضطرهم للهرب، بل وبعضهم التجأ إلى عمل آخر وتنازل عن حرفته وترك بلده

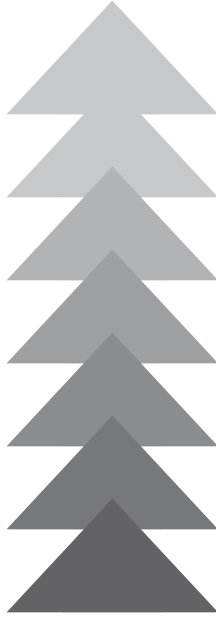
للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع



مصر النقابية في مئة عام (ملف)

قضايا





تحل هذا العام الذكرى المئوية لتأسيس أول اتحاد للعمال في مصر عام 1921، ولم تكن ولادة هذا الاتحاد سهلة، فقد سبقته ثورة 1919، باتجاهاتها الوطنية ودعوتها للاستقلال مع تراجع الأهداف الاجتماعية لها، وبعيد تأسيسه، انخرط العمال مع بقية القوى الاجتماعية في انتفاضات شعبية قصيرة المدى، حتى قامت ثورة يوليو 1952، وتغير من بعدها وضع الطبقة العاملة وأشكال تنظيمها، تغيرات لم تكن إيجابية في مجملها ولا زالت متواصلة حتى الآن.

في هذا الملف نستعرض عبر عدة دراسات ومقالات الأوضاع الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي تكونت فيها الطبقة العاملة المصرية، والسياقات التي أحاطت بتكوين اتحاد العمال الأول عام 1921، والمحطات الكبرى التي شارك في صوغها العمال بحضورهم القوي في أحداثها.

وفي الملف أيضًا ننشر شهادات لعدد من النقابيين من أجيال ومواقع مختلفة، ترسم للقارئ صورة لنضالات العمال في عقود مختلفة، ويتضمن الملف كذلك بورتريهات لرموز العمل النقابي والحقوقي والسياسي، الذين كتبوا تاريخ الطبقة العاملة المصرية في عنابر المصانع وأروقة المؤسسات وأمام المحاكم في قضايا شهيرة انتزعت بعضها حقوقًا مهمة للعمال.

تكوين الطبقة العاملة 1899 - 1914

الثقافة.. القومية.. التشكيل الطبقي

زكاري لوكمان

عرض وترجمة: أميمة صبحي



زكاري لوكمان

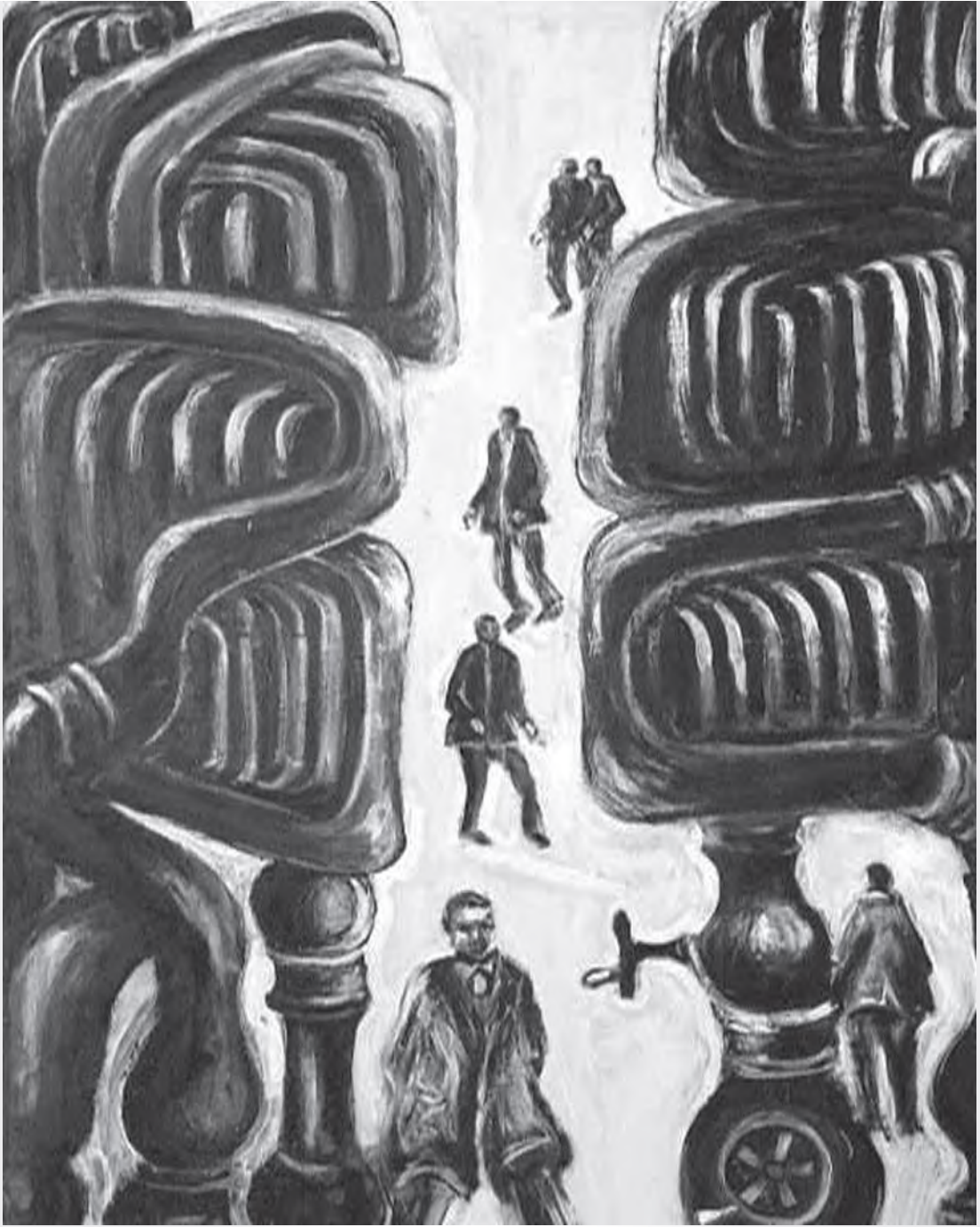
زكاري لوكمان أستاذ دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية والتاريخ بجامعة نيويورك. وهو مؤلف كتاب "بين الاستشراق ودراسات الشرق الأوسط: صراع الرؤى ومتغيرات المصالح".

نُشر هذا المقال كاملاً في Poetics Today (مجلة أكاديمية فصلية أدبية وشعرية)، صيف 1994، المجلد 15، العدد 2، "ممارسات المجتمعات العربية والإسلامية الثقافية في الوقت الراهن"، وجاء المقال تحت عنوان المقال (Imagining the Working Class: Culture, Nationalism, and Class Formation in Egypt, 1899-1914)

لرؤية جديدة لهوية الطبقة العاملة، وهي التنظيم والنشاط.

في بداية هذا القرن، كان عدد كبير من المصريين يعملون بالفعل مقابل أجر في مؤسسات صناعية وشركات نقل كبيرة نسبياً. ومع ذلك، لا يبدو أنهم تصوروا أنفسهم منتمين إلى أو مشاركين في تكوين الطبقة العاملة، أي أنهم يديرون هوية ووكالة اجتماعية مشتركة. في تمثيلات المجتمع المصري الذي كان سائداً آنذاك، كانت الطبقة العاملة في مصر ليس لها مكان مهم أو معنى بالحس الأوروبي المعاصر لهذا المصطلح. لكن بحلول نهاية العقد الأول من هذا القرن، وبالتأكيد بحلول الحرب العالمية الأولى، كان بعض المصريين، إن لم يكن جميعهم، يعتبرون العمال فئة اجتماعية مميزة،

على الرغم من رؤيتها كمنتج مباشر وآلي تقريباً للتطور الرأسمالي، فإن نشأة الطبقة العاملة في مطلع القرن في مصر، كما في كل مكان، كان عملية خطابية بقدر ما كان خطوات ملموسة، تجلت في الجدالات السياسية والأيدولوجية التي شارك فيها العمال وغير العمال. فتشكلت تمثيلات جديدة للمجتمع، بجانب وكيل اجتماعي جماعي جديد (الطبقة العاملة)، وفئة هوية جديدة (العمال)، جميعهم مرتبطون بالممارسات الاجتماعية الجديدة. وقد لعب المثقفون القوميون المصريون دوراً رئيسياً في هذه العملية، فبدأوا من أجل تعزيز مشروعهم السياسي الخاص، في تمجيد الطبقات الدنيا المحترمة سابقاً باعتبارها الجوهر الحقيقي للأمة المصرية والترويج



من أعمال فتحي عفيفي

عدد من العمال المعدمين، بعبارة أخرى، أدت إلى خلق طبقة عاملة مصرية. وتدرجياً اكتسبت تلك الطبقة الجديدة وعياً لنفسها من تجربتها ومقاومتها للاستغلال والاضطهاد في مكان العمل. وأخيراً فرضت تلك المقاومة، الإضرابات وتشكيل نقابات تجارية وما إلى ذلك، نفسها على بقية المجتمع المصري كوجود للطبقة العاملة، وكواقع اجتماعي، وبأنها ذات دور اقتصادي وسياسي كبير.

على النقيض من ذلك سيبدأ هذا المقال من فرضية مختلفة: أن تشكل الطبقة العاملة، وتشكل كل الطبقات، هو تشكل خطابي بقدر ما هو خطوات ملموسة. وفي مصر، يمكن تصور الطبقة العاملة

وأنهم مكون أصيل من مكونات المجتمع المصري، وأن صراع الطبقات ظاهرة أصيلة. وقد أشير إلى هذا التحول بدخول مصطلحات "عامل" و"عمال" و"الطبقة العاملة" في الخطاب العام والسياسي في مقاربة دلالية لمعناهم الحالي. وهدفي في هذا المقال هو تتبع بعض الطرق التي تم بها دمج هذه التمثيلات الجديدة للمجتمع المصري وكذلك بعض التحولات الاجتماعية والثقافية التي ساعدت في تعزيزه.

من منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر فصاعداً، أحدث الأجانب طفرة في الاستثمار الرأسمالي أدت إلى إنشاء شركات جديدة في مصر وتوظيف

أوقاتهم وأموالهم في معارك قانونية لا نهائية بسبب الممتلكات. على العكس من الطبقة الوسطى، التي هي في رأي عمر زهرة الأمة وزينتها وإذا حدث أي تحسن بين الأغنياء أو الفقراء، فإن الطبقة الوسطى هي التي تستحق الثناء. لكن نبرة عمر بدأت تتغير حين انطلق في نقد مطول لعلماء المسلمين، لكنه كان يؤيد صراحة محمد عبده في محاولات إصلاح الأزهر، وكذلك إصلاح نظام المحاكم الشرعية. علم أمراض الفقراء

وعلى الرغم من كل عيوب الطبقات العليا والمتوسطة في مصر، فإن تصوير الفقراء على أنهم أكثر الشرائع فساداً أخلاقياً في مصر في كتاب محمد عمر، كان مرجعه جهلهم الفظيع. ويبدأ كلامه عنهم باستنكار حياتهم الزوجية والأسرية المتدهورة، وإهمالهم الجسيم في تربية أبنائهم وأخلاقهم ونظافتهم. وأنهم كسالى يفتقرون إلى قوة الإرادة والرغبة في تحسين أنفسهم. مثل جلوسهم لوقت متأخر على المقاهي التي انتشرت حتى في القرى وتدخين الحشيش أو ممارسة أي من الرذائل المنتشرة بينهم.

من الأقسام الثلاثة المقسمة في كتاب "حاضر المصريين"، كان الفقراء إلى حد بعيد النسبة الأكبر والأكثر غموضاً. ويشمل مصطلح الفقراء أي شخص لا ينتمي إلى الطبقة الوسطى أو الغنية. كما يوجد فصلان مختصران عن "حرف الفقراء"، وفي كلتا الحالتين فإن السمات الشخصية المعيبة واضحة، يتقاسمها أعضاء هذه الجماعات بحكم انتمائهم إلى الفقراء. ويشير عمر إلى العاملين في واحدة من أكبر ورش السكك الحديدية (العنابر) في مصر، مثل ورش السكك الحديدية (العنابر) في بولاق. مثل نظرائهم في الورش الصغيرة، فإن هؤلاء العمال (يشار إليهم بأسماء حرفتهم) ضعفاء الإرادة والتصميم في تنفيذ العمل الذين كلفوا به. إذا قمت بدراساتهم، ستجد أن السمات الخاصة للحرفي هي الجرأة في الكذب والخداع والمكر. "هم كسالى ومهملون ولا معنى لديهم للوقت"، ويذكر عمر تحديداً عاملات مصنع السجائر، هادفاً فضع أخلاقهم "أنهن الأكثر شراً وشغباً في سلوكهن، وقيل إن عدداً كبيراً منهن تزوج من شباب يونانيين بشكل غير قانوني". وهكذا في كتاب محمد عمر، فإن التقسيم ليس على أساس الطبقة العاملة والعمال، بل على أساس الطبقات الاجتماعية المختلفة. أما الطبقة الوسطى فيحاول عمر إثبات أصالتها بالاستشهاد بالحديث النبوي "خير الأمور الوسط"،

باعتبارها كياناً، والعمال باعتبارهم شخصاً منفردين.

ولتجنب أي سوء فهم، لا بد أن أوضح أن الحديث عن الطبقة العاملة كمؤثر في ممارسات اجتماعية محددة لا يعني أنها غير حقيقية. ولتوضيح هذه النقطة، سيكون من الأفضل استدعاء قول بنديكت أندرسون (1991): إن توصيف الأمة على أنها "مجتمع متخيل" خاطئ، فمن الواضح أن الأمة ليست مادة ملموسة "شيئاً"، مثل الكرسي أو الطاولة.

وعلى الرغم من أن الدول لها حضور حقيقي للغاية في حياة الناس، كما يتضح في طرق تفكيرهم وإحساسهم وتصرفاتهم، فإنها أيضاً ذات حضور في مؤسسات معينة، ومجموعة قواعد ومواد ومبان وأماكن عامة وأقاليم قد وهبت معنى "أمة وطنية". في الواقع، لحسن الحظ أو سوءه - ودومًا يكون لسوءه - لا يوجد في العالم المعاصر أي كيان له تأثير كبير على أفراد المجتمع أكثر من الأمة؛ ليس فقط أن الناس عادة تقبل حق أمتهما في إخضاعهم



وعلى الرغم من أن الدول لها حضور حقيقي للغاية في حياة الناس، كما يتضح في طرق تفكيرهم وإحساسهم وتصرفاتهم، فإنها أيضاً ذات حضور في مؤسسات معينة، ومجموعة قواعد ومواد ومبان وأماكن عامة وأقاليم قد وهبت معنى "أمة وطنية"..

بكل الطرق، لكن الأمة اليوم هي الكيان الوحيد تقريباً الذي من أجله يوجد عدد كبير من الناس على استعداد لأن يقتل ويُقتل، ومن الصعب العثور على شيء حقيقي أكثر من ذلك. الشخصية والمجتمع نُشر كتاب محمد عمر "حاضر المصريين أو سر تأخرهم" عام 1902، بمقدمة كتبها الكاتب أحمد فتحي زغلول. وهو كاتب لا نعرف عنه شيئاً باستثناء ما ورد في المقدمة من أنه كان موظفاً في البريد المصري. يتكون الكتاب من

ثلاثة أقسام، يرى عمر أن المجتمع المصري مقسم بينهم، الأغنياء والطبقة الوسطى والفقراء. ويصور الأغنياء منحطين على عكس أسلافهم، ومنغمسين في اللذات ويعيشون حياة بدخ وابتذال. ويضيعون

وللتغلب على هذا التخلف وعلاج أمراض الأمة، أصبح مشروع الإصلاح الضخم مع الطبقات الدنيا ضرورة. ويشمل هذا الإصلاح التعليم والارتقاء بهم وتجريدتهم من عاداتهم السيئة مثل الخرافات والتخلف وغرس الانضباط والاعتماد على الذات والمبادرة الفردية داخلهم. باختصار هذا المشروع هو إعادة تشكيل الطبقات الدنيا على صورة الأفندية الأوروبيين الأصليين لجعلهم مناسبين للمواطنة الجديدة التي يمكن أن تحتل مكانها اللائق في صفوف الأمم المتحضرة.

ويمكننا التعرف على خطاب الإصلاح من خلال التعليم عن طريق أشخاص مثل محمد عبده وأعضاء ما أطلق عليه رشيد رضا فيما بعد "حزب الأمة"، وأحمد لطفي السيد مؤسس صحيفة "الجريدة". وقد اعتبر هؤلاء الذين تماثلوا مع هذا الاتجاه، أن استمرار الوصاية البريطانية شرط مسبق وضروري لنجاح الإصلاح، ومن ثم كانوا على استعداد لتأجيل الاستقلال السياسي حتى تصبح البلاد جاهزة له. محمد عمر على سبيل المثال، خرج عن مساره لتوبيخ الطلبة القوميين الذين كانوا يطالبون بالاستقلال لفشلهم في الاعتراف بفوائد الحكم البريطاني.

القومية والإصلاح هذه الرغبة في إرجاء الاستقلال أوصلت الإصلاحيين إلى صراع مع الحركة القومية المصرية، التي سعت إلى الاستقلال. كانت هذه الحركة نائمة لأكثر من عقد بعد الاحتلال البريطاني عام 1882 وبدأت في الانتعاش فقط في منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر بقيادة مصطفى كامل. بالنسبة للقوميين، لم يكن مصدر مشاكل مصر هو شخصية شعبها أو مؤسساتها الاجتماعية، إنما الاحتلال البريطاني وسياسات الإدارة الاستعمارية. كما كان للقوميين مصلحة في تصوير المصريين على أنهم شعب ناضج ومتحضر ومن ثم يكون ملائماً للحكم الذاتي المباشر. وأصر كامل على أن مصر لم تكن مثل الكونغو أو الصومال، حيث يمكن تبرير الحكم الاستعماري الأوروبي بسبب مستوى السكان الأصليين المنخفض. وكان القوميون - الذين لم ينظموا أنفسهم في حزب سياسي حتى نهاية 1907 - مرتابين عندما نشر خصومهم السياسيون كتباً ومقالات تؤكد على تخلف وتعصب الجماهير المصرية، لأن مثل هذه الصحوة ستستخدم لإضفاء الشرعية على الحكم البريطاني. من وجهة نظرهم



سلامة موسى

معتمداً على خطاب قديم من خلال مقارنة وظائف مختلف الطبقات الاجتماعية لأجزاء الجسم الإنساني المختلفة: فالطبقة الوسطى هي الأطراف النشطة للجسم، بينما الفقراء هم السمع والبصر والأعصاب الحساسة للأمة.

مشروع الإصلاح

برز كتاب "حاضر المصريين" بين أعمال التحليل الاجتماعي المصرية المعاصرة بسبب النغمة القاسية، وأحياناً



برز كتاب "حاضر

المصريين" بين أعمال

التحليل الاجتماعي

المصرية المعاصرة

بسبب النغمة القاسية،

وأحياناً الخبيثة،

التي تندد بعيوب

المصريين، وربما أيضاً

بسبب الانتقادات

الصارمة لإسراف وكسل

الأغنياء..

الخبيفة، التي تندد بعيوب المصريين، وربما أيضاً بسبب الانتقادات الصارمة لإسراف وكسل الأغنياء. وهنا يستمر محمد عمر في نفس الخط الخطابى لمعاصريه مثل أحمد فتحي زغول ويوسف النحاس وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد. لا أحد منهم كان يعير انتباهاً لمصطلح "الطبقة العاملة" ولا إلى "العمال"، بل تعاملوا وكأن لهم هوية فردية. وكانوا بدلاً من ذلك يتحدثون عن "الحرفيين"،

و"الفلاحين" أو "العمال"، وأنواع مختلفة من عاملين الحرف، وإذا استخدموا مصطلح عميل، فإنه يكون بمعناه القديم الذي يعبر عن الوكيل أو شخص نشط. كما أدركوا أن ما سيطلق عليه بعد ذلك "الصراع الطبقي" هو ظاهرة مهمة.

الإنجليز قد تضاعفت في العقود الخمس أو الست السابقة لذلك لا يوجد ما يشكون منه. وتصور هذه المقالات العمال وأرباب العمل كمجموعة اجتماعية مميزة. لكن البيئة التي توجد فيها هذه المجموعات وتدخل في صراع دائماً هي أوروبا. والمعنى الضمني أن الاشتراكية والحركات العمالية والصراع الطبقي هي مشكلات تخص المجتمعات الأوروبية ولن تؤثر مباشرة على مصر، ومن ثم يمكن ملاحظتهم من بعيد في أمان.

الإضرابات والحيوية الوطنية بدأ الإضراب الذي استمر شهرين من قبل عمال مصنع السجائر (معظمهم يونانيين) في القاهرة، في ديسمبر عام 1899، والإضرابات التي تلتها وجهود العمال (الأجانب بشكل أساسي) لتشكيل نقابات عمالية. جعلت البعض يتساءلون إذا كانت مصر لا تتبع المسار والأحداث الأوروبية فيما يخص تجربة الصراع الطبقي. في يوليو 1901، على سبيل المثال، قام قارئ من قراء المقتطف بالتساؤل ما إذا "كنت ترى مستقبل العمال في مصر يشبه وضع العمال في الغرب، فيما يتعلق بالإضرابات الناشئة عن التنافس بين العمل ورأس المال، وبدء العمال المصريين الميل للتخلص من القهر القديم وضيق الماضي".

أولئك الذين رفضوا احتمالية أن، مصر مثل أوروبا، ستبلى بالنشاط العمالي، وأن الصراع الطبقي عليه أن يأخذ في الاعتبار حقيقة أن العمال المحليين مستمرون في تنظيم الإضرابات وتشكيل النقابات وإن كان هذا على نطاق ضيق، كان ردهم هو اعتبار أن هذا النشاط استيراد أجنبي، وإصرارهم أنه علامة على اضطراب اجتماعي لا نمواً طبيعياً أو صحياً. وفي مقال نشر في يناير 1902، عن إضراب قام به وقتها عمال الملابس في القاهرة، نفس أسعد داغر عن غضبه لا تجاه المضربين أنفسهم، بقدر ما كان تجاه الصحفيين المحليين الذين دعموا مطلب المضربين المطالبين بأجور أعلى، خاصة أولئك الذين اقترحوا أن هذا الإضراب كان مؤشراً على حيوية الأمة واستيقاظها للمطالبة بالحقوق التي أهملت لفترة طويلة.

مفهوم الحيوية المتجذر في تمثيل المجتمعات أو الأمم كأعضاء حية، كان مركزه بعض من النظرية الاجتماعية الأوروبية المعاصرة، ولم يؤيد داغر اقتراح أن الإضرابات كانت علامة على حضورها، فاستنكر إضراب عمال مصنع الملابس غير المبرر وأصر أن وراءه رغبة العمال غير المشروعة في مشاركة أرباب عملهم الأرباح، والتخطيط من

فإن الحكم البريطاني لم يكن في مصلحة مصر وكان إزالته بدلاً من إدامته شرطاً مسبقاً للتقدم الاجتماعي. ودليلاً على ذلك، استشهد القوميون بفشل الحكومة البريطانية التي تسيطر على مصر في الإنفاق الجيد على التعليم. لذلك استنكر القوميون بشدة أن يؤجل الاستقلال لوقت طويل حتى تمهد عملية الإصلاح الطريق. كما رأوا أن الاحتلال تحت أي ذريعة يعني استمرار التخلف والقهر. لكن في النهاية فإن النقاش بين القوميين والإصلاحيين حول إذا كانت مسألة الحكم البريطاني شرطاً مسبقاً للإصلاح أم عقبة أمامه توحى بأن المعسكرين لديهم أرضية مشتركة.

المرض الأوروبي في عام 1894، بعد الإضراب في بورسعيد، علق محمد فريد قائلاً بحزن "هذا المرض الأوروبي انتشر في مصر"، كان رد فريد نموذجياً لدرجة أن الجماعة الأفندية الأوروبيين أولوا اهتماماً لنشاط الطبقة العاملة وللصراع الطبقي وللإشتراكية.



وفهموا بشكل عام أن هذه الظواهر اضطرابات اجتماعية ذات أصل أوروبي، ومن غير المرجح أن يأتروا على الجذور المحلية. كان يعقوب صروف اللبناني من بين من اهتموا بقضايا الخطاب العام في مصر. وهو كاتب مسيحي مهاجر، عمل في صحيفة "المقتطف" التي تأسست عام 1876 في لبنان ثم انتقلت إلى القاهرة بعد 8 سنوات.

وفي ثمانينات القرن التاسع عشر، نشر صروف عدة مقالات مؤيدة للمبادئ العلمية للاقتصاد السياسي، وندد بالاشتراكية والإضرابات والنقابات. في وقت مبكر من مايو 1887، كان المقتطف يستدعي سلطة الاقتصاديين الأوروبيين ليثبت أن الإضرابات لا يمكن أن تؤدي لزيادة دائمة في الأجور. وفي مايو 1890، ظهر مقال مختصر كتب فيه عن كاتب إنجليزي أشار إلى أن الأجور الحقيقية للعمال

ساعات العمل، أو قد يتطلب الأمر من العمال إنهاء إضرابهم إذا تبين إنه غير مبرر. فتوى محمد عبده جديرة بالملاحظة ليس فقط لأنها أظهرت درجة من التعاطف مع العمال المصريين، بل أيضًا لأنها اعتبرت أن كون العمال فئة اجتماعية أمر مسلم به. لم تتلق هذه الفتوى سوى القليل من الانتباه العام ولا يوجد دليل على أنها أسهمت بطريقة مباشرة في توصيف العمال على أنهم وكلاء اجتماعيين شرعيين في المشهد المصري.

يمكن قول الشيء نفسه، بشكل عام، عن كتابات القلة المثقفة في مصر التي كانت تدعو إلى الاشتراكية في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى. في الحقيقة، نرى إلى أي مدى واجهت شخصيات مثل شبلي شميل وفرح أنطون وسلامة موسى ومصطفى حسين المنصوري، فشل ربط الاشتراكية في مصر بالطبقة العاملة أو تحديد الصراع الطبقي كظاهرة اجتماعية محتملة.

إعادة تشكيل الطبقات الدنيا

إذا كان ممكن أن نقول إنه في السنوات الأولى من القرن العشرين، عمل الأفندية المصريون من قلب رؤيتهم لمجتمعهم الذي لم يكن فيه مكان للطبقة العاملة. فيحلول عام 1911، كتبت اللواء، صحيفة الحزب الوطني، عن عمال ترام القاهرة، الذين كانوا قد أنهوا إضرابهم آنذاك "أسبابكم لا تقتصر على الترام فقط، بل شملت كل عمال مصر. جاءت بعد إضراب العنابر، وأثبتت أن هناك قوى جديدة في مصر ولا يمكن تجاهلها... دع المجزرة التي قامت بها الشرطة في إضراب العنابر، وعمال الترام بالعباسية أن تكون درسًا لك. اتحدوا وقوا أنفسهم واجعلوا أعدادكم تزيد بالاتحاد مع العمال الأوروبيين".

كان واضحًا أن شيئًا ما قد تغير في النصف الثاني من العقد الأول من القرن العشرين، أن هذا الجزء من الأفندية الذين كانوا نشطاء في الحزب الوطني، بدأوا في تبني خطاب خاص بالطبقات. ولم تكن الظواهر الاجتماعية التي أشار إليها هذا الخطاب جديدة بالطبع، فقد كان هناك العديد من أماكن العمل الكبرى التي عمل بها عدد كبير من الأجراء لبعض الوقت. ومنذ عام 1899، كان بعض هؤلاء العمال ينخرطون في إضرابات ويحاولون تنظيم نقابات. لكن الآن بدأت هذه الظواهر في اكتساب معان اجتماعية جديدة ضمن مفهوم جديد للمجتمع المصري، وعبر عنها ضمن سرد للنشاط



فرح أنطون

بعض أرباب العمل لإلحاق الضرر بمنافسيهم، وأن الاستعداد الطبيعي لهؤلاء العمال على الإضراب جاء لأنهم أجانِب معتادين على هذا النوع من الأفعال". كما أكد داغر أن الإضراب لم يكن دليلًا على حيوية الأمة لأنه ليس له علاقة جديّة بمصر.

الإسلام والاشتراكية والصراع الطبقي

كان الإمام محمد عبده واحدًا من قلائل المثقفين المصريين الذين سعوا إلى توفير أساس في الشريعة الإسلامية للتعامل

مع الإضرابات. في عام 1904 قبل وفاته بعام، سأله الصحفي اللبناني الاشتراكي فرح أنطون عن رأيه فيما قاله الإسلام عن تدخل الدولة لصالح العمال، فأشار عبده محمد في فتواه، إلى وجود صراع بين العمال وأصحاب العمل في أوروبا، وأن هذا قد يؤدي إلى حدوث إضرابات. واعترف ضمنيًا باحتمالية أن تصبح الإضرابات ملمحًا من ملامح الحياة الاقتصادية المصرية أيضًا. كما أكد عبده أن الشريعة



كان واضحًا أن شيئًا ما

قد تغير في النصف

الثاني من العقد الأول

من القرن العشرين، أن

هذا الجزء من الأفندية

الذين كانوا نشطاء في

الحزب الوطني، بدأوا

في تبني خطاب خاص

بالطبقات. ولم تكن

الظواهر الاجتماعية

التي أشار إليها هذا

الخطاب جديدة بالطبع

الإسلامية أكدت على وجوب تدخل الحكام في الإضرابات التي تؤثر سلبيًا على إنتاج ضروريات الحياة وفرض التسوية للصالح العام. وقد يتطلب هذا الأمر من أرباب العمل لرفع الأجور أو تقليل



الخديو عباس حلمي

أيضاً تبني شرائح الأفندية، خصوصاً المثقفين القوميين وتصورهم طريقة جديدة للطبقات الدنيا. القوميون "يكتشفون" الطبقة العاملة إذا كانت حادثة دنشواي قد قدمت فرصة أولية لإعادة تصور الفلاحين في الخطاب القومي، فقد طور الحزب الوطني استراتيجيته الشعبوية الجديدة استجابة لظروف سياسية واقتصادية محددة. كان أحد هذه العوامل هو الاتفاق الودي الذي عقد بين إنجلترا وفرنسا عام 1904، الذي بموجبه قبلت فرنسا سيطرة بريطانيا على مصر مقابل رفع يدها عن المغرب. وقد أصاب هذا مصطفى كامل وزملاءه بضربة قاسية، إذ كان يأمل أن يجبر الضغط الفرنسي البريطانيين على مغادرة مصر. ولم يبد أن الآمال التي وضعها مصطفى كامل في الخديو عباس حلمي ستتحقق. أما الحركة القومية فقد كانت أضعف من أن تستمر بنجاح في مواجهة الاستعمار البريطاني. وهكذا كان هناك حاجة ملحة لم يتم العمل عليها إلا بعد رحيل مصطفى كامل، لتوسيع الحركة الوطنية وإيجاد طريق للاستفادة منها وتعبئة جماهير محلية من أجل بناء حركة استقلال على نطاق واسع.

وقد لعبت العوامل الاقتصادية دوراً أيضاً في تدفق رؤوس الأموال الأجنبية الذي بدأ في منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر مما أدى إلى طفرة

العمالي على غرار نموذج أوروبا الغربية. من خلال هذه العملية، ظهر بعض المصريين ليروا مجتمعهم يتكون من طبقات ويشيرون إلى الآخرين أو إلى أنفسهم كشخص



كانت حادثة دنشواي قد قدمت فرصة أولية لإعادة تصور الفلاحين في الخطاب القومي، فقد طور الحزب الوطني استراتيجيته الشعبوية الجديدة استجابة لظروف سياسية واقتصادية محددة..

يدعي "العامل" الذي شكل مع "رجال من نوعه" طبقة عاملة تمتلك بعض الصفات المميزة. (وأقول هنا "رجال من نوعه" لأن بالرغم من وجود عاملات من النساء، فإنه يفترض ضمناً أن العامل ذكر). لكن كيف حدث هذا التحول في الخطاب؟ كما أشرت سابقاً، لعب العمال أنفسهم دوراً رئيسياً في هذه العملية، لكن هذا الدور ليس هو ما أردت الحديث

عنه هنا. الهيكلية والظرفية الاقتصادية والعوامل السياسية كانت مهمة أيضاً، لكن هذا التحول شمل



يعقوب صروف

بعض المصريين في تصور أنفسهم كعمال، وأنهم لم يكونوا مفوضين للقيام بذلك من قبل رؤسائهم الاجتماعيين. فقد أسهم العمال في صياغة وفهم هويتهم وعالمهم الخاص. كما اقترح هذا المقال أن السرد المصري للطبقة العاملة السائد وتاريخ سوق العمل، يحتاج إلى أن يكون إشكالية. حيث تستمد هذه السردية الكثير من قوتها من حقيقة أنها تسمح لتاريخ الطبقة العاملة المصرية أن تلائم بشكل سلس سرد تاريخ سوق العمل العالمي، وهي نفسها مشتقة من قراءة إشكالية معينة لتجربة أوروبا الغربية التاريخية. وهكذا تم تصوير مصر وكأنها خضعت لنفس التحولات التي شهدتها الغرب.

لقد أكدت هنا أننا بحاجة إلى توسيع مفهومنا للتكوين الطبقي ليشمل بناء المعنى الاجتماعي. في مصر حيث ظهر العامل كمنط اجتماعي والطبقة العاملة كعنصر فاعل اقتصادياً وسياسياً، نتيجة لتطور رأس المال، لكن بشكل حاسم كان نتيجة أيضاً لصراعات سياسية وأيديولوجية كثيرة، وهو بلا شك طرح صعب سيتطلب قدرًا كبيرًا من البحث الإضافي وإعادة التفكير.

في النمو الاقتصادي وإنشاء شركات صناعية وزيادة عدد العاملين بالأجرة في المؤسسات الحديثة والكبيرة. عانى هؤلاء العمال من تدني أجورهم وسوء ظروف



أسعد داغر

العمل، وتفاقم محنتهم بسبب التضخم. أدت الأزمة الاقتصادية عام 1907 إلى توقف النمو، وحاول أرباب العمل تقليل الأجور أو حتى تجميدها.

وكانت النتيجة موجة استياء العمال والاحتجاج الذي لعب به المصريون للمرة الأولى دورًا بارزًا، خاصة بين عمال الترام بالقاهرة والإسكندرية وعمال السكة الحديد وعمال العنابر في بولاق. في الوقت نفسه، تعرض مصدر رزق الحرفيين المصريين إلى التهديد بسبب تدفق السلع المستورد والمنافسين الأجانب. واستمر هذا الوضع لسنوات، احتج فيهم العمال المصريون وشاركوا في الإضرابات وسعوا إلى تنظيم أنفسهم دون دعم القوميين. وقد اكتسبت هذه الممارسات معاني جديدة، وسرعان ما أعيد إدراجها في خطاب القومية المصرية.

وبتفسير هذه التطورات، فإن قادة ونشطاء الحزب الوطني اعتمدوا على ما اقترحت سابقًا من أنه يمكن بسهولة تصور النموذج الأوروبي القابل للتعميم لهوية الطبقة العاملة. وهذا ما حدث في مصر، حيث أدرج الأفندية عناصر هذا النموذج في الخطاب القومي، وطالبوا بتنظيم العمال ولعبوا دورًا حاسمًا في بناء الطبقة العاملة المصرية وتوطينها في المجتمع المصري.

بدأ الحزب الوطني بإنشاء مؤسسات عام 1908، مثل مدارس الشعب ونقابة عمال الصناعة اليدوية التي تأسست برعاية حزبية عام 1909. كما تأسست اتحاد عمال ترام القاهرة في نفس العام. وقد ساعدت تلك المؤسسات والممارسات الاجتماعية المرتبطة بها، في كشف تأثير الطبقة العاملة على المجتمع.

الخلاصة

قدمت حتى الآن بناء الخطاب الطبقي كما لو كان يتعلق حصريًا بالمتقنين القوميين. ولأي مدى بدأ

العمال وثورة 1919.. هل تعادلت كفتا الميزان؟

فرح مروان



محمود فهمي النقراشي

حكومات الوفد المتتالية -مثلها في ذلك مثل بقية الأحزاب والشخصيات العامة ضمنهم أحد أمراء العائلة المالكة- تفكر في كيفية السيطرة على العمال. ففي أثناء الثورة واجه العمال والفلاحون وعمامة الشعب جرائم الإنجليز المدججين بالسلاح وإهاناتهم واعتداءاتهم - والتي كانت تحدث على مدار عشرات السنين قبلها- بالعنف، فعلوا ذلك وهم عزل إلا من فروع الأشجار في أيديهم،

قال يحي حقي الذي شارك في جنازة ابن القباقبي إبان ثورة 1919 طفلاً، وكتب عنها بعد 50 سنة "لم يفهم الساسة الذين فاجأتهم ثورة 1919 وركبوا موجتها من هذه الثورة إلا وجهها الخارجي، اشتغلوا بالبحث عن الحل المتاح ولو كان الثمن قبولهم للتنازلات، لأن السياسة أخذ وعطاء، ولعلمهم أخضوا عن الأمة حقيقة موقفهم، وانتهى أمرهم سريعاً بقبول التفاوض مع إنجلترا، فقال سعد زغلول مع الأسف: كيف تطلبون مني ترتيب الأثاث والبيت يحترق. فقد ظن سعد زغلول أن تحقيق العدل الاجتماعي عمل حكومي، يأتي من فوق فهو بالتالي رهن بتشكيل حكومة وطنية بعد الجلاء، ولكن متى؟ الله أعلم. وأنه كان من المنتظر منهم أن ينتهزوا فرصة يقظة الشعب واشتعال الشعور الوطني لبدأوا في تنظيم تجمع الشعب في مؤسسات شعبية لا علاقة لها بالحكومة". وطرح أمثلة لذلك، كإعادة الجامعة الأهلية، وفتح مدارس شعبية تعلم أبناء الشعب حقيقة تاريخهم، تبصرهم بحقوقهم، وإنشاء نقابات للعمال والفلاحين [1].

كانت ثورة 1919 وما تزال مثار جدل فيما فعلته في العمال ومنظماتهم رغم دورهم المهم فيها. فلم يكتف من جنوا ثمار الثورة من قادة الوفد بأن يلتفتوا عن مطالب العمال الملحة، بل إنه عندما مارس العمال حقهم في الإضراب والاعتصام للمطالبة بتحسين أحوالهم التي ساءت بشدة في أثناء الحرب العالمية الأولى، هرعت حكومة الثورة برئاسة سعد زغلول إلى القضاء على اتحاد العمال وحزبهم، وزجت بقادتهم في السجون. ثم ما لبثت



سعد زغلول وأعضاء الوفد

وتطورها" [2]. لذا بعد الاطلاع قدر المستطاع على الكثير مما كتب عن الثورة، فكرت في التركيز على أهم النقاط التي دار حولها الجدل، مثل: هل حقاً قامت الثورة لأسباب وطنية فقط، وهل يمكن فصل الوطني عن الاقتصادي والاجتماعي، من الذين قامت الثورة على أكتافهم ودفَعوا ضريبتها، العمال والثورة (دور العمال في الأحداث الوطنية)، تكسير منظمات العمال ومحاولات الهيمنة عليها. قبلها سأعرض سريعاً لبدايات تشكل الحركة العمالية والنقابية، ودور الحزب الوطني ومحمد فريد في ذلك. ثم مقدمات الثورة.

بدايات تشكل الحركة العمالية والنقابية ودور الحزب الوطني ومقدمات الثورة كانت بداية إنشاء الصناعة في عهد محمد علي، لكن لم تتشكل حركة نقابية وقتها، لأن العمال كانوا فلاحين جلبوا من الأرض عنوة، وكذلك الحرفيين الذين أجبروا على ترك حرفهم. كانوا جميعاً يتقاضون أجوراً ضعيفة ويسوقهم عسكريون، لذا كانوا يهربون لحياتهم السابقة، وذلك رغم تأخير أجورهم لعدة شهور لإجبارهم على البقاء. أما العمال الأجانب والذين أتوا بخبرتهم النضالية فكان عددهم قليلاً، وكان يتم التخلص منهم بمجرد أن يتعلم المصريون الحرفة، ومن ثم لم يكونوا ذا بال. تدهورت الصناعة في آخر عهد محمد علي خصوصاً بعد أن أجبر على تخفيض جيشه، والتي قامت الصناعة لتلبية احتياجاته بشكل أساسي

تستقبل صدورهم الرصاص. فكان هذا العنف الذي دفع ثمنه عامة الشعب المصري، والذين تبارى كبار الملاك إلى وصفهم بالرعاع بسببه، هو ما اضطر الإنجليز إلى إعادة قادة الوفد ومنحتهم الفرصة للتفاوض والمساومة. لقد كان العمال والفلاحون وعامة الشعب المصري وقود الثورة، لكن من وصلوا لكراسي الحكم على أكتافهم تنصلوا منهم ومن نضالهم.



**كانت ثورة 1919 ولا تزال
مثار جدل فيما فعلته
بالعمال ومنظماتهم
رغم دورهم المهم فيها.
فلم يكتف من جنوا
ثمارها من قادة الوفد
بأن يلتفتوا عن مطالب
العمال الملحة بل نكلوا
بهم..**

حتى الآن نسمع من يقول - وبعضهم من المؤرخين - لا تحاسبوا ثورة 1919 لأنها لم تحقق المطالب الاقتصادية، وكانت ثورة وطنية بالأساس. وهو ما قاله عبد الرحمن الرافعي؛ أحد المعاصرين للثورة والمشاركين فيها "لم تكن الثورة ذات طابع ديني أو اجتماعي، بل كانت ثورة سياسية بكل معنى الكلمة، فأهدافها سياسية، وتطوراتها سياسية، وأسبابها العامة سياسية، على أن لها جانب ذلك أسباباً أخرى، اقتصادية واجتماعية، كان لها دخل في التمهيد لها، وفي ظهورها



مصطفى كامل

من العمل، ومنع ضرب وإهانة الموظفين (ومعظمهم من الأجانب) للعمال، وفتح باب الترقى للعمال المصريين. انتهى الإضراب دون أن يجني العمال مكاسب اقتصادية وتمت محاكمة مئات العمال، إلا أنهم استطاعوا تأسيس نقابة خلت من الأجانب [7]. كانت مجزرة دنشواي في 1906، إيذاناً باشتعال الحركة الوطنية، فأخذت تنظم صفوفها وأعلن عن تكوين الحزب الوطني في أكتوبر 1907. ارتفع صوت مصطفى كامل في خطبة الافتتاح واضحاً أنه قطع الأمل في العون الأجنبي، وعون الكبار والذوات، وانقطع ما بينه وبين الخديو، ولم يتبق إلا الشعب. تابع محمد فريد زعامة الحركة الوطنية إثر موت مصطفى كامل، موجهاً الحركة إلى مزيد من الشعبية توجهت الحركة الوطنية للربط ما بين المثقفين وحركة الطبقة العاملة الناشئة، فزاد اهتمام الحزب الوطني بإنشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناعات، يتطوع شباب الحزب بالتدريس فيها. وبدأ الاستعمار يدرك خطورة هذا الربط، فبدأ حملة الاعتقالات لقيادات الحركة الوطنية وشدد القيود على الصحافة وتعطيلها، وأعلن قانون النفي الإداري، فاستبعد الكثير من العناصر الثورية العمالية إلى الريف، كما نفي

[3]. وكانت بداية الاستعمار الإنجليزي في 1882، ولكي يسيطر المستعمر على الاقتصاد المصري، حطم الصناعات الوطنية القائمة، من خلال إغلاقه للمصانع الحكومية وبيعه للمغازل ومصانع القطن التي كانت موجودة منذ عهد محمد علي، حطم الحرف الصغيرة من خلال فرض ضرائب باهظة على الحرفيين، وذلك لكي يصبح المجتمع المصري سوق لبضائعه [4].

لذا كانت بداية ظهور الحركة العمالية المصرية في أحضان المشروعات الصناعية ومشروعات المرافق العامة التي أقامتها رؤوس الأموال الأجنبية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. كان العمال يعملون في ظل شروط وظروف عمل صعبة، لذا نشأت حركتهم من جراء المطالبة بتحسين تلك الشروط. كما كان

هناك تفاوت كبير بين

العمال المصريين والأجانب في الأجور، واستأثر الأجانب بالوظائف الإشرافية دون المصريين حتى لو تساوى في الخبرة والإنتاج، مما كان له أثره على كراهيتهم للاستعمار [5].

حفل العقد الأول من القرن العشرين بالإضرابات التي كان منظموها أساساً من الأجانب شارك فيها العمال المصريون حسب وجودهم. أتاحت تلك الإضرابات الفرصة للطبقة العاملة المصرية للوقوف على



لم تكن الثورة ذات طابع ديني أو اجتماعي، بل كانت ثورة سياسية بكل معنى الكلمة، فأهدافها سياسية، وتطوراتها سياسية، وأسبابها العامة سياسية، على أن لها بالإضافة لذلك أسباباً أخرى، اقتصادية واجتماعية..

أساليب العمل الجماعي في مواجهة رأس المال، لزيادة الأجور أو تقليل ساعات العمل والمطالبة بأيام وساعات راحة، واحتساب الأيام المرضية إجازة مدفوعة الأجر. على الرغم من ضآلة ما حققته تلك الإضرابات من مكاسب ضئيلة فقد جعلتهم يشعرون بمزايا اتحادهم وترابط مصالحهم [6]. في عام 1908 كان إضراب لفاي السجاير فأعادوا إحياء نقاباتهم، وأضرب عمال شركة ترام القاهرة، كانت مطالبهم خاصة بالأجور وساعات العمل والفصل



مصطفى النحاس

اشتركوا مع عرابي، وجعل الجيش ووزارة المالية والمعارف والقضاء والنايب العام تحت سيطرة الإنجليز. كان سند الاحتلال هم الإقطاعيون الذين تضاعفت ملكيتهم في عهده على حساب الفلاحين، ومنهم جند الوزراء. وألغيت مجانية التعليم وزادت تكاليفه، أغلقت الصحف ولم يتبق سوى الصحف التي تمجد الاحتلال. زادت أعداد الإنجليز في الوظائف العليا وتقليل أعداد المصريين [10]، ويقابلها في المصانع والشركات تقلد الأجانب للوظائف الإشرافية دون المصريين.

طوال سنوات الحرب الأربعة، رزح الشعب تحت نير الحكام العرفية وما صحبها من وضع الرقابة على الصحف، وتعطيل الجمعية الشرعية، ومنع الاجتماعات، وفتح المعتقلات والمنافي دون محاكمات. التجنيد الإجباري لما يربوا على مليون من العمال والفلاحين جندوا وعوملوا كمعتقلين، مقيدون بالحبال، ونقلوا في عربات الحيوانات، ولم يُهتَم بصحتهم ولا بغذائهم، فمات منهم كثيرون، وأصيب أكثر بالأمراض والعاهات.

العناصر الأجنبية من العمال الواعين، وشرد كثير من قادة العمال المخلصين [8]. ومع بدأ الحرب العالمية الأولى 1914 وإعلان الحماية على مصر، قيّدت الحريات العامة وحرية المنظمات الشعبية، وأعلنت الأحكام العرفية، فأغلقت الصحف ودور النقابات، وتوقف الحركة العمالية خلال الحرب، خصوصاً بعد سفر محمد فريد سراً بعد تعرضه للعديد من المضايقات والمتاعب من قبل الحكومة [9].

ما الذي أشعل الثورة؟ للإجابة على هذا السؤال سنستعرض ما اجتمع عليه المؤرخون فيما يخص الأوضاع منذ بداية الاحتلال، ثم ما أضيف إليها في أثناء الحرب العالمية الأولى، وما زادت من غضب الشعب، فأدى لاشتعال الثورة.

منذ البداية سيطر الاستعمار على مقاليد كل شيء، بدأ بإلغاء الدستور الذي أقر عام 1882، والبرلمان المنتخب، مروراً بتحطيم الجيش ومعاينة كل من



اللورد كرومر

من الذين قامت الثورة على أكتافهم ودفعوا ضريبتها؟

عندما أذيعت الأخبار عن تشكيل الوفد المصري للسعي للاستقلال في نوفمبر 1918، ومقابلة ثلاثة من أفراده للمندوب السامي البريطاني، بعثت في نفوس المصريين أملاً في مستقبل أفضل.

رُفض سفر الوفد، فأصدر الوفد صيغة توكيل المصريين له في السعي للاستقلال، وبعث بصور التوكيل إلى المحامين والأطباء والمهندسين، وإلى غيرهم من أرباب المهن الراقية المختلفة لتوقيعها. كما أرسلت لمجالس المديرية والمجالس البلدية والمحلية، وإلى العُمد والأعيان، فإذا بعشرات الألوف من التوقيعات تنهال من كل جانب، ذلك كون وزارة رشدي باشا جعلت المديرين والمأمورين يشجعون على جمع التوقيعات. وألقي القبض على أربعة من أعضاء الوفد مساء يوم 8 مارس، وفي الصباح التالي كان ميدان الأزهار (الفلكي الآن) قد امتلأ بالكامل بالمتظاهرين من جميع الطبقات طلاباً وعمالاً وأقندية، وفي أيدي كثيرين منهم فروع أشجار ضخمة اقتلعوها من الشوارع التي مروا بها، وإذا هم يميلون على عربات الترام التي تمر بالميدان يحطمونها ويقلبونها، ولم تمض لحظات حتى رأينا قوة من الجنود الإنجليز تحاصر قصر البستان مخافة أن يدخل المتظاهرون أفنيته، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى جاءت الأنباء بأن الاضطراب ساد البلاد المصرية كلها، من الإسكندرية إلى أسوان، وأن ثورة عجباً انتشرت في كل مكان، وأن خطوط السكة الحديد أُلقت وكثيراً من خطوط التلغراف قطعت، وأن الأوامر العسكرية صدرت

وقد حكي من عاد منهم لبلده ما عانوه، فكان أكبر دعاية ضد المستعمر. كما صادرت السلطة العسكرية المحاصيل الزراعية والمواشي بأبخس الأثمان [11]. وأساء جنود المستعمرات للمصريين، فقد حكي يحي حقي كيف كان الجنود الاستراليون وحوشاً يفعلون كل شيء؛ بدءاً من خطف الفول السوداني والتين الشوكي من عربات الباعة حتى رمي نساء ماخور في شارع "وش البركة" من النواذف بعد أن أخذوا منهم بغيتهم [12]. كل ذلك مما جعل الشعب يتذمر من حالته الذل والهوان ويصبو للحرية والاستقلال.

وبسبب الحرب تضاعفت الأسعار، أورد المؤرخون في كتبهم صفحات عن ارتفاع نسب التضخم، سنورد ما قاله يحي حقي من ارتفاع ثمن زجاجة لمبة الجاز من مليمين إلى خمسين مليمًا، واضطرار الناس لقص زجاجات البيرة ليحل نصفها الأسفل محل الكبايات [13].

لقد انعكست ظروف وآثار الحرب العالمية الأولى بصورة متناقضة على حياة القوى الاجتماعية والسياسية وحركتها. فقد خلقت فرص الرخاء لكبار الملاك الزراعيين بسبب تضاعف أسعار المنتجات الزراعية في أثناء الحرب، وفتحت

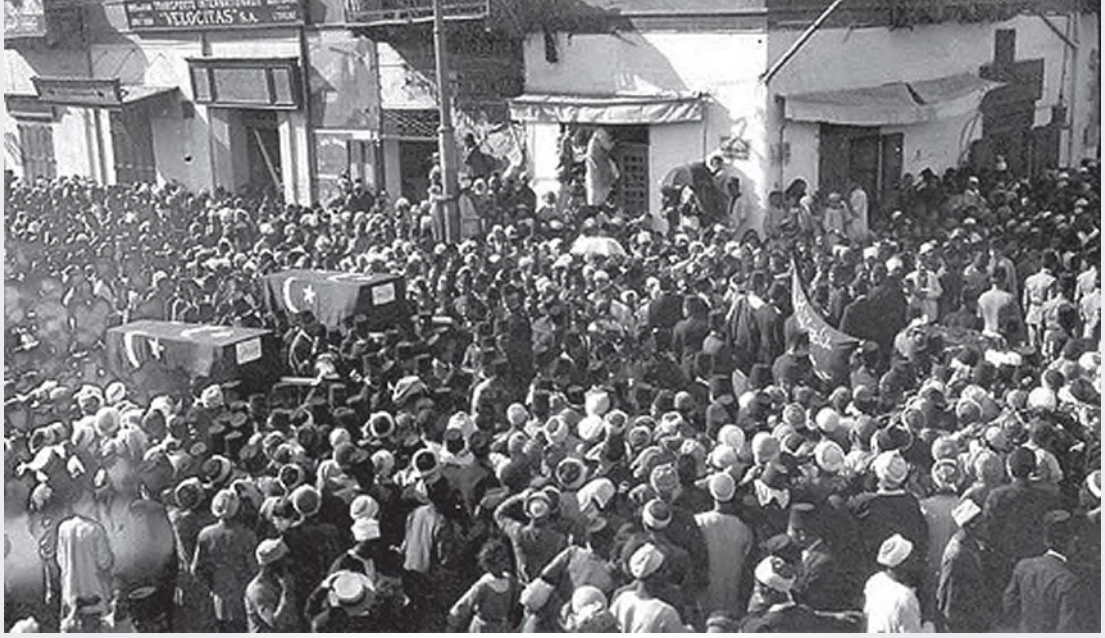


كانت بداية ظهور الحركة العمالية المصرية في أحضان المشروعات الصناعية ومشروعات المرافق العامة التي أقامتها رؤوس الأموال الأجنبية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين..

آفاق نمو وازدهار للرأسمالية الوطنية بسبب انقطاع الواردات، إلا أنها تركت المزيد من المرارة في حياة الطبقة العاملة المصرية والفلاحين والفقراء عمومًا بسبب الغلاء والبطالة، والإذلال والاستخدام الجبري في فرق العمل المصرية التي كانت تخدم في الجيش الإنجليزي [14].

أما للرأسمالية الوطنية في الريف والمدن فقد علمتها

الحرب وانقطاع الواردات مقدار الأرباح التي من الممكن أن تجنيها، فباتت تتطلع إلى السلطة السياسية التي تحقق مصالحها الاقتصادية، وازداد التناقض بينها وبين المستعمر [15].



الاحتلال - بالغوغاء والرعاع، دون الإشارة إلى جرائم المستعمر. مضت الثورة لا تعباً.. يسقط كل يوم منها شهداء، فقد كانت قيادة الثورة سياسياً وفكرياً للوفد، لكن القيادة الفعلية اليومية للتحركات الثورية كانت في يد الطلبة وصغار التجار والمحامين وبعض متوسطي ملاك الريف، فاستمرت قرابة ثلاثة أعوام، على فترات متقطعة؛ تشتغل ثم تهدأ لتتفجر من جديد.

على أكتاف الملايين قامت الثورة، ومنهم سقط الشهداء، وحكم بالإعدام والأشغال الشاقة والسجن على آلاف [18].

وقدر بعض المؤرخين الشهداء بـ 3 آلاف، وإن كانت الخارجية البريطانية والمندوب السامي قد حاولوا التقليل من الحدث، فذكروا أعداداً متناقضة ما بين 800-1000 فقط، يكفي ما حدث لبلدة ميت القرشي - بجوار ميت غمر - في يوم 23 مارس للتدليل على جرائم المستعمر، فبينما كان الأهالي يقومون بتظاهرة سلمية حول البلدة، ونزل جنود بريطانيون على مقربة من البلدة وفتحوا النار على المتظاهرين بدعوى قطعهم السكة الحديد بالقرب منها، فاستشهد من أهلها مئة [19].

بعد أن فشل الاحتلال في إخماد الثورة بالقوة، قرر العمل بنصيحة اللبني، مندوبهم السامي باستخدام اللين والمهادنة، فأفرج عن سعد وزملائه وسمح لهم، ولكل من يرغب، بالسفر. كان ذلك بعد أن ضمنوا رفض مؤتمر الصلح الاستماع للوفد، واستوثقوا من أنه ستقر الحماية البريطانية على مصر في معاهدة الصلح [20]. لم يتقدم استقلال

بحظر الانتقال إلا بتصريح خاص. في الأيام التالية تمردت بعض قرى الجيزة القريبة من القاهرة، فعاقبها الجنود الإنجليز باستباحتها وإحراقها، وانتشر الخبر، وترتب على انتشاره أن أحاط الأهالي المصريون بجماعة من الجنود البريطانيين وقف بهم القطار في محطة ديروط، فقتلوهم ومثلوا بهم أشنع تمثيل وشربوا من دمائهم، وأعلنت بعض الجهات النائية بعض الشيء عن القاهرة استقلالها، واحتل شبان من المحامين دواوين الحكومة، وتولوا بأنفسهم أمور الحكم والمحافظة على الأمن والنظام. وأضرب المحامون في أنحاء القطر احتجاجاً على تصرفات السلطة البريطانية. واجه الإنجليز التظاهرات بالرصاص، وهددوا بقية الوفد ممن لم ينفوا بتحميلهم تبعة الاضطراب، فأصدروا بياناً دعوا فيه للتهديئة، ولكن كان الأمر قد خرج من أيديهم، فأضرب الموظفون عن العمل الحكومي، وأيدها من كان الإنجليز يعتبرونهم أكثر الناس اعتدالاً، وأبعدهم عن الاشتراك في الخروج عن القانون. أيدها مستشارو الاستئناف، وأعضاء البيت المالك ببيانات أعلنوا فيها صراحة أنهم يؤازرون الشعب في طلب الاستقلال ولا يبغون عنه بديلاً [16].

ففي يوم 24 مارس أصدر من تبقى في مصر من الوفد مع علماء الأزهر وبعض الوزراء السابقين والأعيان، بياناً دعوا فيه للهدوء والسكينة، وحرّموا الاعتداء على الأنفس والأموال وقطع طرق المواصلات [17]. فقد بلغ خوفهم من الشعب الذي نفخ الخوف، حد وصفهم له - مثلما فعل

مارس إذ كانوا محاصرين في بولاق والسبتية، فقام عمال العنابر والمطبعة الأميرية بتظاهرة في اليوم التالي مستهدفين كسر الحصار. فتحت القوات البريطانية النار على المتظاهرين فسقط الكثير من القتلى والجرحى والمعتقلين. كما دخل عمال السكة الحديد في الإسكندرية، وعمال الموانئ والبنارات. أدى قيام الفلاحين بقطع خطوط السكة الحديد وإحراق المحطات مع إضراب عمال الورش إلى إيقاف مرفق السكة الحديد، مما أزعج للسلطة العسكرية البريطانية[23]. أظلمت القاهرة إثر إضراب عمال النور يوم 16 مارس، كان العمال والحرفيون يتظاهرون ليلاً حاملين المشاعل والأعلام [24]. فيما بعد دخل مجال المشاركة الجماعية عمال الجمارك والموظفون.

استمر وجود العمال في كل الأحداث الوطنية المهمة، ففي 1930 تزعم حزب الوفد حركة مقاومة حكومة صدقي لفضه الدورة البرلمانية، واستبدال دستور 1923 بدستور جديد، وإصدار قانون جديد للانتخابات يعمل على استبعاد العمال والفلاحين من المشاركة في انتخاب أعضاء البرلمان، لضمان عدم وصول الوفد للبرلمان [25].

فأضرب العمال في الكثير من الأماكن في مايو 1931، وقتل

واعقل الكثيرون، ودفنت الجثث في الصحراء [26]. وفي نوفمبر 1935 كان العمال ضمن المتظاهرين وفي الإضراب العام، احتجاجاً على تصريح وزير خارجية بريطانيا المتعلق بعدم إعادة الدستور [27]. وفي ديسمبر 1945 بعد رفض الحكومة البريطانية للطلب الذي تقدمت به حكومة النقراشي بفتح باب المفاوضات لإعادة النظر في معاهدة 1936 واستبدالها بالدفاع المشترك، وخرجت تظاهرة ضخمة من طلبة جامعة فؤاد الأول في 6 فبراير 1946، وأصيب 84 طالب نتيجة المصادمة مع

مصر خطوة جراء سفر الوفد وإقامة أعضائه سنة كاملة في باريس، وسفر أحدهم لأمريكا، بل إن مركز إنجلترا في مصر ازداد استقراراً [21].

العمال والثورة

يرى أمين عز الدين أن الطبقة العاملة كان لها السبق في فتح معركة مع المستثمرين ومعظمهم من الأجانب، إذ أن بوادر عودتهم للإضراب في أغسطس 2017، للمطالبة بحقوقهم، والاتجاه نحو إحياء النقابات التي شلت في أثناء الحرب. سعت حركة الوفد للاستقلال وإنهاء الحماية، وكانت حركة العمال ضد رأس المال الأجنبي. ولكنهما لم تلتحما لسببين؛ الأول هو عدم تضمين الوفد أيًا من القيادات العمالية أو ممثليهم، فقد كان الوفد يتكون من كبار الملاك الزراعيين المحافظين في ثورتهم، والثاني هي اتباع الوفد للطريقة السلمية والمخاطبات للتفاوض من أجل الاستقلال، والبعد عن استخدام الأسلوب الثوري [22]. فإن الوفد اضطر للبعد عن الأسلوب السلمي الضيق، والانفتاح على قطاعات أوسع من الجماهير عند جمع التوكيلات. ومع أن الوفد لم يضع العمال في اعتباره، فإن العمال من وسعوا قاعدة جمع التوقيعات.

وقد أدت سلمية الوفد لاعتقاد السلطات بعدم قدرته على الصمود، فقبضت على أعضائه ونفتمهم، فتفجرت الطاقة الثورية لدى الجماهير بشكل لم يكن يتوقعه لا الاستعمار ولا الوفد نفسه. استمر من تبقى من الوفد بنفس الطريقة السلمية والمخاطبات، متبرئين من الانفجار الثوري.

كانت مشاركة العمال والحرفيين في الثورة بطريقتين، منفردين بمئات الآلاف في التظاهرات التي كان دعا إليها وقادها الطلبة والمتفقون في كل المدن، ودل على وجودهم كونهم أغلبية من الشهداء والمعتقلين. أو بمشاركة جماعية بالإضراب والتظاهر، كان ذلك في القاهرة والإسكندرية حيث تمركزت القيادات العمالية المنظمة.

اشترك العمال في الكثير من المواقع رافعين شعارات المطالبة بالاستقلال جنباً إلى جنب مع مطالبهم الاقتصادية. بدأت المشاركة الجماعية للعمال بإضراب عمال الترام وسيارات الأجرة 11 مارس، تلاهم عمال عنابر السكة الحديد معلنين الإضراب العام، مما أدى لشلل الحركة داخل القاهرة. لم يستطع الكثير من العمال المشاركة في التظاهرة الوطنية للمتفقين والطلبة يوم 17



حفلت الفترة بالإضرابات التي كان منظموها أساساً من الأجانب، وشارك فيها العمال المصريون حسب وجودهم. وقد أتاحت تلك الإضرابات الفرصة للطبقة العاملة المصرية للوقوف على أساليب العمل الجماعي في مواجهة رأس المال..

إذ أدى مقتل سردار الجيش المصري، إلى استقالة حكومة سعد زغلول والقبض على رئيس الاتحاد واتهامه بالقتل، بالإضافة للإجراءات التي قامت بها حكومة زيور أدت للقضاء على الاتحاد [32]. اكتفى الوفد حتى 1929 اكتفى الوفد بوجود قياداته في النقابات، وما أن تولي الوزارة سنة 1929 حتى بدأ العمل على إقامة اتحاد آخر توقف مع استقالة الحكومة بعد فشل مفاوضات (النحاس-هندرسون) 1930.

ظهر عباس حليم في معركة السخط على حكومة صدقي، لأنه من الأمراء الذين كانوا في صف الشعب، فجردته السراي من اللقب، ومن امتيازات أبناء أسرة محمد علي، فكسب شعبية كبيرة جعلت حزب الوفد يتعاون معه في إنشاء اتحاد للعمال يكون برئاسة عباس حليم، يعمل من خلفه رجال الحزب. لكن طموح عباس حليم جعله حريصاً على أن تكون له السيطرة التامة على الاتحاد، فرفض السماح بتسلسل الوفديين إلى مجلس إدارة الاتحاد.

بقي الصراع بينهما مستتر خلال الفترة 1931-1935، إذ تعرض الاتحاد للحرب من الحكومة فأغلق مقره وحوارب النقابيون في رزقهم وزج بهم في السجون [33]. وانشقت الحركة

لنصفين بتأسس الوفد "المجلس الأعلى للعمل" 1935، فكانت الفرصة الذهبية للبوليس السياسي للقضاء على الاتحادين.

انفصل عباس حليم عن العمال وتصل من مهامه إثر عودة امتيازات العائلة المالكة له. فبدأ الاتحاد يتداعى، ويزج بقياداته في السجون، ويحرض البوليس الشركات والمصانع على فصل أعضائه، وإغلاق مقرات النقابات، فانفرط عقد الاتحاد وعادت النقابات تناضل منفردة. شهد عام 1936 موجة كبيرة من الإضرابات بسبب سوء الأحوال الاقتصادية للعمال، اتخذت الإضرابات طابع عنيف كتكسير الماكينات والمرافق، مما أدى إلى إطلاق النار على العمال بسكر الحوامدية والترام. في 1937 أسس قادة العمال الذين تمرسوا على العمل النقابي في حجر الاتحادات "هيئة تنظيم الحركة

البوليس عند كوبري عباس، وقامت تظاهرات في الأقاليم وقام البوليس بقمعها بعنف. فاستقال النقراشي وتولى إسماعيل صدقي الوزارة [28]. وجاء في شهادة ثريا أدهم أن الطلبة فكروا في تكوين "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة" لمواجهة الضغط الإرهابي من الحكومة عليهم، لكي تشاركهم الطبقة العاملة التي كانت تخوض حركة إضراب واسعة لتحقيق مطالب اقتصادية. كانت اللجنة منتخبة مباشرة من الطلبة في الكليات والمدارس الثانوية، ومن العمال في المصانع. كان أول نشاط للجنة في 21 فبراير فتوقفت كل وسائل المواصلات، خرج من جامعة القاهرة، وتحرك العمال من شبرا الخيمة، على أن تلتقي التظاهرتان أمام قصر عابدين [29]

تحطيم تنظيمات العمال ومحاولات الهيمنة عليها بدأ التفات العمال لمطالبهم الاقتصادية بعد الإفراج عن سعد وزملائه، قادت النقابات حركة إضراب كبيرة، احتلت المصانع، ورفعت فيها الأعلام الحمراء. فتأسس الحزب الاشتراكي عام 1920، والذي ساعد في تأسيس اتحاد عام للعمال في نفس العام، ثم تأسس الحزب الشيوعي 1922 [30].

فزعت البرجوازية من موجة الإضرابات التي قامت بها نقابات الاتحاد، كذلك من برنامج الحزب الذي نادى بالاستقلال وتأميم قناة السويس ومصادرة الملكيات الزراعية. فقامت أول حكومة وفدية في 1924 بحل الاتحاد، وبتقديم قيادات الحزب للمحاكمة، بل واغتيال بعضهم. كما فصل العمال وكل من له صلة أو تعاطف مع الحزب [31].

لم تكن حكومة الوفد لتترك فراغ يسمح بقيام عناصر يسارية جديدة تنظم العمال، فقامت بتأسيس "الاتحاد العام لنقابات العمال في القطر المصري" 1924 بزعامة عبد الرحمن فهمي، ووضعت له لائحة نزع فيها حق النقابات في إعلان الإضراب، وأعطته للاتحاد وحده بأغلبية أعضاء مجلس إدارته. لم يستمر الاتحاد طويلاً،



1945، من قبل جماعة من النقابيين الشيوعيين ممن خرجوا من المنظمات على كل المطالب الوطنية الخاصة بالاستقلال والتمصير، ومكافحة الصهيونية، المساواة بين الجنسين، بالإضافة لأهداف تخص مجانية التعليم وتحسين وضع الفلاحين بنزع الملكيات الكبيرة وتوزيعها عليهم. تقدمت اللجنة بعريضة إلى أعضاء مجلس الأمن والجمعية العمومية للأمم المتحدة 1945 للمطالبة بالاستقلال [36].

أدت مشاركة "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" في النضال الوطني 1946 إلى علو شأنه،

فسعى لتأسيس "مؤتمر نقابات عمال مصر". جاء ضمن أهدافه كل ما سبق ذكره من أهداف في مؤتمر نقابات عمال الشركات الأهلية، ولجنة العمال لتحرير القومي. فشل البوليس في منع انعقاد المؤتمر 1 مايو 1946، ألقت حكمت الغزالي كلمة باسم "رابطة العمال بالقاهرة". أرسل المؤتمر مذكرة بمطالب العمال لرئيس الوزراء، وواصل نضاله من أجل تحقيقها. كان ضمنها تحديد يوم



**الحرب وانقطاع الواردات
الرأسمالية الوطنية في
الريف والمدن، علمت
الطبقة العاملة مقدار
الأرباح التي من الممكن
أن تجنيها، فباتت تتطلع
إلى السلطة السياسية
التي تحقق مصالحها
الاقتصادية، وازداد
التناقض بينها وبين
المستعمر..**

للإضراب العام، فإن الحكومة نجحت في استمالة عمال النقل وجعلهم لا يشاركون في الإضراب فلم ينفذ. وتم إلقاء القبض على قيادات المؤتمر، ضمن موجة الاعتقالات التي شملت صحفيين وطلبة وسياسيين، وذلك للقضاء على الحملة المعارضة لمشروع معاهدة بيفين- صدقي، واتهامهم بالعمل على قلب نظام الحكم والترويج للشيوعية. كما تم حل النقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكي في شبرا الخيمة بسبب نشاطها ضد إغلاق المصانع وتشريد العمال [37].

تبلور النشاط العمالي فيما بعد حل المؤتمر في نقابات المؤسسات، بدأت النقابات تتحرك

العمالية" بهدف إعادة نشاط النقابات. حاول عباس حليم العودة للسيطرة على الحركة 1938، لكنه تمت تحييته بعد شهر. أنهت الحرب العالمية الثانية 1939 المحاولة، حيث طاردت الحكومة قياداتها، ومنعت الإضرابات في ظل الأحكام العرفية [34].

في أثناء الحرب حاصر الإنجليز الملك، وأرغموه على أن يكلف النحاس باشا بتشكيل الحكومة 1942، فسخط الشعب لقبول الوفد ذلك، واسترضاء للشعب شرعت الحكومة في تنفيذ بعض الإصلاحات الضرورية، فأصدرت بعض التشريعات العمالية [35]. وقد أدت ظروف الحرب إلى نقص

الواردات، مع زيادة الطلب لوجود ربع قوات الحلفاء في مصر، ولتصدير بعض البضائع لعدد من الأقطار المجاورة، فكانت فترة رخاء على الصناعة المصرية. فتوسعت الطبقة العاملة نتيجة لذلك وكذلك نتيجة لإلحاق مئات الآلاف من العمال المصريين بورش المصانع الحربية التابعة للقوات البريطانية. مع انتهاء الحرب أغلقت تلك المصانع، وكذلك المصانع التي نشأت في أثناء الحرب، فتفاقمت مشكلة



**في 1908 كان إضراب
لنافي السجاير فأعادوا
إحياء نقاباتهم، وأضرب
عمال الترام، وكانت
مطالبهم خاصة بالأجور
وساعات العمل والفصل،
ومنع ضرب وإهانة
الموظفين (ومعظمهم
من الأجانب) للعمال،
وفتح باب الترقى
للمصريين..**

البطالة، وجرى معها انخفاض في مستوى الأجور برغم الارتفاعات المطردة في الأسعار. أصدرت الحكومة كادر لأجور لعمال الحكومة 1944، فأسست النقابات "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" كجبهة من أجل توحيد النضال للتطبيق نظام الكادر عليهم. اكتسب المؤتمر شرعية دولية بحضور مندوبيه للمؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي في باريس 1945، وضع ضمن أهدافه مسألة التحرر الوطني، وتوطيد أركان الديمقراطية وتدعيم أسس الأمن الدولي. كذلك شمل برنامج "لجنة العمال للتحرير القومي" التي تأسست في أكتوبر

- 1919، "تحريرو وتقديمو: د. نجلاء المكايو، تحريرو: تامر وجيه، دار المرآيا، الطبعة الأولى 2019، ص 2019 .
- [15] - شهدي عطية الشافعي، ص 29
- [16] - د. محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة، الجزء الأول: من سنة 1912 إلى سنة 1937 " من الحماية إلى معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية"، دار المعارف، 1951، ص 75-80
- [17] - عبد الرحمن الرافعي ص 187-188
- [18] - شهدي عطية الشافعي، ص 42-40.
- [19] - عبد الرحمن الرافعي، ص 169-171
- [20] - عبد الرحمن الرافعي، ص 216.
- [21] - د. محمد حسين هيكل، ص 90.
- [22] - أمين عز الدين، الطبقة العاملة وثورة 1919، الفصل السابع من كتاب " القارة" دراسات مختارة من ثورة 1919، "تحريرو وتقديمو: د. نجلاء المكايو، تحريرو: تامر وجيه، دار المرآيا، الطبعة الأولى 2019، ص 219-224
- [23] - أمين عز الدين، ص 232-224
- [24] - رؤوف عباس، ص 80-81.
- [25] - رؤوف عباس، ص 102-101.
- [26] - شهدي عطية الشافعي، ص 79.
- [27] - رؤوف عباس، ص 117-116.
- [28] - رؤوف عباس، ص 139-136.
- [29] - من تاريخ الحركة الشيوعية في مصر، شهادات ورؤى، الجزء السابع، تقديم عاصم الدسوقي، مركز البحوث العربية والأفريقية- لجنة توثيق الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، ص 54-53
- [30] - شهدي عطية الشافعي، ص 43-44.
- [31] - من تاريخ الحركة الشيوعية في مصر، حسونة حسين عن الحزب الشيوعي المصري الذي تأسس عام 1922، ص 75-74.
- [32] - رؤوف عباس، ص 213-212
- [33] - رؤوف عباس، ص 102-114
- [34] - رؤوف عباس، ص 123-119
- [35] - رؤوف عباس، ص 222
- [36] - رؤوف عباس، ص 129-136، 309-313
- [37] - رؤوف عباس، ص 151-139
- [38] - رؤوف عباس، ص 155-152

لمحاولة تكوين اتحاد 1950، كان للقادة النقابيين الشيوعيين دور مهم في ذلك، امتداداً لدورها منذ عام 1945، مما جعل الحكومة توجه لهم الضربات الموجعة.

تأسست "اللجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات العمال في القطر المصري"، ضمت ما لا يقل عن مئة نقابة. أوفدت اللجنة مندوبين عنها للاتحاد الدولي للنقابات، ومؤتمر اتحاد عمال السودان. أعدت الترتيبات لتأسيس المؤتمر في 27 يناير 1952، لكن حدث حريق القاهرة في اليوم السابق، فأعلنت الأحكام العرفية وتم القبض على قيادات المؤتمر. في مايو من نفس العام أعيد تشكيل اللجنة تحت اسم "اللجنة التأسيسية لاتحاد نقابات العمال المصرية"، تحدد 16-14 سبتمبر 1952 موعداً لعقد المؤتمر الذي سيناقش ويقر اللائحة ويعلن التأسيس، لكن بعد قيام حركة الضباط 1952 لم تسمح السلطات بانعقاد المؤتمر [38]، وتلك قصة أخرى لمرحلة أخرى.

هوامش

- [1] - يحي حقي، صفحات من تاريخ مصر، المقالات الأدبية: 5، الهيئة العامة للكتاب، 1989، مقال بعنوان "هذا العام" كتبه سنة 1969، ص 213
- [2] - عبد الرحمن الرافعي بك، ثورة سنة 1919: تاريخ مصر القومي من سنة 1921-1914، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، 1946، ص 44.
- [3] - رؤوف عباس حامد محمد، الحركة العمالية في مصر: 1899-1952، المجلس الأعلى للثقافة، 2016، ص 55-56
- [4] - شهدي عطية الشافعي، تطور الحركة الوطنية المصرية (1882-1956)، الطبعة الأولى 1957، مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ص 5
- [5] - رؤوف عباس: ص 60-58
- [6] - رؤوف عباس، ص 62
- [7] - رؤوف عباس، ص 67-66.
- [8] - شهدي عطية، ص 25-20.
- [9] - رؤوف عباس، ص 73-75، 78
- [10] - شهدي عطية الشافعي، ص 13-12
- [11] - عبد الرحمن الرافعي، ص 45-46
- [12] - يحي حقي، مقال بعنوان " 11 نوفمبر..."، كتبه عام 1961، ص 202
- [13] - يحي حقي، مقال بعنوان " 11 نوفمبر..."، كتبه عام 1961، ص 199
- [14] - أمين عز الدين، الطبقة العاملة وثورة 1919، الفصل السابع من كتاب " القارة" دراسات مختارة من ثورة

الحركة النقابية 1921 ولادة تنظيم ومعارك تشريع

أحمد حسن

2 - المحتسب. يتولى ضبط ومراقبة أمور الأسواق والموازين والمقاييس والأسعار.
3 - المعمار باشا. يشرف على المهندسين والبنائين وصناع الطوب والنجارين وكل الطوائف العاملة في البناء.
هؤلاء الأمناء كانوا أيضًا يجمعون الضرائب من أعضاء الطوائف الخاضعة لإشرافهم. لاحقًا ألغيت وظيفة المحتسب وخولت مهامه إلى حكمدار البوليس، وكان شيوخ الطوائف يعينون بمعرفة أمين الطائفة.
كان هناك طوائف أخرى لعمال الخدمة والنقل والتجار، كان الانضمام إلى الطائفة يمر بمراسم معينة، وكذلك الترقى في المهنة أو الطائفة. وكان لشيوخ الطائفة سلطة القضاء وفرض الغرامات ووضع اللوائح.
بدأت تنظيمات الطوائف تتحلل وتتلاشي تدريجيًا مع ظهور الصناعة وحلول المصنع محل الورش ودخول الأجانب مجال البيع والتصنيع والتجارة وظهور العامل الحر محل عضو الطائفة. وقد ظل هذا النظام ساريًا حتى بداية عام 1890، حين صدر "قانون الباتينه" الذي أنهى التعامل بنظام الطوائف والكتبة وغيرهم. [1] وبالخروج من تنظيم الطوائف وظهور الصناعة والعامل الحر فتفتحت آفاق جديدة للاعتراض على المظالم، وبدأت التناقضات بين الملاك والعمال تتبلور نوعًا ما، ومن ثم ظهر الإضراب كسلاح حديث بيد العمال، وهو عملية تتطلب لنجاحها نوعًا من التنظيم والإدارة والأعداد. أطول الإضرابات العمالية في تلك الحقبة

في البدء كانت "الطوائف الحرفية"، وهي نظام يرجعه بعض الباحثين إلى القرن العاشر الميلادي، واستمر قائمًا حتى إلغائه في نهاية الربع الأخير من القرن التاسع عشر.
وتطلق الطائفة على الأشخاص العاملين في حرفة واحدة، يرأسها "شيخ" يتولى شؤونها، وكان لمشايخ الطوائف "نواب" ووكلاء يعرفون باسم «النقباء» يختارهم حكام المدن التي يقيمون بها، وكان الشيخ يقوم بوظائف تتسم بالأهمية، فهو الذي يفصل في المنازعات التي تنشأ بين أفراد الطائفة، ويحدد أثمان المنتجات، ويرتب درجات الأجور، ويسمح بدخول أعضاء جدد، ويرشد إلى كيفية تنفيذ العقود، ويجمع الرسوم والضرائب المقررة على أفراد الطائفة.
الطوائف الحرفية هي اللبنة الأولى للتنظيم النقابي في مصر، لكنها لم تكن نقابة فعلا بالمعنى الطبقي الحديث، إذ كانت تختلط أحيانًا بالصيغة الدينية لكلمة طائفة، وكانت تجمع بين ملاك الورش وعمالهم.
في القرن الثامن عشر كان بالقاهرة ثلاث مجموعات كبيرة من الطوائف الحرفية وكل مجموعة تخضع لإشراف وإدارة ضابط معين يسمى "أمين الحرفة":
1 - أمين الخردة. ويقع تحت إشرافه المغنين والخبازين وسوق الجمال وصبಾಗಿ الحرير والحدادين وباعة الخردة.



عمال في الأربعينيات

خبرات الإضراب العمالي والنقابات إلى العمال المصريين. كما أن هذا الإضراب، بعد نجاحه، أطلق موجة من الإضرابات العمالية. وفي العام 1903 تكرر إضراب لفاي السجائر، ونشأ عن إضرابهم نقابة عامة لهم سميت (النقابة المختلطة لعمال الدخان) أسسها عمال شركة ما توسيان.

في أكتوبر 1908 أضرب عمال الترام وقد قوبل إضرابهم بتدخل البوليس وإحالة 108 منهم إلى المحاكمة، ونشأ عن إضرابهم أول نقابة لعمال مصريين دون مشاركة أجانب. ويلاحظ أن محمد فريد والحزب الوطني انتهوا لأهمية كسب العمال وبدأ انحيازه إلى مطالبهم معتبرا إضرابهم مشروعا بعد أن كان "عدوى أوروبية"، وساعد الحزب الوطني في إنشاء "نقابة الصنائع اليدوية" ضمت العاملون في نحو 12 حرفة يدوية. ودرس أعضاء الحزب الوطني لوائح النقابات في الخارج، ووضعوا أول لائحة نقابية لعمال الصنائع اليدوية نشرت بصحيفة الحزب "اللواء" عام 1910. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى وبعد إعلان الحماية الإنجليزية على مصر أعلنت الأحكام العرفية عام 1914، وكان من آثارها إغلاق النقابات وحظر أي نشاط لها.

أدت الحرب إلى توقف الواردات والاعتماد على الإنتاج المحلي فزاد عدد المصانع

وأقواها كان إضراب لفاي السجائر الذي ضم معظم مصانع السجائر عام 1899، واستمر من ديسمبر 1899 حتى فبراير 1900. ويعتبر علامة فارقة في تاريخ الحركة العمالية

يؤرخ لميلادها وقوتها. لم يكن أول إضراب فقد سبقه اعتصام عمال "نقل القمح" في 1894، واعتبره محمد فريد باشا بمثابة "داء أوروبي انتقل لمصر" [2] وقد أسفر عن إضراب لفاي السجائر تأسيس أول نقابة عمال بمصر، سميت باسم "جمعية لفاي السجائر" برئاسة عامل يوناني [3]، وتلاهها تكوين



الطوائف الحرفية هي اللبنة الأولى للتنظيم النقابي في مصر، لكنها لم تكن نقابة فعلاً بالمعنى الطبقي الحديث، إذ كانت تختلط أحيانا بالصبغة الدينية لكلمة طائفة، وكانت تجمع بين ملاك الورش وعمالهم..

"اتحاد الخياطين" وكتبة المحامين وجمعية الحلاقين في العام 1901/1902. وجدير بالملاحظة أن مصانع السجائر كان بها عمال أجانب "أغلبهم يونانيون" حملوا معهم



عباس حليم

الذي عقد مؤتمر حضره ممثلو 33 نقابة مصرية واستمع لشكوى النقابات المصرية وما تتعرض له من تضيق، ورفع هذا الوفد مذكرة إلى الاتحاد

الدولي موصياً برفع القيود عن النشاط النقابي في مصر. نتيجة لذلك سعت الحكومة لإصدار تشريعات للعمل تحتوي بها الموقف بالاستعانة بخبير من اتحاد العمل الدولي، كما أنشأت "أول" مكتب عمل وجعلته خاضعا لإشراف وزارة الداخلية [5] ولكنها استمرت في إغلاق الاتحاد ومطاردة أعضائه.

في 1934 عاد الاتحاد للنشاط متخذاً مقراً في قصر عباس حليم. وتضاعفت عضويته حتى وصلت 30 ألف عامل منظمين في نقابات كما زاد تأثيره مما أثار مخاوف الحكومة من نمو نفوذه. فقامت الحكومة



في 1908 أضرب عمال الترام وقد قوبل إضرابهم بتدخل البوليس واحالة 108 منهم إلى المحاكمة، وأنتج إضرابهم أول نقابة لعمال مصريين دون أجانب. وانتبه محمد فريد و لأهمية كسب العمال فأنحاز إلى مطالبهم

وأعداد العمال المصريين، وفي نهاية الحرب اندلعت ثورة 1919 وشارك العمال فيها بقوة، وترتب على ذلك عودة الإضرابات وظهور جديد متعاطف للنقابات العمالية في مختلف أرجاء البلاد.

بسبب تلك الإضرابات ظهر أول تشريع معنى مباشرة بالعمال، قانون لجان التوفيق والتحكيم أغسطس 1919، ومعه ظهرت المفاوضات الجماعية وعقود العمل المشتركة. وفي العام 1920 ظهر أول حزب اشتراكي مصري. وقد لعب الحزب الاشتراكي دوراً في تكوين أول اتحاد عام لنقابات عمال مصر في 1921، ضم تحت لوائه عشرات النقابات في محافظات متعددة ونظم العديد من الإضرابات.

ومع أن الوفد شكل الحكومة بعد عودة سعد نتيجة لجهود شعبية شارك فيها العمال بقسط كبير، لكنه لم يهتم بشؤون العمال إلا بعد أن لعب الاشتراكيون والشيوعيون دوراً ضخماً في تنظيمهم، ومن ثم قرر محاولة احتواء حركة العمال وأنشأ اتحاداً للعمال تحت رئاسة عبد الرحمن فهمي باشا تحت اسم "اتحاد نقابات عمال وادي النيل".

في عام 1928 دعا نقابيون إلى تكوين "اتحاد عام لنقابات عمال القطر المصري" الذي سعي لاستعادة أموال النقابات من يد المستشارين "المحاميين" ووضعها في خدمة الاتحاد مباشرة. وقد تميز هذا الاتحاد بإنشاء صلات نقابية أممية مع نقابات واتحادات وأحزاب في الخارج. [4]

لم يكن هذا الاتحاد يضم عضوية كبيرة وجمده أعضاؤه بسبب خلافاتهم حتى عاد بعضهم إلى إحيائه ونادوا بزعامة (عباس حليم)، الذي كان محسوباً على الوفد في تلك الحقبة، وهو ما جعل الوفد يهتم بإدماج اتحاد عام نقابات الوفد به، وبإصدار أول قانون لاتحاد عام للنقابات المصرية في 1931. وقد استلهم التشريعات الأوروبية نابذا التشريعات الاشتراكية التي قدمت له. وفي نفس العام أطيح بحكومة الوفد وجاءت حكومة صدقي الذي بدوره أغلق الاتحاد العام التابع للوفد وطارد أعضائه وسجنهم. واستخدم الاتحاد علاقاته الدولية مما أسفر عن قدوم وفد من الاتحاد الدولي للعمل



عمال لف السجائر بداية القرن العشرين

الناحية العملية ولم تتجح الفكرة. وفي نفس العام صدر قانون ينظم عقد العمل ويمنح بعض الضمانات للعمال ولكن أصحاب الشركات تحايلوا عليه بفصل العامل وإرجاعه بعد الفصل، كي لا يستفيد العمال من مدة الخدمة "المتواصلة" المقررة في القانون.

في 1936 صدر تشريع بتحديد ساعات العمل في الصناعات الخطرة، والمثير أن من احتج على القانون هو أعضاء "المجلس الأعلى" الوفدي، وحين دعا اتحاد عمال القطر المصري لمؤتمر لمناقشة مشروع القانون الذي اقترحه المجلس الأعلى تعرضوا مجدداً للحصار ومنع التجمع والمضايقات الأمنية، فقررروا التظاهر والاحتجاج لدى المنظمات الدولية ومكتب العمل الدولي.

في العام 1936 تصالح حلیم مع الأسرة الملكية وأعاد الملك له لقبه وامتيازاته فتصل من الاتحاد والنقابات ولم يعد بحاجة لاستخدامهم في تطلعاته وصراعاته. أصبح الاتحاد محاصراً وملاحقاً في مواجهة الملك والوفد والمجلس الأعلى والحكومة التي وجدت الفرصة سانحة فأغلقت مقاره واستولت على أمواله وفككت عضوية نقاباته وانهار نشاطه وقدرته تماماً رغم وجود موجة من الإضرابات العمالية وقتذاك.

في نفس العام أيضاً أُضرب عمال النقل والسكر وحطموا الآلات وحدثت مواجهات مع البوليس فأطلق عليهم الرصاص ورفض

بضرب حصار حول المقر الجديد لمنع أعضاء الاتحاد من الدخول والاجتماع ودارت معارك بين العمال والبوليس أسفرت عن حدوث إصابات وقبض على 95 عاملاً من نقابات مختلفة، بعدها بوقت قصير أُلقي القبض على عباس حلیم ثم أُطلق سراحه بتدخل من السفارة الإنجليزية.

على عكس ما توقعته الحكومة أدى القمع والصدمات لزيادة عضوية الاتحاد وكسب تعاطف واسع. وقام الاتحاد بتنفيذ فكرة رائدة، وهي إنشاء "شركة تعاونية" لعمال السجائر برأس مال عمالي خالص، والواقع أن عباس حلیم دفع رأس مال الشركة - كسلفة - من ماله حتى قيل إنها كانت ستاراً لمشروع أنشأه حلیم مستغلاً سمعة الاتحاد وشعبيته. وجهت الشركة بحرب شعواء من الحكومة وشركات الدخان وحتى من حزب الوفد نفسه (فكرة شركة تعاونية مملوكة للعمال سببت ذعراً لباشوات الوفد وللحكومة) وتعثرت الشركة بسبب الهجوم عليها كما لجأ الوفد - مرة أخرى - للعبة شق الحركة النقابية بأن شكل (مجلساً أعلى للعمال) وهو عبارة عن اتحاد جديد يضم في عضويته "ممثلو اتحاد الصناعات والحكومة والعمال" منافساً للاتحاد القائم وضم إليه عدد من نقابات الاتحاد القائم، مما أضعف كليهما وأثر بالسلب على قوة الحركة العمالية نقابياً.

في العام 1935 خطا اتحاد العمال خطوة أخرى بأن قرر ترشيح "كتلة برلمانية" من العمال. لكن الاقتراح لم يلق صدقاً من



عبد الرحمن فهمي

الشرفية، وتتصل منه ومن أعضاء الأحزاب الذين كان لهم قدر من الهيمنة على الحركة العمالية. كسب الاتحاد تعاطف واسع بسبب نضالاته لكن ظروف الحرب العالمية الثانية وتدخل الأمن والملاحقات الأمنية حاصرته وأدت إلى انهياره ووأد أول محاولة لاستقلال النقابات عن السلطة والزعامات البرجوازية. وفي نهاية الحرب تدهورت أحوال الصناعة واحوال العمال وانطلقت موجة من الإضرابات والاحتجاجات، في العام 1942 قامت حكومة الوفد بإصدار تشريع يستجيب لمطلب الاعتراف بالنقابات، القانون رقم 85 لسنة 1942، وحققت النضالات النقابية بعض المكاسب. كما اضطرت حكومة أحمد ماهر، أمام تعاضم الإضرابات، إلى إصدار كادر للعاملين بالحكومة ينظم الأجور والعلاوات وغيرها. [6]

لم يكن قانون 85 "الوفدي" يسمح بإنشاء اتحاد عام للعمال، وسمح فقط بنقابات مهنية عامة للعاملين في ذات المهنة، المفارقة اللافتة ان الوفد الذي أصدر القانون هو أول من تحاليل على مواده حين احتاج لتكوين اتحاد تابع له فسماه رابطة النقابات، وبعد ذلك تحاليل العمال أنفسهم عليه فأنشأوا اتحادهم العام تحت اسم "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" في عام 1944 وكان يضم 25 نقابة بين عامة ومؤسسية، ويضم في عام 1945 خمسة عشر ألف عضو في القاهرة

النحاس رئيس الوزراء مقابلة وفد عمال النقل وقبض على عدد من المشاركين في الإضرابات بتهمة الشيوعية. وعاود نقابيون الاتصال بعباس حليم الذي صرح برجوعه لرئاسة الحركة العملية بعد توقف 18 شهر، وعقدت الاجتماعات النقابية برئاسته مجدداً في 1937.

في 1938 أعلن عن تأسيس الاتحاد العام لنقابات المملكة المصرية، الذي ضم 32 نقابة، برئاسة حليم. وبعد شهر أدخلت تعديلات على رئاسة الاتحاد لإضافة عامل من الإسكندرية يدعى محمد الدمرداش كان قد نجح في كسب عضوية البرلمان ووجه استجوابين لوزير التجارة والصناعة الأول عن رأي الحكومة في إصدار قانون يعترف بالنقابات



بدأت تنظيمات الطوائف تتحلل وتتلشي تدريجياً مع ظهور الصناعة وحلول المصنع محل الورش ودخول الأجانب مجالات التصنيع والتجارة وظهور العامل الحر محل عضو الطائفة. وظل هذا النظام سارياً حتى بداية 1890

العمالية، والثاني عن نشاط المجلس الاستشاري للعمل والعمال. وبعد ذلك أول صوت للعمال من بينهم يتحدث عنهم في البرلمان المصري، واختير رئيساً للاتحاد وترك منصب شرفي لحليم هو "زعيم الاتحاد".

أثار هذا الاتحاد بقوة، عبر التظاهرات، قضية التشريعات المتعلقة بالنقابات والاعتراف بها، وكذلك إعادة النظر في قانون إصابات العمل وخفض ساعات العمل ووضع حد أدنى للأجور كما أثار مشكلة البطالة، وأمام تجاهل الحكومة نظم إضراب في يونيو 1939 عن الطعام حتى تصدر تشريعات العمل.

كما أثار الاتحاد قضية استقلال الحركة العمالية فنحى عباس حليم عن "الزعامة"

الخاصة بالحرية النقابية وحماية الحق في التنظيم التي اعتمدها المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية (يوليو 1948). كما صدقت على الاتفاقية رقم (98) الخاصة بحق التنظيم والمفاوضة الجماعية (عام 1949).

وجدير بالذكر أن صحيفة الإخوان المسلمين في تلك الحقبة شنت هجوماً شديداً على المؤتمر وعلى نضالات العمال، واصفة إياهم بأن هدفهم هو الهدم الفوضوي وأنهم يستجيبون لدعوات أصحاب المبادئ الهدامة. [11] وللأسف تعرض هذا الاتحاد لمصير سابقه من الانقسامات والملاحقة، ما قاده وأعضاءه إلى الانهيار والتفكك.

بدأت النقابات محاولة جديدة في مطلع الخمسينيات لتكون اتحاد عام لعمال مصر، وتشكلت لجنة تحضيرية وصدر كراس بالأهداف والمطالب تحت اسم "النصيحة إلى عمال مصر" فإن حريق القاهرة قطع الطريق أمام إنشاءه حيث أعلنت الأحكام العرفية واعتقل قادة اللجنة التحضيرية والنقابيون النشطون. [12] وبعدها بأشهر حدث استيلاء تنظيم "الضباط الأحرار" على السلطة في 1952 والذي افتتح فاصلاً جديداً في تاريخ الطبقة العاملة وتشريعاتها ونقابات ومعاركها.

وحدها. في هذا العام أرسل المؤتمر ثلاثة مندوبين إلى المؤتمر التأسيسي لـ (اتحاد النقابات العالمي) بباريس، الذي اعتمدهم أعضاء، وصار لهم صفة دولية جعلتهم شبه رسميين كاتحاد عام للعمال. وضع المؤتمر ضمن أهدافه حقهم في المشاركة في وضع القوانين المتعلقة بالعمال، والمشاركة في النضال الوطني من أجل الاستقلال.



مع أن الوفد شكل الحكومة بعد عودة سعد نتيجة لجهود شعبية شارك فيها العمال بقسط كبير، لكنه لم يهتم بشؤون العمال إلا بعد أن لعب الاشتراكيون والشيوعيون دوراً ضخماً في تنظيمهم

أجل الاستقلال. [7] وحدد المؤتمر موقفه على النحو التالي:

"أن الهيئات السياسية القائمة أنكرت قضية الوطن وتأمرت مع المستعمر ووقفت في وجه النضال الشعبي، ولذلك وقع على عاتق العمال "مسؤولية قيادة الشعب لتحقيق أهدافه الوطنية"، ولتحقيق الجلاء عن وادي النيل عسكرياً

بطرد جيوش الاحتلال، واقتصادياً بنزع سيطرته المالية على البلاد.. على العمال أن ينظموا صفوف الشعب المناضل ولا يسلموا قيادته لأيدي أعداء الحركة الوطنية" [8]. واتسع نطاق عضوية المؤتمر حتى ضم تقريباً جميع نقابات العمال، وغير اسمه إلى "مؤتمر نقابات عمال مصر".

اللافت هنا أن المؤتمر قرر مبدأ عدم التمييز على أساس الجنس أو الدين، كما شكل روابط خاصة للنساء العاملات للمشاركة في الكفاح الوطني نص عليها في لائحته. [9] وانضمت رابطة العاملات بالقاهرة إلى المؤتمر، وشاركوا في اجتماع التأسيس، وألقت واحدة من الرابطة (حكمت الغزالي) كلمة باسم الرابطة ذكرت فيها أن مشاركتهن تهدف إلى تحقيق المساواة بين الجنسين، والمطالبة بحق المرأة في الترشح والانتخاب. [10] ويجب الإشارة هنا إلى أن مصر صدقت على الاتفاقية الدولية رقم (87)

هوامش

- [1] رؤوف عباس - الحركة العمالية في مصر 1899 - 1952. الفصل الأول
- [2] محمد فريد. تاريخ مصر من 1891، مخطوط، ص 97.
- [3] رؤوف عباس، مرجع سابق، ص 63.
- [4] رؤوف عباس/ سابق، ص 98، 99.
- [5] جريدة البلاغ 7/10/1931.
- [6] رؤوف عباس، سابق، ص 131.
- [7] نشرة نقابة مستخدمي المحال التجارية بالقاهرة، مايو 1946.
- [8] صحيفة المؤتمر، نشرة غير دورية، العدد 5، أبريل 1946.
- [9] مشروع لائحة النظام الأساسي لمؤتمر نقابات عمال مصر، ص 9.
- [10] نشرة المؤتمر، عدد 6، مايو 46.
- [11] صحيفة الإخوان، 20/6/1946.
- [12] رؤوف عباس، سابق، ص 154

الوعي المقدس

الحركة العمالية بين ثورتين 1919 - 1952

محمد دوير



إسماعيل صدقي

نقابة في العصر الحديث في إنجلترا عام 1720 بواسطة عمال الخياطة قائلين: إن عمال الخياطة في المدن وضواحيها الذين يزيد عددهم عن سبعة آلاف، تنادوا لتأليف جمعية بقصد زيادة أجورهم وتخفيض يوم العمل ساعة واحدة [iii].

أولاً.. العشرينيات: حصاد الثورة المصرية

يقول يوسف درويش " أذكر أنه في سنة 1943، وكنت على علاقة بنقابة عمال النسيج، أضرب عمال النسيج عن الطعام في بيت الأمة، وقد عرفت منهم أنهم عندما ذهبوا إلى هناك تساءل النحاس وهو في طابق علوي عن وجودون في الطابق الأرضي، ف قيل له إنهم بعض العمال فطلب أن يصعدوا إليه، فقال العمال إن الطبقة العاملة لا تصعد لأحد" [i].

تبدو لي الحركة العمالية منذ فجر عصر الصناعة وحتى عصر الذكاء الاصطناعي، توجهاً إنسانياً يمتلك وعيه بحكم الضرورة، وينبثق عن هذا الوعي "المقدس" تخارجات عملية كالتنقابات العمالية التي تعكس روح النضال من أجل حياة كريمة. وفي كتابه "قانون العمل" يضع محمد حسن منصور تصويره للحركة العمالية بوصفها ذلك التيار النضالي الذي يتضمن نقابات وأحزاب ومناصرين وداعمين لقضايا العمال في كل مكان من العالم دفاعاً عن العامل وعن حقوقه الاقتصادية والاجتماعية. فيما يعبر العمل النقابي عن تلك الهيئة من العمال التي تعمل لصالح أعضائها بشكل جماعي بالنسبة للمسائل التي لا يمكن القيام بها بواسطة كل عضو بمفرده. وهذا معناه مساعدتهم في الحصول بشكل جماعي على شروط أفضل أثناء قيامهم بالعمل أو أداء الخدمات [ii]. وتاريخياً ظهرت أول



الجهة الوطنية للطلبة والعمال ١٩٣٦

ولم يكن من الممكن قيام حركة صناعية دون وجود مؤسسات اقتصادية موازية، وأعني بنك مصر الذي استهدف العمل على تنظيم الحالة التجارية وإنشاء الغرف التجارية لتنظيم حركة الاقتصاد والتداول. فكان وجود مثل هذا البنك دافعاً كبيراً لتوسيع قاعدة الصناعة المصرية برأس مال وطني، فأنشأ مجموعة شركات تأسيسية شكلت العمود الفقري للصناعة المصرية في مجالات عدة كالغزل والنسيج والسينما ومصايد الأسماك والكتان وتصدير الأقطان والتأمين وبيع المصنوعات والزيوت.. إلخ. وبدا أن الروح الوطنية قد أدت أو سعت إلى تغيير كل أوجه الحياة في مصر وخلقت دوافع كبرى لدى المصريين لكي يمتلكوا إرادتهم السياسية والاقتصادية والنقابية بعد ذلك.. وتشكلت جمعيات لحماية الصناعة الوطنية، وقدمت الحكومة مشروعات مهمة في هذا الصدد أهمها على الإطلاق هو تعديل التعريفات الجمركية عام 1930، فأعطت بموجب هذا التعديل ميزة تناقصية عظمى لصالح الصناعة المصرية مما سمح بانطلاقة كبرى للصناعة المصرية التي بدأ الطريق مفتوحاً أمامها للنهوض، ومن ثم أصبحت فرصة زيادة نمو الطبقة العاملة ومن ثم نمو وعيها بعدما جرت في النهر مياه كثيرة أهمها الوعي الوطني والسياسي. مما أدى إلى زيادة

انطلقت الحركة العمالية المصرية بصورة كبيرة تتناسب مع كل محاور التقدم الاجتماعي والسياسي في أعقاب ثورة 19. وتتناسب أيضاً مع تطور



تبدو الحركة العمالية منذ فجر عصر الصناعة، توجهاً إنسانياً يمتلك وعيه بحكم الضرورة، وينبثق عن هذا الوعي تخارجات عملية كالنقابات العمالية التي تعكس روح النضال من أجل حياة كريمة

ونمو الرأسمالية الصناعية المصرية. وقد حدث هذا النمو عبر مسارين، الأول: نتيجة الحرب، حيث توقف استيراد سلع كثيرة، ونمو النزعة الوطنية إبان الثورة المصرية نحو دعم المنتجات الوطنية، فدخلت الصناعة المحلية لتعويض تلك السلع. والثاني: كانت متطلبات الحرب العالمية تدفع تجاه إنشاء صناعات معينة

لتلبية احتياجات الحروب فقام الحرفيون بتطوير حرفهم حتى يمكنها تلبية الاحتياجات المستحدثة، ودار معظمها حول الأثاث والجلود والنسيج والخزف والملابس والزيوت.. إلخ.

1-الحزب الشيوعي
في 1920 تأسس الحزب الاشتراكي المصري الذي تحول بعد عام إلى الحزب الشيوعي المصري، حيث لعب دوراً مهماً وكبيراً في إذكاء وتنمية الوعي النقابي. ومع دخول الفكر الاشتراكي مصر واهتمامه بالقضايا العمالية، أصبحنا أمام رؤى نظرية وسياسية أدخلت النضال العمالي في صلب اهتماماتها، وصار للطبقة العاملة ممثل سياسي وأيديولوجي حتى لو لم تكن الحركة العمالية متوجهة إليه أو ملتفة حوله بكامل قوتها. وكانت من أهم مطالب الحركة الاشتراكية الدعوة لتأسيس اتحاد للنقابات المصرية لكي تستطيع مقاومة ومواجهة اتحاد رأس المال المصري.. وبالفعل تأسس هذا الاتحاد بجهد واضح من رجال الحزب الاشتراكي المصري، إذ بدأ بثلاثة آلاف عامل. وفي عام 1923 كان الاتحاد قوياً بما فيه الكفاية وربما يشكل خطراً حقيقياً على أصحاب الأعمال، وقد نظم الشيوعيون أعماله بصورة مخلصه، وشمل نقابيين من المدن الكبرى، واختير الاتحاد قوته بتنفيذ إضراب عمال معمل الخواجات أبي شنب بالإسكندرية، فاحتلوا المصنع واشتبكوا مع البوليس بعد طردهم أصحاب العمل. وهنا شعر الجميع أن شبح الشيوعية يخيم على الحركة العمالية في مصر، فأحدث هذا الحضور الاشتراكي في قلب الحركة العمالية إزعاجاً للسلطة وللأحزاب الليبرالية وعلى رأسها الوفد، خاصة بعدما استمرت الإضرابات في العام التالي أيضاً، حين أضرب عمال شركة الملح والصودا وزيت فكوم وعمال الغزل بالإسكندرية وعمال التليفونات وعمال هليوبوليس وعمال الترام بالقاهرة [v]

2-الحزب والحركة
لقد أقام الحزب الشيوعي المصري بصورة قوية داخل الحركة العمالية منذ العشرينيات، وسيطر إلى حد كبير على اتحاد نقابات العمال الذي ضم في حينها نحو 15 ألف عضو على أقل التقديرات، وكانت الشخصيات الأساسية في هذا التجمع النقابي المهم من قيادات الحزب، فسكرتيره العام هو الشيخ صفوان أبو الفتح، ومستشاره القانوني المحامي أنطون مارون وكلاهما من القيادة المركزية [vi]. وكان هذا التفاعل الكبير

الإنتاج الصناعي بصورة كبيرة حيث في بعض الصناعات زاد الإنتاج أربعة عشر ضعفاً عما سبق. وفي 1927 كان عدد العمال في القطر المصري وصل إلى ما يقارب المليون عامل، وهو رقم مقبول - قياساً لعدد السكان - يسمح ببناء قاعدة عمالية جيدة. وكان من الطبيعي أن ينشأ الصراع الطبقي بين العمال ورؤوس الأموال المصرية والأجنبية أيضاً.



يمكن تقييم الحركة العمالية، في الفترة بين الحربين العالميتين، بأنها نشطت في أوقات كثيرة وتقدمت خطوات كبيرة لصالح العمال وحققت إنجازات مهمة، رغم التوترات التي شهدتها الاتحاد العام وانقسامه..

العمل الصعبة والتي لا يمكن تحملها مقارنة بضعف الأجور، وارتفاع مستوى المعيشة وقعت إضرابات عمالية في مناطق متفرقة وخاصة القاهرة والإسكندرية، وانحصرت مطالب العمال في تخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور، والاعتراف بحقوقهم في الحصول على إجازات مدفوعة الأجر، وتخصيص يوم للراحة الأسبوعية [iv] نتج عن تلك الإضرابات قانون لجان التحكيم والتوفيق في أغسطس 1919، بهدف حصر الشكاوى بين العمال ورب العمل، فتأسست من هنا فكرة التفاوض الجماعي التي أصبحت فيما بعد إحدى أهم نضالات الطبقة العاملة في مصر، واكتسبت فكرة النقابية قيمة أكبر، ومن ثم أقبل عليها العمال الذين وجدوا أن هناك إمكانية لتقدم العمل النقابي من أجل مصالح العمال.

أغسطس 1932، وعمال النقل بمينا البصل بالإسكندرية أكتوبر 1932، وعمال أتوبيس ثورنيكروفت يونيو 1933، وعمال طرق النحاس بالقاهرة يونيو 1933، وعمال نقل الفحم بمينا الإسكندرية فبراير 1935، وعمال نقل بذرة القطن بالميناء فبراير 1935، وعمال مصانع الزيوت بالإسكندرية يونيو 1936، وعمال أقطان كفر الزيات بالإسكندرية يوليو 1936، وعمال شركة الغزل الأهلية وعمال شركة سكر الحوامدية يوليو 1936.. إلخ [ix]. وكشفت ملحمة عمال عنابر ورش السكك الحديدية وعمال النقل، في مايو 1931، أن البروليتاريا المصرية قد بدأت في التحرر من هذا الأسر الأيديولوجي، لقد استطاعت بوثة واحدة عظيمة حشدت فيها كل طاقتها الطبقيّة والثورية أن تسبق وبمسافة واسعة زعماءها المفروضين عليها من معسكر الخيانة الوطنيّة [x]

1- العمال وتظاهرات 1935

وفي أبريل 1931 وضع قانون الاتحاد العام لنقابات عمال القطر المصري، بعد دراسة قوانين اتحادات العمال الأوروبيين، ويلاحظ هنا كما يشير رؤوف عباس إلى أن الاتحاد تجاهل إلى حد ما القوانين التي أتت من نقابات شيوعية أوروبية حرصاً على إنتاج قانون ليس صدامياً في مطالبه العمالية بما يعني أن الاتحاد المصري كان يعمل في إطار محافظ إلى حد ما يتفق وسياسات حزب الوفد التي كانت تهيم على المناخ العام للأمة، بما فيها هؤلاء الذين يقودون العمل النقابي وعلى رأسهم عباس حليم الذي كان قريباً من الوفد وإن ظل حريصاً على عدم سيطرة الوفد بصورة كاملة عليه.

بيد أن الوفد لم يكن يستطيع الوقوف صامتاً أمام تطور الحركة العمالية بهذه الصورة، فوجه ضربة قاسمة لاتحاد نقابات العمال في فبراير 1935، حينما أسس "المجلس الأعلى للعمال" كتظيم موازي للاتحاد، ونجح فعلاً في ضم عدد من النقابات المهمة، فكان المجلس الأعلى هذا بمثابة إسفين شق الحركة العمالية إلى قسمين، شايح أحدهما الوفد، وانضم الآخر إلى عباس حليم، فكانت فرصة ذهبية اقتصها البوليس السياسي للقضاء على الاثنين معا [xi]، وهو ما أدى



بين الشيوعيين والطبقة العاملة داعماً لكليهما معاً، إذ استفاد كل منهما من الآخر. ولذلك عملت الليبرالية المصرية بزعامة سعد زغلول على حل الحزب، وحل اتحاد النقابات، فكان للقضاء على حزب الطبقة العاملة الوليد، وعلى الاتحاد العام لنقابات العمال أثره في ضعف الحركة العمالية، وعدم قيامها بدور الطليعة في الحركة الوطنية [vii]. ثم محاولة السيطرة على النقابات ووضع بدائل للحركة الشيوعية. وقررت البرجوازية المصرية أن تتولى هي بنفسها عملية إدارة وتوجيه النقابات، وهو قرار ثبت فشله على مدار السنوات التالية. بل وعملت على تشكيل الاتحاد المصري للصناعات، يمثلهم 140 رجل صناعة، عام 1926، لحماية حقوق رجال المال ضد الرأسمالية الأجنبية، إذ كان اللورد كرومر يرى أن مبادئ التجارة الحرة تعني إعداد السوق المصرية لاستقبال بضائع لانكشير [viii]، وضد الحركة العمالية أيضاً. وقد ظلت الحركة العمالية ساكنة إلى حد ما منذ نهاية حل اتحاد العمال والحزب الشيوعي حتى 1930 مع إصدار قانون الحماية الجمركية.

ثانياً.. الثلاثينيات: طبقة تناضل ونخبة تتراجع

تصاعدت حدة الإضرابات العمالية طوال عقد الثلاثينيات رغم التضيق الأمني وغياب القيادة المركزية في أحيان كثيرة، مثل انتفاضة عمال عنابر السكك الحديدية الشهيرة عام 1931، إضراب عمال الترسانة

السياسي لم يتوقف عن مطاردة القيادات النقابية.

وكان عام 1936 هو الأسوأ في تاريخ الحركة النقابية المصرية ما بين الثورتين، فقد تراكمت الهزائم والضغط على العمال من تدني الأجور وفصل العمال المستمر وعودتهم للعمل مرة أخرى حتى لا تتراكم لهم سنوات خدمة يحصلون بموجبها على مكافآت عند نهاية خدمتهم وفقا للقانون، وكذلك تحالف الرأسمالية الأجنبية مع المصرية برأس مال مشترك.. إلخ، فاضطرت النقابات تحت هذه الضغوط أن تنفجر في صورة إضرابات محلية مثل إضراب عمال النسيج والسكر والنقل، ونظراً لغياب التنظيم الموحد للعمال وأيضاً غياب القيادات ذات الخبرة نتيجة الفصل أو الاعتقال؛ دخلت الحركة النقابية في صدام مباشر مع البوليس وأصحاب العمل، واتسمت الإضرابات بالعنف المتبادل وصار إطلاق الرصاص على الإضرابات عملاً معهوداً لدى البوليس، كما حدث مع عمال مصنع السكر بالحوامدية وترام الإسكندرية. يقول رؤوف عباس: رفض رئيس الوزراء النحاس باشا مقابلة وفد عمال وسائقي السيارات قدم لرفع مطالب العمال وأهان رئيسه. وقبض على زعماء تلك الإضرابات ووجهت لهم تهمة الشيوعية [xiii]. وبذلك دخلت الحركة العمالية في نفق مظلم بين مطرقة السياسيين وسندان القوانين.

2- الوعي النقابي

وبهذا الموقف وتلك الحالة التي وصلت إليها الحركة العمالية والنقابية، في نهاية 1936، صار من الضروري إعادة النظر في الموقف العمالي بصفة عامة، فقد اكتشف البعض أن الحركة العمالية كانت ضحية لمصالح الأحزاب الخاصة، وتمت المتاجرة بهم وبمشكلاتهم في الصراع على السلطة، ومن هنا تأسست "هيئة تنظيم الحركة العمالية" في سبتمبر 1937 والتي استهدفت إعادة تنظيم صفوف الحركة العمالية وكشف أصحاب المصالح وتحذير العمال منهم، وبدأوا في التشاور من أجل إقامة اتحاد عام للنقابات من جديد.

وسرعان ما ظهر عباس حليم مرة أخرى في المشهد بعد فترة انقطاع واستقبله العمال

بالضرورة إلى إضعاف الحركة العمالية. ولكن رغم حالة الوهن والضعف والانقسام الذي تعاني منه الحركة النقابية المصرية في ذلك الوقت، فإنها لعبت دوراً بطولياً في تظاهرات 1935، كما لعبت الطبقة العاملة دوراً بارزاً في هذا الكفاح من أجل الدستور. لقد أدركت قيمة الحياة النيابية وأهمية الكفاح من أجلها، فأضرب عمال عنابر بولاق والورش الأميرية عن الاشتراك في الانتخابات يوم 14 مايو سنة 1931، وتظاهروا احتجاجاً، فقوبلت تظاهراتهم بمنتهى القسوة والعنف [xii]، وسقط منهم قتلى وجرحى على



فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، بدأ عمال مصر يدركون وجهتهم، وهي إعادة تأسيس نقاباتهم، ومواصلة صراعهم الاجتماعي والبحث عن حقوقهم، وخلال فترة وجيزة كانت النقابات قد انتشرت في معظم المدن المصرية

رأسهم استشهد العامل إسماعيل محمد الخالع، ومن الطلبة استشهد محمد عبد الحكم الجراحي وعلي طه عفيفي من جامعة القاهرة، وعبد الحليم عبد المقصود من المعهد الديني بطنطا.

واحدة من أهم نتائج تظاهرات 1935 تشكيل جبهة من الأحزاب المصرية، تحت اسم "الجبهة الوطنية" التي

تقدمت بطلب إلى الملك والحكومة البريطانية بالعودة إلى دستور 1923، وبالفعل وافق الملك على ذلك. وانعكس هذا التوافق السياسي بالإيجاب على ترميم مشكلات الحركة النقابية المنشقة بين قسمين، وانعقد مؤتمر النقابات العمالية وقرروا الانضمام للجبهة الوطنية وتشكيل كتلة برلمانية عمالية. وأخطر ما واجه الحركة النقابية أنها اعتمدت لفترات طويلة على شخصية عباس حليم وثقله الوطني، وحينما عفي الملك فاروق عنه وأعاد له لقب "نبيل"، ابتعد عن الحركة العمالية وانصرف عن شؤون العمال، وهكذا تراجع نشاط الاتحاد وساعد على ذلك أن البوليس

ومصالحها الاقتصادية ضد الطبقة العاملة، فأخرج القانون من نطاقه الموظفين والعمال الزراعيين، وكذلك حظر على النقابات ممارسة العمل السياسي أو الديني داخل النقابات، وركز القانون على عدم تدخل النقابات بين العمال وأصحاب العمل، وهو ما يعني أن قانون النقابات "القانون رقم 85 لسنة 1942" صدر مفرغاً من قوته الحقيقية وخاصة فكرة اتحاد النقابات، ولكنه يظل خطوة نضالية كبيرة بلا شك. كما أصدرت الحكومة الوفدية قانون عقد العمل الفردي عام 1944، وقانون التأمين ضد الحوادث، وكان أن زاد عدد النقابات حتى بلغ 210 نقابة عام 1944، تضم 104 ألف عضو [xiv]

ولكن حدث تحايل على ذلك بعقد مؤتمرات تضم النقابات كافة، وليس تحت مسمى اتحاد عمال مصر. وعقد هذا المؤتمر عام 1944، تحت اسم "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية". وفي العام التالي كان يضم 25 نقابة من أكبر نقابات القاهرة. وجاءت فرصة تاريخية وهي عقد المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي في باريس سبتمبر 1945، فأوفد المؤتمر المصري ثلاثة ممثلين له، وبذلك حصل على شرعية دولية شبه رسمية. وبعد العودة من باريس زادت ثقة أعضاء المؤتمر المصري في أنفسهم وتعاهدوا على بذل مزيد من الجهد لتنظيم الحركة النقابية المصرية والنضال المستمر من أجل حياة أفضل لعمال مصر. ويبدو لنا من لائحة المؤتمر وطريقة عمله وأهدافه أنه استفاد كثيراً من تطور أساليب النضال العالمية، وبدا أنه يعمل بصورة منظمة وعلمية إلى حد كبير، ستعكس بعد قليل على أداء العمال في تظاهرات 1946.

1- تظاهرات 1946

نتيجة للمذكرة التي تقدمت بها حكومة النقراشي إلى الحكومة البريطانية في ديسمبر 1945 من أجل إعادة النظر في اتفاقية 1936، واستبدالها باتفاقية دفاع مشترك ورفض الحكومة البريطانية لهذا الطلب؛ اندلعت التظاهرات الشعبية التي انطلقت من جامعة فؤاد الأول في 9 فبراير 1946، وأصيب نحو 84 طالباً نتيجة عنف البوليس، فاستقالت حكومة النقراشي ليعود إسماعيل



بترحاب شديد، وعاد لرئاسة الاتحاد الذي شمل 32 نقابة، وتنازل بعدها عباس حليم عن الرئاسة، فأسندت إلى عامل سكندري - فني نسيج - وهو محمد الدمرداش الذي فاز بعضوية البرلمان، وكان أول صوت عمالي حقيقي يرفع صوته في البرلمان، وسرعان ما توجه بسؤال لوزير الصناعة والتجارة للاعتراف بالنقابات. ونشط الاتحاد بقوة كبيرة، ورفع مطالبه للحكومة بتخفيض ساعات العمل وحل مشكلة البطالة ومطالب أخرى، ولكن الحكومة لم تستجب رغم وعودها بالنظر فيها، فنظم الاتحاد إضراباً عن العمل في يونيو 1939، للمطالبة بتطبيق التشريعات. ونجح الإضراب واعترفت الحكومة بالنقابات بعد مناقشات مطولة استمرت نحو ستة أشهر في البرلمان، حتى أقر القانون بمجلس النواب في فبراير 1940، ولكن مجلس الشيوخ كان له رأي آخر، إذ اعترض فتوقف القانون عن الصدور والتفعيل. بل وتوقف نشاط الاتحاد نفسه نتيجة قيام الحرب العالمية الثانية، وعاودت الحكومة القبض على قيادات العمال واتهامهم بالتخريب والبلشفة.

ثالثاً.. الأربعينيات: انصهار الحركة العمالية والحركة الوطنية على قلب واحد في العام 1942 حصلت النقابات على الشرعية القانونية بعد مناقشات مطولة في البرلمان ورفض شديد من اتحاد الصناعات، الذي استخدم نفوذه داخل البرلمان في إضعاف الحقوق النقابية داخل القانون إلى حد كبير نتيجة دفاع الرأسمالية المصرية عن نفسها

والفلاحون هم جيش الثورة الوطنية. [xvi] 2- الشيوعيون في المقدمة بعد تظاهرات 1946 اشتد عود الحركة العمالية بصورة غير مسبقة، وتحول مؤتمر عمال الشركات والمؤسسات الأهلية إلى صيغة جديدة تحت عنوان " مؤتمر نقابات عمال مصر" الذي سعى في لائحته الجديدة لوضع برنامج نضالي وخدمي يتناسب مع طبيعة المرحلة وتطور الحركة النقابية. ورغم حصار البوليس لمقر عقد أول اجتماع، تمكن القائمون عليه من عقده في مكان آخر، ودخلت على لائحة المؤتمر وخطواته التنفيذية موضوعات جديدة تطرح لأول مرة، مثل المساواة بين الرجل والمرأة وحقوق الأمومة والطفولة ورياض الأطفال والمطاعم وإجازة الوضع. كل هذا يتم رغم أن الظروف الاقتصادية والسياسية للبلاد لم تكن جيدة بعد انتهاء الحرب. وربما كان أكبر دليل على نضج الحركة العمالية ما بعد 1946 هو أنها تقدمت بمذكرة لرئيس الوزراء في مايو 1946 للاحتجاج على ما تم من دحر إضراب عمال النسيج بالإسكندرية، إضافة إلى منع الحكومة العمال من الاحتفال بعيد العمال في الأول من مايو. وما يلفت النظر في المذكرة هو أن أول مطالبها كانت الجلاء التام سياسياً واقتصادياً، ثم أعقب هذا الطلب مطالب عمالية واقتصادية. مما يعني أن القضية الوطنية صارت متوحدة مع القضايا العمالية. وأمهلته الحكومة فرصة كافية، إما تنفيذ المطالب أو الإضراب، وبالفعل تحدد للإضراب موعداً وهو 25 يونيو 1946، وقبل الموعد المحدد هذا استطاعت الحكومة شق عصا الجماعة وتفكيك المؤتمر عن طريق تحييد عمال النقل العام الذين يعتبرون أهم قوة ضاربة في أي إضراب، وفشل الإضراب، ولم ينفذ. وفي 11 يوليو قبض على معظم قيادات الحركة العمالية في موجة اعتقالات عارمة من قبل حكومة صدقي، وكان من بينهم طلبة ومتقفون وصحفيون بسبب معارضتهم أيضاً لاتفاقية صدقي - بيفن، بتهمة الترويج للشيوعية وقلب نظام الحكم.

وبعد هجمة إسماعيل صدقي تلك، بدأت حالات الانتقام من كل من يريد الحصول على حقه من العمال، فاتباع أصحاب العمل منهج

صدقي مرة أخرى الذي حاول المهادنة مع التيار العارم الذي يجتاح البلاد، ولكن الطلبة شكلوا لجنة وأصدروا ميثاقاً وطنياً يحث على الجلاء وتدويل القضية المصرية والتحرر من العبودية الاقتصادية. وكان المشهد الوطني في حاجة إلى تضافر الجهود، فاتصل الطلبة بالعمال، وتشكلت " اللجنة الوطنية للعمال والطلبة"، واتفقت



وصمت الطبقة العاملة المصرية بعيوب كثيرة أهمها عدم التجانس، والتكوين الريفي لمعظمها، بجانب أن معظم القيادات كانوا أجاناب، وليس من شك أن تفضي الأمية بين العمال، أدى إلى ضعف الوعي العمالي والنقابي

على تنظيم إضراب عام في 21 فبراير 1946، وأصدرت بياناً وضحت فيه موقفها من قضايا مركزية تشغل الرأي العام وعلى رأسها الجلاء، ووجهت اتهاماً واضحاً للقوى السياسية والحكومات لتخاذلها في الدفاع عن الوطن بالصورة الواجبة، وكذلك اصطدمت مع حركة الإخوان المسلمين التي شكلت لجنة موازية لإجهاض الحراك الوطني. وفي هذا الصدد

يذكر رؤف عباس عبارة مهمة جداً: ولذلك وقعت على عاتق العمال مسؤولية قيادة الشعب لتحقيق أهدافه الوطنية، لتحقيق الجلاء عن وادي النيل عسكرياً بطرد جيوش الاحتلال من البلاد، واقتصادياً بنزع سيطرته المالية عليها، وإدارياً بطرد الموظفين الإنجليز الذين يعملون في خدمة الحكومة المصرية [XV]، ومن ثم فالعمال هم أصحاب مصلحة حقيقية في الجلاء والتحرر من الاستعمار وأعوانه داخل مصر. وتأكدت مقولة أن انتصار القضية الوطنية يعني انتصار قضية العمال. ولم تعمر اللجنة الوطنية للعمال والطلبة إلا بضع شهور، لقد وقعت في أخطاء تدل على عدم نضجها النضج الكافي، فقد استمر نشاطها قاصراً على المدن في صفوف الطلبة والعمال والحرفيين، فلم تمتد إذ ذاك إلى الفلاحين،

لملحة أشلائها مرة أخرى والعمل على تشكيل اتحاد جديد عن طريق العمال الشيوعيين أمثال يس مصطفى ومحمد فتحي ودعوتهما للعمال بالعودة من جديد لتنظيم أنفسهم وفقاً لمعايير جديدة. وبناءً على ذلك سعى البعض لتأسيس اللجنة التحضيرية " للاتحاد العام لنقابات العمال بالقطر المصري" وبالفعل انضم إليه أكثر من مئة نقابة. وكانت هناك دعوة في 27 يناير 1952 للقاء وتبادل وجهات النظر حول عمل اللجنة ولكن حريق القاهرة في 26 يناير أدخل البلاد في نفق مظلم بعد إعلان الأحكام العرفية، وألقي القبض من جديد على زعماء الحركة العمالية. وبعد عدة أشهر، وتحديداً في مايو 1952 أعيد تشكيل اللجنة وأصدرت لائحة النظام الأساسي. ولكن ثورة يوليو قطعت هذا الطريق وأخذت الحركة العمالية المصرية إلى منحى آخر مختلف إلى حد كبير عن كل ما سبق.

رابعا: ثلاثة عقود من الوعي المقدس: بعد هذه الإطلالة المختصرة لنضالات الحركة العمالية المصرية في الفترة بين ثورتي 1919، و1952، يمكنني أن أسجل بعض الملاحظات: 1- بدأت النقابات العمالية في مصر على أساس اقتصادي وخدمي للعمال للدفاع عن حقوقهم، ثم ما لبثت أن انخرطت في القضية الوطنية المتعلقة بالجلاء والدستور، ثم اصطدمت مع أصحاب رأس المال والحكومات والأحزاب المتضامنة معهم. وارتفعت مستوياتهم التنظيمية على أكثر من صعيد بدءاً بإنشاء النقابات الفرعية ثم اتحاد عمال القطر المصري، ثم تأسيس فروع لهذا الاتحاد في المحافظات الكبرى ثم اتصالها مع الحركة النقابية العالمية.

2- كلما حدث نمو في الصناعة المصرية زادت أعداد الطبقة العاملة، ففي عام 1947 وصل عدد الطبقة العاملة في مصر أكثر من مليون شخص، يضاف إليهم وإلى مليون و400 ألف عامل زراعي. وإذا نظرنا في التركيبة المهنية نفسها، سنجد أنها في تغير مستمر، فقد كان العمال موزعون على ورش صغرى، وبعد التقدم الصناعي، صاروا مركزين في مصانع كبرى. وبحسب شهدي عطية: أن 58% من العمال الصناعيين كانوا مركزين في 583 مصنعاً. وأن 33% من العمال مركزين في

الفصل عن العمل وإلقاء القبض على زوجات العمال لإرغامهم على تسليم أنفسهم، واستمر التكتيل بهم بلا رادع من قانون أو دستور. ورغم كل ذلك كانت هناك بؤر نضالية جيدة للنقابات الفرعية التي استطاعت أن تحقق بعض المكاسب مثل عمال الغزل الأهلية بالإسكندرية وعمال ترام القاهرة. ويشير رفعت السعيد إلى أنه في الفترة من 1940 إلى 1950 لم يكن أي تنظيم شيوعي له تأثير في الحركة العمالية سوى حدتو والفجر الجديد، ويشير إلى أن العمل بينهما لم يكن منسقا بل أحياناً متعارضاً مع بعضه، مما ترك أثراً سيئاً في أحوال كثيرة. في البداية استخدمت "ح.م" أسلوب التعميل أي التجنيد من الكوادر العمالية المهمة والمؤثرة والناطقة، وبالفعل استطاعوا جذب الكثيرين منهم وتوجيههم بعد تثقيفهم نحو العمل النقابي المنظم فاستطاعت ضم رموز نقابية مهمة، مثل سيد سليمان رفاعي" عمال الطيران "ومحمد شطا" الذي سعد نجمه سريعاً حيث انتخب في أواخر 1945 وبعد إضراب شهير في شبرا الخيمة سكرتيراً للجنة العامة لعمال شبرا الخيمة" ومراد القليوبي " نقابة عمال السينما " وأدفيد ناحوم " سكرتير نقابة مستخدمي المحال التجارية [xvii]. وبعد توحد ح م مع إيسكرا ونشأت حدتو صار العمل داخل العمال أكثر قوة وفاعلية. أما جماعة الفجر الجديد فقد لعب يوسف درويش المحامي العمالي القدير دوراً مهماً في إنشاء جناح عمالي للجماعة، ويشير طه سعد عثمان أحد رموز هذه الجماعة إلى أنهم تربوا على العمل النقابي البحت بعيداً عن أية تشكيلات تنظيمية، فلم تكن الفجر الجديد مؤمنة بالعمل السري، أو التثقيف الشيوعي المباشر، بل اتجهت إلى منحى آخر وهو دفع النضال العمالي بعيداً عن مخاطر التنظيمات السرية التي وقعت فيه حدتو. إن النشاط الشيوعي في صفوف الحركة العمالية كان مؤثراً وفعالاً. وقد نجح إلى حد كبير في إثراء الحركتين العمالية والشيوعية معاً بخبرات وتجارب غاية الثراء تركت بصمات لن تمحى على وضعية الحركة النقابية المصرية [xviii]

3- قبل أن يسدل الستار ومع بدايات 1950 حاولت الحركة العمالية

مرة، فإن "النقابة الفرعية" ظلت هي جذوة النضال، واستطاعت كثير من تلك النقابات الفرعية أن تحقق الكثير من المطالب لعمالها. ولكن الأهم أيضًا أن النقابات العمالية والحركة العمالية بصفة عامة كانت في مقدمة الصف الوطني والنضال من أجل الاستقلال. وقد غلبت على الحركة النقابية في مصر في تلك الفترة وربما حتى الآن فكرة الخدمات الاجتماعية.

5-يؤكد كل الباحثين في الحركة العمالية المصرية أن الشيوعيين كان لهم دورًا كبيرًا في تطوير أداء النقابات العمالية، ويبدو ذلك واضحًا من سيطرتهم على كثير من المواقع النقابية وعلى صياغتهم للبيانات العمالية، وقدرتهم على تنظيم الصفوف

وتنظيم الإضرابات. وربما كان هذا الأمر هو السبب المباشر للمواقف المتشددة لكافة الحكومات ضد الحركة العمالية بشدة وعنيفة. لقد كان شبح الشيوعية يطارد رؤساء الحكومات والبوليس السياسي والرأسمالية المصرية والإسلام السياسي أيضًا.. فاتفق الجميع على ضرب الحركة العمالية والنقابية المصرية، وواجهه العمال المصريون والشيوعيون- وهم لا يمتلكون سوى التنظيم الجيد والإرادة والإضرابات - كل أجهزة الدولة والحكومات والأحزاب وبريطانيا العظمى أيضًا.

6-لا يمكن إنكار الدور الطليعي الذي قام به الحزب الشيوعي في العشرينيات، من حيث قدرته على نقل الخبرات النضالية وأساليب العمل العالمية، وتوطينها في ممارسات الحركة العمالية المصرية. أما الانطلاقة الشيوعية في الأربعينيات فقد جاءت عقب إصدار القانون 85 لسنة 1942، حيث أسست جماعة الفجر الجديد " لجنة العمال للتححر القومي"، بينما اتجهت ح.م إلى منحى آخر؛

64 مصنعًا. وهذا التطور التركيبي للطبقة العاملة أدى إلى تعقدت شبكات العلاقات بين أصحاب العمل والعمال، ومن ثم زادت المشكلات وصارت الحاجة إلى الدور النقابي متزايدة باستمرار. ولكن الظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد والحروب العالمية كانت دائمًا معوقًا لتطور الحركة العمالية، فقد كان العمال هم أول من يدفع ضريبة كل اختناق سياسي أو أزمات اقتصادية، ولم يكن أمامهم من طريق للحفاظ على حقوقهم كالحكومة أو البرلمان أو اتحاد النقابات الذي لم تستقر أموره لفترات طويلة. ولم يكن هناك من حل سوى استخدام سلاح

الإضرابات التي كانت تتجج في أحيان قليلة وتفشل دائمًا، بسبب غياب الوعي النقابي، وضعف الخبرات النضالية، وقوة سطوة البوليس، وغياب الدعم السياسي القوي، وعدم قدرة العمال على نشر قضاياهم ومشكلاتهم على المجتمع.

3-وصمت الطبقة العاملة المصرية بعيوب كثيرة أهمها عدم التجانس بين من يعملون في الورش الصغيرة الحرفية ومن يعملون في المصانع الكبرى،

والتكوين الريفي لمعظم العاملين مما يجعله ليس عاملاً مستقلاً تمامًا عن حياة الريف وقيمته، وقد يمتلك بعضهم مساحات من الأراضي الزراعية كميراث عن الآباء، إضافة إلى أن معظم القيادات العمالية كانوا من الأجانب مما يصعب معه التعامل مع العمال المصريين، وليس من شك أن تفشي الأمية بين العمال بصورة كبيرة أدى إلى ضعف الوعي العمالي والنقابي.

4-يمكن تقييم الحركة العمالية - في الفترة بين الحربين العالميتين - بأنها نشطت في أوقات كثيرة وتقدمت خطوات كبيرة لصالح العمال وحقت إنجازات مهمة، ورغم التوترات التي شهدتها الاتحاد العام، وانقسامه أكثر من



- 1987، ص 97
[vii] - شهدي عطية الشافعي: تطور الحركة الوطنية المصرية 1882-1956، المكتبة التقدمية، القاهرة، ص 84
[viii] - شارل عيساوي: التحليل الاقتصادي والاجتماعي لمصر، ترجمة وتحليل: محمد مدحت مصطفى، دار بوب بروفيشنال برس-ثري بي، القاهرة، 2012، ص 56
[ix] - رفعت السعيد، المرجع السابق، ج 3 ص 44
[x] - نفسه، ص 24
[xi] - رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 115.
[xii] - شهدي عطية، المرجع السابق، ص 79
[xiii] - رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 120
[xiv] - شهدي عطية الشافعي: المرجع السابق، ص 86.
[xv] - رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 138.
[xvi] - شهدي عطية الشافعي: المرجع السابق، ص 108
[xvii] - رفعت السعيد، المرجع السابق، ص 168
[xviii] - نفسه، ص 171

وهو تجميع العمال الذين لم ينطبق عليهم قانون كادر عمال الحكومة - استهدفت الحكومة تفتيت الحركة العمالية عبر وضع قانون مستقل لكل من " عنابر السكة الحديد - الترسانة والمطابع الأميرية وغيرهم" بهدف إضعاف الحركة العمالية - وجمعتهم تحت تنظيم هو "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" وأول مطالبهم تطبيق كادر الحكومة عليهم.. ودعت ح.م إلى اجتماع تأسيسي في ديسمبر 1944 في دار عمال مطبعة مصر التي يرأسها محمد عبد الحليم القيادي الشيوعي المعروف بعد ذلك. وكان من بين الحضور في هذا الاجتماع العديد من الأسماء التي لمعت في الحركة الشيوعية فيما بعد أمثال محمد يوسف الجندي - محمد حمزة أحد قادة إضراب المحلة وقتها- حكمت الغزالي- عبد المنعم إبراهيم وآخرين. وبناء عليه تم تشكيل مؤتمر نقابات عمال القطر المصري، وله نشره بعنوان "المؤتمر"، واستطاع أن يكتف جهوده ويضم العديد من رؤساء النقابات الفرعية في مدن مصرية عديدة، رافعاً شعار "قوة العامل من قوة نقابته". وبذلك يمكن القول إن الشيوعيين المصريين كان لهم دور بارز في الحركة العمالية المصرية.

- [i] - رمسيس لبيب " محرراً": العمال في الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965، مركز البحوث العربية للدراسات العربية والأفريقية، سلسلة ورش عمل التوثيق 1-، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 12.
[ii] - ج.د.كول: الحركة النقابية، ترجمة: سيد حسن محمود، بزت ص 9.
[iii] - جورج لوفران: الحركة النقابية في العالم، منشورات دار عويدات، بيروت، 1980، ص 9.
[iv] - رؤوف عباس: الحركة العمالية في مصر 1899-1952، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2016 ص 93
[v] - نفسه، ص 95
[vi] - رفعت السعيد: تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، 1940-1950، المجلد الثالث، شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،

العمال ودولة يوليو

الحركة النقابية المصرية.. المصادرة والاستقلال

مصطفى بسيوني

يوليو 1952 أضرب عمال شركة مصر للغزل والنسيج بكفر الدوار، لرفع مطالب مؤجلة لهم، وشهدت تظاهرتهم تأييداً واضحاً لحركة الجيش، ولكن هذا التأييد قوبل بقمع عنيف من قبل قوات الأمن، ولقي ثلاثة عمال وثلاثة من أفراد الشرطة مصرعهم، وأصيب 28 واعتقلت السلطات 545 عاملاً خلال الاشتباكات. وبغض النظر عن الملابس التي تضمنها الحدث، فما حدث بعد ذلك هو ما شكل صدمة حقيقية، فقد تشكلت محاكمة عسكرية مثل أمامها 29 عاملاً، وقضت بإعدام العاملين مصطفى خميس ومحمد البقري، وصدر الحكم بالسجن على عشرة من العمال. وليس أدل على طبيعة هذه المحاكمة من سرعتها الفائقة، فقد بدأت جلسات المحاكمة في 15 أغسطس، فيما كان الإضراب يوم 12 أغسطس، وتم فضه في 13 أغسطس، وبدأت المحاكمة في 15 أغسطس، ونُفذ حكم الإعدام بحق خميس والبقري في 7 سبتمبر، على الرغم من أن تدخل قوات الأمن لفض الإضرابات العمالية وسقوط ضحايا خلال ذلك لم يكن حدثاً فريداً في تاريخ الحركة العمالية المصرية، فإن صدور أحكام بالإعدام على العمال عقب فض الإضرابات مثل سابقة في تاريخ الحركة العمالية المصرية. أعقب إعدام خميس والبقري قرار مجلس قيادة الثورة، صدر في 12 سبتمبر 1952، بتأجيل انعقاد المؤتمر التأسيسي لاتحاد العمال لأجل غير مسمى، لتتضح بذلك نوايا السلطة الجديدة بالكامل تجاه الحركة النقابية المصرية.

لم يقتصر تعامل الضباط الأحرار مع الحركة العمالية والنقابية على سياسة الحصار والقمع فقط، كانت سياسة السلطة الجديدة تجاه العمال مزدوجة، فمن ناحية كانت تسعى للسيطرة على الحركة عبر

بحلول عام 1952 كانت الحركة العمالية والنقابية في مصر قد بلغت مستوى من التطور والنضج ربما لم تصل له في أي وقت منذ انطلاقها مطلع القرن العشرين. كانت الحركة العمالية والنقابية في مصر أصبحت طرفاً رئيسياً في معركة التحرر الوطني، وطرفاً فاعلاً في الحياة السياسية المصرية، كما حققت وجوداً أممياً راسخاً وأصبحت جزءاً من الحركة النقابية العالمية. وبعد نحو ربع قرن من حل اتحاد العمال الأول على يد حكومة الوفد في 1924، كانت الحركة العمالية المصرية تتهيأ لإعادة تأسيس اتحاد العمالي، ومن مفارقات التاريخ أن المؤتمر التأسيسي لاتحاد العمال تحدد موعده في 27 يناير 1952، وكان من المتوقع مشاركة 34 نقابة عمالية من مختلف القطاعات تضم أكثر من 120 ألف عامل، وبالطبع لم يعقد المؤتمر التأسيسي في موعده الذي سبقه حريق القاهرة، في 26 يناير 1952، ولم يعقد بعد ذلك لأن الأحداث في مصر اتخذت وجهة أخرى.

لم تظهر في بداية الأمر خلافات أو تناقضات بين حركة الضباط الأحرار والحركة النقابية، بل على العكس، كان الطابع التحرري للضباط الأحرار، ومواقفهم من الملكية والإقطاع، أموراً تعني إمكانية بناء جسور قوية مع الحركة النقابية التي كان لها نفس المواقف، وكانت البداية من الحركة النقابية التي أيدت بالفعل حركة الضباط الأحرار.

كان الموقف الأول للضباط الأحرار من الحركة النقابية والعمالية صادمًا، فبعد أسابيع قليلة من 23



حريق القاهرة

بالكامل، إذا ما نظرنا إليها في سياق تطور الحركة العمالية المصرية.

واقع الحركة العمالية في مصر مع وصول الضباط الأحرار للسلطة كان يؤهلها بالفعل لتحقيق تحسن حقيقي في علاقات العمل عبر قدراتها التنظيمية والاحتجاجية، كانت بالفعل الحركة قطعت شوطا على هذا الطريق سواء فيما يتعلق بساعات العمل أو الأجور، وكانت بالفعل بصدد إطلاق اتحاد عمالي جديد يقود الحركة العمالية، وما قام به الضباط الأحرار هو انتزاع أدوات العمل من الحركة النقابية ومنح العمال بعض ما كانوا سينتزعوه بتلك الأدوات. كان القمع والاحتواء سمة المرحلة الأولى من سياسة الضباط الأحرار تجاه الحركة النقابية، والتي شهدت تطورات ملحوظة فيما بعد، ولعل أهم تطور في علاقة الضباط الأحرار بالحركة النقابية، كان في مارس 1954.

كانت الأزمة بين جناحي الضباط الأحرار الذين مثلهما جمال عبد الناصر، الرافض لعدة الجيش للثكنات وعودة الأحزاب والحياة النيابية، ومحمد نجيب الذي كان مؤيدا لذلك، ولم يحسم عبد الناصر الصراع لصالحه إلا عبر الاتفاق مع نقابات عمالية للإضراب والتظاهر تأييدا لموقف عبد الناصر ورفضاً لموقف نجيب، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من تحويل الحركة النقابية المصرية إلى ذراع عمالية للسلطة.

هذا التحول دشنه عبد الناصر بتأسيس اتحاد نقابات عمال مصر عام 1957، كتتظيم نقابي وحيد

القمع والحصار، ومن ناحية أخرى كانت تسعى لاستيعابها عبر المكاسب التي تقدمها.

ففي ديسمبر 1952 أصدر مجلس قيادة الثورة بشكل منفرد تشريعا يرفع تعويضات العمال في حالة

الفصل، ومنح العمال الحق في الإجازات والرعاية الصحية والمواصلات المجانية لأماكن العمل، وهي التشريعات التي تلتها تشريعات أخرى تجاه تحسين أوضاع العمال، ولكن صاحب هذا التشريع تشريع آخر يجرم الإضرابات العمالية ويقيد النشاط النقابي.

كانت سياسة القمع والاحتواء هي السياسة التي اعتمدها السلطة الجديدة تجاه الحركة النقابية في مصر منذ اليوم الأول، والحقيقة

أن مبادلة حرية التنظيم والحركة بحزمة من المكاسب المتمثلة في تحسين شروط العمل وتوفير درجة من الأمان الوظيفي، كانت مبادلة خاسرة



كانت الحركة العمالية المصرية تتهيأ لإعادة تأسيس اتحاد العمالي، وتحدد مواعده في 27 يناير 1952، وكان من المتوقع مشاركة 34 نقابة عمالية، وبالطبع لم يعقد المؤتمر التأسيسي في مواعده بسبب حريق القاهرة..

الانتخابات نقابيون مستقلون عن السلطة. المستوى الثاني كان النقابات العامة، وتعتبر هي النقابة الفعلية، والتي تتمتع بكل الصلاحيات النقابية، ولكنها لم تكن تنتخب في المواقع، كان انتخابها يتم عبر مؤتمر الجمعية العمومية للنقابة العامة، والذي كان يمثل فيه العمال من المواقع بنسب تحددها قواعد الاتحاد، وكان يجري تشكيل الجمعية العمومية بحيث لا تسمح بتسرب عناصر مستقلة لمجلس النقابة العامة، فضلاً عن استخدام اللجان النقابية المهنية، وهي اللجان التي تشكل على أساس المهنة ولا يضم أعضائها موقع واحد، مثل سائقي الأجرة، وعمال البناء، في خلق توازن في الجمعيات العمومية لصالح البيروقراطية النقابية. المستوى الثالث كان مجلس إدارة الاتحاد وهو القيادة الفعلية للتنظيم النقابي، ويتشكل عبر ترشيح مجالس النقابات العامة لأحد أعضائها كممثل لها في الاتحاد دون انتخابات. وقد تمكن نظام عبد الناصر في سنواته الأولى من تعميق سيطرته على التنظيم النقابي وتوظيفه بالكامل كأحد دعائم سلطته، ولكن في الوقت نفسه كان يعمق آليات الاستيعاب التي جعلت تلك السيطرة ممكنة، ففي الوقت نفسه كانت تتقرر من قبل السلطة مكاسب وامتيازات للعمال جعلت امتصاص المعارضة ممكنة. حيث شهدت علاقات العمل، والتي كانت الدولة طرفاً أصيلاً فيها، أوضاعاً مستقرة للعمال، تضمنت ساعات عمل وأجور محددة بالقانون، واستقراراً في العمل وحماية من الفصل، وضمان اجتماعي ورعاية صحية.

كانت كل تلك الأمور ضمن مطالب الحركة العمالية في السابق، ولكن ما رفع قيمة تلك المزاي، هو الدور الاجتماعي للدولة، والذي شمل دعم السلع التموينية والسكن والتعليم والصحة. نجحت سياسة السيطرة والاستيعاب التي اتبعتها النظام الناصري في الهيمنة على الحركة العمالية والنقابية، فتراجعت على نحو غير مسبوق الاحتجاجات العمالية، وقد يكون للأوضاع السياسية والصراعات مع القوى الاستعمارية أيضاً دور في تراجع الاحتجاجات العمالية. ولكن التراجع الشديد في الاحتجاجات العمالية والذي لم تقطعه سوى احتجاجات معدودة في إمبابة وحلوان وبعض المواقع العمالية، فضلاً عن تظاهرات عمال شركات حلوان في 1968 للمطالبة بمحاسبة المسؤولين عن هزيمة 1967، لم يكن يعني بالضرورة قبول الحركة العمالية بالأوضاع بقدر ما كانت تعني تراجع القدرة على الاحتجاج في ظل

تأسس على يد السلطة، وبالقطع مع كل تاريخ وتراث الحركة النقابية المستقلة التي كافحت لعقود ضد هيمنة السلطة والأحزاب عليها.

ومع أن هناك الكثير من النقاط التي يمكن التوقف عندها في فهم طبيعة الاتحاد الجديد الذي أسسه عبد الناصر، توجد نقطتان يمكن أن توضحا طبيعة ودور هذا الاتحاد. الأولى، هي أن الدولة أقدمت على تأسيس اتحاد العمال في نفس الوقت

الذي كانت تتجه فيه للسيطرة على عملية الإنتاج نفسها، سواء عبر تأسيس مشروعات أو تأمين المشروعات الموجودة بالفعل، لتصبح الدولة في غضون سنوات قليلة صاحب العمل الرئيسي في المجتمع، في الوقت الذي أصبحت فيه أيضاً المهينة على التنظيم العمالي الوحيد، وهو ما يقضي على فكرة تمثيل العمال بالكامل. والنقطة الثانية، أن طبيعة الاتحاد الجديد كانت محصنة بشدة ضد أي محاولة للتغيير.

لم يتحقق تحصين الاتحاد من محاولات التغيير فقط عبر قصر الترشح في انتخابات النقابات العمالية على أعضاء الاتحاد الاشتراكي الذي يتبع السلطة، ولكن عبر بنية هرمية بيروقراطية تضمن عدم تسرب أي عناصر مستقلة لداخلها. وتشكل الاتحاد من ثلاث مستويات، المستوى الأول هو مستوى اللجان النقابية، وهي اللجان التي ينتخب أعضاؤها في المواقع من العمال مباشرة، وعلى الرغم من أن تشكيل هذا المستوى يخضع بالفعل لإرادة العمال، فإن اللجان النقابية كانت بلا صلاحيات فعلية، فالنقابة الفعلية هي النقابة العامة، وهي التي تؤول إليها الاشتراكات التي تستقطع من مرتبات العمال، وهي المنوط بها التفاوض وإبرام الاتفاقيات مع الإدارة وحتى رفع دعاوى نقابية، أما اللجنة النقابية المصنعية فلم تكن تتمتع بالشخصية الاعتبارية ولم يكن لها صلاحيات فعلية، وهذا المستوى الذي كان يتسرب إليه بالفعل عبر



لم تظهر في البداية خلافات أو تناقضات بين الضباط الأحرار والحركة النقابية، على العكس، كان الطابع التحرري للضباط، ومواقفهم من الملكية والإقطاع، تعني إمكانية بناء جسور قوية مع الحركة النقابية



مجلس قيادة الثورة

من أجل المجهود الحربي في عهد عبد الناصر وأيده في الصراع ضد إسرائيل ورفضه الصلح، هو نفسه الذي اصطحب السادات وفدًا منه في زيارة إسرائيل. والاتحاد الذي دافع عن القطاع العام في العهد الناصري هو نفسه الذي دافع عن الخصخصة في عهد مبارك. لم يكن هذا يعني أي تناقض في مواقف اتحاد العمال، فقد كان موقفه دائمًا تأييد السلطة.

على الرغم من استمرار سيطرة الدولة على التنظيم النقابي في سبعينيات القرن الماضي، بعد رحيل عبد الناصر، فإن الحركة العمالية أصبحت أكثر قدرة على الاحتجاج، خاصة بعد اتجاه السادات نحو سياسات السوق والانفتاح الاقتصادي، بما يعني التخلي عن العقد الاجتماعي الذي أرساه عبد الناصر.

بدأت الحركة العمالية في سبعينيات القرن الماضي صعودًا جديدًا، تمثل في عدد من الاحتجاجات العمالية في مواقع عمالية كبيرة، أبرزها شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة، وهيئة النقل العام وشركة الحديد والصلب. تزامن هذا الصعود مع انتهاء الحرب، والتغيرات التي طرأت على التوجهات الاقتصادية للسادات، وكذلك مع عودة الحركة اليسارية إلى الحياة، ولكن كان الاحتجاج الأكبر الذي شهدته مصر في تلك المرحلة هو انتفاضة الخبز في يناير 1977، والتي انطلقت شرارتها من المواقع العمالية في حلوان وشبرا وامتمدت إلى أنحاء مصر.

النظام الشمولي، وهو ما لم يتأثر به العمال فقط، فترجع الحركة العمالية كان مصاحبًا له تراجع في كل أشكال الحركة السياسية والنقابية والاجتماعية. وهذا ما يؤكد تزايد معدلات الشكاوى العمالية والدعاوى القضائية التي كان يرفعها العمال لنيل حقوقهم، بالقياس للفترة السابقة على 1952، إذ يشير ذلك إلى أن الشكاوى والدعاوى القضائية كانت السبيل الممكن أمام العمال للتعبير عن مطالبهم.

تجمعت العديد من العوامل إذن لتجعل مصادرة الحركة النقابية ووضعها تحت إدارة السلطة أمرًا ممكنًا، فمن ناحية الصراعات الوطنية التي كان النظام يخوضها، من التحرر من الاستعمار لمواجهة العدوان الثلاثي للصراع مع إسرائيل. ومن ناحية أخرى المشروع الاقتصادي الاجتماعي الذي تبناه النظام لاحقًا، والذي ضمن مجموعة من المزايا للعمال، وكذلك المناخ البوليسي الذي هيمن على تلك الفترة وجعل أي شكل من أشكال المعارضة أو العمل العام المستقل عن الدولة مخاطرة كبيرة. هكذا قطعت دولة يوليو الوليدة مسار الحركة النقابية المصرية الصاعدة، لتستبدلها بذراع عمالية أدارته السلطة وفقا لمصالحها.

واللافت أن أنظمة الحكم التي تلت عبد الناصر رغم حرصها على تنكيك إرثه السياسي والاقتصادي، فإنها حرصت في الوقت نفسه على الحفاظ على الذراع العمالية الذي أسسه، لتديره لصالحها، هكذا فإن اتحاد العمال الذي دعا للعمل التطوعي

تلك الاحتجاجات، ولم يخلو الأمر من اعتقال قيادات الاحتجاج، واتخاذ إجراءات ضدهم مثل نقلهم من وظائفهم. وعادة ما كان التدخل الأمني لفض الاحتجاج سريعاً بحيث لم تمتد بعض تلك الاحتجاجات لأكثر من 24 ساعة، مثل إضراب السكة الحديد، واعتصام الحديد والصلب.

تجدد الإشارة أيضاً إلى أن الحركة العمالية في الثمانينيات اعتمدت في أغلب احتجاجاتها على استخدام الاعتصامات وليس الإضرابات، فعادة ما كان العمال يعلنون الاعتصام داخل الشركة والتناوب على العمل دون توقف الإنتاج، رغم ذلك كانت هناك إضرابات مهمة في تلك الفترة، مثل إضراب السكة الحديد في 1986، فإن الطابع الغالب على الاحتجاجات كان الاعتصام، حتى إن الإنتاج لم يكن يتوقف إلا بعد قيام السلطات بقطع الكهرباء والماء عن الموقع. وربما يرجع ذلك إلى استمرار الثقافة التي سادت في العهد الناصري، والتي اعتبرت القطاع العام ملكية الشعب، وأن عملية الإنتاج جزء من المعركة الوطنية.

ومع أن بعض قادة الاحتجاجات العمالية في الثمانينيات كانوا ضمن مجالس إدارات اللجان النقابية المصنعية، فإن التنظيم النقابي ككل كان موقفه من الاحتجاجات العمالية إما التجاهل أو العداء لهذه الاحتجاجات، حتى إن بعض الاحتجاجات العمالية كانت تجمع مطلب سحب الثقة من النقابة إلى جانب المطالب الاقتصادية، تعبيراً عن وقف العمال من التنظيم النقابي الرسمي.

موقف الاتحاد الرسمي من الاحتجاجات العمالية خلق مسافة واضحة بين الحركة العمالية والتنظيم النقابي الرسمي، وبدأت بالفعل تتبلور مجموعات عمالية نشطة خارج الاتحاد، ولكن لم تشهد تلك المرحلة محاولات فعلية لخلق مسار نقابي مستقل عن هذا الاتحاد، واستمرت محاولات الحركة العمالية في اختراق التنظيم الرسمي عبر الانتخابات، والتي كان يهيمن على إدارتها الأمن وإدارات الشركات، رغم وجود أصوات ناديت بالعددية النقابية وبعدم جدوى إصلاح الاتحاد الرسمي.

اتسمت الحركة العمالية في الثمانينيات بدرجة عالية من البطولة والجرأة، فقد واجه قادتها السجون والتشريد، وواجه العمال قوات الأمن، ووصل الأمر لإطلاق الرصاص على العمالي في احتجاجاتهم، ومع ذلك لم تستطع الحركة تجاوز الهيمنة الفكرية والتنظيمية للسلطة، فظلت ثقافة القطاع العام (ملكية الشعب) مهيمنة على

مهدت الاحتجاجات العمالية في السبعينيات الأرض أمام الحركة العمالية لصعود جديد، بعد أن أمدتها بدماء جديدة من الكوادر العمالية، بعد فترة انقطاع في الحركة، وكان صعود الحركة العمالية في الثمانينيات امتداداً لتلك الموجة القصيرة التي شهدتها السبعينيات. وكانت موجة الحركة العمالية في ثمانينيات القرن الماضي أكثر وضوحاً في ملامحها وسماتها العامة؛ فالاحتجاجات التي



قام بها عمال إسكو وكفر الدوار والمحلة والسكة الحديد ومصر حلوان للغزل والنسيج والكوك وغيرها من المواقع العمالية الكبرى، كانت عادة ما تتحرك خلف مطالب تتعلق بالأجر المتغير، مثل الحوافز أو الأرباح أو المزايا العينية أو بدل طبيعة العمل أو بدل الراحة، أو أكثر من مطلب منها مجتمعة. وهو ما يمكن إرجاعه إلى أن تفاصيل علاقات العمل مثل سلم الأجور وساعات العمل والتأمينات الاجتماعية وغيرها كان منصوص عليها بدقة في القوانين، وكان الأجر المتغير والمزايا العينية هي المساحة الأكثر مرونة التي يمكن أن يتحرك فيها العمال.

وقد شهدت الحركة العمالية في الثمانينيات أيضاً ظهور جيل جديد من القادة العماليين والنقابيين، والذين بدأ أغلبهم الانخراط في الحركة العمالية في السبعينيات، وكانوا إما منتخبين في اللجان النقابية المصنعية، أو خارج مجالس النقابات بالكامل، ولكنهم يقومون بدور قيادي وسط العمال، وارتبط عدد غير قليل منهم بمنظمات اليسار. والسمة اللافتة في الحركة العمالية في الثمانينيات، أن تعامل الدولة معها حمل طابع مزدوج، فالدولة كانت عادة تستجيب لمطالب العمال، الدولة كانت هي صاحب العمل الفعلي في تلك المواقع، ولكنها في الوقت نفسه كانت تستخدم القوة لفض

تزامن عودة الحركة العمالية للصعود في السنوات الأولى من الألفية مع الحراك السياسي في الشارع المصري، والذي بدأ مع حركة دعم الانتفاضة الفلسطينية منذ نهاية عام 2000، وامتد لحركة مناهضة غزو العراق، في 2002 وحتى 2003، ثم حركة الإصلاح الديمقراطي ومناهضة توريث الحكم والتي أعقبت غزو العراق. وبدأت الحركة العمالية في الصعود في السنوات المبكرة للألفية، ولكن يمكن اعتبار إضراب عمال شركة مصر للغزل والنسيج في ديسمبر 2006 بداية جديدة للحركة العمالية. فإضراب المحلة جاء بعد أسابيع قليلة من انتهاء الانتخابات النيابية، ما اعتبر وقتها رداً عملياً من العمال على سيطرة الأمن على الانتخابات والانفراد بتشكيل هيئات التنظيم النقابي في كل مستوياتها ضد إدارة العمال. وأعقب إضراب غزل المحلة موجة عارمة من الإضرابات العمالية انتشرت في أنحاء مصر في مختلف القطاعات. وبدأ واضحاً أن الصعود في الحركة العمالية في العقد الأول من الألفية حمل ملامح تختلف على نحو واضح عن ملامح الحركة العمالية في الثمانينيات، ويمكن اعتبارها أكثر شبيهاً بالحركة العمالية قبل عام 1952.

كانت الأوهام حول طبيعة القطاع العام قد تبددت بفعل الخصخصة، وكان القطاع الأوسع من العمال في القطاع الخاص، وجعل علاقات العمل المستقرة التي وفرها القطاع العام لنصف قرن تتراجع لصالح علاقات السوق. ومن ناحية أخرى بدأ قطاع واسع من الحركة العمالية النشطة خارج مظلة التنظيم النقابي الرسمي، ومن ثم خارج قدرته على الاستيعاب.

اعتمدت الحركة العمالية في تلك الفترة أكثر على استخدام الإضراب عن العمل، وليس الاكتفاء بالاعتصام كما كان يحدث في الثمانينيات، وهو ما عمق الحركة العمالية وجعلها أكثر وعياً بتأثيرها الاقتصادي. ولكن التغير الأبرز في تلك الفترة كان تعامل الأمن مع الاحتجاجات العمالية، فبعكس سياسة الثمانينيات الأمنية، التي عمدت إلى فض الاحتجاجات العمالية بالقوة، ولو تطلب الأمر استخدام الذخيرة الحية، بدت الدولة أكثر مرونة مع إضرابات العمال. حتى إضراب المحلة نفسه انتهى بعد مفاوضات أسفرت عن تنفيذ مطلب العمال بصرف مكافأة الأرباح، وهو نفسه ما حفز الحركة العمالية وقضى على التردد الذي خلقه قمع الثمانينيات.

عدم استخدام القمع العنيف لفض الإضرابات 119



الاحتجاجات، وظل التنظيم النقابي الذي وقف ضد الاحتجاجات العمالية هو التنظيم النقابي الوحيد.

موجة الاحتجاجات التي تصاعدت في الثمانينيات لو يقطعها سوى التحولات الاقتصادية التي قامت بها الدولة، تحت عنوان سياسة التكيف الهيكلي، والتي اتفقت عليها الدولة مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في مطلع التسعينات. وتضمنت تلك السياسات طرح مشروعات القطاع العام للخصخصة، وفتح الباب أمام العمال للخروج على المعاش المبكر، بالإضافة إلى إجراء تغييرات عميقة في تشريعات العمل، وهو ما أدى لحالة ارتباك واضحة في صفوف العمال، حيث كان عمال القطاع العام في تلك الفترة يشكلون الجسم الرئيسي للحركة العمالية، وكانت الحركة تتركز في شركات القطاع العام.

وعلى الرغم من الركود الذي اتسمت به فترة التسعينيات على صعيد الحركة العمالية، كانت هناك بعض الإضرابات، وإن كانت أقل عدداً من الثمانينيات، مثل اعتصام عمال النصر للسيارات واعتصام عمال طرة الإسمنت ومواقع أخرى، ولكن كان أضخم الاحتجاجات العمالية في التسعينيات هو اعتصام عمال شركة مصر للغزل والنسيج في كفر الدوار، والذي نظمه العمال احتجاجاً على تعسف رئيس مجلس الإدارة، إذ اعتبروا سياسته المتعسفة ضد العمال تمهيداً للخصخصة.

اكتسب عودة الحركة العمالية للصعود في الألفية الجديدة طابعاً مختلفاً، ربما للتحولات التي حدثت في أوضاع وعلاقات العمل. فبحلول الألفية الجديدة كان حجم العمال في قطاع الأعمال والقطاع العام قد تراجع، وأصبح عمال القطاع الخاص كتلة رئيسية، وحتى شركات قطاع الأعمال التي لم تخضع مباشرة للخصخصة، كانت تأثرت بالتشريعات العمالية الجديدة والتي كانت تقترب أكثر من تحرير علاقات العمل، وتلك التغييرات سيكون لها أثر واضح على طبيعة الحركة العمالية وسماتها.

قبل أسابيع، وسيطر الأمن والإدارة عليها بالكامل، بحيث فازت لجنة موالية للإدارة بالكامل. وخلال الإضراب ظهر الدور القيادي للقيادات العمالية التي لم تفرز في الانتخابات رغم شعبيتها وسط العمال، فيما ظهر تواطؤ النقابة مع الإدارة، ما دفع العمال لطردها من الشركة، وعقب انتهاء الإضراب تقدم العمال بطلب للنقابة العامة لسحب الثقة من اللجنة النقابية بتوقيع أكثر من نصف عمال الشركة. كان نجاح الإضراب، والذي جاء بعد فترة انقطع طويلة في الاحتجاجات في الشركة حافزاً لرفع باقي مطالب العمال المؤجلة. وبعد شهر من الإضراب وفي سبتمبر 2008 نظم العمال إضراباً ثانياً، كانت المطالب فيه أكثر شمولاً، وتضمنت، إلى جانب محاسبة الإدارة على سياستها المتعسفة ضد العمال وسياستها في إدارة الشركة، تحسين أوضاع العمال من حيث الأجور والرعاية الصحية، وغيرها. استمر الإضراب لستة أيام، جرت فيها مفاوضات أكثر من مرة، وشكل العمال لجنة للتفاوض تمثل قطاعات الشركة المختلفة، وانتهت بجلسة تفاوض مطولة حضرها رئيس الشركة القابضة للغزل والنسيج ورئيس اتحاد العمال ورئيس النقابة العامة، في مقابل لجنة التفاوض العمالية التي شكلها العمال، وانتهت المفاوضات بالتوصل لاتفاق بين الطرفين.

عبر إضراب سبتمبر عن تطور ملحوظ في حركة عمال المحلة على صعيد التنظيم والمطالب والتفاوض. ولكن لم يكن هذا أقصى ما وصلت إليه الحركة، فالمحطة التالية كانت في 17 فبراير 2008، اليوم السابق على انعقاد المجلس القومي للأجور، حين نظم عمال المحلة تظاهرة ضمت الآلاف وتحركت إلى خارج الشركة للمطالبة برفع الحد الأدنى للأجور على المستوى القومي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرفع فيها عمال أحد المواقع مطلب قومي وليس مطلب مصنعي، كما كانت المرة الأولى التي يطالب العمال بتغيير جذري في الأجور وليس فقط بتحسين الأجر المتغير. لا يتسع المجال هنا لمناقشة تأثير احتجاجات عمال غزل المحلة المتتالية والمتطورة على انتفاضة مدينة المحلة في 6 أبريل 2008، ولكن الواضح أن من تتابع احتجاجات غزل المحلة هو أن امتداد فترات الاحتجاج وتتاليها منح الحركة فرصة للتطور والنضج على أكثر من صعيد.

المثال الثاني هو احتجاجات موظفي الضرائب العقارية، والتي بدأت تتصاعد في سبتمبر 2007 للمطالبة بضم موظفي الضرائب العقارية لوزارة المالية، بدلاً من إلحاقها بالمحليات، وهو ما يعني

كانت نتيجته المباشرة أن الاحتجاجات العمالية التي كانت تقمع خلال 24 من بدئها من قبل أصبحت تمتد لأيام وأحياناً لأسابيع. وقد أسهمت الإضرابات العمالية الممتدة، ووجود فرصة للتفاوض في تطوير الحركة العمالية على نحو لم يكن يحدث من قبل. فالإضراب الذي يمتد لأيام وأسابيع يحتاج كي يصمد آليات تنظيم داخلية، مثل التناوب على الاعتصام وتوفير إعاشة للمعتصمين وحماية المعدات وتنظيم الوقفات وغيرها، واستمرار المئات والآلاف في إضراب لفترة ممتدة يخلق حالة تنظيمية تدعم بدورها هذا الاستمرار. ومن ناحية أخرى وجود فرصة للتفاوض على المطالب يخلق ضرورة لوجود ممثلين عن العمال، وصياغة المطالب وتطويرها، ووضع الأولويات واتخاذ القرار في الوقت المناسب.



كان القمع والاحتواء سمة المرحلة الأولى من سياسة الضباط الأحرار تجاه الحركة النقابية، والتي شهدت تطورات ملحوظة فيما بعد، ولعل أهم تطور في علاقة الضباط الأحرار بالحركة النقابية، كان في مارس 1954

لم يكن الصعود في الحركة العمالية الذي شهدته العقد الأول من الألفية، مجرد موجة صعود في الحركة العمالية، بل كان ميلاد لحركة جديدة وفق معطيات جديدة وبآليات جديدة، وكان من الطبيعي أن يكون له أفق جديد. فالامتداد الزمني للإضراب أعطى الفرصة لتطوير مطالب العمال وقدراتهم التنظيمية، وجعل إمكانية استعادة التنظيم المستقل للعمال واردة أكثر من أي وقت مضى في النصف قرن السابق.

ويمكن هنا الإشارة إلى مثالين لتوضيح كيف تطورت الحركة العمالية. المثال الأول، شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة، والتي انطلقت منها موجة الصعود في الحركة العمالية. كان إضرابها الأول في تلك الموجة في 7 ديسمبر 2006، وكان المطلب الرئيسي للإضراب هو صرف مكافأة الأرباح السنوية بقيمة شهرين. استمر الإضراب، الذي سبقه امتناع عن صرف الراتب لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث تقرر تنفيذ المطلب وانتهى الإضراب على ذلك. كانت الانتخابات النقابية قد انقضت

بدور النقابة، سواء خلال الاحتجاجات أو بعدها، كذلك كانت تمثل القطاع الأكبر من الموظفين على نحو ديمقراطي، لذا كان تحولها لنقابة لموظفي الضرائب العقارية أمر ممكن، وهو ما حدث بالفعل وتأسست في عام 2008 أول نقابة مستقلة عن التنظيم النقابي الرسمي الذي أسسه عبد الناصر، وهو ما تلاه تأسيس نقابات أخرى مستقلة عن الاتحاد.

هذان المثالان يوضحان كيف تأثرت الحركة العمالية بالتغيرات التي طرأت على علاقات العمل، والأوضاع السياسية والأمنية، وكيف أتاح امتداد الموجة العمالية وقوتها وطول المدى الزمني للاحتجاج الفرصة لتطور الحركة العمالية حتى تمكنت أخيراً من تأسيس النقابات المستقلة عن التنظيم النقابي الحكومي.

قد يحتاج الأمر لمناقشات أخرى لفهم نقاط ضعف وقوة النقابات المستقلة التي تأسست في 2008 وما بعدها، ومصير تلك النقابات وعلاقتها بالأوضاع السياسية والاجتماعية، ولكن ما يعيننا هنا هو تلك الدلالة التي حملتها النقابات المستقلة مع تأسيسها بعد نصف قرن من مصادرة العمل النقابي وإخضاعه للسلطة.

لقد نجحت حكومة حزب الوفد في حل أول اتحاد للعمال في مصر، ولكن ذلك لم يقض على الحركة النقابية، فظلت تصارع من أجل إعادة بناء اتحادها، حتى اقتربت من ذلك في 1952، ولكن أجهضت التجربة على أيدي سلطة يوليو، التي صادرت الحركة النقابية وامتدت سيطرتها عليها لنصف قرن، حتى بدا أنه لا مفر من تلك الهيمنة، ولكن الحركة العمالية فاجأت خصومها وأصدقاءها على السواء بأنها لازالت قادر على السير في الطريق الذي بدأته قبل مائة عام. ومهما كان ما آلت إليه تجربة النقابات المستقلة والظروف التي مرت بها، فإنها أثبتت أن عقود الملاحقة والمصادرة والمنع ستصبح في وقت ما مجرد سطر في تاريخ الطبقة العاملة.

مصادر:

تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشوئها حتى سنة 1970. أمين عز الدين.

العمال والحركة السياسية في مصر، الجزء الثاني. جويل بنين وزكاري لوكمان.

كفاح عمال السكة الحديد. مجموعة.

ملحمة عمال الصلب. مجموعة.

شهادات وتغطيات صحفية ونشرات مصنعية.



الصحف في قضية إضراب كفر الدوار

مساواة بموظفي وزارة المالية في الحوافز. كانت هناك مقدمات للاحتجاج في فترات سابقة، ولكن سبتمبر 2007 يعتبر بداية الصعود المتصل للحركة. بدأت احتجاجات الموظفين في محافظة الجيزة، ولكن سرعان ما بدأت الاتصالات بين الموظفين في المحافظات المختلفة، والتسويق بينهم لتبدأ سلسلة من الاحتجاجات أمام وزارة المالية واتحاد العمالية، وامتدت حتى ديسمبر 2007 ليبدأ الموظفون اعتصامهم الشهير أمام مجلس الوزراء والذي استمر نحو 10 أيام. وفي خلال احتجاجات موظفي الضرائب العقارية تطورت آليات اتصال وتسويق بينهم في المحافظات المختلفة، ونجح الاعتصام أمام مجلس الوزراء في حشد الآلاف من الموظفين من عدد كبير من محافظات الوجه البحري والصعيد ومدن القناة وسيناء. تطورت كذلك أدوات التنظيم في الاعتصام الذي كان أكثر اتصالاً بالشارع والقوى السياسية كونه أمام مجلس الوزراء. ولكن الأهم من كل ذلك كان تشكيل (اللجنة العليا لقيادة الاعتصام) والتي كانت تضم ممثلاً من كل محافظة مشاركة في الاعتصام، وكان مهمتها إدارة المفاوضات والاعتصام، وكانت اقتراحاتها تطرح على المعتصمين لإقرارها أو رفضها.

هذا التطور المهم كان نواة النقابة المستقلة التي تشكلت عقب الاعتصام. فبعد مفاوضات ممتدة بين المعتصمين ممثلين في اللجنة العليا ووزارة المالية، انتهى الاعتصام باتفاق يحقق مطالب الموظفين. وقرر الموظفون بعد ذلك استمرار اللجنة العليا لمتابعة تنفيذ الاتفاق، كانت اللجنة تقوم بالفعل

الفن والنضال.. هل لدينا أدب عمالي؟

محمود الورداني

وفي الأدب العالمي على سبيل المثال كتب أندريه مالرو الذي لم يكن عاملاً عاملين خالدين مثل "قدر الإنسان" عن نضالات عمال الصين، و"الأمل" عن نضالات اليساريين الجمهوريين في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية ضد الفاشية، وحتى المثل الذي يحلو للكثيرين ذكره، وهو مكسيم جوركي، لأنه كتب "الأم" باعتبارها مثلاً للأدب العمالي، فإن جوركي نفسه لم يكن عاملاً وقرأ له كاتب هذه السطور أعمالاً أخرى، روايات وقصصاً قصيرة اعتبرتها متجاوزة للأم التي تظل عملاً بسيطاً ومباشراً ودعائياً.

وهكذا فإن الكتاب في مصر، مثل سائر الدنيا، لا يُعَوَّل على نشأتهم أو انتمائهم الطبقي، ولا يُعَوَّل أيضاً - وهو الأهم- على طبيعة الواقع الذي يتناولونه في أعمالهم. وقد فُصِّل ناقد كبير مثل إرنست فيشر هذا الأمر في كتابه "ضرورة الفن"، كما فُصِّله روجيه جارودي في "واقعية بلا ضفاف"، ومن قبهم أرنولد هاوزر في سفره الضخم "الفن والمجتمع عبر التاريخ" على سبيل المثال. وفي هذا السياق لا يمكن أن نغفل المقالات التي كتبها لينين عن تولستوي واعتبره كاتباً عظيماً وتناوله بتقدير واحترام بالغين، وبالطبع لم يكتب تولستوي عن العمال حرفاً واحداً! وهكذا فإن كتاباً مثل كافكا وفنانين تشكيلييين مثل بيكاسو وشعراء عديدين ينتمون للسوريالية ليسوا ببعيدين عن الثورة والعدل والحرية، والكتاب الذين يعلنون انتماءاتهم المناوئة للحرية والعدل لا ينبغي أن يأخذهم الواحد مأخذ الجد، فربما فعلوا ذلك خوفاً أو للإفلات من النظم الحاكمة، وفي كل الأحوال ينبغي قراءة أعمالهم فهي الفيصل الوحيد.

والواقع أنني لا أتصور كاتباً لا ينتصر للعدل والديموقراطية والمساواة بين البشر، أو يقف مع الظلم

كنت قد رحبتُ باقتراح الصديق يحيى وجدي بأن يدور إسهامي في هذا العدد عن الأدب العمالي. وعندما تأملت في العنوان قليلاً، وجدت أن العنوان نفسه ينطوي على خطأ أساسي، فليس هناك أصلاً أدب عمالي أو أدب فلاحى أو أدب برجوازي. هناك أولاً أدب. أدب أو لا أدب. وإذا كان المقصود هو الأدب الذي يكتبه العمال، فإن هناك على سبيل المثال من العمال الكاتب الراحل محمد صدقي الذي كتب في خمسينيات ومطلع ستينيات القرن الماضي عدة مجموعات قصصية تدور حول ما يسمى بالنضال العمالي: أي الإضرابات والاعتصامات ومقاومة الظلم والاضطهاد الذي تتعرض له الطبقة العاملة في مصر. هذا عامل ويكتب عن الطبقة العاملة، ويعتبره كثير من الكتاب (السوفييت في دراساتهم مثلاً) كاتب مناضل وما إلى ذلك، إلا أن قصصه رديئة للأسف، واندثرت تلك القصص التي تدافع عن قيم تختص بالعدل الاجتماعي والثورة، لا لأن القيم التي تدافع عنها خاطئة، بل لأنها ببساطة كاتب رديء. وهناك في الوقت نفسه كتاب لا ينتمون للطبقة العاملة، ولم يعملوا في مصانع وكتبوا أعمالاً باقية ولم تندثر، ومن بينهم على سبيل المثال الكاتب الراحل عباس أحمد الذي كتب في سبعينيات القرن الماضي روايته الجميلة المحكمة "البلد" عن مدينة المحلة الكبرى وأحوال ومعاناة عمال النسيج في المصانع وانتفاضتهم ضد مستغلبهم. ربما كان هذا المثال فظاً أو خشناً، لكنني قصدت أن أوضح أن الكتابة الأدبية لا تُعنى بالمنشأ أو الانتماء المباشر، وإن كان هذا لا يمنع من وجود أعمال مثل "الرحلة" لفكري الخولي، لكنها تظل عملاً استثنائياً نادراً، كما سوف أوضح بعد قليل.



عبد الرحمن الشرقاوي



فكري الخولي



يحيى حقي

وحسين فوزي وأحمد خيرى سعيد وعيسى وشحاتة عبيد وغيرهم، وكان إنتاج هؤلاء الكتاب في القصة القصيرة على وجه الخصوص يشير إلى تيار وطني قوي ينشد الاستقلال والحرية ويعلن العصيان المدني والثورة ضد الإمبراطورية التي لا تغرب عن مستعمراتها الشمس، وبعد احتلال لمصر كان قد مضى عليه 37 عاماً، وفي الموسيقى نهض سيد درويش مبشراً بموجة جديدة، مثلما فعل مختار في النحت، ومثلما فعل محمود سعيد في التصوير. لنا الحق إذن أن نزهو ونفخر بالبدايات التي استمرت ولم تفقد قط انتماءها للحرية والعقل والاستنارة. وفي هذا السياق يمكن النظر لإسهامات قامات كبيرة مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل بل والعقاد في الفكر والتاريخ الإسلامي على سبيل المثال، فهم لم يعيدوا إنتاج الأسلاف، بل يمكن القول إنهم ساءلوا إنتاج السلف وشككوا فيه وأضافوا رؤى جديدة وأعادوا تفسير ذلك الإنتاج وعارضوه.

أدرك جيداً أنني أطرح عناوين عريضة تستوجب النقاش والتمحيص، وهو ما لا مجال له في السطور التي بين يدي القارئ، لكنني أدرك جيداً في الوقت نفسه أن تاريخ الأدب والفن والفكر في بلادنا كان على وجه الإجمال في صالح الحرية والعدل والاستنارة بأوسع المعاني، ولم يكن على سبيل المصادفة مثلاً أنه ليس لدينا أديب واحد يعتدّ به ينتمي للإخوان المسلمين، ولم يكن إنتاج سيد قطب ومن قبله محمد رشيد رضا سوى إعادة إنتاج للسلف، وأتردد كثيراً قبل أن أسمح لنفسي أن أعتبرهما مفكرين إضافاً للفكر العربي، وما أنتجاه لا ينتمي إلا للكتابات السياسية المباشرة والآنية، على الرغم من اعتماد كل منهما على القرآن. كما أنه ليس على سبيل المصادفة أيضاً ارتباط الأحداث الكبرى والانتفاضات العارمة بموجات التجديد، فقد رافقت تلك الموجات التجديدية انتفاضة 1946 ضد الاحتلال الإنجليزي والقصر وأحزاب

والظلام والقمع والتعذيب والمنع. الكاتب الذي ينفذ إلى القلب والعقل ويؤثر فيك، لا يمكن إلا أن يكون كاتباً متميماً ليسار بمعناه الواسع، حتى لو ادعى غير ذلك من أجل المصالح المباشرة والإفلات من قبضة نظم الحكم المختلفة. وعلى أي حال، من البديهي أن الأفكار الماركسية التي تدافع عن مصالح الطبقة العاملة، لا تستبعد الأفكار التي تدعو للعدل والديموقراطية والمساواة، بل إن دفاعها عن مصالح الطبقة العاملة

يتضمن وينطوي على انتصارها للأفكار المشار إليها، ومن ضيق الأفق الشديد والبلاهة أن يتم استبعاد أصحاب أفكار الديموقراطية والعدل بالمعاني الواسعة.



هناك كتاب لا ينتمون للطبقة العاملة، وكتبوا أعمالاً باقية ولم تندثر، ومن بينهم على سبيل المثال الكاتب الراحل عباس أحمد الذي كتب في سبعينيات القرن الماضي روايته الجميلة المحكمة "البلد" ..

وفي بلادنا لنا الحق أن نزهو بموجات من الكتاب والفنانين الذين أثروا حياتنا بالانتصار لقيم أرى أنها في نهاية الأمر مع الحرية والعدل والثورة بأوسع المعاني. وإذا اعتبرنا أن ثورة 1919 في إرهاباتها وتجمعها وانطلاقها ثم همودها" على حد

قول شكري عياد في كتابه "القصة القصيرة في مصر" هي نقطة البدء للنهضة الأدبية، كما يشير يحيى حقي إلى أن رياح ثورة 1919 كان لها الدور الأساسي في تأسيس المدرسة الحديثة بفرسانها الكبار مثل حقي وتيمور

منهم بالاشتراك في تأسيس الحلقات والمنظمات الماركسية السرية، فكانوا أكثر التزاماً واعتناقاً للماركسية. الأمثلة لا يمكن حصرها وكلها تدرج في طيف يساري واسع مثل يحي الطاهر عبد الله وعبد الحكيم قاسم وأصلان والبساطي وأمل دنقل ورضوى عاشور وعشرات غيرهم. واستمرت وتواصلت تلك الموجات خلال العقود التالية، ومن واجه السادات وكامب ديفيد والانفتاح الاقتصادي وقمع الأجهزة وكانوا في الصفوف

الأولى هم الكتاب والفنانون المنتصرون للأفكار اليسارية والديموقراطية. الأمر نفسه استمر خلال حكم المخلوخ حسني مبارك والذي امتد لثلاثين عاماً من التكلس وتصلب الشرايين والفساد والقمع. وغني عن البيان أن حجم مشاركتهم في الثورة، أعني بالطبع ثورة 25 يناير، كان ضخماً، والكثرة الغالبة من شعاراته ومطالب الثورة جاءت على أرضيتهم. لست هنا في معرض تناول الغدر بالثورة واستيلاء الإخوان عليها، ثم ضياعها نهائياً في

ظل النظام الجديد، لكنني في معرض الكلام عن وجود وتأثير هذا التيار من الكتاب والفنانين. وفي النهاية أريد أن أؤكد على افتتاحي برواية العامل فكري الخولي (1917 - 2000) "الرحلة"، وهو أحد أهم قادة الحركة العمالية والمناضلين النقابيين، وكتب "الرحلة" خلال وجوده في المعتقل في الواحات الخارجة عام 1962 على ورق البفرة، وعلب الكبريت، وتم تهريبها من السجن، لكنها لم تشر إلا عام 1987. ولا أظن أن الراحل الكبير صلاح حافظ كان مبالغاً عندما كتب في تقديمه لكتاب الخولي "لم يسبق في تاريخ الرواية العربية عمل من هذا الطراز"، ووصفها بأنها زلزال مرتين، مرة لأن الكاتب

الأقلية، وصعد نجم القصة القصيرة إلى أقصى حد على يد يوسف إدريس ومن معه. كذلك شهدت العقود التالية وحتى ستينيات القرن الماضي موجات من كتاب القصة والرواية والنقد والشعراء والمثقفين بالثقافة ممن ينتمون إلى هذا الحد أو ذاك للأفكار اليسارية بأوسع معانيها. فعلى سبيل المثال فقط، لا يمكن اعتبار نجيب محفوظ إلا كاتباً يسارياً بانتمائه العريق لأفكار حزب الوفد وانتصاره للديموقراطية، وتوفيق الحكيم الذي

كان تحقيق العدل أحد همومه الأساسية حتى لو كان العادل مستبدًا. هذا فضلاً عن أسماء وقامات شاهقة مثل عبد الرحمن الخميسي وعبد الرحمن الشرفاوي ولطيفة الزيات ونوال السعداوي وأحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور وفؤاد حداد وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم والأبنودي وسيد حجاب، ثم الموجات التالية مثل نجيب شهاب الدين ومحمد سيف وزين العابدين فؤاد.. القائمة تطول وتطول جداً وتضم كتاباً مسرحيين وسينمائيين في موجات تلو موجات.

وفي أعقاب هزيمة 1967 التي كشفت عن حجم الأوهام والأكاذيب، وكانت صفة على وجه الجميع، وبدأ الترنح وفقدان الوعي، تجّمع عدد محدود من الكتاب الشباب وقتها- وقرروا للمرة الأولى- منذ أمم نظام 23 يوليو الصراع الاجتماعي والسياسي، وصادر الصحف والمجلات- كسر هذا الحصار، وإصدار مجلة خاصة مستقلة عن الأجهزة المستقلة وجمعوا الدفعة الأولى من تكاليف طباعتها من تبرعاتهم الذاتية على مقهى ريش، وأصدروا مجلتهم "جاليري 68".

انتصر جيل الستينيات من الكتاب والفنانين، والموجات التي تلتها للأفكار اليسارية بمعناها الأوسع، وبادر البعض



كتب أندريه مالرو الذي لم يكن عاملاً عمليين خالدين مثل "قدر الإنسان" عن نضالات عمال الصين، و"الأمل" عن النضال ضد الفاشية، وحتى مكسيم جوركي صاحب "الأم" لم يكن عاملاً أيضاً..



البديهي أن الأفكار الماركسية التي تدافع عن مصالح الطبقة العاملة، لا تستبعد الأفكار التي تدعو للعدل والديموقراطية والمساواة، بل إن دفاعها عن مصالح الطبقة العاملة يتضمن وينطوي على انتصارها لهذه الأفكار..



مصر ومدنها وقيمها". وتبدأ أحداث هذا العمل الفاتن في أحد أيام عام 1928 على لسان الصبي الفلاح فكري الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره في إحدى القرى القريبة من المحلة، وفي تلك الأثناء كان شركة الغزل والنسيج قد تأسست لتوها، وانتزعت مئات الفلاحين الفقراء من الحقول التي يعملون فيها أجراء، وهو يتمنون ظروفًا معيشية أفضل، لكنهم يُلقى بهم إلى الطرقات حرفياً. يعملون اثنتي عشرة ساعة وينامون في الطرقات، ومن يسعده الحظ يسكن في حجرة يستأجرها خمسة وعشرون شخصاً ينام نصفهم بينما يكون النصف الآخر في عملهم. لا يصرخ ولا يجمع الكاتب

فما يجري أقوى من كل صياح، فيوميًا تلتهم الماكينة صبيًا أو عضواً من أعضاء جسم أحدهم. لا يأكلون إلا العيش وإذا أسعدهم زمانهم يتناولون بصله، وينفقون على أسرهم القابعة في القرى المحيطة. هذه رواية استثنائية نادرة.

سجلها كاتبها مبتعداً عن الميلودراما والصراخ، واستخدم أبسط المفردات ونقل القرية والمدنية. فأهدانا واحدة من أكثر قصص الحب عذوبة وفتنة، بين الصبية قدرية وابن قريتها الراوي فكري وكلاهما في مطلع مراهقتهم.. ملامساتهما واكتشافهما معا لجسد كل منهما. أهدانا أيضاً مشاهد المعارك الدموية بين "الشركاوية" ممن نزحوا من قراهم واجتاحوا المدينة وعاثوا فيها فساداً، وأهدانا في الوقت نفسه مشاهد لتأزهم ممًا وممارستهم

لإنسانيتهم. والأهم من كل هذا هو الروح الكامنة وراء الكتابة، والنأي عن الصراخ، واستخدام لغة بالغة البساطة والعذوبة.



إبراهيم منصور



مجلة جاليري ٦٨



عامل، وليس من تقاليدنا أن يكتب العمال روايات، ومرة لأن هذا الكاتب العامل، وضع الذين كتبوا عن الفلاحين والعمال في موقف بالغ الحرج، فكل سطر في روايته الفذة حقيقة عايشها بنفسه، وكل هذه الحقائق أبلغ من كل ما صوروا من خيالاتهم. ويضيف صلاح حافظ أنه كان أحد الذين "قرأوا الرواية قبل أن تُكتب، لأن صاحبها كان سجيناً معي في منفى الواحات الخارجة، وكان يرويها ببساطة، جزء بعد جزء، ومشهدا بعد مشهد، على امتداد شهر وأعوام. وكان يمكن أن

يعيد رواية أي مشهد فيها حين نرجوه أن يفعل، ودون أن يبذل أي جهد"، وينتهي حافظ إلى أن الرحلة هي "التسجيل الأدبي الوحيد لميلاد الصناعة المصرية الحديثة وللحزات التي أحدثها هذا الميلاد في قرى

عايدة فهمي..

النقابية الوحيدة بين الرجال!

انتصار بدر

ولأسف فإن أكثر ما حصلنا عليه من معلومات عن تاريخ الطبقة العاملة ودور النساء فيها، وإن جاء عبر جهود مضية للباحثين في الاطلاع على الصحف المعاصرة لمراحل هذا التاريخ، وبعض الوثائق التي صدرت عن العمال أو من تيسر الوصول إليهم ممن كان منهم على قيد الحياة، فإن القدر الأكبر من المعلومات الذي اعتمد عليه الباحثون في تلك الدراسات تم الحصول عليه مما ورد بالمحاضر الأمنية، وتقارير مصلحة العمل والوثائق الرسمية التي أمكنهم الاطلاع عليها، والتي رغم أهميتها في رصد الوقائع فإن هذا الرصد في أغلبه كان يحمل وجهة النظر الرسمية، والتي ربما تكون خادعة وغير معبرة عن الحقيقة، إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة الحكومات التي تعاقبت على مصر، منذ ثورة 1919، فجميعها كانت تمثل الشرائح العليا من البرجوازية وكبار الملاك، وانحازت إلى مصالحها التي تعارضت بالطبع مع مصالح العمال، وغالبًا ما اتخذت ضدهم مواقف عدائية، وتعمدت تشويه تحركاتهم، علاوة على أنها مصادر جافة، على عكس التاريخ الشفاهي الذي ينقل تلك الوقائع في صور من الحياة تنبض بقلوب المشاركين فيها، وينقل أيضًا رؤيتهم لها، والتي غالبًا ما يتم إغفالها في الوثائق الرسمية.

وكل ما وردنا عن دور المرأة في الحركة النقابية في تلك الدراسات نقابتان فقط شاركت النساء في مجلسي إدارتهما، ورابطة لعاملات النسيج في النصف الأول من القرن العشرين، النقابة الأولى هي نقابة الحكيمات التي تأسست عام 1920، على خلفية حركة عمالية ونسائية نشطة برزت كقوة اجتماعية مؤثرة في ثورة 1919، وكل ما ذكر عن تلك التجربة أنها كانت إحدى ثلاث نقابات تأسست على أساس قومي، يضم جميع العاملين بالمهنة على مستوى جميع الأقاليم المصرية في نقابة واحدة، وليس على أساس العاملين بأحد المنشآت، مثل بقية النقابات، وأن لوائجها وأهدافها كانت أقرب إلى الجمعيات الأهلية النسائية منها إلى النقابات.

«عندما أنظر اليوم إلى تلك الأعداد الغضيرة من النساء وهي تخرج كل صباح متجهة إلى ساحات العمل المختلفة، أشعر بارتياح، فقد تكلفت جهودنا بالنجاح، ولكن ما يحزنني أن أيًا منهم لا تعرفن ماذا فعلنا نحن لتنتفتح لهن تلك الأبواب التي كانت فيما مضى ممنوعة عليهن»..

بهذه الكلمات اختتمت الأستاذة عايدة فهمي حديثها معي، وفي شهادتها التي سجلتها معها عام 2000، ضمن مشروع تبنته مؤسسة «ملتقى الهيئات لتنمية المرأة» تحت عنوان «رائدات بيننا»، وكانت تلك الشهادة حول مسيرتها في العمل ومشوارها النقابي، فما نعرفه عن جهود الجيل الأول من النقابيات لتحسين شروط عمل النساء، وأدوارهن في الحركة العمالية قبل الخمسينيات من القرن العشرين، لا يتعدى سطورًا مقتضبة في كل ما تناولته الدراسات التي اهتمت بتاريخ الحركة العمالية والنقابية في مصر، أو في المذكرات الشخصية القليلة التي تركها لنا العمال.

وهذا القصور، في اعتقادي، غير متعمد، بل هو لأسباب تتعلق بندرة المذكرات التي كتبها عمال تلك الفترة، وأيضًا لندرة الوجود النقابي للنساء في النصف الأول من القرن العشرين، كما أن التاريخ الشفاهي، أو التاريخ من أسفل، الذي اهتم بتوثيق تجارب المعاصرين لأحداث تاريخية، أو لحركات اجتماعية، أو توثيق تجارب الحياة ذاتها، سواء للجماعات أو الأفراد من غير النخب، لم يحظ بالاهتمام في العالم إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد اعترف به بوصفه تاريخًا مكملًا للتاريخ الرسمي بعد ذلك بسنوات. بخاصة وأن الوسائل الحديثة في التوثيق المرئي والصوتي لم تيسر للباحثين أو غيرهم مثلما هي متاحة الآن.



المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العرب عام ١٩٥٥

ويبدو أنه كان على المرأة أولاً أن تحصد ثمار انتصارها في معركة التعليم، ونتائج عمليات تمصير الوظائف التي أتاحت لها التوافد بأعداد كبيرة إلى ساحات العمل الأخرى، لتكتسب المزيد من الخبرة النضالية في الدفاع عن حقوقها داخل مواقع العمل المختلفة، قبل العودة مرة أخرى لممارسة العمل النقابي، ومواجهة التقاليد الاجتماعية التي تجعل الرجال يصرون على بقاء النساء في المواقع الخلفية.

وسجلت نقابة الموسيقيين، التجربة الثانية للنساء، شواهد هذا الصدام في انتخاباتها التأسيسية عام 1942 حين استخدمت صفة المرأة باعتبارها وصمة في حق السيدة أم كلثوم، صاحبة فكرة تأسيسها، لإبعادها عن الترشح على منصب نقيب الموسيقيين، وإسقاطها خلال الانتخابات، لكن شخصية أم كلثوم حسمت المعركة، لتفوز في النهاية بمقعد النقيب.

ورغم الفوز المستحق للسيدة أم كلثوم بالمقعد ودلالاته في تغير نظرة المجتمع نسبياً لالتحاق النساء بالعمل النقابي وفوزها بثقة الموسيقيين لسبع دورات متتالية، فإن الوجود النقابي للمرأة منذ عام 1942 حتى عام 1949 ظل قاصراً على نقابة الموسيقيين فقط من بين 465 نقابة موجودة آنذاك، ولم ترصد هذه التجربة تفصيلاً، رغم وجود أم كلثوم وسط كوكبة من المفكرين والشخصيات العامة والإعلاميين، ربما لأن حضورها الفني الطاغى غلب على حضورها النقابي.

أما رابطة عاملات النسيج التي أسستها حكمت الغزالي عام 1946 ضمن تشكيلات اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال، والتي خاضت تظاهرات ضخمة في 12 فبراير عام 1946 ضد الملك والإنجليز، فقد انفضت سريعاً نتيجة إجراءات القمع العنيف التي مارستها حكومة

وفي اعتقادي أنها لم تكن التحدي الأصعب في التحاق المرأة بالعمل النقابي، إذ لم يمثل النوع الاجتماعي أية عقبة، سواء في تأسيسها أو في تشكيل مجلس إدارتها، لاقتصار عضويتها فقط على النساء، وربما لهذا السبب لم تصمد أمام الأحداث التي عصفت بالطبقة العاملة بعد ذلك، واختفت



تأسست نقابة موظفي شركة «شل» عام 1948 لتسجل مبادرة جديدة لالتحاق المرأة بالعمل النقابي عام 1949 بانضمام عايدة فهمي، وهي المرة الأولى التي تتقدم فيها امرأة للعمل النقابي بشركات الإنتاج الصناعي الكبرى..

سريعاً، واختفى معها الحضور النسائي في النقابات لأكثر من عشرين عاماً، رغم وجود عاملات بقطاع النسيج والمحال التجارية في تلك الفترة، ومشاركتهن في إضرابات عمال النسيج والمحال التجارية خلال السنوات التي أعقبت ثورة 1919 وحتى منتصف هذا القرن، ولكن لم تجرؤ أي منهن على الترشح في المواقع القيادية بتلك النقابات، ربما بسبب العقلية السلطوية للرجال، وبالأخص لدى

الفئات العمالية الأقل تعليماً وثقافة، والأكثر تحفظاً تجاه المرأة آنذاك، والمدهش أن نفس الشيء انطبق على الممرضات والمعلمات، وهي القطاعات التي استوعبت أيضاً الفتيات المتعلمات في تلك الفترة.

إلى المواقع النقابية مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين.

ولم يقف نشاط الأستاذة عايدة فهمي عند حدود العمل النقابي، بل تقدمت لانتخابات مجلس الأمة عام 1957 التي شاركت فيها المرأة للمرة الأولى بعد إقرار حقها في المشاركة السياسية بدستور عام 1956، وفي قانون الانتخاب، وكانت المرشحة المسيحية الوحيدة من بين المرشحين المسيحيين في دائرتها التي لم تلجأ إلى دعم الكنيسة، ورفعت شعار الدين لله والوطن للجميع، مستندة إلى قاعدتها العمالية لسكان الدائرة. فهي واحدة من جيل من الفتيات نشأ وترى في ظل صحوة وطنية وحدت كل فئات الأمة المصرية وعناصرها على الرغبة في التحرر والمساواة في الحقوق والواجبات، وعلى الأفكار التنويرية التي أعقبت ثورة 1919، وحقق هذا الجيل من النساء مكاسبه مع كل مرحلة من مراحل الاستقلال الوطني، بداية من دستور 1923 الذي جعل تعليم المرأة إلزامياً، مروراً بمعاهدة 1936 وعمليات التصيير التي أتاحت للنساء وظائف على نطاق أوسع، وانتهاءً بثورة يوليو 1952 وحصول المرأة على حق المشاركة السياسية.

ولعل من حسن حظي أن التقيت بالأستاذة عايدة فهمي عام 2000 قبل وفاتها بخمس سنوات، لأحظى بهذه الشهادة النادرة والثرية لنقابية مصرية أكدت وجودها على الساحة النقابية بأداء رفيع المستوى، واتصف بالكفاءة والحكمة والقدرة على حشد القوى العاملة في القضايا المصرية، والقدرة على إدارة الأزمات بذكاء حاد، وكسب معاركها بكل ما يمتلكه النقابي من أوراق، سواء عبر التفاهم الودي والتفاوض أو النزاع القانوني، وانتهاءً بالتلويح بالإضراب، ما أكسبها احترام زملائها في العمل، ومنحها موضعاً متميزاً داخل الحركة النقابية، ليس باعتبارها المرأة النقابية الوحيدة آنذاك، بل باعتبارها قيادة نقابية من العيار الثقيل، كما استطاعت عبر هامش الحماية القانونية والانحياز النسبي للعمال الذي أتاحه مجلس قيادة الثورة في أوائل الخمسينيات، الانتقال بنقابيتها إلى وضع أفضل من حيث الموارد، والتفاف الجمعية العمومية حول النقابة، ونجحت في فترة توليها منصب السكرتير العام لنقابة «موظفي شل لأبار الزيوت» في رد الاعتبار لنقابيتها بإصرارها على تحييد النزعة الانفصالية التي أُلصقت بها مؤرخو الحركة العمالية، وإعادة الروح التضامنية لها بخاصة في القضايا المصرية للعمال.

لم تقف جهود عايدة فهمي عند حدود المهام النقابية، بل انطلقت إلى تحقيق آمال العمال في الحصول على الرعاية الصحية عبر تجربة جماعية للنقابات أوائل الخمسينيات، ولفتت انتباه القيادة السياسية آنذاك لأحد أهم مطالب الطبقة العاملة وهو «التأمين الصحي والمعاش الدائم»، وهذه التجربة وإن لم تكتمل فإن تأثيرها

إسماعيل صدقي ضد الحركة الوطنية والعمال، ولم يتسن لها إعداد كوادر نقابية من بين عاملات النسيج، رغم أنها أول رابطة نسائية تضع برنامجاً لمطالب العاملات.

ثم تأتي نقابة موظفي شركة شل آبار الزيوت الإنجليزية المصرية «النصر للبتترول حالياً» التي تأسست عام 1948 لتسجل مبادرة جديدة لالتحاق المرأة بالعمل النقابي عام 1949 بانضمام عايدة فهمي، وهي المرة الأولى التي



تقدم فيها امرأة للعمل النقابي بشركات الإنتاج الصناعي الكبرى، ولم تقف عن هذا الحد بل واصلت تقدمها لمواقع نقابية أخرى بقطاع البترول كانت مغلقة تماماً على الرجال، مثل اتحاد عمال البترول، والنقابة العامة للبترول، حتى وصلت لعضوية المجلس الاستشاري الأعلى للعمل عام 1956 لتصبح أول امرأة تفوز بعضويته منذ تأسيسه عام 1933، واستطاعت أيضاً الانتقال بمطالب الحركة النسائية لحقوق متساوية للعاملات إلى حيز التنفيذ، وإقرارها بشكل رسمي في عقد العمل الجماعي بشركتها وفي لائحة خدمات

الصندوق الطبي بها قبل إقرارها في قوانين العمل. كما حاولت في تلك الفترة تأكيد الوجود النسائي على خريطة النشاط النقابي بتشجيع زميلاتها في أماكن العمل الأخرى للتقدم إلى عضوية اللجان النقابية ودفعهن لخوض الانتخابات النقابية ووصولاً بعدد منهن إلى المواقع النقابية بالشركات.

ورغم أن نقابات الموظفين التي تأسست أواخر الأربعينيات في القرن العشرين وعلى رأسها نقابة «موظفي شل لأبار الزيوت» قد أحاطتها الشبهات، باعتبارها نقابات انفصالية تأسست بترحيب من الإنجليز وأصحاب الشركات والحكومة، وبمساندة من الإخوان المسلمين، لفصل الموظفين عن العمال لتفتيت قوة العاملين في المنشأة الواحدة بعد إضرابي عمال النسيج بشبرا عام 1946، والإضراب الضخم لعمال شركة (شل) الإنجليزية للبترول عام 1947، فإنها كشفت عن جانب إيجابي يستحق الدراسة، إذ أتاحت للنساء فرص الوصول



عايدة فهمي في الصحافة العالمية

والتباساتها، وتأثيرها على الطبقة العاملة، داخل واحدة من أهم الشركات الإنجليزية في مصر في مرحلة مهمة من مراحل تاريخها الحديث.

ومزجت عايدة في شهادتها الخاص بالعام، وقدمت تفسيراً للأحداث من موقعها بوصفها عاملة قذفت بها الظروف إلى معترك العمل النقابي، ووفقاً لرؤيتها الشخصية، ووعيتها بقضايا العمل والقضية الوطنية وحقوق النساء، الذي اكتسبته عبر التجربة والتثقيف الذاتي، وخبرة العمل والاحتكاك بإدارات عمل مختلفة، وأيضاً من موقعها كامرأة دخلت منفردة إلى معازل الرجال تحيطها تحديات اجتماعية من كل جانب.

والشهادة لا توثق لتجربة عايدة في العمل النقابي بشركة «شل» وحسب، بل توثق كذلك لمرحلة من مراحل تقدم المرأة إلى العمل خلال عمليات التمصير، في فترة الانتداب البريطاني على مصر، وسيطرة الأجانب على الاقتصاد المصري، واحتكارهم للاقتصاد ولأغلب الوظائف الحكومية، ووظائف الشركات الأجنبية والمرافق الحيوية، كما توثق لجانب مهم من نضال الطبقة العاملة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، في مرحلة من أخطر مراحل النضال ضد الاحتلال الإنجليزي في مصر، والمراحل الأولى من عمر ثورة يوليو 1952، وترصد جانباً من نضال المرأة النقابية، كان لصيقاً بالحركة النقابية ونضالها الوطني.

كان كبيراً في دفع القيادة السياسية لإعداد قانون التأمينات رقم 91 لسنة 1958، في أثناء توليها عضوية المجلس الاستشاري الأعلى للعمل، لتحظى أجيال العمال بعد ذلك بالحصول على معاش دائم، والمدعش أنها حرصت في كل هذا وبوعي أصيل على استقلالية الحركة النقابية، ولم تعلن عن انتماء حزبي خلال نشاطها النقابي، ولم تتضم عملياً لحزب الوفد إلا بعد توقف نشاطها النقابي داخل الشركة.

لقد حرصت الأستاذة عايدة فهمي في هذه الشهادة على التركيز على تجربتها في العمل ونشاطها النقابي، ولم تذكر الكثير عن حياتها الشخصية، كما لم ترصد كل الأمور حول تجربتها النقابية، بل ذكرت المحطات المهمة فقط، فذاكرة الحكيم عادة ما تكون انتقائية، خاصة وأن تلك السيدة عاشت تاريخاً طويلاً حافلاً بالأحداث العامة والخاصة، يمتد من الحرب العالمية الأولى حتى لحظة وفاتها عام 2005، أي ما يزيد عن ثمانين عاماً لا يمكن الحديث عنها تفصيلاً في شهادة واحدة، لكنها قدمت في شهادتها صوراً ومشاهد حية للحياة الاجتماعية في مصر منذ العشرينيات حتى أواخر الستينيات من القرن العشرين، بتفاعلاتها الإنسانية، وأحداثها الاجتماعية، وكشفت لنا عن جانب مهم من التحديات التي واجهت المرأة العاملة في ظل ظروف الحرب، والتوترات، والتحولت السياسية بكل حساسيتها،



صابر بركات.. مناضل من طراز خاص

إيمان عوف

تنامت الحركة العمالية في تلك الفترة وتزايدت فقر وقتها صابر بركات أن يؤسس مجلة حائط عام 75 أطلقوا عليها "الفجر الجديد"، وكان اختيار الاسم بالمصادفة. وفوجئوا أن هذا الاسم هو اسم إحدى المنظمات الشيوعية السرية، وكان لها نفوذ في شركة الدلتا للحديد والصلب بشبرا الخيمة من خلال سعيد جمعة رئيس نقابة الشركة وأحد قياداتها التاريخية وزوج بنت القيادي العمالي محمود العسكري، وكان أحد رموز شبرا الخيمة ورموز منظمة "الفجر الجديد"، فتعامل أمن الدولة على اعتبار أن المجلة امتداد للتنظيم السري الشيوعي وقتها. وقد استغل صابر بركات وعمال الدلتا للصلب حالة الانفتاح السياسي، ورغبة السادات وقتها لفتح العديد من المنابر، والاستجابة لدعوة التعددية السياسية، والاختيار بين أن يكون هناك منبر اجتماعي وآخر يعبر عن العمال، فلم يتوقفوا عند حدود سور شركة الدلتا للحديد والصلب، بل تخطوه وصولاً لباقي الشركات المجاورة مثل شركات البترول في مسطرد، وإسكو للصوف وناروبين، والزجاج والبلور وغيرها من مصانع وشركات شبرا الخيمة.

لكن إرادة أمن الدولة التقت مع إدارة الشركة فصودرت المجلة، وصدر قرار بحل الأسرة، وكان للشركة ناد في وسط القاهرة له العديد من الأنشطة الثقافية والسياسية، فاستضاف وقتها إحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ، ورضا محرم، وخالد محي الدين، وفي فترة المنابر استضافت الجميع بدءاً من خالد محي الدين، ومحمد عبد السميع، وكمال الدين رفعت، ومصطفى كامل مراد، وذلك لتمكين العمال

ولد عام 52 في أثناء حريق القاهرة، قبيل ثورة يوليو بشهور قليلة، لأسرة فقيرة للغاية، والده عامل بسيط، دخل المدرسة وتفوق بها، بعد الإعدادية قرر والده أن يرسله ليتطوع في الجيش، لكنه رفض، ولم يحضر "كشف الهيئة" فرسب في الاختبارات، ثم التحق بمدرسة التلمذة الصناعية، كي يضمن والده نفقات تعليمه، وكانت المدرسة تسير بنظام عام واحد في مركز تدريب ثم الالتحاق بأحد المصانع والعمل بها، فكان نصيبه شركة الدلتا للحديد والصلب بشبرا الخيمة..

إنه المهندس والقيادي النقابي صابر بركات، أحد أهم النقابيين المصريين الذي عاصر أحداث 17 و18 يناير ودفع ثمن مشاركته.

في الدلتا للحديد والصلب عمل صابر بركات كهربائي ضغط، وفي عام 67 التحق بالمقاومة الشعبية، وهو لم يكمل بعد عامه الـ17، وطلب للتجنيد عام 70 في سلاح الصاعقة ثم المظلات وشارك في حرب 73، خرج من الجيش عام 75، وعاد للشركة ليجد حركة عمالية تزايدت، لأن الشركة قبل تأميمها كانت مملوكة لأجانب منحوا العمال القليل من الحقوق تأثراً بالرأسمالية في أوروبا، ومع روح المقاومة الوطنية التي شهدتها مصر في تلك الفترة تزايدت حالة الرفض العمالي لأي اعتداء على حقوقهم من قبل الرأسمالية والبيروقراطية المصرية. ومع تزايد الفساد الإداري نتيجة لعدم إجراء الانتخابات النقابية حدث حالة من التكلس في النقابات، وتزايد الفساد بسبب تبادل المصالح بين القيادات النقابية والإدارية، فكان هذا حافز لبدء حركة عمالية داخل الشركة.

فرفض ونهره، فاتجه إلى المدير الإداري وفوجئ أن لديه ضيف، وبعد ما تحدث عن الأمر كله والتلغراف لرئيس الجمهورية اكتشف أن هذا الضيف هو رئيس مباحث أمن الدولة في شبرا الخيمة، فطلب منه قرش صاغ، وسأله ألسنت مواطنًا مثلنا تعاني من ارتفاع الأسعار، فكان الرد حبس صابر بركات داخل مكتب المدير الإداري للشركة لمدة ساعة، إذ كان الاتفاق بينه وبين العمال أن يخرجوا الساعة الثانية ظهرًا، وأن يتوجهوا لمجلس الشعب لتسليم التلغراف، بعدما رفض مكتب بريد المطرية أن يتسلمه منهم، ولكن العمال كانوا أذكي فقرروا تأجيل موعد الخروج ساعة، وبعد خروجه توجه هو والعمال إلى ميدان التحرير بأتوبيسات الشركة، وقبل مجلة أكتوبر على الكورنيش بالقرب من ماسبيرو

تم إنزالهم، فاعتبروا الأمر فرصة وقرروا السير على الأقدام في مسيرة، رددوا خلالها هتافات ضد رفع الأسعار، وتردي أوضاعهم المعيشية، وبالفعل ذهبوا إلى مجلس الشعب وطلب منهم الدخول لتقديم التلغراف، فرفضوا خشية الاعتقال وسلموا التلغراف للموظفين، وكان وقتها رئيس مجلس الشعب الذي أصبح رئيسًا للجمهورية فيما بعد صوفي أبو طالب.

بعدها توجه العمال وصابر بركات إلى ميدان التحرير وكانت

الأعداد في تزايد، وحدثت الكثير من أعمال العنف من الشرطة، فعاد العمال إلى منازلهم. وفي اليوم التالي ذهب عمال الدلتا للصلب إلى شركتهم وقرروا الإضراب عن العمل، لكن الحركة في وسط القاهرة والعديد من الأماكن الأخرى جعلتهم يتركون الشركة، خاصة بعد إعلان الإدارة أن الشركة إجازة، فخرجوا من الأبواب ركبوا الأتوبيسات وقيل منطقة المظلات أنزلوا من الأتوبيسات، فقرروا أن يسيروا على الأقدام وصولًا لشارع جسر البحر بالقرب من مستشفى الرمد بمسرة، ومنية السيرج بشارع شبرا، وحدثت اشتباكات بين العمال ومن انضم إليهم من المواطنين وتفرقوا أكثر من مرة وصولًا لميدان التحرير، وبعد وصولهم

من اختيار منبر يعبر عنهم، ولكنهم فوجئوا بإغلاق النادي بالشمع الأحمر وانتهى الأمر. لم يكن هناك طيف سياسي موحد داخل الدلتا للحديد والصلب، بل كان هناك الشيوعي، واليساري، والوفدي، والناصرى، والإخوان المسلمين، ومن ليس لهم أية انتماءات سياسية، وكان هدف الجميع الدفاع عن حقوق العمال. اقترب صابر بركات في فترة السبعينيات من حزب العمال، لكنه ظل مرشحًا وليس كادرًا داخل الحزب، وكان يطلق على نفسه ماركسي من منازلهم أي أنه كان يقرء للماركسية واليسار وأفكاره تقترب من أفكارهم لكن لم ينتم وقتها لحزب أو تنظيم بشكل قوي. وفي عام 77، كان قدمر عامان فقط على خروج صابر بركات من الجيش، وكان يطلب منه

باستمرار أن يذهب كل شهر لكتيبته ليؤكد على عنوانه ويتم على مخلته، وكان يبيت ليلة واحدة ثم يعود لعمله في الدلتا للصلب، وفي يوم 17 يناير كان بركات في كتيبته، ولم يكن يعرف ما يجري في مصر، وعندما خرج من الكتيبة فوجئ بأحداث يناير، وقتها توجه بركات إلى الدلتا للصلب واقترح على زملائه إرسال برقية لرئيس الجمهورية وقتها أنور السادات تنص البرقية "إلى السيد رئيس جمهورية مصر العربية، السيد الشعب، السيد

التحق بالمقاومة الشعبية، وهو لم يكمل عامه الـ17، وطلب للتجنيد عام 70 في سلاح الصاعقة ثم المظلات وشارك في حرب 73، خرج من الجيش عام 75، وعاد للشركة ليجد حركة عمالية متزايدة

نائب رئيس الجمهورية، السيد وزير القوى العاملة والهجرة، السيد رئيس اتحاد عمال مصر نشكر يتقدم الزميلات والزملاء بشركة مصر للدلتا والصلب بوافر الاحترام والتحية لسيادتكم على رفع الأسعار، رافعين شعار مزيد من رفع الأسعار، والفقر والجوع". لاقت فكرة التلغراف التي اقترحها بركات قبولا شديداً لدى العمال، وطلب صابر أن يدفع كل عامل قرش صاغ ليس لشيء سوى أن يحصى عدد الموافقين على ارسال البرقية، وبلغ العدد 600 توقيع من أصل 1000 كانوا في الوردية التي جمع فيها التوقيعات.

لم يكتف صابر بالعمال بل اتجه إلى رئيس مجلس إدارة الشركة وطلب منه التوقيع على التلغراف،

الشيوعية في شبرا الخيمة وقتها غاضباً فتبدلاً الضرب وتجمع المجندون والمخبرون على بركات وأشبعوه ضرباً. وفي نهاية العام عقد مؤتمر بحضور رئيس شركة الدلتا للصلب وممدوح سالم الذي أصبح رئيساً للوزراء بعد أن كان وزيراً للداخلية في أحداث 17 و18 يناير، ودخل بركات للمؤتمر وقرر أن يتحدث عن أزمة عودته للشركة أمام الجميع، فطلب ممدوح سالم من رئيس شركة الدلتا للصلب بأن يعيده إلى عمله، وبالفعل أعيد للعمل في أماكن هامشية في الشركة بالمخازن التي رفض رئيسها استقباله خشية المشكلات والأزمات، وبالمشتروات التي طلب رئيسها من بركات ألا يأتي إلى العمل وأن يكتفي بالوجود يوماً أو اثنين في الأسبوع، وبالفعل استغل بركات ذلك الوضع وقرر أن يدرس بكلية الحقوق.

وبعد شهور قليلة في 28 سبتمبر ألقى القبض على صابر بركات بسبب إصرار رئيس مكتب مكافحة الشيوعية وقتها في ملاحظته، وظل هكذا من عام 77 ل 82 أيام قليلة خارج السجن والأكثر داخله، فاعتقل مع حزب العمال، والحزب الشيوعي، والتيار الثوري، وفي قبضة اغتيال السادات وغيرها، إلى أن توفيت والدة بركات وهو في السجن عام 82، وحرّم من وداعها، بل وتوفي أخوه بالعراق وأرسل إليه أبناء شقيقة

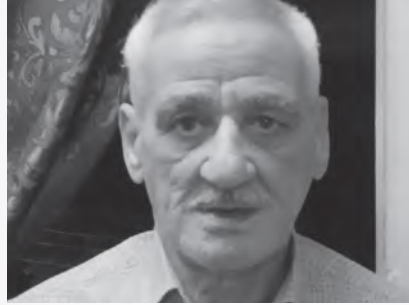
بخطاب يطلبون منه أن يخرجهم من العراق حيث يعانون المشكلات بعد وفاة أخيه، إلا أنه لم يكتشف ذلك الأمر إلا بعد خروجه من السجن وبالمصادفة. لم ينهه السجن ولا وفاة والدته وشقيقه وهو معتقل دوره النقابي والسياسي والنضالي بل ظل يدافع عن حقوق العمال ويدفع الثمن من حريته وحياته فكان له دور بارز في الإضراب الشهير لعمال الحديد والصلب الذي حدث عام 89 فكتب البيان الذي كان بمثابة البداية، واعتقل وسط عشرات بل مئات الطلاب والعمال من جميع المناطق، وأسس مع آخرين اللجنة التنسيقية لعمال مصر التي كان تسعى للدعم والمساندة لكل الإضرابات العمالية.



توفيت والدة بركات وهو في السجن عام 82، وحرّم من وداعها، وتوفي أخوه بالعراق وأرسل إليه أبناء شقيقه خطابا يطلبون منه إخراجهم من العراق، ولم يكتشف الأمر إلا بعد خروجه من السجن وبالمصادفة

التحرير سمعوا بأعمال العنف التي انتشرت في العديد من الأماكن وبدأت الشرطة تواجه المتظاهرين وتفرق الجميع، وأعلنت حالة الطوارئ. وفي كلمة ممدوح سالم وزير الداخلية آنذاك أمام البرلمان قال إن منطقة شبرا الخيمة آمنة ولا يوجد أي تحرك في أي شركة أو مصنع باستثناء عامل مجنون، قاصداً صابر بركات، حاول أن يخرج بالعمال لكنهم تصدوا له ورفضوا تخريب الشركة ومصر. وعاد صابر لمنزله ونصح الكثيرين بأن يترك المنزل خشية الملاحقة الأمنية، لكن ظروفه الاجتماعية وقتها وحاجته للوظيفة لم تمكنه من ذلك فخاف أن يفصل من الشركة، بالرغم من إبلاغه بأن الشركة في عطلة لمدة ثلاثة أيام، وهو في عطلة لحين البت في موقف الشركة منه، جاءت قوات الأمن لمنزله وطلب منه الضابط أن يحضر حقيقته واعتقل بالفعل. وظل صابر في قسم شبرا الخيمة يخضع لتحقيق أمن الدولة، لمدة ثلاثة أيام، والتقى بمدير أمن القليوبية الذي وجه له السباب "حتة صرصار زيك يخيليني أصحى ثلاثة أيام، شبرا كلها أمان وما فيهاش أي حاجة غيرك أنت". وظل في القسم في الغرفة التي كانت على السطح، لم يكن معه سوى مجموعة من البنات الذين كانوا محكومين بفترات قليلة، وقد أطمعته ومنحه الماء والسجائر، إلى أن نقل إلى سجن بنها، وظل شهراً كاملاً لا يعرف أحد عنه شيء، وعانى من الحبس الانفرادي والتعذيب، إلى أن قبض على اثنين من منطقة العمار كانوا ينتمون لحزب العمال ووزعوا منشورات ضد القانون 2 الذي عرف وقتها بقانون العائلة الذي منع فيه السادات أية محاولات لانتقاد رئيس الجمهورية أو حتى الحث على ذلك.

وقتها التقى صابر بركات بمحام إخواني كان نقيب محاميين القليوبية، وطلب أن يترافع عنه أمام النيابة، فاشترط عليه أن يدافع عن حقه فيما فعل ووقف، وبالفعل ترافع عنه وحصل على إفراج، لكن وقتها لم يكن الإفراج يتم إلا بعد مرور شهر ليتمكن رئيس الجمهورية من الاعتراض على قرار الإفراج إذا رغب في ذلك، ولا يخرج الشخص إلا في الإفراج الثاني، وبالفعل خرج صابر بركات من السجن ليبدأ مشوار جديد مع شركة الدلتا في محاولة عودته للعمل. بعد خروجه من السجن ذهب بركات إلى إدارة الشركة طالباً عودته للعمل، فرفضت إدارة الشركة وطلبت منه أن يأتي بما يثبت خروجه من السجن فذهب إلى مسؤول أمن الدولة وقتها وكان يدعى حسن حسني، فرفض منحه شهادة تفيد خروجه من السجن، وظل متعتاً معه حتى وصل به الأمر إلى أن ذهب إلى منزل صابر بركات وهو غير موجود وقتش في أغراضه، وعندما عاد بركات إلى منزله أخبرته والدته بما جرى فذهب إلى حسن حسني رئيس مكتب مكافحة



محمد حسن عوف..

عامل الغزل مرشحاً للرئاسة !

إيمان عوف

وسيادة الوساطة والمحسوبة والانحياز للأغنياء على حساب الفقراء، وحدث أن قرأت إعلان في أحد الصحف عن أن شركة "إسكو" للصوف والحريز تحتاج لعمال وكان ذلك عام 76، وبالفعل تقدمت بأوراقى وقبلت للعمل كعامل غزل في شركة إسكو بشبرا الخيمة، حيث الاستغلال المكثف للعمال، كما نتقاضى ملاليم لا تكفي حتى أكل الفول والطعمية، وكان العمال يعانون من أمراض الربو والسل ولا أحد كان يرحمنا، انضمت للعمال وقررنا تشكيل لجنة للمطالبة بحقوقنا، فبدأت من هنا الملاحقة والتتبع الأمني، انخرطت أكثر في العمل النقابي والسياسي وأدركت وقتها أن كل قناعاتي هي قناعات يسارية من الدرجة الأولى، فارتبطت بمجموعة من المهندسين والعمال في الشركات الأخرى، كان من بينهم المهندس صابر بركات، والمهندس أحمد الصياد، والمهندس سعيد أبوطالب، وغيرهم من العمال والمهندسين الذين كانوا يرفضون السخرة التي يعمل بها عمال شبرا الخيمة وغيرها من المناطق. وقد أسست مع تلك المجموعة لجنة أطلقنا عليها "لجنة التضامن" ضمت العمال من عشرات الشركات والمصانع في شبرا الخيمة وقتما كانت منطقة عمالية من الدرجة الأولى، استطعنا أن نوصل صوت العمال من خلال مجموعة من الشباب والسياسيين الذين كان بينهم حمدين صباحي وطه سعد عثمان، وتعرفت وقتها على يوسف درويش ونبيل الهلالي، فتعرفت أكثر على العمل السياسي وانضمت

الاسم محمد حسن عوف، من مواليد الخمسينيات، ولدت في قرية دمشاوا هاشم بالمنيا، لأسرة متوسطة الحال، حصلت على دبلوم الزراعة، لكن فساد الاتحاد الاشتراكي وقتها أفسد الأمر كله، إذ امتلك والدي 6 أفدنة ومنزلاً كبيراً، فجاءت قرارات الإصلاح الزراعي فسلبتنا كل الأرض التي كان يمتلكها والدي وليس جزءاً منها مثل الباقين، وذلك بسبب خلافات كانت بين والدي وممثل الاتحاد الاشتراكي على من يأخذ العمودية، رأيت الظلم واستغلال الفلاحين لصالح الإقطاعيين الذين كانوا يمتلكون مئات بلا الآلاف الأفدنة. عرفت مبكراً قيمة أن يعرق فلاح في أرض غيره ويعاني من ويلات الظلم، ولا يجد قوت يومه، فانتفيت إلى الفلاحين وانحزت إليهم منذ كنت طالباً في الإعدادية، ساءت الأوضاع في بلدتنا التي كان يئن بها الفلاحين وأسرهم من الجوع والإقطاع وفساد رجال الاتحاد الاشتراكي، وكنت دائماً أجد الصحف لأعرف أخبار حرب اليمن وأخبار السياسة، اعتقلت عام 69 وحُكم علينا بالسجن ثلاث سنوات، قضيت منها عامين في سجن الحضرة بالإسكندرية، وسط معاملة لا آدمية، تلقينا فيها جميع أشكال التعذيب والضرب والإهانة، ثم نقلنا إلى سجن استئناف المنيا، وخرجنا في العفو الذي حدث بعد انتصار أكتوبر 73.

رجعت إلى قريتنا مرة أخرى، وكان وقتها سياسات الانفتاح الاقتصادي وحكم السادات، والفقر المدقع

مطلع التسعينيات أجريت أول انتخابات نقابية في شركة النشا والجلوكوز نتيجة لنضال العمال، وطلب مني العمال وقتها الترشح للانتخابات، وبالرغم من المضايقات الأمنية والتضييق عليّ وعلى أسرتي برفض منحي شقة من شقق الشركة، بالرغم من استحقاقي، فإنني نجحت باكتساح، حيث حمي العمال صناديق الانتخابات بأجسادهم، وحصلت على أعلى الأصوات فأصبحت ممثل العمال في مجلس الإدارة وعضو صندوق التأمين الخاص لأربع دورات متتالية، تعرفت خلالها على كل عمال شبرا الخيمة وارتبطت بقضايا الفقراء اليومية.

وقد سعى الأمن لاعتقالي مرات عديدة، ولم أخش من الاعتقال، فكان الرد نقلي لمديرية الطب البيطري بمحافظة

المنيا تعسفياً، كي أبتعد عن الشركة، ويتم إبعادي عن الانتخابات التي

سعموا بكل الطرق أن يسقطوني فيها، وبالفعل نقلت وأقمت دعوى قضائية

تولاها نبيل الهلالي بعودتي ووقف النقل التعسفي، وبعد مرور ستة أشهر عدت إلى الشركة قبيل

الانتخابات وخضت الدورة الرابعة لي ونجت باكتساح دون دعاية انتخابية. كان

من المفارقات التي حدثت وقتها أن رئيس مباحث قسم

ثان شبرا الخيمة وممثل أمن الدولة مصمم على ألا يتم منحي شقة تابعة للشركة في الإسكان الصناعي، تخوفاً من أن

أحول منزلي القديم لمقر سياسي أو حزبي، ولكن بعد سنوات عديدة قتل هذا الضابط وحصلت على الشقة، فكان الجميع يداعبني قائلين "أنت

اللي قتلته عشان تاخذ الشقة". وجاءت انتخابات البرلمان فقررت أن أخوضها، وأنا على ثقة بأنني

لن أمر نتيجة لهيمنة رجال الحزب الوطني على الحياة السياسية في مصر وقتها، لكن كانت فرصة

جيدة لأن نوعي المواطنين بحقوقهم، وأن نقول رؤيتنا. فقام رجال الحزب الوطني وقتها بملاحقتي وإرسال بلطجية لمنع العمال من التصويت لي،

للحزب الشيوعي المصري، ولكن حدث إضراب 86 في شركة إسكو ففصلت، وأصبحت أنا وأبنائي بلا دخل مع تهديدات أمنية عديدة بالاعتقال، لكني

سرعان ما وجدت عملاً بشركة النشا والجلوكوز. دخلت الشركة وأنا أعلم بأن حياتي ومصدر رزقي على كف عفريت، إذ أن الأمور في النشا والجلوكوز

أسوأ بمراحل من إسكو، خاصة وأن عمالها لم يكونوا على دراية بحقوقهم بأي شكل من الأشكال، لكن وقعت العديد من الإصابات بين العمال وتوفي

البعض فقررت أن أخوض تجربة عمالية نقابية من جديد بالنشا والجلوكوز.

وقد ارتبطت بالعمال بقضاياهم كنت همزة الوصل بينهم وبين المحامين والصحفيين، وكنت وقتها أعيش وأبنائي السبعة

في غرفة وحمام مشترك بأحد حواري شبرا الخيمة منطقة بهتيم، وعلى الرغم

من ذلك تحول منزلي إلى مكان التقاء النشطاء والسياسيين والصحفيين، بل والباحثين

والمترجمين وكل المهتمين بحقوق العمال، علمتهم وتعلمت منهم الكثير،

ارتبطت بالقضايا السياسية مثلما ارتبطت بالقضايا العمالية، لكن دبت الخلافات في الحزب الشيوعي المصري

فخرجت ويوسف درويش ونبيل الهلالي وسيد فتحي، وكونا وقتها حزب الشعب الاشتراكي.

وفي عام 89 كنت ناشطاً في لجنة التضامن مع عمال الحديد والصلب، وألقي القبض عليّ وسط

مجموعة كبيرة من العمال والصحفيين في إضراب الحديد والصلب، كانت زنزانتني بها الدكتور محمد السيد السعيد الكاتب الصحفي، ومدحت الزاهد،

والعشرات من المحامين والعمال، وكنا نقضي الوقت في النقاشات السياسية والنقابية والعمالية،

وجهت إليّ اتهامات بالانتماء للجنة القيادية للحزب الشيوعي المصري وقيادة منطقة القليوبية،

خرجت من السجن بقرحة في المعدة والعديد من المشكلات الصحية نتيجة لتعرضنا للتعذيب. ومع



ساعات الأوضاع في بلدتنا التي كان يئن بها الفلاحين وأسره من الجوع والإقطاع وفساد رجال الاتحاد الاشتراكي، وكنت دائماً أجلب الصحف لأعرف أخبار حرب اليمن وأخبار السياسة..



عرفت مبكراً قيمة أن يعرق فلاح في أرض غيره ويعاني من ويلات الظلم، ولا يجد قوت يومه، فانتفيت إلى الفلاحين وانحزت إليهم منذ كنت طالباً في الإعدادية..

في انتظار أن يتسلموا الأوراق معنا، لكن فتحي سرور خرج علينا وأبلغنا بأن ننصرف على الفور، وعندما رأى إصراري على أن أتقدم بأوراعي، طلب منا تسليم الأوراق في قسم قصر النيل، فذهبنا للقسم، فتعاملوا معنا على أننا فاقدين الأهلية، ورفضوا تسلم الأوراق، وبعد كثير من الجدل قررنا الذهاب لنقطة السيدة زينب فرفضوا، وطلبوا أن نعود لقصر النيل مرة أخرى وعندما ذهبنا طلبوا لنا مستشفى العباسية، وكانوا مصريين على أن يتم القبض علينا

وترحيلنا لمستشفى العباسية.. وفي نهاية التسعينيات زادت المضايقات الأمنية وظلت لفترات طويلة رهن الاعتقال دون أية أسباب، سوى انحيازي للعمال ومصالحهم، جاءت الخصخصة لتنتهي مسيرة طويلة من العمل النقابي، إذ بيعت الشركة والمصانع التابعة لها لرجل الأعمال ناصر الخرافي، وعرض عليّ وقتها مناصب عديدة ورشأوى ليشتروا صمتي على كل الانتهاكات التي يعانها العمال، بعد بيع الشركة، لكني رفضت وصممت على موقفي. وفي سنة 2000 هددت بالفصل، ولم يكن أمامي سوى تسوية معاشي والخروج

معاش م بكر، ولم تنته مسيرتي النقابية، إذ ظلت بالقرب من العمال ومعهم في كل قضاياهم حتى الآن.



استقللت بالعمل السياسي وقررت أن أكون مجموعة من العمال في شبرا الخيمة ضد غزو الكويت والتدخل الأمريكي في الشرق الأوسط، ملأنا جدران شبرا الخيمة والمناطق المجاورة بشعارات ضد الاستعمار وأمريكا، فاعتقلت ومجموعة من العمال والنشطاء السياسيين ووجهت إلينا اتهامات التحريض على قلب نظام الحكم..



ارتبطت بالعمال وبقضاياهم كنت همزة الوصل بينهم وبين المحامين والصحفيين، وتحول منزلي إلى مكان التقاء النشطاء والسياسيين والصحفيين، بل والباحثين والمترجمين وكل المهتمين بحقوق العمال، علمتهم وتعلمت منهم الكثير..

نبيل الهلالي وسيد فتحي ومجموعة من قيادات اليسار وقتها، دار الحديث عن أن هناك انفراجة سياسية وأن هناك دعوة للانتخابات الرئاسية، وأن هناك إمكانية لليسار أن يتقدم بمرشح، واحتمالية وجود انتخابات حقيقية يمكن التنافس فيها، كنت أرى أن كل هذا الحديث لا محل له من الإعراب، وقررت أن أتقدم بأوراعي للترشح على رئاسة الجمهورية وبالفعل تقدمت، لأثبت للجميع وقتها أن مجرد الحديث عن الجدية في تداول سلطة في مصر دون ثورة مجرد حديث لا معنى له. تقدمت بأوراعي لرئيس مجلس الشعب وقتها وكان الدكتور فتحي سرور، طلبوا منا الانتظار أكثر من أربع ساعات، وقفناها أنا وسيد فتحي المحامي

ثم استقلت بالعمل السياسي وقررت أن أكون مجموعة من العمال في شبرا الخيمة ضد غزو الكويت والتدخل الأمريكي في الشرق الأوسط، ملأنا جدران شبرا الخيمة والمناطق المجاورة بشعارات ضد الاستعمار وأمريكا، فاعتقلت ومجموعة من العمال والنشطاء السياسيين. وفي عام 95 بدأت تظهر الحركة الحقوقية التي كانت لها اليد العليا في تدجين العمال وتحويل القيادات منهم إلى "أفندية" لا يعرفون شيء عن مصانعهم، وفي أحد النقاشات التي كانت بحضور



كنت هناك..

شهادتي على أخصب سنوات العمر

محمد عبد السلام

البرنامج التثقيفي معداً من قبل بعض ممن كانوا قادة في الحزب الشيوعي "المنحل" بعد انضمامهم لتنظيم الحكومة الأوحده "الاتحاد الاشتراكي العربي"، وكانت هناك محاضرة عن المنهج العلمي في التفكير للدكتور حسين كامل بهاء الدين، وأخرى عن حتمية الحل الاشتراكي من إعداد الدكتور فؤاد مرسى، وأخرى عن تطور الصراع العربي الإسرائيلي، وغيرها.

وكان وضع كاتب هذه السطور في منظمة الشباب كأمين لشباب حلوان سبباً لحركته في المصنع، والمصانع الأخرى، وعدم الاكتفاء بعضوية لجنة المصنع في المنظمة، ولكنه نجح في عقد عدد من برامج التثقيف خارج المنظمة من أبناء المصنع، ضم كل منها نحو ستة أفراد، وتعد في أحد منازل المشاركين بالتناوب، وهناك دروس المادية التاريخية وتطور المجتمعات والصراع الطبقي، بجانب تدريس مفاهيم الاقتصاد الاشتراكي، والفلسفة والتفكير العلمي، ومشكلات العمال في المصنع وإعداد مجموعة لخوض الانتخابات النقابية وانتخابات مجلس الإدارة بعد السماح بالانتخابات عام 1971، ونجح عدد من الزملاء في الموقعين.. وفي تلك الفترة وفي العام 1976 عرض السادات فكرة "المنابر" للمناقشة بديلاً للاتحاد الاشتراكي، وانعقد بالشركة مؤتمر جماهير حاشد، شارك فيه مئات من عمال أقسام الشركة المختلفة، وأعضاء منظمة الشباب، وأعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكي بالوحدة، وجرت مناقشات ساخنة برفض فكرة المنابر والمطالبة بإطلاق حق تكوين الأحزاب وعلى رأسها "حزب الطبقة العاملة".. وانعقد المؤتمر في اليوم التالي لمناقشة مشروع البيان الصادر عن المؤتمر، وتمت الموافقة عليه بإجماع

جئت إلى القاهرة في عام 1969 باختيار مسبق، بعد سماعي الكثير عن أن حلوان هي قلب الطبقة العاملة النابض، للالتحاق بشركة وسائل النقل الخفيف بوادي خوف، بعد تلقي جزء مهم من الوعي المبكر من أصدقاء ينتمون لجماعة د. على النويجي في دسوق؛ موطني ومحل نشأتي، ومنهم تعلمت الخطوات الأولى للانحياز للفلاحين والعمال والفقراء عموماً. وعندما التحقت بعمل في المصنع، كانت الحركة النقابية مجمدة لعدم إجراء الانتخابات في موعدها، لنظراً لظروف حرب 1967 وما تلاها، وكانت الحركة السياسية مصادرة بعد حل الأحزاب، فبحثت حولي ولم أجد إلا منظمة الشباب الاشتراكي التنظيم الشبابي التي تعمل باستقلال نسبي عن الاتحاد الاشتراكي العربي الذي لم أشرف بعضويته ولم أنتم إليه في يوم من الأيام.

كان عدداً معقولا من شباب المصنع وعماله ينخرطون في هذا التنظيم الشبابي، ويعقدون اجتماعاً دورياً لتدارس الموقف السياسي، ويستمعون لبعض المحاضرات التثقيفية. وكان ذلك ربما هو الطريق الوحيد وقتها للاقترب من العمال، ومحاولة نقل بعض أقسام الوعي الاشتراكي إليهم، خصوصاً وقد كان للمنظمة برنامج تثقيفي للأعضاء المختارين على مستوى الجمهورية لإعداد الكوادر الاشتراكية التي ستقوم المرحلة المقبلة كما كانوا يرددون. وكان البرنامج ينقسم إلى عدة مراحل وكانت المرحلة الأولى منه في معسكر حلوان الدائم، وفي شبرا الخيمة، والمرحلة الثانية كانت في أبي قير بالإسكندرية، والمرحلة الثالثة "وكانت مخصصة لإعداد الموجهين السياسيين" في مركز شباب الجزيرة بالقاهرة.. وكان

قصر النيل إلى مجلس الشعب وقتها. وظلت الهتافات الاجتماعية والسياسية مدوية طوال اليوم حتى قرب المساء، وشارك في هذه التظاهرة العديد من أبناء حلوان، ومن شركة وسائل النقل الخفيف.

وقاد الهتافات أمام البرلمان أحد أبناء النقل الخفيف، المرحوم عويس عبد الفتاح، الذي أحاط به رجال الأمن من كل جانب في محاولة للإسكاف به، لكننا في عصر هذا اليوم ابتدعنا حيلة واستطعنا إفلاته من قبضة رجال الأمن، وطبعاً أكدنا عليه بالمبيت خارج المنزل على سبيل الاحتياط. وقد توجَّح كل ذلك بالانتفاضة الشعبية الواسعة

لشعب المصري من أسوان إلى الإسكندرية، والتي بدأها هتاف عمال مصر حلوان للغزل والنسيج، الذين خرجوا احتجاجاً على رفع الأسعار، ومروا على المصانع في طريقهم فالتحموا بهم، أهمها مصانع الطائرات، ومعدات الغزل، وإسمنت حلوان، ثم اتجهوا إلى مجموعة المصانع في عين حلوان ووادي حوف وغيرها، ونزلوا إلى القاهرة، قبل توقف حركة المترو، ومالأوا ميادينها، وتصادف مقابلي في السيدة زينب مع بعض عمال شركة الحديد والصلب من

بينهم المرحوم سيد عبد الراضي الذي رافقني طيلة اليوم، نجوب الشوارع حتى وصلنا إلى شارع خيرت في طريقنا إلى ميدان باب اللوق وسط التظاهرة، وأمام وزارة الداخلية فوجئنا ببوابل من الرصاص ينطلق على المتظاهرين، وأصيب أحد الأشخاص بجوارنا، وسرعان ما أخرجناه خارج التظاهرة، وتولت مجموعة أخرى نقله على ترسيكل إلى مستشفى المنيرة القريب.

كنا أنا والزميل سيد بلا طعام طيلة النهار، وبالمصادفة قابلنا أحد عمال المخابز يحمل الأ رغفة الساخنة لتوصيلها إلى أحد المحلات فاستأذناه في رغيف واحد اقتسمناه، دون غموس، واستكملنا المسيرة حتى إعلان حالة الطوارئ، ونزول الجيش إلى الميادين اعتباراً من الساعة الرابعة عصراً.. فافترقنا بعد أن اتفقنا على مواعيد لتلقي فيها في الأيام التالية حسب ما تسمح به الظروف. وتوجهت إلى حجرتي في السيدة زينب وأكلت ما قسم، ولجأت إلى بيت أحد الأصدقاء قريب من سكني، وبت ليلتي مع بقية الشباب، نتناقش وندرس الاحتمالات، وفي الصباح توجه أحد زملاء المصنع إلى مسكني بحجة السؤال عني وعلمت

الحاضرين، ووقع عليه أمين منظمة الشباب، وأمين الاتحاد الاشتراكي بالوحدة "الزميل محمود صيرة"، وطبع البيان ووزعت منه مئات النسخ داخل المصنع، بل تسرب خارجه، حتى وصل لطلاب الجامعة، ولبعض المنظمات السرية القائمة وقتها! وقامت الدنيا ولم تقعد، فاستدعى صيرة للتحقيق معه في أمانة الاتحاد الاشتراكي بحلوان التي كان يرأسها د. محمد على محجوب؛ وزير الأوقاف فيما بعد، وانتهى التحقيق بتوجيه اللوم للزميل محمود صيرة دون زيادة تحسباً من ردود فعل العمال الذين كان يحسب لهم ألف حساب [1].

انتفاضة يناير 1977 [2]
هل كانت انتفاضة الشعب المصري يومي 18 و19 يناير 1977 مجرد رد على قرارات القيسوني وزير مالية السادات برفع أسعار بعض السلع الأساسية والضرورية للطبقات الشعبية؟ أم كانت تعبيراً عن تراكم سابق عليها؟ والإجابة أن الطبقة العاملة المصرية في حلوان والمحلة دأبت في كل يناير في السنوات السابقة عليها على الاحتجاج على الأوضاع المعيشية الصعبة التي تحيط بهم وتضغط عليهم، وعرف ميدان باب اللوق جزءاً مهماً من هذه



هل كانت انتفاضة الشعب المصري يومي 18 و19 يناير 1977 مجرد رد على قرارات السادات رفع أسعار بعض السلع الأساسية والضرورية للطبقات الشعبية؟ أم كانت تعبيراً عن تراكم سابق؟ الإجابة لدى الطبقة العاملة!

الاحتجاجات في شكل تجمع وتظاهر يحمل أرغفة الخبز على العصي، للمطالبة بتحسين هذه الظروف، كما نجح عمال غزل المحلة في تظاهرة في عام 1975 في المطالبة بمعالجة أوضاع الرسوب الوظيفي للعمال والموظفين مما أجبر الحكومة على إصدار قانون الإصلاح الوظيفي.

وجاء عام 1976 بعدد من الاحتجاجات من بينها - إضراب عمال هيئة النقل العام، وتظاهرة الشهيرة في أنحاء القاهرة وصولاً لميدان التحرير، وقد شاهدت هذه المسيرة الحاشدة التي انضم إليها الآلاف من المواطنين في أثناء سيرها في شارع قصر العيني أمام دار روز اليوسف.

- كما كنت شاهداً على تظاهرة كبرى خرجت من نادي المعلمين بالجزيرة صباح أحد أيام شهر مارس 1976، حيث عقد مؤتمر لأعضاء نقابة التطبيقيين بحضور رئيس الوزراء ممدوح سالم، للوفاء بوعد كان قطعه على نفسه بمنح أعضاء النقابة ميزة ما أو علاوة ما، ولكنه اعتذر عن الوفاء بالوعد، فخرج الحشد الكبير المكون من آلاف قادمين من مختلف المحافظات في تظاهرة كبرى مردين (أين وعدك يا ممدوح!). واتجهت التظاهرة عبر كوبري

أقسام الشرطة، وبعد فرز المقبوض عليهم وترحيل 46 منهم إلى نيابة أمن الدولة التي أصدرت قراراً بحبسهم حبساً مطلقاً اعتماداً على قانون الطوارئ الساري وقتها، وأودعوا سجن مزرعة طرة بتهمة التحريض على الإضراب، وتعطيل وسائل المواصلات العامة. وقد أصدر زملائهم السائقون المقبوض عليهم بياناً دافعوا فيه عن حق الإضراب كحق طبيعي للعمال، وأكدوا فيه على المطالبة بالإفراج الفوري عن زملائهم المعتقلين، وأنهم في حالة اجتماع دائم حتى يفرج عنهم، كما أدانوا قرار وزيرة الشؤون الاجتماعية بحل وإلغاء رابطةهم الشرعية، التي أثبتت الأحداث أنها منظمتهم الشرعية الحقيقية عكس النقابة التي أدانت الإضراب، وأثبتت تبعيتها للحكومة، حسب قولهم.

وإزاء صلابة موقف بقية العمال والسائقين اضطر الوزير إلى قبول أغلب المطالب، ووعد بسرعة البت في بقيتها، كما أجبر موقف العمال ووزارة الشؤون الاجتماعية على إنكارها بصور قرار بحل الرابطة، وتكذيب الصحف، كما أجبر هذا الترابط العمالي النقابي العامة لسكك الحديدية على تغيير موقفها الذي أعلنته بإدانة الإضراب، واضطرت إلى المطالبة

بالإفراج عن العمال المعتقلين والاستجابة لمطالبهم. ومن جانب آخر فقد تشكلت "لجنة للتضامن مع عمال السكة الحديد" وضمت العديد من المحامين، وأعضاء لجنة الحريات بنقابة المحامين، والمثقفين والكتاب، والنقابات العمالية والمهنية، والقيادات النقابية والعمالية، والأحزاب السياسية، ومنظمات المجتمع المدني، وقامت بدور رائع في الدعاية والإعلام بالقضية وعدالتها، وتشكل وفد منها لزيارة المحبوسين في محبسهم، وأقيم مؤتمر جماهيري حاشد بنقابة المحامين، تحدث فيه ممثلون عن كل أطراف اللجنة، وتم توزيع الكتيب المهم الذي أعدته كراسات صوت العامل بعنوان "كفاح عمال السكة الحديد في ثمانين عاماً"، وصدر في نهاية المؤتمر بيان للمطالبة بالإفراج عن العمال بلا قيد ولا شرط. وترافقت نخبة رائعة من المحامين عن العمال في جلسات المحاكمة، ودفعوا ببطلان تجريم حق الإضراب بعد توقيع مصر على العهد الدولي للحقوق

أن رجال الأمن حضروا في المساء للقبض عليّ، وتركوا حرس على البيت بنظام "الورادي" النهارية والليلية، وهربت.

التضامن.. التضامن

قام أحد الزملاء في الشركة بعمل أورنيك عبادة لي وطلب انتقال طبيب الشركة إلى للكشف، لكنه اكتفى بكتابة روشتة علاج، وتقرير إجازة لمدة أسبوع، يتدخل من رئيسي المباشر لديه، حتى تستقر الأوضاع وأعود للعمل، لكن الأمن تدخل في اليوم الخامس وطلب من الإدارة إصدار قرار بفصلي، بسبب الانقطاع عن العمل (وهو إجراء باطل كما وصفته المحكمة، في الدعوى المرفوعة باسمي في مكتب الأستاذ أحمد نبيل الهلالي، وحكمت المحكمة بالتعويض الذي لا تملك غيره.

كان يوماً من أعسى أيام حياتي عندما حضر أحد الزملاء لمقابلتي حاملاً مبلغاً محترماً من تبرعات الزملاء لإعاشتي، وشخص آخر من الشركة كان مطلوباً معي، بعد أن أرسلوا لأهله قيمة مرتبه كاملاً. وأبلغني بصور قرار إنهاء الخدمة من الشركة التي أحببتها، وأحببت كل عمالها، وأسست فيها عملاً نقابياً وسياسياً ظل موجوداً لسنوات طوال.

شكل عمال الشركة صندوقاً للتضامن مع العمال المطلوبين، أنا والشخص الآخر، وجرى جمع إسهامات الزملاء الشهرية طوال ستة شهور حتى صدر قرار الاتهام، دون شموله على اسمي، وأن تضمن اسم الشخص الآخر الهارب معي، وكان ذلك منهجاً متبعاً في الشركة بتكوين هذا الصندوق نصف السري نصف العلني، إذ كنا نجمع تبرعات بسيطة لتعويض الزملاء الذين يلحقهم الضرر بسبب مواقفهم النقابية أو السياسية المنحازة للعمال أو بسبب النشاط النقابي. وهكذا كانت انتفاضة الشعب المصري في يناير 1977 تتويجاً لحالة الغليان التي كانت تجتاح المجتمع المصري في هذا العام والأعوام السابقة عليه.

إضراب عمال السكة الحديد 1986 [3]

تراكمت مطالب عمال وسائقي القطارات عبر سنوات عديدة سابقة على إضرابهم الشهير في يوليو 1968، وتطورت هذه المطالب عبر "رابطة عمال السكة الحديد" وتحولت المطالب إلى عرائض وطلبات أرسلت لجميع المسؤولين، ولا مجيب! لذلك وبعد عدم وفاء وزير النقل بوعده لهم بالاجتماع بهم في مقر الرابطة يوم 7 يوليو 1968، وبعد انتظاره لساعات، لجأ العمال إلى إضراب تباطئي لمدة ساعتين (خفضت فيه سرعة القطارات)، بعدها تحول الإضراب في السادسة مساءً إلى إضراب شامل على أغلب خطوط القاهرة وحلوان والمرج وشبين القناطر، وخط القاهرة - الإسكندرية، والقاهرة بنى سويف - السد العالي. عند ذلك تحركت قوات الأمن المركزي المحاصرة لمقر الرابطة في القاهرة في تظاهرة تخويف صاخبة، ووصل عدد سيارات الأمن إلى قرابة 100 سيارة لوري، واقتحم المبنى والقبض على العمال الموجودين داخله بما فيهم رئيس الرابطة، ورحلوا إلى العديد من

لم تسعفني الذاكرة بأسمائهم الآن. وجرى تعذيب المعتقلين "السياسيين" في مذبحه شهيرة يوم الاثنين الأسود، بعد حفلة الضرب وإتلاف الشنط والأدوات الشخصية والملابس عند الاستقبال. وسُمع صدى ما جرى في اليوم التالي مباشرة بعد زيارة وفد من نقابة الصحفيين، والعلم بالتعذيب البشع الذي وقع على كل من محمد سيد سعيد، وكمال خليل الذين تعرضت حياتهما لخطر حقيقي. وقامت صحف العالم ووسائل إعلامه المسموعة والمرئية بالتدريج بما حدث، وفضح الأساليب الوحشية التي تعرض لها المعتقلون، ووصلت

الأخبار إلى المسؤولين فلم يكن أمامهم إزاء الضغط الدولي والمحلي (قامت صحيفة الوفد بالدور الأكبر لفضح ما جرى)، وعليه انكشفت المؤامرة واضطر النظام للإفراج تدريجياً وعلى مدى شهرين وبضعة أيام من إخلاء سبيل عمال الصلب، ثم المعتقلين السياسيين على دفعات، وكانت ترتيب كاتب السطور في آخر دفعة التي شملت إبراهيم فتحي، ومحروس سرور. لكن الإضراب حقق أهدافه وتحققت

مطالب العمال، وبعد صدور قرارات نقل خارج الحديد والصلب من وزير الصناعة شملت زملاء كمال عباس، ومصطفى نايف، ومحمد مصطفى، وعم هريدي، ومحمود كبير، وصدرت أحكام قضائية بإلغاء قرارات النقل وعودة المنقولين إلى الشركة مرة أخرى. إنها بالفعل ملحمة نضال وكفاح تلطخت بدماء الشهيد عبد الحي، وإصابات زملائه، وفشلت محاولات الانتقام من الصحفيين والمهندسين والمحامين والقادة العماليين، وبقية المعتقلين. وسطر عمال الصلب صفحة مجيدة في دفتر أحوال الوطن.

- [1] - (للمزيد يمكن الرجوع لكتابنا: النقل الخفيف مصنع له تاريخ، مركز العدالة ومركز الأرض لحقوق الإنسان. 2004.
- [2] - للمزيد عن هذه الأحداث يمكن العودة لكتاب الكاتب الصحفي حسين عبد الرازق، العدد الأخير من مجلة الطلبة، فبراير 1977.
- [3] - (للمزيد، انظر العدد الثامن من مجلة صوت العامل غير الدورية، نوفمبر 1986.

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهو ما أخذت به عدالة المحكمة، برئاسة المستشار محمد أمين الراجحي، وأصدرت حكمها التاريخي ببراءة جميع العمال مما نسب إليهم يوم 16/4/1987.

إضراب عمال الحديد والصلب أغسطس 1989
للإختصار أحيل إلى مقالين كتبتهما الزميل صلاح الأنصاري في الحوار المتمدن عن تفاصيل الأحداث بالعدد: 2676، 2678 - / 6 / 15 / 2009، d 13/ 6
2009. كما يمكن الرجوع لكتيب "ملحمة عمال الصلب" الذي شارك في تحريره المرحومين يوسف رشوان ومصطفى نايف مع صلاح الأنصاري وآخرون.

لم ينل إضراب من الإضرابات التي حدثت في هذه الفترة، وهي كثيرة، من الاهتمام وعناية الرأي العام والصحافة. مثلما نال إضراب عمال شركة الحديد والصلب بحلوان عام 1989. (جمال البنا - الحركة النقابية المصرية عبر مئة عام، ص 585). وهو بالفعل كذلك، وخصوصاً ما ترتب بعده من أحداث، وما نتج عنه من نتائج:

1 - قاد وزير الداخلية زكي بدر عملية فض الاعتصام بنفسه، بمصاحبة جحافل الأمن المركزي بمصاحبة العربات المدرعة.

2 أدى الاقتحام إلى إصابة عشرات العمال، واستشهاد العامل عبد الحي سيد سلمان بعد رصاصات قاتلة في صدره، اخترقت الصدر وأدت إلى تهتك الرثة اليسرى وفق ما جاء بتقرير "الصفة التشريحية الابتدائي"، كما جاء في مقال الدكتور محمد حلمي مراد في صحيفة الشعب 8 أغسطس 1989.

3 - شملت عمليات القبض، بعد وفي أثناء الفض، مئات العمال، الذين أهيئوا بشكل لم يسبق له مثيل، وأودعوا عشوائياً سجون أقسام القاهرة المختلفة، حتى صعّب على ذويهم معرفة أماكن احتجازهم، وذلك حتى اختير العشرات منهم وأودعوا سجن أبو زعبل.

4 - الطامة الكبرى هي ما تلا ذلك في فجر 24 أغسطس بإلقاء القبض على مئات من القيادات العمالية، والمتقنين، والصحفيين، والمحامين، والمهندسين وغيرهم من كل محافظات مصر، واتهامهم بالاشتراك في تنظيم يساري وقف وراء الأحداث وحرص العمال على الإضراب والاعتصام!

ومن القيادات العمالية الذين شملتهم الحملة الزملاء: صابر بركات، ومحمود مرتضى، ومحمد زكي الحفناوي، وصبري زين العابدين، والعبد لله، ومحروس سرور، ومن السويس محمد شعله، ومن المحلة خمسة من العمال، ومن الإسكندرية وهكذا. ومن الصحفيين الأساتذة: د. محمد سيد سعيد (انتقاماً من مقاله عن "الضابط البلطجي")، ومدحت الزاهد، ومصطفى السعيد. ومن المحامين الأستاذين: أمير سالم، وهشام مبارك. ومن المفكرين والكتاب الأساتذة: د. فخري لبيب، والناقد والمفكر إبراهيم فتحي، وعبد الخالق فاروق. ومن المهندسين: كمال خليل، ورياض رفعت، وأحمد الصياد، والساوي، وغيرهم كثيرون



كمال عباس..

من مصادفة يناير 77 إلى حلم الحديد والصلب

أسماء زيدان

ينتهجها السادات، وأن لا مزيد من إفقار الفقراء، فما كان منه إلا الخضوع لإرادة الشعب". وأثرت التظاهرات فيما هو أصلاً مزروع به منذ مطلع السبعينيات، زاده تفاقم الوضع الاقتصادي بعد سنوات من الانفتاح، وأوراقنا التي صارت جميعها في يد أمريكا.. حصل كمال على دبلوم الصنایع، وها هو يستعد للتعيين بالوظيفة، وحول هذه الفترة يروي "كان الحصول على وظيفة في ذلك الوقت من أسهل ما يكون، حيث كان القطاع العام يضمنا جميعاً، آنذاك تقدمت إلى أربع وظائف، قوبلت في أغلبها، ولكني تمنيت الانتماء لشركة الحديد والصلب تحديداً".

حلم الحديد والصلب

كانت الحديد والصلب شركة عريقة ترتبط في أذهان ذلك الجيل، بالعظمة والإنجاز، والوقوف وراء معارك الوطن، منذ مشاركتها في إنشاء السد العالي. وذهب عباس للحديد والصلب وكله أمل بالانضواء تحت راية العمل النقابي، وقد كانت بيئة العمل مشجعة، إذ وصل عدد العمال 22 ألف عامل، الذي وصل بعد سنوات، وقبل تصفية المصنع إلى 7 آلاف. وحقق كمال حلمه بالعمل في الحديد والصلب عام 1977، وقد عرف طريق الانضمام إلى التنظيمات اليسارية من قبل، ولكن أصدقاءه من التروتسكيين الاشتراكيين أوصوه بعدم الاتصال بهم طوال ستة شهور، حتى تثبتت أقدامه داخل عمله الجديد. وبالفعل لم يتصل بهم كمال، واندمج بالعمل وقد أعلنت الانتخابات النيابية عام 1979، بعد

مصادفة خير من ألف ميعاد..

"حضرت تظاهرات 77 بالمصادفة" هكذا بادرنا عباس، شاهدنا على الحركة الاشتراكية منذ سبعينيات القرن الماضي. يقول عباس لم أكن مدركاً تماماً للصراعات الطبقية وخللها خلال فترة طفولتي، حيث حظيت بتعليم مماثل لأقراني، جميعنا نرتدي المريول، ونحظى بنشاط مدرسي جيد، عرفنا مدرسة خاصة وحيدة بقريتي بالفيوم، لا يدخلها إلا الطلبة "الفشلة" فالأمر لا علاقة له بالثراء والفقير، لذا لم أكن لم أدرك تماماً هذا الخلل، إلا حينما رحل جمال عبد الناصر، وجاء أنور السادات وفي يده أوراق الانفتاح. حينها ظهرت لي مساوئ تلك المرحلة، وبدأت في الانحياز لمواقف اليسار، واليسار تحديداً وليس التيار الناصري، إذ لم يكن الأمر شخصياً، أو انتهازياً، بقدر ما كان إنسانياً يرجح كفة العدالة والمساواة.. يقول عباس: قبل أن نذهب لتظاهرات 77 عرّج بنا كمال على اعتصام 1973 الذي قام لأجل رفض وقف إطلاق النار الذي فرضه السادات حينها، وخلالها عرف عباس أولى الشخصيات الاشتراكية مثل صبري فوزي، ومحمد طه، ومن هنا بدأت أفكاره تتحرك تجاه اليسار. وقد جاءت مشاركته في تظاهرات عام 1977 بالمصادفة، إذ كان في طريقه للعباسية لتصحيح أحد الأخطاء بشهادة التجديد، فانتهاز فرصة التظاهرات واشتبك بالمشهد، دون تخطيط أو تنظيم، يحكي كمال "كان مشهداً عظيماً، جميع الفئات والطبقات، من كل حذب وصوب، أجمعوا على رفض سياسة الغلاء التي

الموقف الذي تصدره الحزب الشيوعي على سبيل المثال.

ويرى عباس أن العمل النقابي يجب أن يركز على أوجاع العمال، وحررياتهم النقابية المهدورة، والوضع الاقتصادي، كي يتم تحريك الساكن، ولا تحدث الفجوة التي طالما وسعت بين العمال، واليسار. وعليه شارك عباس في الانتخابات بشكل فردي، ودون الانضمام إلى الاشتراكيين، وتحت عنوان من أجل نقابة مستقلة، وحينها كانت الأسماء المرشحة لا بد وأن تمر على

المدعي الاشتراكي، لإجازاتها، وقام حينها باستبعاد 52 مرشحاً، الكثير منهم ينتمون للكتلة الاشتراكية، والذين عادوا لاحقاً للانضمام للنقابة عبر قرار المحكمة، فأصبحت القاعدة ذات التوجه اليساري واسعة، وبشكل غير مسبوق وفيما كان أغلب المرشحين مشغولين بجلسات المحكمة، بدأ التفكير في العمل بنظام المندوبين النقابيين، وبرزت شخصية عباس بين العمال، الذي كان ينسق بينهم،

في الانتخابات الداخلية التي تقوم لأجل اختيار المندوبين، وتم اختيار 102 مندوباً يمثلون 22 ألف عامل.

معركة الوجبة

وهنا بدأت معركة الوجبة وهي مسألة مهمة بالنسبة للحديد والصلب تحديداً، بحسب عباس، وكانت محل نزاع منذ فترة، كما أنها تمثل أمراً مهماً نظراً لطبيعة النشاط الاقتصادي، والأضرار الصحية للصناعات الثقيلة. وقد تم اتخاذ قرار بمنح العمال بديلاً نقدياً عنها خلال المرحلة الناصرية في الستينيات، وقد كان معقولاً حينها، ولكنه ظل ثابتاً لسنوات، ورفضت الإدارات اللاحقة تعديله، إذ اكتفوا بمبلغ 3 جنيهات حتى نهاية السبعينيات. يقول عباس "استعنا بالمختصين للاطلاع على مكونات الوجبة الصحية للعامل الواحد وتكلفتها،

انقطاع دام لعشر سنوات، وقد كان عاملاً نشيطاً كما كان له بعض الاتصالات بأجنحة اليسار الأخرى مثل حزب التجمع، الذي كان يملك قاعدة نقابية جماهيرية ليست بالهينة، فيما كانت السلطة تحاربه عبر صحفها الحكومية.

يتذكر عباس حينها نشر الصحف الحكومية أخباراً تسيء للحزب مثل نشرها مئات الأسماء التي لا تمت للحزب بصلة حقيقية، على سبيل أنهم استقالوا من الحزب، إلى درجة أن الأمر أصبح مجال للتندر، ومع ذلك لم تتأثر شعبية



كانت انتفاضة الحزب مشهداً عظيماً، جميع الفئات والطبقات، من كل الاتجاهات، أجمعوا على رفض سياسة الغلاء التي ينتهجها السادات، وأن لا مزيد من إفقار الفقراء، فما كان منه إلا الخضوع لإرادة الشعب..

"التجمع". أما العمل النقابي كان بمثابة قوة لا يمكن التساهل معها من قبل السلطة، حيث عادة ما يغلب النشاط العمالي على القطاع العام في المطلق، الذي يوفر بيئة عمل مواتية، وعليه بدأ كمال العامل الشاب في الاشتباك في ذلك النشاط المهم، وكما الحال في وقتنا هذا فقد كان اتحاد العمال شخصيات مثل سعد محمد أحمد وغيره، من أذرع النظام التي طالما استولى عليها.

وقد كان عباس صاحب موقف ديمقراطي يؤمن تماماً بأهمية الانتخابات، فسعى لتشكيل كتلة موحدة مكونة من سيد عبد الراضي، ومحمد الديب كمرشحين، إلى جانب مرشحي حزب التجمع، وذلك نظراً لكون اليسار متوزع بين الأحزاب، فكان من الضروري توحيدهم. ويقول عباس إن عملية الجمع بين اليساريين أصعب من العكس، فهم طالما تميزوا بالتفتت في مجموعات صغيرة، وسعوا للاختلاف أكثر من الاتفاق، وهو الطابع الذي يميز الحركة اليسارية حتى اليوم في رأي كمال. ويعتقد كمال أن تفتت الحركة الاشتراكية الدائم أبرز الذاتية، والفرديانية التي تميز بعض شخصيات الحركة، فالعصبوية سيدة الموقف. ذلك التفتت الذي ظهر في مراحل عدة من الانتخابات ومن خلاله برزت وجهة النظر العقيمة كما سماها عباس التي تدور حول الاشتراك في الانتخابات للتبشير بالاشتراكية، وأفكارها، الخلط بين السياسي، والنقابي، وهو

القبض على محمد مصطفى، والذي علم بذلك فاحتفى بالعمال، الذين بدورهم انتفضوا على قلب رجل واحد، واحتجزوا رئيس القطاع داخل مكتبه المهندس حسن عبد اللطيف. وأعلن الإضراب العام مع قدوم شهر أغسطس، بعد قرار بنقل العاملين المنتخبين محمد مصطفى، وعبد الرحيم هريدي، فتم جمع العمال من كل حذب وصوب وإعلان الإضراب الأكبر من نوعه، وذلك بالرغم من الموافقة على مسألتى الحوافز التي زادت بنسبة 35 %، والوجبة. وقاد الاعتصام كل من كمال أحمد عباس، ومحمد حسن بربري، وفوزي محمدين مشهور، ومحمود بكير، بعد أن نقل عضوا مجلس الإدارة المنتخبين، وكمال عباس ومصطفى نابض إلى خارج الشركة، ونقل المهندس محمود بكير إلى محاجر المنيا التابعة



للشركة.

إضراب ورصاص حي

عند الفجر اقتحمت قوات الأمن الإضراب وفضته بالقوة المفرطة، والرصاص الحي، خوفاً من انتشار العدوى بين المصانع المجاورة، وقد كانت حلوان منطقة صناعية متكاملة حيث السكان من العمال وأسره، فجاءت أوامر الفرض من وزير الداخلية حينها، المعروف بجبروته زكي بدر. أسفر الفرض المأساوي عن استشهاد العامل حمدي السيد الذي أصبح رمزاً للحركة العمالية، والحديد والصلب تحديداً، وهرب العمال قيادات الاعتصام، الذين سلموا أنفسهم لاحقاً، إذ كان الأمن يبحث عنهم بالاسم، ومن ضمنهم كان كمال عباس. وشهد هذا الإضراب تضامناً غير مسبوق في أوساط الأحزاب والقوى السياسية، واليسارية منها على وجه الدقة، يتذكر عباس ذلك اليوم "وصل صدى الإضراب إلى الشارع، وقامت اللجان الشعبية للتضامن مع العمال المقبوض عليهم، وكان الدعم القانوني، والمادي غير مسبوقين، حدثت اللحظة

فكان الدكتور إبراهيم العيسوي من ساعدنا حينها، وحدد لنا حصص العمال، كما قمنا لاحقاً بتضمينها في كتيب، سميناه "الوجبة" صدر عام 1989، ليكون دليلاً للعمال فيما بعد. ومع الوجبة كانت هناك مسألة الحوافز التي ظلت لا تحرك ساكناً لفترة زمنية غير قليلة، وفي الطريق حدثت انتخابات 1987، ولكن السلطة والمزاج الإسلامي، جعل اثنين من الأربعة الممثلين للعمال بمجلس الإدارة من ذوي الميول الإسلامية. وبحسب شهادة عباس فإن وصول إسلاميين للإدارة كان يعني الاعتماد على الشخصين الآخرين فقط، إذ كان المنتخبين من أصول إسلامية، لا يتميزون بالنشاط العمالي، ومهادنين للإدارة، فبدأ الاعتماد على ممثل العمال محمد مصطفى، وبدأت معركة العمال على الوجبة، والحوافز.

من قبلها كانت لجنة اليسار داخل المصنع قد أصدرت مجلتها "كلام صناعية" التي كانت تعتمد بالكامل على مجهود العمال، وكان يقوم بمراجعتها الشيوعي الراحل هاني شكر الله، وقد كان لتلك المجلة أثر مهم في توعية العمال، والعمل على توجيههم وتوحيد صوتهم. حينها أن الحركة العمالية أخذت في القوة، حتى مع وجود تيار "الإسلام هو الحل"، ذلك الشعار الذي أصبح المجتمع به، ومع ذلك برزت معركة الحوافز، والوجبة، وكذلك المطالبة بحل النقابة المعادية للعمال، بعد أن اتخذوا موقفاً مخالفاً لهم في أكثر من مسألة. وبدأ شهر يوليو عام 1989 كاجتماع جمعية مفتوحة طول الشهر، لا تنفك المجموعات اليسارية، والعمالية النشطة في الاجتماع بمجموعات من العمال، لتوعيتهم، وتوحيد مواقفهم، في مواجهة السلطة، والإدارة.

سحب الثقة والاعتصام

حينها بدأنا جمع توقيعات سحب الثقة لا سقاط النقابة، وفي وسط ذلك حضرت قوات الأمن لإلقاء

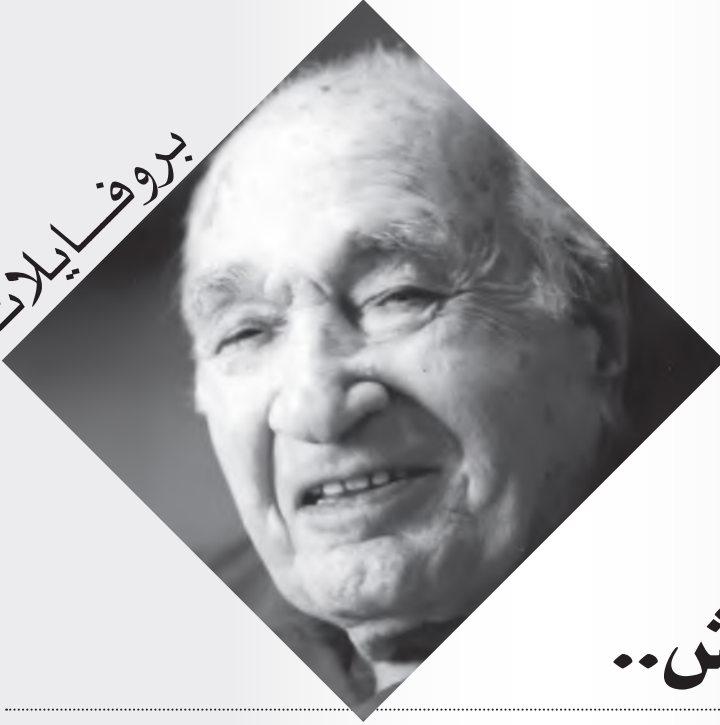


الحل..

حينها تصاعد الموقف بعد أن شن النظام حملة للقبض على شاملة لكوادر حزب العمال الشيوعي المتضامن مع عمال الحديد، واحتجزوا شخصيات مثل مدحت الزاهد، وصابر بركات، وأمير سالم، هشام ومبارك والصحفي ومحمد سيد سعيد، الذي ضربوه في زنزانة انفرادية، فتدخل نقيب الصحفيين حينها مكرم محمد أحمد، وذهبنا جميعاً إلى سجن أبو زعبل حيث قضينا الوقت هناك في المقاومة بالغناء، والحديث غير المنقطع عن مستقبل النضال العمالي. خاصة أن حسني مبارك كان يزور يوغسلافيا وقتها، وسُئل عن القضية، فقرر إغلاقها بشكل كامل، وفقاً لرواية عباس. وقد اتخذ قرار بعدم عودة عباس إلى الحديد والصلب، ونقله إلى شركة ميتاليكو، وقبلها كان نجم حزب الشعب قد بزغ بقيادة شخصيات جلييلة مثل الراحل نبيل الهاللي، فبدأ كمال بالعمل معهم، واقترح حينها الناشط الكبير يوسف درويش إحياء فكرة دارالخدمات النقابية التي كانت موجودة خلال ثلاثينيات القرن، وقد كان.

الحلم حين اشتبك الشارع بالكفاح العمالي". حينها وبحسب رواية عباس تم إخفاؤه قسرياً في أحد زنازين قسم مدينة نصر، دون طعام أو شراب لأيام، ومع علمه ألا أحد يعلم بمكانه، شعر بأن التكتيل به قادم لامحالة، فحاول الاتصال بأفراد عائلته عن طريق أحد المجندين، وكانت الأمانة "بتك بسمة بتسلم عليك". وعلى الفور سمع صوت الناشط اليساري المحامي أمير سالم الجهوري في أنحاء قسم الشرطة، وقد أسهم وجود سالم وبصحبه الصحفيين في إنقاذ حياة كمال، بعد أن اضطر مأمور القسم إلى اظهاره، يقول عباس حين رأيت سالم بدأت في أخذ نفسي، وما كان مني إلا أن بادرت بالقول "جعان"، كنت أتضور جوعاً فأرسل في طلب الكثير من الطعام، وطلب مني إجراء مقابلة صحفية، ولكنني كتبت رسالة إلى ابنتي بسمة، وكانت تلك الرسالة هي مانشيت صحيفة الوفد، وقد أسهم الراحل فؤاد سراج الدين في دعم العمال، حتى إنه كتب مقالاً رداً على اتهامات صحف السلطة للعمال، والطريف أن صحيفة الوفد حينها، كانت أكثر يسارية من صحيفة الأهالي التي تنتمي إلى حزب التجمع، وذلك بعد أن تغيرت قيادات التجمع، وأصبحت بوقاً للسلطة.

بروفائيات



يوسف درويش..

محامي العمال بتوصية من الحزب الشيوعي الفرنسي

أحمد حسن

محطة مصر عند عودته من المنفى وعمره أقل من 15 سنة، وتردد مراراً على بيت الأمة لسماع سعد أو رؤيته، وعند وفاة سعد في عام 1927 ارتدى زيًا أسود لمدة عام كامل حداداً عليه. وتشير ابنته نولة إلى أنه كان يحضر بانتظام اجتماعات وجلسات مجلس الأمة، وكان حاضراً بالمصادفة في جلسة النواب التي هاجم فيها عباس العقاد الملك فؤاد الذي قرر إبعاد الوفد عن الحكومة وسمعه يقول كلمته الشهيرة "إذا وجب علينا فسوف نقضي على أكبر رأس في البلد"، كما قام مع صديقه حامد سلطان عام 1930 بتظاهرة خارج البرلمان ضد الملك الذي كان قد قرر إقالة وزارة النحاس باشا. [1]

عمل محامياً بالمحاكم المختلطة من 1935 وقد أتاح له ذلك إسهامه الأول في قضايا العمال إذ كان الكثير من ملاك المصانع والشركات من الأجانب، الذين لا يمكن مقاضاتهم وقتذاك إلا أمام المحاكم المختلطة، وذلك حتى إلغاء هذه المحاكم عام 1949، وبناءً على تكليف من الحلقة الماركسية التي كان ينتسب إليها درس الحقوق في جامعة الإسكندرية ليتسنى له العمل والدفاع عن العمال أمام المحاكم الأهلية ابتداءً من عام 1944. [2]

بدأ اهتمام يوسف درويش بالحركة العمالية وقضاياها عندما كان في فرنسا، حيث كان يتردد على الحزب الشيوعي الفرنسي ويحضر ندوات

الاسم: يوسف موسى يوسف فرج درويش الشهير بيوسف درويش
تاريخ الميلاد: 2 أكتوبر 1910
تاريخ الوفاة: 7 يونيو 2006
المهنة: محام

من مواليد حي العباسية لأسرة يهودية من اليهود القرائين (يؤمنون بالتوراة المكتوبة فقط ويرفضون التلمود المكون من أقوال الحاخامات والشريعة الشفوية) من المعروف أيضاً أن تلك الطائفة رفضت التقوقع في الأحياء اليهودية ودوائر اليهود فقط، وانفتحت على الاختلاط بالمجتمعات التي استقرت بها والاندماج فيها. وهو ما جعل اليهود الآخرين (الربانيين) يتنكرون لهم، وساعدهم هذا الاندماج على النجاة من المذابح الفاشية، إذ اعتبروا غير يهود بدرجة أو أخرى. ثم انتقل هو والأسرة إلى مصر الجديدة وانتهى به المطاف إلى الإقامة بباب اللوق حتى وفاته.

درس التجارة والحقوق في فرنسا، وبعد عودته إلى مصر درس القانون في جامعة الإسكندرية. وفي بداية حياته المهنية عمل في القضايا التجارية وقضايا العمال والنقابات، ثم غير مساره بعد ذلك وتخصص في قضايا العمال وفي النشاط النقابي العمالي. وقد بدأ اهتمام يوسف درويش بالسياسة منذ مرحلة الصبا، وكان وفدياً متحمساً، وشارك في استقبال سعد زغلول في

170 نقابة فقط في الأربعينيات، وكان درويش محامياً لأهم 70 نقابة بينهم، منها نقابة عمال النسيج الميكانيكي في شبرا وضواحيها، والنسيج اليدوي بالقاهرة، وعمال البواخر البحرية، ونقابة المحلات العمومية، وعمال الفنادق والأنديية، والحلاقين، والنسيج اليدوي، وبأعي البترول. وفي فترة لاحقة أضيفت إليهم نقابة عمال إسمنت طرة، ونقابة رؤساء النسيج.

الطبقة العاملة والسياسة

لم يكن درويش مجرد رجل حقوقي بين العمال، فقد سعى وزملاؤه إلى إكساب العمال فهما ينطوي على إدراك حقوقهم القانونية، وأيضاً الإحاطة بالقضايا الاجتماعية العامة، فقدم العديد من المحاضرات حول المسائل القانونية والفهم الاجتماعي، كما قام أيضاً بدور مدرس في المدارس المسائية التي أسسها نقابيو النسيج، وكان يدرس اللغة الفرنسية للعمال في تلك المدارس.

كان من المهم أولاً الحفاظ على استقلال الحركة العمالية التي كانت تتعرض لمحاولات السيطرة بواسطة كل من الوفد وعباس حليم، وتشكلت مجموعة من طه سعد والعسكري ويوسف المدرك رفعت شعار استقلال النقابات عن الدولة والأحزاب السياسية، وحافظت على استقلال الحركة



عمل محامياً بالمحاكم المختلطة من 1935 وقد أتاح له ذلك إسهامه الأول في قضايا العمال حيث كان الكثير من ملاك المصانع والشركات من الأجانب، الذين لا يمكن مقاضاتهم وقتذاك إلا أمام "المختلطة.."

العمالية فعلاً. وفي سبيل السعي لتحقيق استقلال النقابات التقى يوسف بالمحامي الدولي بريت priitt عضو حزب العمال البريطاني والمعروف بتبنيه قضايا العمال عالمياً في أثناء زيارته لمصر، ضمن لجنة مكونة منه والعسكري والمدرك وطه سعد ومحمود قطب، وكان النبيل عباس حليم على صلة معروفة بالحزب الإنجليزي، فعرضوا عليه مذكرة بوجهة نظر العمال المصريين في علاقة حليم بحزب العمال، وطلبوا منه أن يقطع حزب العمال صلته بحليم وأنه لا يمثل العمال المصريين، وقد أسفر اللقاء فعلاً عن استجابة حزب العمال لطلب اللجنة.

ويشير طه سعد عثمان إلى بعض الأدوار التي قام به درويش بين هؤلاء النقابيين:

(بدأ يوسف درويش في انتقاء عدد من العمال 145

ومحاضرات وبتناقش معهم، وسألهم يوسف: بماذا تنصحوني؟ فاقترحوا عليه أمرين؛ الاتصال بالحركة العمالية، والاتصال بحركة السلام. وعند عودته إلى مصر ذهب إلى مركز الاتحاد العام للنقابات الذي كان يقوده النبيل عباس حليم، وتعرف هناك على نقابي ماركسي هو محمد يوسف المدرك، وشعر يوسف أن الطريق إلى الاتصال بالحركة العمالية يبدأ أولاً بمعرفة تاريخها وما كتب عنها، فذهب إلى المكتبة الخديوية واطلع على كل ما كتب عن العمال في صحيفة الأهرام، من 1919 إلى 1935، كما تابع صحيفة عمالية كانت تصدر وقتذاك باسم "اليراع" وبذلك تكون لديه فهم مناسب شكل خلفية توجهه إلى الحركة العمالية.

أول قضية عمالية ترافع فيها كانت قضية زوج خادمة عند أسرته، عندما عرفت أنه محام طلبت منه الحضور مع زوجها الذي كان عضواً في نقابة النسيج مع النقابي الشهير محمود العسكري، وبسبب تلك القضية التقى بنقابيي عمال النسيج طه سعد عثمان والعسكري ومحمود قطب، وعندما وثقوا فيه طلبوا منه العمل كمحامي للعمال والنقابات، ويسر له ذلك الاتصال مباشرة بعمال النسيج في شبرا الخيمة التي كانت وقتها أحد قلاع صناعة النسيج في مصر. وكى يزيل الحواجز الثقافية أو الاجتماعية بينه وبين العمال قرر ألا يتعامل معهم كأستاذ أو كمتقن، كما قرر التوقف عن احتساء البيرة في مقهى بنصف البلد كي لا يراه أحد العمال ويفقد ثقته فيه. وبسبب طول المسافة إلى شبرا التي كان يضطر أحياناً لقطعها سيراً على الأقدام، ومع ذلك يذهب إليها يومياً، وقد عرضت عليه مجموعته الماركسية أن يشتروا له سيارة خاصة يستخدمها في تنقلاته فرفض، لأن ذهابه بسيارة خاصة سيصنع مسافة بينه وبين العمال البسطاء[3]

وتحضرني هنا مقارنة بين سلوك يوسف درويش للتواصل مع العمال، وسلوك إسماعيل صبري عبد الله الذي سافر أيضاً إلى فرنسا واختلط بالحزب الشيوعي الفرنسي ودرس الحقوق في جامعة القاهرة وانضم إلى منظمات ماركسية، في مؤتمر انتخابي لحزب التجمع حزب التجمع في دائرة حلوان حضره الآلاف من عمال وأهالي حلوان جلس إسماعيل صبري على المنصة يخاطب العمال مرتدياً بدلة فخمة وممسكاً بسيجار ضخمة.

يشير يوسف إلى فارق مهم بين الحركة العمالية في الأربعينيات، حين كان بإمكان العمال الخروج في تظاهرات عمالية ضخمة، كما كان العمال لديهم حس تضامن كبير فيما بينهم، بل وتضامنوا مع إضراب ضباط الشرطة في الأزبكية وإضراب عاملات التمريض[4]

حفلت حياة يوسف درويش بنضالات اجتماعية وسياسية ونقابية متنوعة، سواء المعركة ضد الاستعمار أو ضد الصهيونية كما شارك في نضالات المحامين وفي الحركات الاجتماعية والمنظمات السياسية طيلة حياته. وفيما يتعلق بالنضال النقابي كان القطر المصري برمته يضم

النقابات العمالية، هو محامي العمال الوحيد من الأربعينيات حتى الخمسينيات. وكان هناك علام حسن، رئيس اتحاد خريجي الجامعة ومؤلف أول كتاب قرأه درويش عن العمال، ومحمد الفولي الذي درس الحقوق وهو عامل في مصانع نسيج كفر الدوار والذي تولى الدفاع في قضية خميس والبكري، وإبراهيم طلعت، وعبد المجيد نافع وعبد الحميد لطفى وأحمد حسين ومحمد فهيم ولطفى الخولي وغيرهم من المستشارين القانونيين للنقابات والعمال من الاتجاهات المختلفة، في نهاية الثلاثينات كان لهؤلاء المحامين هيمنة على أمور النقابات العمالية مما أضر بمصالحها، ونتيجة لذلك ولتنامي ميول الاستقلال النقابي ظهرت حركة تمرد ضد هيمنة المحامين على النقابات.[7] وكان درويش استثناءً من هذا التمرد، إذ لم يتصرف كمحام، ولم ينزف بقرار، واندمج معهم إلى درجة كبيرة مما جعله ليس فقط ممثلهم في المحاكم، بل وفي المفاوضات ومستشارهم في الإضرابات.

حضت حياة يوسف درويش بالنضال السياسي بجانب النضال النقابي، فشارك في إنشاء منظمات سياسية ماركسية تهتم بشؤون ونضالات العمال بجانب القضايا الوطنية العامة. وفي الفترة من 1967 حتى 1973، تولى منصب سكرتير الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع، وسافر بعد ذلك إلى كل من رومانيا وبلغاريا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا والاتحاد السوفياتي، وكانت النقطة الأساسية في جدول أعماله هي الدفاع عن القضية الفلسطينية. وقد تعرض للاعتقال عدة مرات بسبب نشاطه المناصر للعمال ومواقفه السياسية ومع ذلك استمر طيلة حياته متسقاً مع مبادئه و متمسكاً بالنضال من أجل الاشتراكية وتحرير العمال، كما شغل مناهضة الصهيونية ومناصرة القضية الفلسطينية جانباً كبيراً من اهتماماته، فقد رفض قيام الدولة الصهيونية ورفض حتى أن يعتبره الآخرون يهودياً ولم يقم أي فرد من أفراد عائلته بزيارة إسرائيل أو الدعوة لمناصرتها. وقد توفي يوسف درويش عن عمر يناهز 96 عاماً.

[1] كتاب "العمال في الحركة الشيوعية المصرية حتى عام 1965"، مركز البحوث العربية، لجنة توثيق الحركة الشيوعية. شهادة يوسف درويش. ص 9.

[2] المرجع السابق ص 13.

[3] - المرجع السابق ص 9، 10.

[4] السابق ص 10.

[5] السابق - تعقيب طه سعد. ص 20.

[6] السابق - تعقيب طه سعد ص 24.

[7] المرجع السابق. درويش في الرد على تعقيب

لعطية الصيرفي، ص 14

منهم محمود العسكري ومحمود قطب وأنا وعدد من عمال البواخر البحرية، منهم الشيخ محمد عبد الرحيم رئيس النقابة، ومحمد مدبولي السكرتير، وسيد الإسناوي أمين الصندوق، وبعض عمال نقابة الصيني والفضار الذين ساعدتهم نقابة عمال النسيج في تكوين نقاباتهم، وكانوا يجتمعون مرة كل أسبوع مع مجلس إدارة نقابة عمال النسيج لمناقشة مشكلات العمال، كما انتقى عدد من عمال مصنع ياسين للزجاج، وبدأ درويش في التكلم معنا على استحياء في مبادئ الاشتراكية دون أن يقول كلمة اشتراكية أو شيوعية، كان يحدثنا عن فانض القيمة الذي يسرقه منا أصحاب العمل، بدأ يوسف درويش العمل معنا بطريقتين، الأولى أننا كنا نجتمع في بيت أحدنا وهو يتكلم معنا كلاماً مفتوحاً أكثر دون ذكر كلمة الاشتراكية



أو الماركسية، ثم بدأ يأتي بأوراق مطبوعة مثل "البيان الشيوعي" وأوراق أخرى تتعلق بأدبيات الماركسية مكتوبة على آلة كتابة وأخرى بخط اليد، وكنا نتبادل هذه الأوراق بيننا [5].

مسألة ثالثة بالغة الأهمية، لم يقتصر نشاط العمال على النقابات والمطالب الاقتصادية، شكل العمال في عام 1945 "لجنة العمال للتحرير القومي، الهيئة السياسية للطبقة العاملة" التي تكونت، كما يشير درويش، لتحقيق أهداف سياسية، وكما يشير سعد عثمان (تكون نواة حزب سياسي للطبقة العاملة). وأصدرت تلك اللجنة برنامجاً سياسياً وبيان تأسيس مذيّل بأسماء عدد من أعضائها، ليس من بينهم يوسف درويش وذلك لأنه محام وليس عاملاً، وذلك لنفي شبهة أن اللجنة تدار من خارج العمال، ويذكر درويش أن برنامج اللجنة تم توزيعه في القطر المصري كله بواسطة 30 عاملاً في نفس التوقيت، كما أصدرت مجلة اسمها "الضمير" [6].

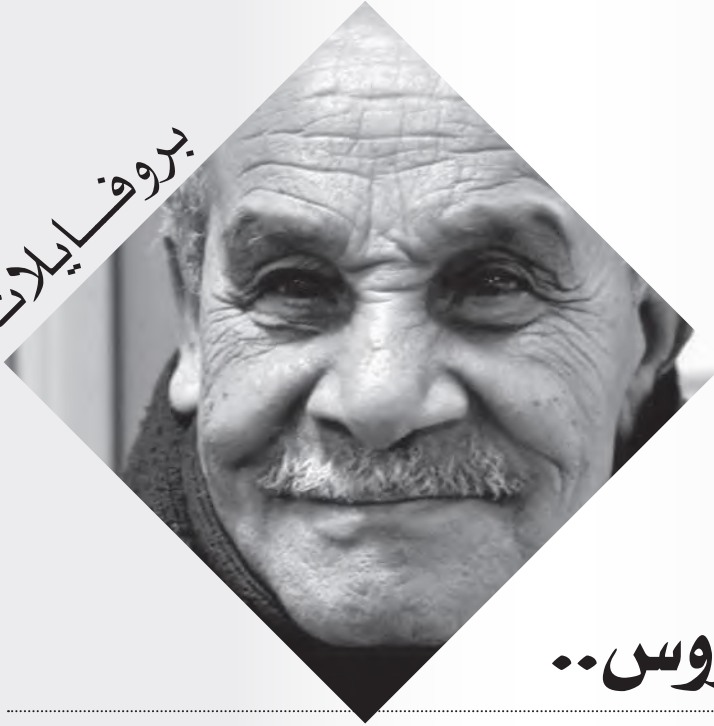
أسسها نقابيو النسيج

لم يكن مجرد حقوقي بين العمال، فقد سعى إلى إكساب العمال فهماً ينطوي على إدراك حقوقهم القانونية، والإحاطة بالقضايا الاجتماعية العامة، فقدم العديد من المحاضرات، ودرس في المدارس المسائية التي

أسسها نقابيو النسيج

تمرد العمال على المحامين
مفارقة لافتة في قضية استقلال الحركة العمالية، كانت قضية استقلال النقابات والعمال في تحركاتهم هامة للغاية، لم يكن يوسف درويش، رغم ثقة العمال به تمثيلاً لأهم

بروفائيات



فتح الله محروس..

النقابي المشاغب.. المناضل المثال

بسام مرتضى

يصبح يوماً عاملاً على "مكينة"، ماكينة في مكان مغلق ليس فيها أمطار وصقيع، بعيداً عن أحوال الرصيف والمشقة الجسدية والاعتداء البدني. وظل بعدها طوال عمره وفيما لحلمه الذي تحقق عندما أصبح عاملاً في مصنع الطويل للغزل والنسيج.

في ٢٠١٤ كنا نجهز في شركتنا المستقلة الناشئة لصناعة الأفلام عدداً من مشاريع الأفلام التسجيلية الشخصية تحت عنوان "سيرة فيلم" تحكي سير ذاتية لشخصيات ظلت على الهامش في الرواية الرسمية رغم أثرها الكبير في المجال العام، كنا نسعى لتوثيق التاريخ البديل، فكان أول الأسماء المطروحة هو النقابي اليساري العامل فتح الله محروس. كلما اقتربنا من بداية صنع الفيلم كنت أزداد ارتباكاً، فكيف تصنع فيلم عن أحد معلمي الطفولة، كيف تداري انبهارك الطفولي به! كانت تجمعني بفتح الله علاقة قديمة منذ طفولتي، كانت زيارتنا العائلية للإسكندرية تعني أن يصحبني عم فتح الله في رحلة مشي عشوائية طويلة ننتقل من باكوس لبحري للحضرة لمحطة الرمل، رحلة طويلة من 147

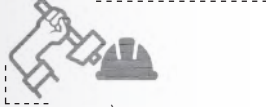
"أحدق"

لكن تلك الملامح ذات العذوبة لا تنتمي الآن لي والعيون التي تترقرق بالطيبة الآن لا تنتمي لي صرت عني غريباً"

كان فتح الله محروس المناضل العمالي اليساري يحب هذا المقطع من قصيدة الجنوبي للزميل أمل دنقل "على حد وصفه"، ولكن لم يكن فتح الله محروس يملك صورة شخصية له وهو طفل، لا يملك ما يحدق فيه ليساعده على التذكر ونسج قصيدته، فهو لا يتذكر أنه كان طفلاً. كانت طفولته في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، وقد بدأت وهو يعمل سايس حمار في مخمرة الطوب، مع والده رئيس العمال في أحد معسكرات الإنجليز الكبرى في "جناكليس" التابعة لمركز أبوالمظالمير البحيرة. كان فتح الله يتقاضى عشرة قروش كأجر، ويتقاضى الحمار خمسة عشر قرشاً. في العاشرة من عمره انتقل فتح الله للعمل في حديد التسليح، وظل الحلم يراوده في أن

هذه اللحظة. "تعامل معي زملائي اليساريون على أنني بطل ولكنني لم أكن أفهم ذلك وقتها" ولكنه أدرك أنها لحظة مفصلية في حياته، بعد أن وُصم بأنه عامل يساري. ولم يمض وقت طويل قبل أن يفصل للمرة الأولى من شركة الطويل بسبب الاشتراك وتنظيم الإضرابات التي تنادي بظروف عمل أفضل. فانتقل سرًا للعمل في مصنع جديد بهوية جديدة، لا يخبر أحدا فيها أنه كان عامل نسيج في شركة الطويل. عامل/طفل جديد منزوع من تاريخه قبل أن تتغير مصر كلها في يوليو ١٩٥٢. حينها شعر فتح الله وطلبة العمال، أنها حركة تغيير ضد الملك وضد الاستعمار وضد الفساد، وأصدروا بيانهم الأول، ولكنهم أنهوا البيان بالتحذير من أن تتحول الحركة إلى حكم ديكتاتوري. أيام قليلة مضت وفي أغسطس ١٩٥٢ انفجرت أحداث إضراب

مصنع كفر الدوار. كان فتح الله يذهب لمصنعه صباحًا بشرق الإسكندرية، فيقابل عمال كفر الدوار قبل الانتقال للمصنع. ويتابع معهم يوميًا في حواراتهم الصباحية ماذا يحدث، حتى حكي له العمال أن المحكمة العسكرية اجتمعت



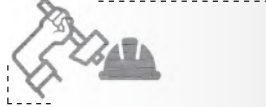
انضم فتح الله لطلبة العمال وهناك زامل العامل عبد المقصود أبو زيد المشارك في أول إضراب عن الطعام للاعتراف بالثقبات العمالية في عام ١٩٣٩..

في حوش المصنع، وجمعت جميع العمال، وأصدرت حكمها بإعدام العاملين محمد مصطفى خميس "١٩ عامًا" ومحمد عبد الرحمن البقري "١٧ عامًا". تلاه إصدار قرارات من مجلس قيادة الثورة بإسناد مجلس عسكري يدير كل مصنع ومنع الإضرابات العمالية وتشكيل لجنة من عبد المنعم أمين رئيسًا، وعضوية سيد قطب لتطهير النقابات والمصانع من الشيوعيين والشبوعيين.

في الذكرى الثانية لإعدام خميس والبقري، لف فتح شوارع الإسكندرية بالدراجة يوزع منشور طليعة العمال، يذكر الناس بالحادث ويصف للمرة الأولى نظام يوليو بالفاشية العسكرية. ليعتقل فتح الله للمرة الأولى في عمر ١٧ عامًا. وفقدت أسرة فتح الله

الحكي عن كل تفصيلة تخص المدينة الساحلية. كل قصة تخص مصانعها وعمالها، وشوارعها ومقاهيها الشعبية. لصناعة الأفلام بعد سلطوي وتراتيبي مهما حاولت من مواجهته كما في المصانع، فكيف أستطيع إدارة فتح الله حكاء الطفولة أمام الكاميرا، كيف أوجهه وأخطط له. الأفضل لي أن أكتفي بدور الشركة الإنتاجي وأعيد التعرف علي فتح الله من خلال عيون زملائي، الشركة المؤسسة قسمت السيد هي المنتج الفني والباحث والصحفي مصطفى محيي سيقوم بالإعداد والبحث والمحاورة، وسيتولى زميلنا المخرج والسيناريست عمر خالد الإخراج.

سيبدأ عمر وباقي فريق التصوير رحلة المشي الطويلة مع فتح الله دون أي تأثيرات سابقة. تفتح الكاميرا داخل مصنع الغزل والنسيج، يتذكر معهم فتح الله الزميل عبد الرحيم عضو طليعة العمال في الأربعينيات، انبهر فتح الله المراهق بعبد الرحيم القادر على شرح علاقة الملك بالإنجليز بالحكومة بالدستور وربطها بعلاقة العمل بين صاحب المصنع وسلطته



في العاشرة من عمره انتقل فتح الله للعمل في حديد التسليح، وظل الحلم يراوده في أن يصبح يومًا عاملًا على "مكنة"، ماكينة بمكان مغلق ليس فيها أمتار وصقيع..

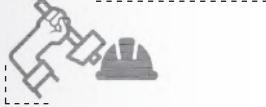
على العمال، كيف لعامل مثله يقف على الماكينة المجاورة، قليل التعليم مثله يعلم كل هذه المعلومات، عبد الرحيم أول من شرح له وجعله يحلم معه بـ "دولة العمال". لينضم فتح الله لطلبة العمال ويزامل هناك العامل عبد المقصود أبو زيد المشارك في أول إضراب عن الطعام للاعتراف بالثقبات العمالية في عام ١٩٣٩.

في ١٩٥٠ اشترك فتح الله للمرة الأولى وهو ابن الرابعة عشرة عام في إضراب احتجاجي للتضامن مع عمال الشركة العربية المفصولين، أجبرت الإدارة العمال على إعادة الماكينات للعمل، ودارت كل الماكينات ولكن فتح الله أصر على إغلاق مآكينته، فانطلق المصنع كله صفيحًا تضامنا مع القيادة العمالية الصغيرة التي ولدت في

تاريخ طويل من معاودة المشاغبة والرفض والتنظيم والفصل والاعتقال والنضال والحلم. وكلما قرر فتح الله الانصياع التام للأوامر، والانعزال عن العمل العام ومحاولة البحث في الشخصي، وجد نفسه من جديد يرتمي في العام على أمل أن يحل له كل أسئلته وهو جسده الشخصية، وكلما قرر أن يتعد عن المشاغبة، وجد أنه يتعد أكثر عن نفسه كما عرفها، وعن هويته عن تاريخه. فظل رافضاً ومشاعباً. فكيف يمكن لهذا المشاغب أن يستسلم لصناعة فيلم عنه.

تكشف لنا اللقطات الخام غير المنتجة للفيلم، أن فتح الله كان مطيعاً، ملتزماً بكل تعليمات عمر خالد مخرج الفيلم، يلتزم بالاتفاق على حركته عند نقطة بداية محددة ونقطة نهاية محددة. عن مدى

نظرة عينيه، عن توجيه وجهه تجاه لمبة الإضاءة بشكل مائل. بدا فتح الله مستسلماً ومستمتعاً. وفي عرض محدود بغرفة المونتاج للنسخة الأولية للفيلم حضر وبعض أصدقائه القدامى ورفاقه من أجيال مختلفة ليشهدوا النسخة. وانزعج رفاق فتح الله الأصغر سنًا منه والأكبر سنًا من



في السجن اكتشف وضع الطبقة العاملة أكثر فأكثر، وأن وضع السجن أفضل بكثير من وضع أغلب العمال خارج أسواره، فالطبقة العاملة غالبيتها شديدة الفقر..

مخرج العمل من مشهد النهاية، الذي يقول فيها فتح الله بأنه يشعر بأنه صار غريباً على هذا الزمن.. صار غريباً يبحث في وجوه العابرين في الشارع عن وجوه قديمة مألوقة فلا يجد. انزعج المشاهدون مما شعروا أنه مسحة اكتئابية أو انهزامية في حديث فتح الله الذي لم يعتادوا منه على ذلك، فليست تلك "حقيقة" فتح الله محروس، المناضل المثال. الذي لا يبأس، ولا يحزن، ولا يتوه. ليكشف لنا فتح الله أن ما ظنناه نحن استسلاماً في التصوير كان تمرداً جديداً ومشاعباً جديدة عن صورته النمطية في عيون من عاصروه، مشاعباً أخيرة قبل رحيله، يعبر فيها بحرية عن حزنه وعن وحدته الشخصية.

كل الدخل المالي، أم وأربعة اخوة، وأسرة تعاني الجوع. وفي السجن اكتشف وضع الطبقة العاملة أكثر، وأن وضع السجن أفضل بكثير من وضع معيشة أغلب العمال خارج أسواره، فالطبقة العاملة غالبيتها شديدة الفقر، وأدركت معها الدولة هذا الشعور بالراحة الذي تسرب لقلوب الفقراء في السجن، فذاق فتح الله وزملاؤه للمرة الأولى التعذيب الممنهج والإذلال والحرمان من الطعام والزيارات. وبعد سنتين خرج فتح الله في السجن، فصل من المصنع ومنع من العمل في غيره، فاضطر إلى العودة للعمالة غير المثبتة في وظائف أقل شأنًا وأكثر خطراً أثرت بشكل كبير على صحته.. فقرر الانسحاب والانضمام للتجنيد. ثم عاد بعد نهاية مدة تجنيده عاملاً في شركة النيل للغزل والنسيج، عاد بوعده جديد أن

يمنع نفسه هذه المرة عن السياسة وحقوق العمال، ولكنه لم يستطع أن يفي بوعده؛ ليشارك العمال في الاحتجاج على عمليات التخريب المتعمد من الإدارة للشركة وإهدار حقوق العمال، فنقل للقاهرة للتأديب، وهناك استدعي لحرب اليمن، وفي أثناء الحرب وبينما هو على الجبهة علم فتح الله بفصله من المصنع.

في السبعينيات، ومع ضرب الحرس القديم ومراكز القوى، نجح فتح الله في خوض معركة نقابية ليصبح عضواً بنقابة شركة سباهي للغزل، لكنه حوضر برجال الدولة الجديدة في النقابة، "كان مجلس النقابة مكون من ٣ مستقلين و٨ مباحث". وقرر فتح الله التصعيد خارج المصنع، وأسس حركة عمال الغزل والنسيج في الإسكندرية، ليُعتقل من جديد في ١٩٧٣، ثم خرج وظل عضواً فاعلاً في الحركة النقابية والعمالية والتنظيمات اليسارية في مصر حتى ما بعد ثورة يناير ٢٠١١، وصولاً لاشتراكه في تأسيس النقابات المستقلة.



في يوليو ١٩٥٢ شعر فتح الله وطلبة العمال، أنها حركة تغيير ضد الملك وضد الاستعمار وضد الفساد، وأصدروا بيانهم الأول، ولكنهم أنهوه بالتحذير من أن تتحول الحركة إلى حكم ديكتاتوري..

بروفائيات



نبيل الهالبي..

الماركسي ابن الباشا عدو طبقته

أحمد حسن

ضد طبقته الاجتماعية في إحدى كتاباته "في طفولتي رأيت أطفال شوارع يلحسون اللوح الزجاجي لمحل حلويات.. فقفز لذهني سؤال: لماذا يعاني هؤلاء وأسرتي غارقة في النعيم؟". وتوج هذا الحس الإنساني بتعرفه على الماركسية التي رأى فيها إجابة على تساؤلاته.

أخفي نبيل عن أبيه انتماءه السياسي ونشاطه كشيوعي، وكان يعمل في مكتب والده لعدة سنوات ثم تركه، لأنه كما ذكر (كان والدي وكيلًا للعديد من الشركات الأجنبية وكان أحد العمال قد أقام دعوى قضائية ضد شركته يطالب فيها بحقوقه، فكان علي أن أذهب للمحكمة للوقوف ضده، فرفضت ذلك تمامًا، مما دفعني لترك مكتب الوالد نهائيًا وترك المنزل كذلك بعد افتضاح نشاطي الشيوعي).

أحب نبيل الرفيقة فاطمة زكي، الطالبة بكلية العلوم، التي كانت مسؤولته في التنظيم، واقترن بها عام 1958. وقبل مرور 6 أشهر على اقترانهما قبض على نبيل ضمن حملة شنتها حكومة ناصر في يناير 1959 على الشيوعيين المصريين، واعتقلت زوجته بعده بثلاثة شهور. وحكم عليه بسبعة

الاسم: أحمد نبيل الهالبي، الميلاد: 7 أغسطس 1922، التعليم: حاصل على ليسانس الحقوق عام 1949. المهنة: محامي. أصله الاجتماعي: ابن لأحد كبار باشوات مصر في العهد الملكي (نجيب باشا الهالبي) الذي حمل عدة حقائب وزارية كان بينها وزارة المعارف، ثم تولى منصب رئيس وزراء مصر قبل الإطاحة بالملكية مباشرة، وكان والده أيضًا محاميًا وقانونيًا شهيرًا. وتعلم نبيل في مدارس أجنبية حتى تولى والده وزارة المعارف، الذي نقله إلى مدارس حكومية حتى أتم تعليمه الجامعي بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقًا)، وهناك بدأ الارتباط بالتنظيمات الماركسية التي كانت تموج بها الجامعة، وانضم إلى منظمة أيسكرا التي أصبحت أحد مكونات لاحقًا منظمة حدتو، وانضم بعد ذلك إلى منظمة الراية التي أصبحت أحد مكونات الحزب الشيوعي المصري لاحقًا.

بدأ الوعي الاجتماعي لنبيل يتفتح منذ صغره وهو يشاهد الفارق بين حياة البذخ والرفاهية التي تعيشها أسرته وحياة الفقراء والبسطاء من حولهم، وقد أشار إلى أحد تلك الملاحظات التي حركت وجدانه واستفزته

هائل فقبضت الأجهزة الأمنية على منظمي الإضراب وقادته وقدمتهم إلى المحكمة، وترافع الهلالي عنهم مستندا إلى اتفاقيات دولية صدقت عليها مصر تقر حق العمال في الإضراب، واعتبرها نسخاً ضمنياً لمواد التجريم في قانون العقوبات، وهو ما شكل الأساس الذي استندت إليه المحكمة في تبرئة جمع المتهمين وصاغت حكماً تاريخياً أقرت فيه بمشروعية الإضراب والحق فيه. غير أن النضال الحقوقي للهلالي لم يقتصر على القضايا العمالية، بل كان مكتبه ملاذاً عاماً للطلاب والمهنيين والفلاحين وغيرهم الذين يقعون تحت سيف السلطة بسبب مواقفهم المعارضة وآرائهم.

حقوقياً ثمة موقف إشكالي في نضال الهلالي لا يزال مثيراً للجدل حتى الآن، وهو ترافعه عن المتهمين من جماعات الإسلام السياسي، مبرراً ذلك بأن العمل الحقوقي لا يعرف التمييز بين متهم وآخر، وأن سيف القمع مسلط على جميع الرقاب، وأنه يجب الدفاع عن الإنسان "المجرد" وليس الإنسان "المصنّف"، وهو ما يعني أنه على المحامي خلع المتهم من انتماؤه



أتم نبيل الهلالي تعليمه الجامعي بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول، وهناك بدأ الارتباط بالتنظيمات الماركسية التي كانت تموج بها الجامعة، وانضم إلى منظمة أيسكرا التي أصبحت أحد مكونات لاحقاً منظمة حدتو..

وأيدولوجيته عند توليه الدفاع عنه. وهو موقف يختلف معه فيه عدد من المحامين المستقلين والاتجاهات السياسية. ومن بين تلك القضايا قضية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب، رئيس مجلس الشعب المصري آنذاك، في مايو 1993 والتي اتهم فيها عدد كبير من أعضاء تنظيم الجهاد الإسلامي. كان الهلالي هو المترافع الرئيسي عن المتهمين، واستمرت مرافعته ثلاثة أيام متتالية، واستطاع انتزاع البراءة لعدد كبير منهم، إذ استطاع تشكيك المحكمة في صحة الاتهام، وإثبات أن هناك من القرائن والأسباب ما يجعل اغتيال المحجوب من الممكن أن يكون

سنوات سجن وخرج في 1964 ليفتح مكتبه الشهير في باب اللوق الذي استمر به حتى وفاته. وفي العام التالي مباشرة قبض عليه وقضى 4 سنوات في السجن. وعلى خلفية انتفاضة الطلبة في 1972 قبض عليه مجدداً مع قيادات الطلبة الشيوعيين وصحفيين وكتاب وقيادات عمالية. وحدث في معتقل القلعة وقتذاك أن القيادات الطلابية كانت تذكر من داخل زنازينها كل متهم اسمه واسم محاميه الذي صادف أنه "نبيل الهلالي" عنهم جميعاً، حتى جاء الدور على زنازته ليفاجأوا أن محاميه "الهلالي" بداخلها محبوس معهم. سجن نبيل الهلالي للمرة الأخيرة حين القبض عليه وعلى آخرين بتهمة الانضمام إلى "الحزب الشيوعي المصري" وترافع فيها مرافعة شهيرة نشرت في كتاب تحت عنوان (دفاعاً عن حرية الفكر والعقيدة) لم ينكر فيها شيوعيته، وجمع في مرافعته بين الدفاع السياسي عن الحزب والدفاع القانوني عن المتهمين في القضية ساخراً من التهم المعبلة الجاهزة التي يستخدمها النظام مثل الخيانة والعمالة معتبراً إياها (نعوتاً سياسية جوفاء). وانتخب الهلالي عضواً في مجلس نقابة المحامين في الدورات المتتالية منذ عام 1968 حتى 1992، وكان ضمن كتيبة من المحامين المناضلين في لجنة الحريات بالنقابة حتى اعتبر تنظيم الإخوان أن إسقاط الهلالي في انتخابات مجلس النقابة مهمته الرئيسية في لحظة كان نجم التيار الإسلامي والإخوان في قمة قوته وصعوده.

عمل مكتب 5 شارع صدقي باب اللوق كأهم منظمة حقوقية قبل انتشار المنظمات الحقوقية دون كلل أو ملل وبالاعتماد على العوائد القليلة التي يحققها أحياناً من قضايا التعويضات التي يكسبها. واختار اتساقاً مع عقيدته السياسية التخصص في القضاء العمالي، وعلى مدى نصف قرن استطاع مكتبه الحصول على مئات الأحكام التي أعادت إلى العمال البسطاء حقوقهم، وقد أرسى العديد من المبادئ القانونية في هذا المجال، ولعل أهم مكسب استطاع الحصول عليه للطبقة العاملة المصرية هو انتزاعه لحق العمال في الإضراب، هذا الحق الذي كان مجرماً بنص المادة 124/أ عقوبات، في القضية المعروفة إعلامياً بإضراب سائقي السكة الحديد، إذ أعلنت "رابطة سائقي السكك الحديدية" الإضراب العام عن العمل في جميع خطوط القطارات فربضت عربات القطارات فوق القضبان عاجزة عن الحركة، وشدت حركة النقل والمواصلات في البلاد، وكان لها دوي

وهو الباحث الذي يتقصى المواد القانونية في نشأتها متتبعا نقاشات البرلمان حولها ومجمل الظروف الاجتماعية والتشريعية التي أحاطت بها منذ نشأتها، بما في ذلك تطور سياسات المشرع والتزامات الدولة التي تنص عليها الاتفاقيات الدولية وتغيير السياسات العامة للسلطة. وهو آخر المترافعين دائما؛ تاركاً المساحة مفتوحة تماماً لكل المحامين الزملاء والشباب ليترافعوا قبله. ومع ذلك تشعر أن جعبة الهلالي ليس فقط لا تفرغ، بل تحتوي على كل ما فات، أو ما لم يخطر على بال المحامين الآخرين، وكأنه يترك كل نقاط الدفاع الظاهرة أو التي يمكن استخلاصها ببساطة من ظاهر الأوراق ليفاجئ الجميع، بما ذلك قضاة المنصة، بنقاط لم يبحثها أو يتنبه إليها أحد.

اتسم الهلالي ببساطة العظماء فعلاً، دون استعراض أو تباه، سواء في تعامله مع العمال البسطاء الذين يلجؤون لمكتبه طلباً للعون القانوني، أو مع المحامين الصغار أو موظفو المحاكم، ولم يترفع عن الأعمال المكتبية الصغيرة قط، بما في ذلك - وهو الذي تخطى سن السبعين - مشقة الذهاب إلى المحاكم لتقديم أوراق أو سحب أوراق وكأنه محام صغير تحت التدريب. وبموت الهلالي فقدت الطبقة العاملة والحركة السياسية كتيبة

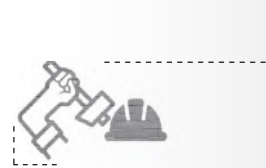
كاملة مزودة بأقوى العتاد، حتى أطلق عليه (قديس اليسار) لشدة إخلاصه وتجرده ونزاهته وتواضعه. وقد توفي الأستاذ أحمد نبيل الهلالي إثر عملية في القلب في 18 يونيو 2006.



اتسم ببساطة العظماء، دون استعراض أو تباه، سواء في تعامله مع العمال البسطاء الذين يلجؤون لمكتبه طلباً للعون القانوني، أو مع المحامين الصغار أو موظفو المحاكم، ولم يترفع عن الأعمال المكتبية الصغيرة قط..

مؤامرة دبرتها أجهزة الأمن نفسها. كما ترفع عن الدكتور عمر عبد الرحمن مؤسس تنظيم الجماعة الإسلامية وقائدها الروحي.

في اللحظة التي احتشد فيها كثيرون من اليسار خلف النظام في مواجهة الإرهاب الديني الممثل في الجامعات الإسلامية المسلحة، كان الهلالي موقف متفرداً ويغرد خارج السرب اليساري التقليدي، فعندما بدأت ظاهرة العنف المسلح من جانب بعض جماعات الإسلام السياسي في مصر رأى الآخرون أن التناقض مع السلطة قد أصبح ثانوياً، بل ينبغي من أجل مواجهة الإرهاب التحالف مع النظام القائم بشتى الصور، وقد تصدى لهم الهلالي كاشفاً أن للإرهاب جذوراً وبذوراً اقتصادية وسياسية تتمثل في الأساس في سياسات الدولة البوليسية وقمع الحريات وكذلك في ازدياد الفوارق الطبقة



وشيعوع الفساد الاقتصادي، وأنه ينهض لمواجهة تلك الظاهرة بالبحث عن أسبابها الحقيقية ومواجهتها ورفض أي تحالف سياسي مع نظام الحكم المسؤول بسياساته عن نمو وازدياد ظاهرة العنف في المجتمع، مستخلصاً أنه يوجد جناحان للإرهاب بسبب سياسات النظام، إرهاب السلطة الذي بدوره يولد إرهاب الجماعات، وأن كل منهما يغذي الآخر. وبغض النظر عن تلك النقطة، كان الهلالي يعادل كتيبة كاملة من الباحثين القانونيين والمحامين المترافعين في قضايا العمال وفي قضايا الحريات السياسية.

اتسم أسلوب الهلالي في المرافعات بسمات ميزته عن كل محامين جيله، فأمام منصة القضاء كان الهلالي يؤدي عدة أدوار؛ فهو الممثل البارع والكوميدي الساخر والخطيب المفوه، والمفارقة أنه لم يكن يرتجل مرافعاته، بل كان يكتبها ويؤديها بطريقة ساحرة لا تشعر أبداً أنها تقرأ من نص مكتوب،

اتسم أسلوب الهلالي في المرافعات بسمات ميزته عن كل محامين جيله، فأمام منصة القضاء كان الهلالي يؤدي عدة أدوار؛ فهو الممثل البارع والكوميدي الساخر والخطيب المفوه، والمفارقة أنه لم يكن يرتجل مرافعاته، بل كان يكتبها ويؤديها بطريقة ساحرة لا تشعر أبداً أنها تقرأ من نص مكتوب،

بروفائيات



فاطمة زكي..

مسيرة نضال من نارونور

إيمان عوف

بطرس غالي عميل الاحتلال، وهي أيضًا نبتة في أرض حركة النساء اللاتي كانت لهن مواقف واضحة وأكثر حماسة في التظاهرات التي اندلعت لإعادة دستور 1930، شاركت في الاحتجاجات التي اندلعت في مصر ضد تصريح "هور الاستعماري" وترسخ وعيها اليساري في فترة الخمسينيات.

استطاعت فاطمة زكي بالرغم من صغر سنها بأن تربط بين الفقر الذي كان يعانيه الشعب المصري بالاستعمار، وأمنت بأن جوهر الاستقلال الوطني لا يمكن أن يتحقق إلا بتحقيق الاستقلال الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. وفي عام 1942 التحقت بكلية العلوم، وكانت الكلية بؤرة للنشاط الثوري، وجذبتها فكرة العدالة وهي بعد شابة في مقتبل العمر، وكانت تعتقد أن جزيرة السعادة الفردية في محيط من تعاسة الجموع أمر مستحيل، وأن على المثقف واجب واحد وهو الدفاع عن بلاده، وإجلاء المحتلين، والإطاحة بالنظام الملكي، وإقامة الجمهورية، ونشر الديمقراطية، وضرب الإقطاع، وبناء المصانع، وتمكين الناس من العلم والثقافة، كانت هذه أحلام فاطمة زكي، التي سعت على 153

فاطمة زكي؛ ليست فقط زوجة المحامي اليساري نبيل الهلالي، ورفيقة دربه، وشريكة نضاله، بل هي مناضلة من طراز خاص، كأنها جاءت من عالم الأساطير التي نسمع عنها في كتب التاريخ، وأفلام الحرب ومناهضة الصهيونية والرأسمالية التي تبرز النساء ودورهن في الحياة السياسية، إنها المناضلة الماركسية فاطمة زكي.

ولدت فاطمة زكي في 21 ديسمبر 1921، بمنطقة جزيرة بدران بروض الفرج؛ المنطقة الأكثر شعبية في مصر، لأسرة متوسطة الحال، فوالدها كان مفتشًا بوزارة الزراعة، وكان لديها عشرة من الأخوة والأخوات، لكن والدها فارقه مبكرًا، فقامت والديها التي كانت تتميز بسعة الأفق والعلاقات الاجتماعية الطيبة باستكمال تربية الأبناء جميعًا بالتعليم العالي، بل وعرف عن الأسرة أنها كانت تعلم كل من يلتحق بالخدمة لديها حتى أعلى مراحل التعليم.

نما وعي فاطمة زكي في ظل ذكريات ثورة 1919، وظلت تذكر جيدًا أن جدتها لأمها كانت تفاخر بأنها هي التي أخضت عن عيون البوليس الشاب إبراهيم الورداني الذي اغتال

المنشورات وتنظيم اللقاءات السرية. عام 1949 انتقلت إلى الإسكندرية بتعليمات من التنظيم السري الذي كانت تنتمي إليه في هذه الفترة، وهناك عكفت على توعية عمال شركة "سباهي" وغيرها بحقوقهم، وهي تشير للجميع إلى طريق الخلاص الوحيد الذي تعرفه، وكان لها رؤية واضحة مخالفة أحياناً لتوجه تنظيمها آنذاك، إذ كانت ترى ضرورة تمصير الحركة الشيوعية، لتخلوا من الأجانب، كما رفعت شعار أن يكون قيادات التنظيم من العمال، وكان هذا سبباً في خلافات استمرت بينها وبين التنظيم السري لفترات طويلة، إذ أبت قياداته أن تكون فاطمة من اللجنة القيادية وقتها، واعتقلت فاطمة زكي وظلت في السجن نحو عام، وكانت المسؤولة عن مطبعة سرية.

ما الذي جعل فاطمة زكي وهي شابة في تلك السنوات تفضل دفع الأحلام الكبيرة على دفع عيش صغير، وتواجه السجن بشجاعة!

وعندما اندلع الكفاح المسلح في قناة السويس عام 1951 كانت وثيقة الصلة بتعبئة الممرضات وتقديم المساعدات والإسعاف وتدير الموارد للضدائين. وخلال العدوان الثلاثي على مصر تطوعت للدفاع المدني، وتلقت تدريباً في معسكرات الجيش بالقلعة. وفي عام 1959 ألقى القبض عليها، وظلت رهينة الحبس 4 سنوات كاملة، نظمت خلالها إضراباً عن الطعام من أجل تحسين أحوال المعتقلات، والإفراج عن الجميع. وكانت تلقت زوجها النبيل نبيل الهلالي كمحام مدافع عن الطلاب الذين يعتقلون في تلك الفترة، وكان يحاول التقرب إليها، لكنها كانت توجل كل ما يرتبط بحياتها العاطفية وكانت تقول دائماً "لدينا أولويات نضال ولا خلاص فردياً"، لكن أمام إصرار نبيل الهلالي الذي تقرب إلى الأسرة وقتها، وتعرف على والدتها، وتمت خطبة



استطاعت فاطمة زكي بالرغم من صغر سنها بأن تربط بين الفقر الذي كان يعانيه الشعب المصري بالاستعمار، وآمنت بأن جوهر الاستقلال الوطني لا يمكن أن يتحقق إلا بتحقيق الاستقلال والعدالة الاجتماعية..

مدار عمرها لتحقيقها، دون موارد، ودفعت ثمنها سنوات في السجن دون ندم، بل اقتنعت بأن السجن وسيلة المحتل ليستمر احتلاله. كانت فاطمة زكي مثلما كان يقول عنها رفيق دريها نبيل الهلالي امرأة أصلب من الحجر وأرق من ورقة شجر، واستطاعت بعد دخولها كلية العلوم جامعة القاهرة أن تكون ركناً أساساً في الحركة الطلابية آنذاك، حيث قادة الحركة الطلابية والتظاهرات التي اندلعت ضد الملك والاحتلال في العباسية والمناطق المجاورة، وكان ذلك سبباً في أن يختارها زملاؤها لتمثلهم في مجلس اتحاد كلية العلوم، حيث السيطرة التامة للإخوان المسلمين، وخاضت التجربة ونجحت، لتصبح أول فتاة تفوز بمقعد داخل مجلس الاتحاد في تاريخ الكلية.

تعتبر فاطمة زكي أحد أهم النسويات اللاتي مررن على مصر، وقد اقتنعت بأن العدالة الاجتماعية لا

يمكن أن تتحقق دون أن تكون قضايا النساء في مقدمة النضال على كل المستويات، فأصدرت مجلة "هي" عام 1946، وشاركت بقوة في الإعداد للانتخابات التي أثمرت فيما بعد عن "لجنة الطلبة والعمال" التي كان ظهورها حدثاً سياسياً ضخماً في تاريخ مصر.

في 2 سبتمبر 1947 شاركت في التظاهرات التي

استقبلت النقراشي، وقد حملها العمال هي وزميلاتها حكمت الغزالي وسعدية عثمان ولطيفة الزيات وآسيا النمر فوق مقاعد وهن يهتفن الجلاء بالدماء، في نفس العام 1947 أنهت فاطمة زكي تعليمها، وفي التظاهرات التي جرت في 21 فبراير 1948 ألقى القبض عليها في ميدان سليمان باشا، ودفعها رجال البوليس بالقوة إلى السيارة مع زميلاتها، وارتبكت الفتيات، لكن فاطمة زكي ما لبثت أن قفزت من السيارة إلى أرض الشارع واندفعت محتفية عن أعين البوليس، لتواصل كتابة الاحتجاجات على جدران الشوارع وتوزيع



فاطمة زكي في مظاهرة ضد النقرashi

التي خرج منها مظاهرات انتفاضة الخبز في فترة السبعينيات. كما عملت أمينة للمرأة في عابدين في إطار الاتحاد الاشتراكي، وكانت تجمع الأقمشة للفقراء، وأسست مع عدد من زميلاتهن دور حضانة للمرأة العاملة، حتى فتح منبر اليسار، الذي تحول فيما بعد إلى حزب التجمع.

في السبعينيات ألقى القبض على نبيل الهلالي ضمن مجموعة من الطلبة، ولم تنكسر فاطمة أو تلتين، بل كانت تلعب دوراً أساسياً في تهدئة الأهالي وتحريكهم للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين ومن بينهم زوجها، وكان لها دور فارق في انتفاضة الخبز والحرية في السبعينيات، فكانت مؤسسة حركة الأهالي التي قادت تحرك العمال في تلك الفترة، وكان لديها العديد من الخلافات في المواقف والرؤى مع حزب التجمع آنذاك، إذ رفضت بصورة واضحة التنسيق مع أي جهة أجنبية بها شبهة تمويل.

فاطمة ونبيل بعد تخرجها في كلية العلوم عام 1949، وظلت الزيجة مؤجلة بسبب انشغال فاطمة بمسيرتها السياسية لسنوات عديدة، وكذلك بسبب رفض والد نبيل الهلالي الباشا زواج ابنه الوحيد من فاطمة زكي ابنة الطبقة الوسطى، وهو سليل الباشوات، إلا

أن الزيجة تمت

بالرغم من كل

التحديات يوم

29 يوليو 1958،

لم يهنا العروسان

بالزفاف، فبعد

أقل من ستة

أشهر، بدأت حملة

اعتقالات واسعة

للسيوعيين،

واعتقل نبيل في

أول يناير 1959،

وأودع ليمان أبي

زعل، وفي مارس

1959، اعتقلت

فاطمة وأودعت

سجن النساء

بالقناطر، وتروي

فاطمة زكي

واقعة طريفة عن

ظروف الاعتقال

والاتصال بنبيل

"كنت موجودة في

أثناء الاعتقال

بعنبر المعتقلات

بالقصر العيني،

حيث أرسل لي نبيل

أحلى رسالة حب

عندما قام بحضر

أسمي واسمه على

(زلفة) تربطها



تعتبر فاطمة زكي أحد

أهم الرموز النسوية،

وقد اقتنعت بأن

العدالة الاجتماعية لا

يمكن أن تتحقق دون

أن تكون قضايا النساء

في مقدمة النضال،

فأصدرت مجلة "هي"

عام 1946..

سهام الحب، وألقاها أحد الحراس بجواري،

فقد كنا نتحايل للاتصال بأي طريقة، وما

زلت أحتفظ برسائله الغالية داخل إطار

من ذهب". وفي السجن تعرضت للضرب

المبرح فنظمت وزميلاتها إضراباً عن الطعام

وتحققت الاستجابة لبعض مطالبهن وأفرج

عنها 1963 لتتسافر إلى زوجها نبيل الهلالي في

منفى المحاريق بالوادي الجديد. ثم عادت

بعدها في منتصف الستينيات لتكمل عملها

كمدرسة لمادة العلوم في مدرسة السنية

الثانوية، واستطاعت أن تؤثر بصورة كبيرة

في فتيات المدرسة، وكانت من أشهر المدرسات



واسعة ودعاوى التفاوض المباشر بقيادة لطفي الخولي، انسحبت فاطمة من حزب التجمع لان التوجه السياسي للحزب أصبح لا يلائمها. وحتى وهي بعيدة عن التجمع ظلت تمارس أنشطة سياسية اشتباكا مع القضايا العمالية، وبينما كانت على فراش الموت قرأت في إحدى الصحف خبر تكريمها من أحد المنظمات النسوية التي تتلقى تمويلات أجنبية، فرفضت بشدة وطلبت من وداد متري أن تعيد الجائزة التي تسلمتها بالنيابة عنها، وأن تعلن عن رفض فاطمة زكي تلقي جوائز من جهات تمويل، وظلت هكذا قابضة على الجمر متمسكة بأرائها حتى وفاتها المنية عام 2005، ليلحق بها رفيق دربها نبيل الهلالي بعد عام واحد فقط.

لم يتوقف نشاط فاطمة زكي ولو للحظة واحدة، فأسست اتحاد النساء التقدمي بحزب التجمع، وأشرفت على طلائع التجمع مع ليلى الشال وثرثيا إبراهيم، وثرثيا أدهم. وفي عام 84 أصبح حزب التجمع ممثلاً لقوى مختلفة، لكن فاطمة اصطدمت بالتجمع لإصرار قيادته على لعب دور التوازنات وأصرت على أن يكون اتحاد النساء التقدمي منبراً مستقلاً نسبياً عن التجمع، فوضعت في اللائحة التنظيمية بند عدم اشتراط عضوية المرأة لحزب التجمع لكي تكون عضوة في الاتحاد، وتبنت حملات عديدة مثل حق الجنسية لأبناء المتزوجة بغير مصري، وحق المرأة في الترقى مثل الرجل، وشجعت النساء على المنافسة في الانتخابات، وأجبرت الحزب على أن يكون هناك حد أدنى من النساء في القائمة



الانتخابية،
بواقع امرأة فئات
وامرأة عمال، وكان
الاتحاد النسائي
جاهزاً بالمشاركة
في كل القوائم
على مستوى
الجمهورية، كما
بدأت في تشجيع
باقي الأحزاب
والمؤسسات على
تشكيل تكويناتهم
النسائية، فحثت
أمل محمود على
إنشاء الجناح
النسائي في الحزب
الناصرى، وفي
حزب العمل أنشأت
هناك شوقي جناحاً
نسائياً، حتى أصبح
الاعتراف بالاتحاد
النسائي دولياً، فأصبح عضو في الاتحاد
النسائي الديمقراطي العالمي، وعضو الاتحاد
النسائي العربي.

كونت فاطمة زكي أشكالاً جبهوية مثل المرأة والأسرة والتي كانت تستضيفها لجنة التضامن "الأفرو آسيوي"، وأسست لجنة المرأة باتحاد المحامين العرب، وعندما بدأ التجمع في أواخر الثمانينيات في سياسات مهادنة بدأت بالقرار الأردني الفلسطيني، ثم ظهر الحزب الناصري على الساحة وانسحب الناصريون من التجمع، وبدأت عملية فرز

بروفائيلات



فوزي محمددين..

قبضة العامل وقلب الفلاح

هيثم محمددين (*)

ولم أكن أعرف ساعتها أنني سأستغرق أكثر من عشر سنوات للحصول على تفسير لهذا المشهد عندما كنت أفتش في مكتبة فوزي بعد وفاته، كل ما عرفته أنني لما كبرت شوية مكنتش بشوف أبويا كثير، كنت بسمع من امي إن أبويا في المصنع. ذات يوم وليلة بعد ذلك المشهد بوقت قصير، فوجئت بناس كثير بتيجي بيتنا تبارك لستي وتمشي، ولاحظت حركة غريبة في البيت وفي الناحية، سيتي كانت تبل شربات كثير في حلل كبيرة، وقرابيبي فتحوا ديوان العيلة نضفوه وفرشوه، والمغربية لقيت العيلة وأهالي البلد متجمعين في الديوان وقاموا كلهم خرجوا مع بعض ومشوا على زراعية بلدنا (مدخل البلد من طريق القاهرة أسبوط الزراعي الشرقي) طلعلنا لحد الطريق ولقيت زفة بالمزمار والطبل البلدي وشوية جه اتوبيس مصنع الحديد والصلب وعمي اللي سايق، هو أصلا سواق في الصلب، نزل فوزي وعدد كبير من العمال وشالوا أبويا ونزلنا بالزفة على الزراعية ولقينا البلد، سمعت الناس بتبارك لبعض وبيقولوا فوزي نجح في النقابة، بقى لنا ظهر في النقابة، مكنتش

أذكر في سن السابعة مشهداً لم يفارقني حتى اللحظة. انتزعنا من نومنا فجأة في صيف ١٩٨٩ على صوت كسر باب البيت، خرجنا وجدتي للدهليز فوجدنا قوات كبيرة من رجاله بقمصان وبناطيل وعساكر كتير لابسه اسود وشايلين بنادق، واخذوا أبويا حافي وخرجوا وسط دھولنا جميعا.

بيتنا القديم، في أحد القرى التابعة لمركز الصف بالجيزة، بيت من طابق واحد مبني بالطوب الأحمر المصنوع من الطمي، سقفه من الخشب والبوص، يهبط عن مستوى الشارع درجتي سلم، بابه من الخشب في شكل دلفتين يغلق بترباس حديدي صغير كترياس شباك منور، له أربعة شبابيك خشب تفتح على شارعين، مكون من أربعة غرف، ودهليز (صاله)، سلم من الحجر أسفله فرن بلدي ستي وأمي بيخبزوا فيه العيش وبتلم جنبه وقت الأكل، وحمام، غرفة يسكنها أبويا "فوزي محمددين" وأمي، وغرفة يسكنها عمي وزوجته، وغرفة تسكنها جدتي ونحن وأولاد عمي، وغرفة الكنب (الضيوف).

لم أفهم في هذا السن، لماذا أخذوا والدي إلى السجن، كما لم يخبرني أحد وقتها،

الكوك، عمال الصلب، وهكذا.
بعد الفطار كان فيه مؤتمر، والعمال بيطلعوا يتكلموا ورا بعض، وشوفت لأول مرة مصطفى عبد الغفار القيادي بمصنع الحريز، وصلاح الانصاري القيادي بالصلب، ومحمد الضلع وغيرهم كثير. سمعتهم يتكلموا عن الأجور والأرباح، والإضراب والنقابات، والقانون وغيره، ويومها سمعت لأول مرة هتافات العمال "سامع صوت الممكن الداير.. بيقول بس كفاية مذلة.. نفس الصوت اللي في حلوان بيقول شدي الحيل يا محلة" كان ترديد آلاف العمال للهتاف شئ مبهر. في الوقت ده بدأت أفهم ان فوزي وزمايله بيعملوا حاجة عشان يزودوا المرتب والأرباح وعشان كده الحكومة بتأخذهم، أنا كمان بدأت ارتبط بمرتب ابويا عشان لما كنت اطلب فلوس "المجموعة" يقولي لما اقبض، عمري ما انسى فرحتي بالعيدية اللي كانت بريزة نحاس بتلمع كانت أول مرة تظهر وقتها اظن كان سنة ٩٢. وفي وقتها عشان انجح في المدرسة كان لازم ادخل مجموعة في كل المواد، مكنتش أقدر اطلب فلوس اكر، فلما لقيت بيدوا دروس تقوية في الجامع اللي عند بيتنا روحت وبقيت اخذ درس في الرياضيات والعربي والانجليزي والجغرافيا وغيرها. ارتبطت بدروس الجامع العلمية وكمان الدينية، اظن لقيت نفسي مع مجموعة منظمة ليها شيخ.
وبدأت انتظم في ما يسمى "حلقة" لحفظ القرآن والحديث، واقف بعلبة بلح على أول ساحة صلاة عيد الفطر اوزعه على المصلين مع كرت معايدة من الإخوان المسلمين.
فوزي لاحظ ارتباطي بالدروس الدينية رغم أنه شيوعي لم يتدخل لمنعي مباشرة من حضورها، ربما حاول ربطني بفكره بأن كان يأخذني الى لقاءات عمالية، ولم أنس قط أنه وجدني أمام الجامع معي كتاب "الحياة في الاسلام" فأخذه مني وقلب صفحاته ثم أعاده لي مرة أخرى وسألني مين مؤلف هذا الكتاب؟، قلبت الجلدة والصفحات الأولى ولم اجده، وكان تعليقه "مش لما تقرأ حاجة تعرف مين اللي كاتبها يا طروبش". كنت طروبش فعلا، لكن كنت شايف ان اللي بيعمله فوزي صح وان الكلام اللي سمعته من العمال صح رغم ان "حلقة الدين" ماكنش فيها مناقشة الكلام ده، وكان غريب بالنسبة لي ليه مكنش حد في "الحلقة" كان بيتكلم زي العمال! كانت الحاجة الوحيدة اللي ليها علاقة بالعيشة هي توزيع "شنطة رمضان" على الفقرا، ده كان نشاطنا الوحيد نوزع بلح لافطار المصلين في

فاهم هما بيتكلموا عن ايه أصلا، كنت فرحان زي الناس ولأني شايف ابويا متشال وكل ده عشانه، كنت فرحان وسط العيال أنه ده ابويا. لما رجعنا الديوان لقيت ابويا صوته مبوح وتقريبا مكنتش فاهم كلامه. تفتوت أيام قليلة، لقيت عربية ملاكي قديمة نزل منها راجل ضيف دخل قعد مع ابويا وقعدت جنبهم أعمالهم شاي، سمعت الراجل ده بيقول لابويا يا فوزي سيبك من العيال بتوع اليسار بتوع وجه بحري دول وتعالى نشكل النقابة أنا وانت من الصف والبدرشين وانت تمسك ريس وانا النائب بتاعك "وعلي الطلاق هتبقى مليونير يا فوزي يا محمدين"، فاكركويس ان فوزي طرده من البيت، عرفت بعد كده ان دي كانت خناقة تشكيل مجلس نقابة الحديد والصلب بعد ما اليسار فاز بأغلبية المقاعد بسبب دور القيادات



العملية في اعتصام أغسطس ٨٩، وان الدولة كانت عايزة تخرب هذا الانتصار بأي طريقة. تفتوت الايام واعرف أن الراجل ده اسمه صلاح هيكل وأنه من نقابيين الدولة اللي واقفين مع الإدارة بل ومع الأمن ضد العمال، وبالمناسبة صلاح هيكل بقى مليونير فعلا، وهو كان عامل في قطاع الخرقة في مصنع الصلب.
ابويا ماكنش مهتم بيانا ودايما غايب عن البيت، لكن كان مصمم اننا نتعلم وكل مرة كان يشوفنا كان يسألنا عن الدروس ويتابع درجاتنا في المدرسة، لما دخلت المدرسة الإعدادية بدأت أفهم هو فوزي بيعمل ايه، لما اخدني معاه افطار العمال في نادي غرب حلوان في رمضان..

كان مصمم اننا نتعلم وكل مرة كان يشوفنا كان يسألنا عن الدروس ويتابع درجاتنا في المدرسة، لما دخلت المدرسة الإعدادية بدأت أفهم هو فوزي بيعمل ايه، لما اخدني معاه افطار العمال في نادي غرب حلوان في رمضان، كان بالنسبة لي صالة النادي اللي فيها ترايبيزات طويلة وكراسي كتير شئ مبهر، انا متعود على جو القرية اللي عايش فيها، لفت نظري أن كل مجموعة من الترايبيزات عليها ورقة مكتوب عليها عمال المحلة، عمال شبرا، عمال الحريز، عمال إسكندرية، عمال

المقاومة العمالية لهذا القانون. كان من ضمن اسباب فشل الحكومة في تمرير هذا القانون الكارثي وجود قيادات عمالية يسارية مناضلة وقفت ضده. كان لليسار وجود وتأثير داخل الطبقة العاملة المصرية، وقد كانت حلوان غنية بالعشرات من القيادات العمالية اليسارية، عشرات القيادات العمالية اليسارية كانت تقود مئات الألوف من العمال في مصانع الحديد والصلب والكوك للكيماويات والمعادن والحريير والمطروقات والمصانع الحربية.

تلك كانت أول علاقة لي بأفكار اليسار، علاقة توطدت عندما مررت بمعرض طلابي ينظمه الطلاب الاشتراكيين في جامعة القاهرة بمناسبة الانتفاضة الفلسطينية، ووجدت ضمنه لوحيتين عن انتقادات الاشتراكيين لمشروع قانون العمل الموحد ومخاطر هذا القانون على العمال وأسرهم. فوزي كان يدرك بشكل فطري تركيبة عمال مصانع حلوان، كان يغلب على عمال حلوان آنذاك ما يمكن تسميته "نصف عامل نصف فلاح"، حيث كانت الغالبية الساحقة من عمال مصانع حلوان تأتي من مراكز جنوب الجيزة (الصف، اطفح، الحوامدية، البدرشين، العياط) بالإضافة إلى عمال من بني سويف والفيوم. ولإدراكه لهذه الخصوصية، كانت المناسبات الاجتماعية لهؤلاء العمال محل اهتمام فوزي محمدين، ربما كان يدرك انه كقيادي عمالي ونقابي عندما يقوم بدوره في المصنع إنما يقف إلى جانب "نصف العامل" لذلك كان دائم الحضور لافراح ومعازي ومناسبات العمال للوقوف إلى جانب "النصف فلاح"، الفلاح لا يثق الا فيمن يقف إلى جواره في فرحه وحزنه، كما كان لتنقلاته هذه أثرها على ارتباطه بالعمال، تقريبا لا توجد سيارة وردية لأي بلد أو مدينة لم يستقل مع عمالها اتوبيس المصنع، من شبرا وامبابية شمالا وحتى العياط جنوبا، لذلك لم يكن من المستغرب يكسب فوزي ثقة العمال في المصنع وخارجه.

(*) نشر هذا المقال في موقع (بالأحمر) عام 2017.

العيد، ونودي شنطة رمضان للأرامل الفقراء في البلد، كنت شايف ان بيتنا يستحق شنطة رمضان كنت عارف اننا مش بناخد لسبيين الأول إن في ناس أفقر منا والسبب الثاني إن أهلي هيرفضوا لأنه ده عيب. على أية حال ابويا كان بيحبيلنا شنطة الوجبة كل شهر من المصنع، كانت عبارة عن سكر وزيت ورز وحلاوة طحينية وسمنة وشاي. عرفت بعد كده ان الوجبة الجافة دي كانت إحدى مكاسب اعتصام عمال الصلب البطولي في ٨٩، وكانت الوجبة بتوفرلنا جزء أساسي من غذاء الأسرة طوال الشهر، لقد كانت مكسب لو تعلمون عظيم. انتقلت لمرحلة الدراسة الثانوية، وكان فوزي قد أصابه المرض، كان في حاجة إلى علاج بأسعار مرتفعة كانت شركة الحديد والصلب تسدد فواتير العلاج من التامين الصحي، في يوم وليلة فوجئ فوزي محمدين بإحالة ملفه الوظيفي للكيميائي الطبي لإخراجه على المعاش المرضي، كان علاج فوزي في التامين الصحي للدولة بمثابة قرار بالاعدام، أذكر أنه في عز المرض والتعب قرر أن يذهب بنفسه إلى المصنع لمواجهة هذا القرار وعلمت أنه هدد بالاعتصام داخل مقر إدارة الشركة، تراجعوا عن القرار ولكن فوزي لم يعيش طويلا وتوفي بعدها بشهور، في يوليو ٩٩، حزنتم لفراقه فقد كان سندا لكل أفراد العائلة ولأسرتنا ولزملاء العمل، حزنتم أيضا أن رفاقه من تنظيمات اليسار لم يزورونا أثناء مرضه إلا نادرا ولم يزورونا ولا مرة بعد وفاته تقريبا ولا مرة، وتلك واحدة من مشاكل بعض اليساريين الذي يتعاملون مع بعضهم البعض كماكينات نضال! توفي فوزي محمدين ولم يتركنا للمجهول، وعلى حد قول ستي احنا عايشين من خير ابوك وهو عايش وهو ميت، ترك لنا معاشه ومكافأة نهاية الخدمة التي بنينا بها بيت جديد! كانت بالنسبة لي مكتبة فوزي الصغيرة نقطة تحول، ضمن ما وجدته في مكتبته كتيب "ملحمة عمال الصلب" الذي كتبه مع عدد من القيادات العمالية اليسارية منهم صلاح الانصاري، عبدالرشيد هلال، محمد الضلع، كمال عباس، يوسف عبد الحليم وغيرهم، كنت قد التحقت بكلية الحقوق، في نفس سنة وفاته ولفت نظري "ملزمة" مكتوب على غلافها "قانون العمل الموحد .. قانون تشريد العمال"، كانت "الملزمة" تستعرض مخاطر قانون العمل ١٢ لسنة ٢٠٠٣ الذي كان وقتها مجرد مشروع قانون، وفشلت الحكومة في تمريره من عام ١٩٩٠ حتى ٢٠٠٣ بسبب

بروفائيلات



مصطفى عبد الغفار..

درة تاج الحركة العمالية المصرية

صلاح الأنصاري

يعرف الخوف أبداً.. حتى تظن أنه صخري، ربما بسبب تكوينه الصعيدي، وربما لأن فكره مرتب ومنظم، وقضيته دائماً هي الحرية. ومع ذلك كان من السهل إيلاء قلبه، ومن السهل أن تفيض دموعه. وكم بكى إزاء المذابح التي يرتكبها العدو الصهيوني، أو عندما سقطت بغداد. كما كان شديد الصلابة كالجرانيت الصخري، فلم ندرك ما يعانيه من آلام المرض.

فقد كان دائماً قادراً على كتمان ما يعانيه من عذاب المرض، وكتمان انفعالاته، بل وأحياناً إظهار عكسها.

وعندما كان هذا التاريخ الحي يسير خلفه لوداعه، لم يكن يودع فيه مرحلة من تاريخ الحركة العمالية المصرية، بل كان يمجّد فيه هذه المرحلة التي لم تمت برحيله، لكنها سوف تبقى حية متجددة بذكره وذكرى نضاله. إن مصطفى عبد الغفار، بما يمثله في تاريخنا، وما كان يتمناه لمستقبلنا، لن يكون ماضياً أبداً.. بل هو حاضر في حاضرنا، ومشارك في رسم المستقبل.

والحديث عن مصطفى عبد الغفار هو في الحقيقة حديث عن مرحلة من أغنى المراحل

في حفل تأبين المناضل الراحل مصطفى عبد الغفار الذي نظّمته دار الخدمات النقابية في نادي شركة مصر حلوان، أقيمت كلمة بعنوان «يا مصطفى.. أنا بحبك يا مصطفى»، ومرّت السنين.. ولا تزال في قلوبنا يا مصطفى.

في يوم 5 سبتمبر 2003 لم يشيع العمال والنقابيون ونشطاء وقيادات دار الخدمات النقابية وحدهم جنازة مصطفى عبد الغفار، بل كان هناك جيل كامل يسير في موكب مهيب. كان هناك عمال ونقابيون، وكان هناك رجال فكر وكتاب وصحفيون، ومناضلون سياسيون، ونشطاء في حركة المجتمع المدني. ما أكثر ما دمعت العيون لفراقه وتفجرت كانت ذكريات ربع قرن ويزيد.. كم من مرة اجتمعوا في تظاهرات سياسية، أو في ساحة معتقل، أو في تنظيم سياسي أو نقابي، أو في كتابة منشور ثوري، أو في ندوة أو جلسة تدريبية، أو في لجنة استماع، أو في جدال فكري، أو تحليل نقدي، أو إضراب، أو حركة تضامن مع الانتفاضة الفلسطينية، أو المقاومة العراقية!

على مدى حياته كان مصطفى عبد الغفار بينهم، شديد الصلابة، لا يخشى شيئاً، ولا

مش بين دا ودا.. هو احنا كدا
وحنبقى كدا

مصطفى عبد الغفار درة غالية ومشركة في
تاريخ الحركة العمالية المصرية. ونموذج
أصيل للمناضل العمالي الذي لا يفصل بين
فكره وحياته.. وبين آرائه ومواقفه وسلوكه،
متسق مع نفسه.. يجعل من رأيه معركة
حية، لا يتهم من يختلف معهم أو يختلفوا
معه.. لا يصنف البشر، ولم تعرف فكرة
المؤامرة طريقاً إلى سلوكه.. واضح كالشمس..
شخصية جامعة، لا تفرق، لذلك التفت حوله
كل ألوان الطيف السياسي. حتى في رحيله
نجح في تجميعنا وكأنه يقول:

أه يا رفاق ياللي

علمتوا الصلابة

للحجر

بانده لكم وسط

الكأبة والرتابة

والضجر

يا مقربين الفجر

توره ومطلعه

مدوا المسامع ف

المجامع واسمعوا

صرخة مغني الحي

من جوف العدم

اتجمعوا..

اتجمعوا.. اتجمعوا

عاش مصطفى

عبد الغفار حياة

عظيمة من أجل

أهداف عظيمة،

من أجل تحقيق

الديموقراطية

والحرية كأوسع

وأرحب ما

تكون الحريات.. من أجل تحقيق العدالة

الاجتماعية كأعمق وأشمل ما تكون هذه

العدالة.

وأخيراً، استقرت سفينة المناضل مصطفى

عبد الغفار، وتوقف المجتهد مبكراً..

ليتسلمه أحد الرفاق.. ظل الموت دائماً هو

الحقيقة، وثمر الرحلة والطريق.. وظلت

حياته دائماً هي الحب والصراع والمقاومة

المستمرة حتى النهاية.. فمن رأى نفسه،

فهو قطعة منا.. ولذلك وجب الاستمرار في

رحلة الحب والبناء والصراع.. والمقامة من

أجل وطن ترفرف عليه رايات الحرية.



طوال حياته كان

مصطفى عبد الغفار

شديد الصلابة، لا

يخشى شيئاً ولا

يعرف الخوف أبداً،

ربما بسبب تكوينه

الصعيدي، وربما لأن

فكره مرتب ومنظم،

وقضيته دائماً هي

الحرية..

في تاريخ مصر، على الرغم من تعقيداتها،
والتغيرات التي حدثت فيها.. مرحلة طرحت
مناضلين مثل مصطفى عبد الغفار.. وقد
صاغت هذه المرحلة ملامح حياته، كما شارك
هو في صياغة ملامحها، فلم يتوقع أحد أن
يكون رحيله على هذا النحو، حتى هو نفسه..
لكنها إرادة الله ولا راد لمشيئته.

بدأ مصطفى معي حياته النقابية في
عام 1979؛ هو في شركة الحرير، وأنا في
شركة الحديد والصلب.. وعمل مع نقابيين
ومناضلين نعز بهم، ونذكر منهم على سبيل
المثال رشاد الجبالي وسيد فايد.. وكان
مسلحاً للحياة النقابية بأكثر من سلاح؛
مسلحاً بتاريخ الطبقة العاملة والحركة
العمالية والجذور التاريخية لنضال عمال
النسيج، مؤمناً بالطبقة العاملة وبرسالتها
ودورها التاريخي، كان يجمع بين الثقافة
السياسية والنقابية، ولم يكن يدري أنه يبدأ
مرحلة سياسية جديدة تعمل وتناضل من
أجل إحياء وبعث الفكر الاشتراكي، وتعمل
وتناضل من أجل قواعد نقابية صحيحة..
مرحلة ثورية جديدة، تختلف تماماً عن
مرحلة الأربعينيات من حيث ظروفها
ومعطياتها وأهدافها.. لكنها استلهمت
الجذور والقذوة من مناضلين أمثال يوسف
درويش ويوسف المدرك ونبيل الهاللي
ومحمود العسكري، وطه سعد عثمان وعطية
الصيرفي، وغيرهم من الرواد الذين اختاروا
العمل بين صفوف العمال، وبين الذين جمعوا
بين العمل السياسي والنقابي.. ومثلما نَفخر
بجيل الرواد، نجد أنه من حقنا أيضاً أن
نَفخر بقيادات جيل السبعينيات وشهداء
الطبقة العاملة من هذا الجيل.. من حقنا أن
نَفخر بمصطفى عبد الغفار، إحدى العلامات
المضيئة والبارزة في تاريخ الحركة العمالية
في فترة السبعينيات واليوم وغداً.

ومثلما وجدناه فارساً نقابياً، وقائداً عمالياً،
وسياسياً مناضلاً، شديد الكبرياء، شديد
الانتماء إلى العروبة، نجده شديد النقاء..
شديد العشق لأشعار أحمد فؤاد نجم، وفؤاد
حداد، وصلاح عبد الصبور، ومحمود درويش،
 وغيرهم. وعندما تتردد أشعار أحمد فؤاد
نجم في أي محفل يرتفع صوته الجهوري
مرددًا أغاني الشيخ أمام التي يحفظها
ويستمتع بترديدها:

حنغني ودايمًا حنغني.. ونبشر بالخير ونمني
ونلف الدنيا الدوارة.. على صوت النغمة

الهدارة

هو احنا كده.. وحنبقى كدا.. ماشيين

عارفين.. مع مين.. على مين.. دايمًا واضحين

بروفائيات



أحمد شرف الدين..

القائد اليساري المدافع عن العمال

سمير شرف الدين - محمد عبد السلام

المرحلة، ونهل الفكر الاشتراكي من مصادره الأصلية، وتبنى بعدها الفكر الماركسي منهجاً للتفكير، وطريقاً للتغيير. وبعد دخول الجامعة، وتأسيس أسرة «الفجر» بكلية الحقوق، بدأ يكتب الكثير من المقالات لمجلات روز اليوسف، والطليعة وغيرها.

عندما اختار الالتحاق بصوف «الحزب الشيوعي المصري 8 يناير» الذي حمل اسم الحزب الموحد للحركة الشيوعية المصرية التي جرت أواخر عام 1958، وإيماناً بدور قادة هذا التنظيم الوليد في تصويتهم برفض حل الحزب الذي جرى التصويت عليه في معتقل الواحات أوائل عام 1964، وسميت هذه المجموعة الصغيرة من رافضى الحل بمجموعة «النواة».

شغل أحمد شرف موقعا قياديا بهذا الحزب، وتبنى رؤيته السياسة، وخطه السياسي الذي رأى أن السلطة الحاكمة هي سلطة (البرجوازية البيروقراطية)، وكتب رداً على القائلين (بحل الحزب) دراسته المهمة عن: التحريضية هي الخطر الرئيسي داخل الحركة الشيوعية. ورد فيها على القائلين بنظرية (النمو اللارأسمالي)، وعدم ضرورة الحزب.. وغيرها من المقولات التحريضية التي سادت حركة اليسار المصري وقتها، وسلمها (من خمسة مقالات) لأحد المسؤولين بمجلة الطليعة، لكن الظروف حالت دون نشرها.

في شهر نوفمبر تحل الذكرى الخامسة عشرة لرحيل المناضل أحمد شرف الدين. الاسم الكامل: أحمد محمد شرف الدين، محامي العمال والفلاحين، وذلك تمييزاً له عن مناضل آخر يحمل الاسم نفس، وكثيراً ما جرى الخلط بين الشخصين من قبل جهات الأمن.

ولد أحمد شرف في (عزبة أولاد علام) أحد الأحياء الشعبية في قلب الدقي بمحافظة الجيزة، وكان هذا المكان تجمعاً لكل أبناء الصعيد والريف الوافدين للعمل والإقامة في القاهرة وضواحيها، ومع نمو حركة العمران، واستبدال المنطقة الزراعية المحيطة بها بالعمارات الشاهقة والفلل للصفوة والقادرين، اعتبروا أن بقاء أولاد علام «سُبة» في جيبين الدقي، وجرت المحاولات العديدة لإزالتها، وكانت معركة التصدي لهذا التفكير البرجوازي المعادي لمصالح الفقراء والبسطاء وسكان المنطقة، همًا ملازمًا لأحمد شرف، فحشد له إمكاناته الفكرية والسياسية في تنظيم الأهالي للدفاع عن مساكنهم، وتواصل هذا الجهد طيلة حياته منذ كان طالباً في كلية الحقوق بجامعة القاهرة حتى وفاته، ونجح في إبقاء هذا المكان حتى الآن، واستقرت أوضاعه وأصبح اسمه (أولاد علام) بعد استبعاد كلمة «عزبة».

التحق أحمد شرف بمنظمة الشباب الاشتراكي فور دخوله مدرسة السعيدية الثانوية، وعرف أولى خطوات الفكر الاشتراكي، لكنه سريعاً ما تخطى هذه

العماليين، اهتم بقضية فلاحى سراندو بالبحيرة، وزارهم أكثر من مرة بقريرتهم، بالرغم من الحصار الذي كان مفروضاً عليهم، وترافع عن الفلاحين المتهمين بالشغب والاستيلاء على أرض الغير، ومقاومة السلطات، وحصل لهم جميعاً على البراءة بمشاركة زملاء المركز وقتها الأساتذة: أحمد كامل، ماجدة فتحي وغيرهم.

وبعد أن أسس أحمد شرف مجلة «صوت العامل» غير الدورية، وشارك في تحريرها الكثير من قادة وشيوخ الحركة النقابية والعمالية، لتصدر بقروش المؤسسين البسيطة 9 أعداد خلال الفترة من فبراير 1985 حتى أغسطس 1989، توقفت بعد القبض على بعض محرريها بعد أحداث شركة الحديد والصلب، واتهامهم بتحرير العمال على

الإضراب!

كما أصدرت «كراسات صوت العامل» وحمل الكراس الأول عنوان: الحركة النقابية العمالية.. المأزق والحل. وصدر العدد الثاني في أثناء القبض على عمال السكة الحديد تحت عنوان: كفاح عمال السكة الحديد في ثمانين عاماً، بمشاركة زملاء من هيئة التحرير ومن بينهم أحمد شرف الدين. وبعد توقف المجلة عن الصدور أصدر مركز العدالة كتاب: عمال بلا حماية.. رأسمالية بلا قيود.. نقد مشروع



شارك أحمد شرف في تأسيس لجنة التنسيقية للحقوق والحريات النقابية والعمالية التي استضافها مركز هشام مبارك للقانون لسنوات، وكان يحضر اجتماعها الشهري الكثير من القيادات العمالية من مختلف المحافظات..

قانون العمل الجديد.

وقد شارك أحمد شرف في تأسيس اللجنة التنسيقية للحقوق والحريات النقابية والعمالية التي استضافها مركز هشام مبارك للقانون عدة سنوات، وكان يحضر اجتماعها الشهري الكثير من القيادات العمالية من مختلف المحافظات، لتداول أخبار النقابات والحركة العمالية في المواقع المختلفة، ووضع برامج التثقيف لرفع وعي قيادات الحركة العمالية، ووضع خطط المستقبل. وكانت اللجنة تعقد مؤتمراً سنوياً في نقابة الصحفيين لتكريم قادة الحركة، ولدراسة بعض المشكلات والتحديات التي تواجهها، واستمرت هذه المؤتمرات على مدار خمسة أعوام، شاركنا فيها أحمد حتى رحل عن دنيانا في عام 2006، وواصل رفاهه العمل باللجنة حتى ثورة يناير 2011 المجيدة.

شغف أحمد شرف بالفلسفة والاقتصاد كأحد أقسام الاشتراكية العلمية، وتخصص فيها في (مدرسة الكادر) داخل الحزب. ولم يقتصر اهتمام أحمد شرف على ذلك فقط، بل انغمس في دراسة قانون العمل وقانون المنظمات النقابية العمالية، حتى صار واحداً من أبرز المدافعين عن حقوق العمال، وقد نشرت له مجلة الطليعة في عدد أغسطس 1976 دراسة نقدية لقانون المنظمات النقابية العمالية رقم 35/1976 الصادر قبلها بقليل.

كما اهتم بتقديم رؤية نقدية شاملة لمشروع قانون العمل قبل صدوره بالقانون 12/2003، وذلك من خلال اللجنة القومية للدفاع عن حقوق العمال التي أسسها مركز العدالة بالتعاون مع أحزاب اليسار المصري الموجودة وقتها، فضلاً عن العديد من القادة النقابيين العماليين من مختلف المواقع والمصانع على امتداد الوطن، وظلت اللجنة تتناول نسخ مشروع القانون المتتالية بالنقض وتقديم البديل لعشر سنوات كاملة حتى صدرت النسخة الأخيرة، وعقدت اللجنة اجتماعاتها بالتناوب بين الأحزاب المشاركة (كان من المشاركين قيادة عمالية رائعة تنتمي للطليعة الوفدية)، فكانت الاجتماعات والمؤتمرات الدورية تعقد في أحزاب التجمع والناصري والوفد وغيرها..

في مارس 2003 وفي أثناء مناقشة مشروع القانون بالبرلمان، تجمع العديد من المشاركين في اللجنة أمام البرلمان في وقفة احتجاجية وطلبوا مقابلة رئيس البرلمان، وسمح لعدد بالدخول، وعرضوا ورقة أحمد شرف النقدية مع المواد البديلة عليه بحضور نحو 15 نائباً من المتعاضدين مع اللجنة والداعمين لها.. ونجحت المساعي (بتحسين) بعض المواد بالقانون من أهمها استحداث المادة (119) من القانون والتي أعطت للعامل المستقبل الحق في الرجوع عن استقالته خلال أسبوع من إخطاره بقبولها، وذلك لإبطال الاستقالات المسبقة التي يفرضها أصحاب الأعمال وتقدم مع أوراق التعيين.

ونجح أحمد شرف في صفوف هيئة دفاع عمال السكة الحديد بعد إضرابهم الشهير في أغسطس 1986، ونجح في التشاور مع الأستاذ نبيل الهاللي في طرح قضية (مشروعية حق الإضراب) بعد توقيع مصر على العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الصادر عن الأمم المتحدة عام 1966، وبالفعل حكمت المحكمة ببراءة جميع العمال.

سبق ذلك إعداد مؤتمر موسع للتضامن مع العمال في نقابة المحامين، وتخصيص عدد من مجلة «صوت العامل» غير الدورية لشرح القضية ومطالب العمال المشروعة والتضامن معهم، بعد أن زارهم أحمد شرف في محبسهم، وطمأنهم على سير القضية.

أهتم مركز العدالة لحقوق الإنسان (غير الممول) الذي أسسه أحمد شرف مع نخبة مخلصه من أبناء الطبقة العاملة من المحامين والمتقنين والقادة

بروفائيات



سيد فتحي..

ابن العامل الذي ورث نبيل الهاللي

إيمان عوف

وبقية عمال شركة إسكو من شبرا الخيمة إلى مقر النقابة العامة للغزل والنسيج بالمحلة ليتفاوضوا كي يحصلوا على حقوقهم المهذرة دائماً.

التحق سيد فتحي بمدرسة إسكو الابتدائية، يحوطه أبناء العمال في كل مكان، لم يكن طالباً عادياً، بل كان مشاعباً متفوقاً منذ بدايته، ففي الصف الرابع الابتدائي رفض سيد الوجبة المدرسية التي كانت تقدم من قبل إدارة المدرسة بصورة سيئة، فقرر أن يحرض زملاءه بأن يرفضوا، وأن يلصقوا مثلثات الجبنة غير الصالحة للاستخدام الآدمي على السبورة، وبالفعل نجحت أولى معاركه، واستجابة إدارة المدرسة وحسنت من الوجبة وطريقة تقديمها. اهتم سيد منذ كان طالباً في الإعدادية بالقراءة والكتابة والاطلاع، فكان دائماً يجمع أوراق الصحف ويقرأها، ويجري مسابقات مع أقرانه في الفصل حول معلومة هنا أو هناك، حتى ذاع صيته بين أقرانه، ولقبوه "بسيد المثقف".

فور دخوله الثانوية العامة حدث التحول الأكبر في حياته، إذ التقى بمدرس التاريخ اليساري المعروف في شبرا الخيمة الأستاذ عبدالحكيم،

في مساكن العمال بمنطقة "إسكو" حيث مصنع الغزل والنسيج والصوف وشونة القطن تحتل أكثر من ثلثي المساحة، ومساكن العمال تحيطها، تحمل غبار الصوف وصوت الممكن، تشبعت أرضها بزيت الصيانة، ولد سيد فتحي في عام 1968، وكغالبية أبناء العمال، كان يعيش في أسرة مكونة من ثلاثة أخوات وأب عامل بشركة إسكو للغزل والنسيج، وأم كل همها أن يتعلم أبنائها، وأن يربح زوجها الحاج فتحي والد سيد الدعوى التي أقامها على الشركة ليحصلوا على فرق الإجازات، التي بنوا عليها أحلامهم في أن يشتري سيد وأشقائه ملابس جديدة، وأن يشتروا قطعة أرض قريبة من الشركة يبنون عليها منزلاً، وأن يسددوا ما عليهم، من خير عمل والده.

في المناطق العمالية تروى حكايات المصانع التي تحدث نهاراً بالليل على المقاهي، وفي البيوت على المصاطب التي تتخذها النسوة مكاناً يجتمعن فيه وحولهم أبنائهم، بينما العمال يتناقشون في أمورهم على مقاه دائماً ما حملت اسم الشركة الأكبر في المنطقة.

بين حكايات الأمهات وقضايا الآباء العمال كبر سيد فتحي، وتعلم جيداً معنى أن يسافر أبوه



سيد فتحي في جزيرة القرصاية

الأولى في حياته وهو طالب في الصف الثاني الثانوي، بسبب قيامه بتوزيع منشورات معارضة لمبارك، وعندما خرج حاول ضباط أمن الدولة لي ذراعه، بالضغط على والده لكي يقبل أن يصبح ابنه مرشداً في أوساط العمال الذين التفتوا حوله بالرغم من صغر سنه، فأبى والده وقال بحسم "إذا فعلها سأقتله".

التقى سيد فتحي بمجموعة من محامين وقيادات اليسار، واقترب منهم وشرب من طباعهم مثل القيادي النقابي طه سعد عثمان، ويوسف درويش، والنبيل نبيل الهاللي، وصابر بركات، ومحمد

عوف، والمهندس سعيد أبو طالب، والدكتور ماجدة عدلي، ومنى مينا، وأحمد الصياد، فكان بالنسبة لهم جميعاً ابناً طالماً حلموا بأن يكون



بين حكايات الأمهات وقضايا الآباء العمال، تعلم سيد فتحي معنى أن يسافر أبوه وبقيّة عمال شركة إسكو من شبرا الخيمة إلى مقر النقابة العامة للغزل والنسيج بالمحلة ليتفاوضوا على حقوقهم المهدرة..

وبدأ يحضر لقاءات وندوات كان يعقدها حزب التجمع في شبرا الخيمة، والتقى وقتها بعدد من القيادات النقابية والعمالية، كان بالنسبة لهم شاباً صغيراً متحمساً، لكن مع الوقت تحول هذا الشاب الطالب في الثانوية العامة إلى قائد، وركن أساسي في كل الفعاليات التي تحدث في شبرا الخيمة في فترة الثمانينيات والتسعينيات، قاد حملة انتخابية كاملة لمجلس الشعب للمهندس اليساري والقيادي العمالي صابر بركات، ولف أرجاء شبرا الخيمة، ليقنع الأهالي بضرورة أن ينتخبوا أحد غير أعضاء الحزب الوطني، وأن يختاروا من بين قيادات العمال ليعبروا عنهم، كان يمكنك أن تسمع صوته الجهوري في ميكروفون بعربة متواضعة، وهو يلف حواراً شبرا الخيمة، غير مهتم بما يمكن أن يحدث له من أعضاء الحزب الوطني وقتها وهم من كبار عائلات شبرا الخيمة، وكان يمكنك أن تسمع "انتخبوا المناضل صابر بركات.. انتخبوا خير من يمثل العمال.. انتخبوا من يعبر عنكم.. ارفضوا الحزب الوطني". كان هذا الصوت هو صوت سيد فتحي الذي خرج عليه أجيال من أبناء العمال فيما بعد، فتحول سيد فتحي إلى قيادة سياسية استطاع أن يجمع خلفه العشرات من طلاب الثانوية العامة، والعمال من الشركات المحيطة.

لم يمر الأمر مرور الكرام، فاعتقل سيد للمرة

والصلب وغيرهم من العمال الذين بكوا بعد رحيله دموعاً تضاهاى نضاله من أجلهم. مات الهاللي وكتب وصيته "أترك تاريخي ومكتبي لسيد فتحي الابن الذي لم أنجبه"، وبالفعل سار فتحي على الدرب نفسه وأسس مع تلامذة الهاللي "مؤسسة الهاللي للحريات"؛ التي تحولت إلى ملتقى الرافضين للظلم والطامحين للحرية والعدالة الاجتماعية، استطاع سيد فتحي أن يتعلم الدرس ويعيه جيداً من أستاذه نبيل الهاللي، فدافع عن الإسلاميين في قضية طابا الشهيرة، كما دافع عن العمال دون تفرقة أو انحياز، سوى لدولة قانون يحكمها العدل وليس الظلم، كما دافع عن أهالي جزيرة القرصاية غير منتظر لمكافأة أو أتعاب، سوى أن يرى انتصاراً ولو جزئياً لفقراء الجزيرة وأصحابها، وانضم أيضاً لكتيبة الدفاع عن عمال المحلة، وعن الصحفيين وأصحاب الرأي في القضايا التي أقيمت ضدهم في عهد مبارك.

انضم سيد فتحي خلال حياته للعديد من الأحزاب السياسية والتنظيمات السرية؛ وكان من بينها الحزب الشيوعي المصري، ثم سرعان ما انفصل عنه مع قيادات اليسار، أمثال نبيل الهاللي، ويوسف درويش، وعدد كبير من القيادات العمالية لينشئوا حزب الشعب الاشتراكي، وبعد ثورة يناير كان أحد مؤسسي حزب التحالف الشعبي الاشتراكي.

كان لسيد فتحي دور فارق في ثورة يناير، حيث فتح باب مؤسسة الهاللي - إرثه - الذي طالما تفاخر به للجميع. ثم تولى سيد فتحي المطالبة بحق الشهداء الجندي، وكريستي، وجيكا، وكل قضايا الرأي والحريات وشهداء الثورة، وكان المحامي الأهم في قضية محاكمة مبارك، فعرفته المحاكمة قويا وصلباً لا يلين في الدفاع عن الثورة، وعن تحقيق أحلام الملايين الذين نزلوا للشارع حاملين بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية، لكن لم يكتب لسيد وجيله أن ينتصروا فبرأت المحكمة مبارك وأعوانه، وتولى الإخوان الحكم، وكان آخر ما فعله السيد فتحي هو التوقيع على عريضة تمرد الرافضة لحكم الإخوان، ليموت تلميذ نبيل الهاللي يوم 16 مايو 2013، في عز الاشتباك، وفي عز العمر، تاركاً خلفه تاريخاً من النبل والجسارة من الصعب أن يتكرر.

أبناءؤهم مثله، تعلم سيد الكثير من أساتذة المحامين في شبرا الخيمة وخارجها. قرر أن يلتحق بكلية الحقوق جامعة عين شمس، وبالرغم من أن مجموعته كان يؤهله لكليات القمة، فإنه اختار المحاماة طريقاً، فور دخوله الجامعة وبالرغم من عدم انقطاعه ولو لحظّة واحدة عن قضايا عمال شبرا الخيمة تحول سيد فتحي إلى كتلة من النشاط الطلابي، فقاد الانتفاضة الفلسطينية الأولى 87/86 والتي أطلق عليها في مصر بعد ذلك «انتفاضة الكرايس»، ثم اعتقل فضاعت السنة الأولى من امتحانات كلية الحقوق جامعة عين شمس، التي كان يقول عنها سيد "محبوبي".

عشق فتحي القانون الذي انحاز إلى الفقراء، فأسس دار الخدمات النقابية والعمالية بشبرا الخيمة، لكي «يلضم» عمله السياسي في الجامعة بالعمل

مع العمال والفقراء والمهمشين، لكن نظام مبارك كان يترصده، وفور وقوع حرب الخليج في مطلع التسعينيات شن نظام مبارك حملة طالت عشرات النشاطاء، فكان سيد فتحي الطالب الوحيد مع ما يزيد على 10 قيادات عمالية أخرى في زنزانة واحدة، جلجل فيها صوته بأغاني الشيخ إمام ومارسيل خليفة، سبقها اعتقاله عقب معارك عمال

الحديد والصلب في نهاية الثمانينيات، وغيرها الكثير من مرات الاعتقال التي زادت فتحي قوة وصلابة وعمقا وحباً للفقراء.

بعد العديد من الاعتقالات والتهديدات الأمنية التي طالت محامي العمال سيد فتحي، تخرج في كلية الحقوق جامعة عين شمس، فتابناه قديس اليسار نبيل الهاللي الذي لم يرزق بابن، واعتبره ابنه الوحيد، وعلمه

العمل الحقوقي والسياسي، فأسس مع الراحل مركز هشام مبارك كأول مركز دفاعي حقوقي في مصر، وفي بداية عام 2000 لعب دوراً بارزاً في الدفاع عن حقوق العمال، فكان رئيس لجنة الدفاع عن عمال شركة مصر لغزل المحلة وعمال إسكو للغزل والنسيج، وعمال الحديد



اعتقل للمرة الأولى وهو طالب في الصف الثاني الثانوي، بسبب توزيع منشورات، وعندما خرج حاولوا الضغط على والده ليقبل أن يصبح ابنه مرشداً في أوساط العمال، فقال "إذا فعلها سأقتله"..

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع

شجيه وراقص..

بليغ حمدي مجرباً

أحمد عبد الحميد عمر ●

فنون



شجبي وراقص.. بليغ حمدي مجرباً

● أحمد عبد الحميد عمر

حمدي حرفياً، وزخرفياً لا يُبارى. يحفّزك عبد الوهاب على التفكير في الكيفية التي فكر بها هو في اللحن، وتردد حائراً "جابهها إزاي دي؟"، في حين أن الجمل اللحنية لبليغ حمدي تأسرك، وتضعك بيسر بالغ في الحالة، فتطرب، فرحاً أو حزناً (والطرب للمفارقة من ألفاظ الأضداد في العربية)، كأن مشاعرك قد لفت عقلك بضباب الانفعال. كان عبد الوهاب أيضاً أكثر تجريباً وجرأة. يحكي مفيد فوزي أنه كان يردد عن أعماله أنها حصاد "دي" مشيراً إلى أذنه؛ أي أنه كان يسمع كثيراً، ويجرب كثيراً، محاولاً الوصول إلى صيغة شرقية أو مصرية مقبولة لما التقطته أذنه من موسيقى حول العالم. في المقابل كانت ألحان بليغ جميلة، ومهيبة للمشاعر إن جاز لي القول، لكنها أقل تجريباً.

في جلساتنا الخاصة التي لا تخلو من الغناء، أو للدقة يكون عمادها الغناء، وتخلل "الوصلات" نقاشات موسيقية، تثار دوماً مسألة المقارنة بين ألحان عبد الوهاب وألحان بليغ حمدي. يُطرح هذا الموضوع عادة حين نغني لحناً لأم كلثوم، ويسأل أحدنا عن واضعه، فيكون عبد الوهاب وقد ظنناه بليغاً أو العكس. نتفق بسهولة حول أن ألحان عبد الوهاب لأم كلثوم كانت "بليغية" السميت؛ بمعنى أنها كانت أكثر ميلاً للخفة التي لم يكن عبد الوهاب، موسيقار الأجيال ومعلمها، من كبار أنصارها. وعند هذا المنعطف، يبدأ السجال حول مواطن الاختلافات بين ألحان الرجلين، بعيداً عن الأغنيات المتأخرة لأم كلثوم. نكاد نتفق على أن عبد الوهاب أشبه بمفكر موسيقي، ومعماري، في حين كان بليغ



يُجمع كل الذين عرفوا بليغ حمدي عليه أنه كان إنساناً رقيقاً، وأن أَلحانه كانت تشبهه: صادقة وشجيرة. فيه قصة حياة بليغ اتساق واضح بين المنتج الفني والأحداث الواقعية، ذلك النزوع الواضح إله الميلودراما؛ إله وفرة التفاصيل العاطفية..

الموجي "أثقلهم" بالمعنيين الإيجابي والسلبي، وأقلهم تنوعاً بزياراته المتكررة لمقامات الحجاز، والحجاز كار، والهزام المتقاربة (لنتذكر على سبيل المثال "أسمر يا أسمراني" لعبد الحليم حافظ، و"ياماً القمر على الباب"، و"يا تمر حنة" لفايزة أحمد، و"للصبر حدود"، و"أسأل روحك" لأم كلثوم). أما بليغ فكان أصدقهم عاطفة وأشدهم وشجنا .

يكاد يجمع كل الذين عرفوا بليغ حمدي على أنه كان إنساناً رقيقاً، وأن أَلحانه كانت تشبهه: صادقة وشجيرة. في قصة حياة بليغ اتساق واضح بين المنتج الفني والأحداث الواقعية، ذلك النزوع الواضح إلى الميلودراما؛ إلى وفرة التفاصيل العاطفية. بخلاف صوت كمال الطويل الأجنس الواثق من نفسه، وصوت الموجي المكتوم كمن يخفي شيئاً، كان بليغ في حضوره الإذاعي والتلفزيوني ناعماً أسياناً، كمن يغني باكياً أو يبكي مغنياً. ويظهر ذلك بوضوح في الفيديوهات

لم تكن مجرد مجاملة من مطرب ذكي أن يطري عبد الحليم حافظ، بليغ حمدي، ملحن "مداح القمر"، قبل أن يغني الأول لحن الثاني للمرة الأولى أمام الجمهور عام ١٩٧١، بوصفه "أمل مصر في الموسيقى". بل إن عبد الحليم كرر الوصف مرتين، مرة في بداية تقديمه للأغنية ومرة في نهايته؛ بما يعني أنه كان يقصد الأمر قصداً. صحيح أن عبد الحليم، المطرب الحريص على نجاحه، كان يُقدم أحياناً على مثل هذا النوع من اللفتات اللطيفة، وهو الحريص أيضاً على تثبيت صورته لدى الجماهير بوصفه رجلاً رقيقاً مجاملاً، على نحو مسرف أحياناً، لكن من حقنا أن نفترض أن شيئاً ما واقعياً كان وراء المقولة؛ شيئاً ما أكبر وأهم من المجاملة واللفظ.

أي أمل كان يأمله عبد الحليم في بليغ حمدي؟ وأي أمل كانت تأمله الموسيقى في مصر؟ ربما تجدر بنا العودة إلى جذور بليغ الموسيقية؛ لأن بصيرتنا بما وصل إليه تتحدد بالضرورة بالرجوع إلى النقطة التي بدأ منها. خرج جيل الملحنين، الذي صعد مع عبد الحليم، وبه، من عباءة محمد فوزي. هذا أمر لم ينكره أي من الثلاثة: كمال الطويل، ومحمد الموجي، وبليغ حمدي، ويكاد يكون من المعلوم من الموسيقى المصرية بالضرورة. مد كل منهم خط فوزي على استقامته؛ ذلك المزيج من التطريب، والخفة، والانفتاح على الأشكال الغربية، والأهم ذلك البعد عن استعراض العضلات الصوتية والمقامية. غير أن كلا منهم فعل ذلك بثلاث طرق مختلفة. كان كمال الطويل أشدهم ميلاً إلى البساطة في اللحن، وأقلهم ميلاً إلى التطريب في صيغته الشرقية، في حين كان



بليغ حمدي مع عبد الحليم حافظ



**نكاد نتفق علمه أن عبد الوهاب أشبه
بمفكر موسيقي، ومعماري، فيه حين
كان بليغ حمدي حرفياً، وزخرفياً لا يُبارى.
يحفزك عبد الوهاب علمه التفكير فيه
الكيفية التي فكر بها هو فيه للحن،
وتردد حائراً "جابه إزاي ديه؟!"**

ليست مصادفة إذن أن يشيع استخدام بليغ حمدي لمقام "البيات"، مقارنة بأي ملحن سواه، وهو مقام شجي راقص في الوقت نفسه، ومصري جداً، لا بد أن يستهل به قارئ القرآن تجويده، ويختم به كذلك، وهو المقام المعتمد للترانيم الكنسية. لنتذكر لبليغ ألحان "بعيد عنك" لأم كلثوم، و"بلاش

المنتشرة التي "يحفظ" فيها ألقانه لوردة، مثل "العيون السود"، حيث الفارق الواضح بين أداء وردة المحايد المعتدل، وإحساس بليغ الفيّاض.

الأمر المتصل بهذا السياق أن مواليد الثمانينيات أمثالي ربما يغلب عليهم الظن أن الأغاني العاطفية الوطنية لعل الحجار وإيمان البحر درويش وآخرين كانت ابتكاراً محضاً من هؤلاء، لكنها في الحقيقة كانت امتداداً طبيعياً لإسهام بليغ في هذا المضمار: إضفاء صبغة من الشجن على الأغنية الوطنية، بعيداً عن الصيغ الحماسية الخطابية التي سادت في الخمسينيات والستينيات، كما في نموذج الأشهر "يا حبيبي يا مصر" لشادية. ولم تكن قط مصادفة أن تتحول تلك الأغنية، من بين كل الأغاني الوطنية، إلى ما يشبه الأغنية الرسمية لمنصات ميدان التحرير إبان ثورة يناير المغدورة. ربما كان هذا الفائض الانفعالي لدى بليغ، وامتلاكه لكاريزما عاطفية مميزة، هو ما أغرى الروائي طلال فيصل بالكتابة عنه من بين ملحنى ذلك الجيل، فكتب سيرة روائية غيّرية بعنوان (بليغ)، مَرَجَ فيها التوثيق بالخيال.

تفارق"، و"بودعك"، و"أنا عالربابة باغني" لوردة، و"قولوا لعين الشمس" لشادية، و"أنا بعشقلك" لميادة الحناوي، و"حاول تفنكرني"، و"مداح القمر" لعبد الحليم حافظ، وهذه مجرد أمثلة. وإذا فارق بليغ مقام البيات فألى "الکرد"، وهو نظير البيات باختلاف واحد، هو تحويل النوتة الثانية في المقام من نغمة ربع تون شرقية (نصف بي مول) إلى نغمة (بي مول)، وهي لعبة كان يجيدها بليغ؛ أن يدخل المستمع في حالة من الشجن مع مقام البيات، مخففاً إيها مع الكرد، ليجعل العودة إلى البيات محمّلة بشجن مضاعف. حتى حينما كان القالب غريباً بوضوح كما في "تخونوه" التي لحنها من مقام "النهاوند"، والتي سيطر عليها "الجاز"، طريقة في العزف أو طريقة في التفكير الموسيقي، لم يستطع بليغ أن يترك نفسه للقالب، ولحن مستهل الكوبليه الثالث "قلبي اللي مهما يشوف منكم عايش بيكم/ ويبعدوه الناس عنكم برضه شاريككم" من مقام البيات، وإن عاد سريعاً جداً إلى النهاوند.

راهننت نفسي قبل كتابة هذا المقال أنني لن أعرش في أي من حلقات (غواص في بحر النغم) للراحل العظيم عمار الشريعي على تحليل لأي من أغنيات بليغ حمدي. استمعت للكثير من تلك الحلقات، في نسختها الإذاعية والتلفزيونية، وأذكر - أحياناً بالجملة وبإيقاع الكلام - الشرح والتحليل الذي كان يقدمه الشريعي لأغنيات من تلحين محمد عبد الوهاب، والسنباطي، وكمال الطويل، والرحابنة، وآخرين. لكن ذاكرتي لم تسعفني بشيء شبيه يخص بليغ حمدي. الافتراض الأولي هو أن الشريعي، جالساً على مقعد الناقد والمؤرخ الموسيقي، لم يجد في ألحان بليغ الكثير مما يستحق الوقوف من منظور دوره في التطور الموسيقي؛ بعد بحث سريع على الإنترنت، وجدت تحليله لأغنية لم تصمد طويلاً أمام الزمن لنجاة، من كلمات مأمون الشناوي، بعنوان "راجع يتسأل". الدال في الأمر أن عمار الشريعي فضل القول طويلاً حول براعة الشناوي في الصياغة، وحول مهارة العازفين. وعند الحديث عن اللحن، اكتفى بطرح تقسيم نظري لألحان بليغ إلى مرحلتين (وأنا أقتبس كلامه بنصه مع تعديلات بسيط في الصياغة والترتيب): "ما قبل التعليم! القسم الفطري، قسم الموهبة، حين كان يعتمد على ما بداخله من موهبة، ويا لها من موهبة! امتازت هذه المرحلة بقصر المقدمات "مكانش بيرغي" في المقدمة"، جملة كانت بسيطة شاعرية، يسهل ترديدها، تخلو من "الفذلكة"، ومن استعراض العضلات، ومحاولات إبراز القوة. في المرحلة الثانية، وتبدأ منذ منتصف الستينيات تقريباً، مزج الموهبة بالعلم، وصار مسؤولاً أكثر عن الشكل النهائي الذي ينفذ به عمله، لكنه خسر جزءاً من فطريته الجميلة".

وأظن - وليسامحني الله على سوء الظن - أن عمار الشريعي لو أطلق لسانه دون تحفظ، لقال عن المرحلة الثانية، مستخدماً لغة "الألانية"، إن بليغ كان "بينحت" فيها، في تعبير عن غزارة الإنتاج دون كثير عمق أو حرص على الإدهاش. أحد مشاهدي الحلقة على اليوتيوب التقط بذلك التحفظ في لغة عمار الشريعي، فعلق كاتباً: "رأيه ببليغ كتير مش

لطيف".

هذا المقال ليس محاولة لنفي أي من المقولات السابقة، على ما فيها من تبسيط مخل بالطبع، لكنه محاولة لتعديل الصورة قليلاً، بالحديث عن بليغ في نسخته التجريبية؛ تلك النسخة التي لو قدر لها الاكتمال، بأن أمهله القدر أكثر، أو كان تركيز بليغ حمدي نفسه في الأمر أكثر، أو بالأمرين معاً.. أقول لو حدث ذلك لربما كان بليغ تجسيداً فعلياً لما ارتجاه فيه عبد الحليم من أمل. كان الأمر بالنسبة لي أشبه بتجميع قطع بازل متفرقة، لا تؤدي بالضرورة إلى تكوين صورة متسقة ذات ملامح محددة، لكنها كافية في نظري لإثبات المطلوب.

كان لحن "معود" من أوائل الألحان التي حاولت تعلم عزفها على آلة الأورج. الأغنية من مقام النهاوند، مع كثير من التحويلات المقامية بما يتناسب بالطبع مع تعدد الكوبليات وطولها. واحدة من المفاجآت الحقيقية بالنسبة لي كان الكوبليه الثاني: "وأبتدا المشوار/ وآه يا خوفي/ من آخر المشوار يا خوفي"، وتكمن المفاجأة في أنه ملحن من مقام "الراست"، وهو "أثقل" المقامات الشرقية، إن صحت المقارنة بين المقامات على أساس معيار كهذا، لأنه يضم نغمتي ربع تون (نصف بي مول)، هما الثالثة والسابعة. "الراست" هو المقام الذي لحن منه سيد مكاوي مطلع "يا مسهرني" مثلاً، ولحن منه بليغ نفسه مطلع "الحب كله"، على ما فيهما من طربية واضحة. لكن "الراست" في التيمة اللحنية السابقة على الكوبليه بدا مختلفاً: أسرع وأخف كثيراً، إلى الدرجة



ليست مصادفة أن يشيع استخدام

بليغ حمدي لمقام "البيات"، مقارنة بأي

ملحن سواه، وهو مقام شجبي راقص

فيه الوقت نفسه، ومصري جداً، لا بد أن

يستهل به قارئ القرآن تجويده، ويختتم

به كذلك، وهو المقام المعتمد للترانيم

الكنسية..

التي لا يبدو فيها للسامع للوهلة أنه فعلاً مقام "الراست". ولم تكن تلك المرة الوحيدة التي يفعل فيها بليغ ذلك. في أغنية ميادة الحناوي "مش عوايدك"، لحن بليغ الكوبليه الرابع والأخير "ياه عالي كان بينك وبينني والزمن أخده ورماه/ عالي ضاع منا يا عيني ونسيناه في بحر الحياة" من مقام الراست أيضاً، مسبقاً بتيمة لحنية تتسم بسرعة وخفة مشابهيته.

"تغريب المقام" - من الغرابة لا الغرب - أمر متكرر لدى بليغ حمدي، وهو نتيجة ممكنة دوماً لفكرة أن المقام ليس

وعلى ذكر الكورال، رأى بليغ في الكورال بطلاً يستحق أن يفني جملة الخاصة بعيداً عن جمل المطرب نفسه. فعل ذلك على استحياء مع عبد الحليم حافظ، وتوسّع فيه مع شادية، خاصة في أغنية "خلاص مسافر". الفارق الجوهري أن المقاطع التي غناها الكورال في "مداح القمر" و"حاول تفكرني" مثلاً كان من الممكن نظرياً أن يغنيها عبد الحليم بمفرده دون حاجة إلى الكورال، ودون أن تختل درامية الأغنية، لكن في حالة شادية، كان الكورال ينطق بصوت الحبيب الذي يعتزم السفر، في حين تقمصت شادية دور الحبيبة المودعة. لكن المشهد الأكثر تجريباً للكورال في أحيان بليغ حمدي كان في أغنية "بودعك" لوردة، حيث تبدأ التيمة اللحنية للكوبليه الأخير بالكورال وهو يؤدي الإيقاع بالصوت البشري: تؤدي المجموعة الرجالية صوت "الدم"، وتؤدي المجموعة النسائية صوت "التك"، ثم يتكرر الإيقاع وسط غابة من صاجات الرقّ مصاحبة للحن راقص، ويتواصل الصوت البشري الرجالي حتى نهاية التيمة اللحنية، بالوقوف على قرار المقام أكثر من مرة. ومن باب الدقة، ونسبة الفضل لأهله، نذكر القارئ فقط أن محمد فوزي كان أول من جرب تلك اللعبة- وهذا تجلٍ لمد خط فوزي على استقامته عند بليغ- حين استخدم الكورال ليكون بديلاً للآلات الموسيقية في أغنية "طمني". لكن بليغ يفاجئنا باستخدام الكورال كآلة إيقاع! هو المشهد الأكثر تجريباً، لكنه يظل- مثل كثير من ابتكارات بليغ الموسيقية- مستقلاً عن بنية كلية؛ فهذا الصخب الذي نسمعه عبر مزيج من الأصوات البشرية وغير البشرية ممتعٌ كلعبة أسلوية، لكنها تظل "لعبة" منفصلة عن جو الأغنية ككل؛ تفصيلاً مبهجة ناتئة في أغنية تقيض بمشاعر تعكس قصة انفصال محزنة، مثل قصة انفصال وردة وبليغ. وربما يذكرني هذا بمقولة نسبت لعبد الوهاب، ولم أفصح في العثور على توثيق لها، وهي أن جمل بليغ اللحنية مثل "مجوهرات في علبه صفيح".

ربما كانت السطور السابقة مفيدة للقراء الذين يحبون أن يفهموا المزيد عن أعمال بليغ، أو ينظروا إليها نظرة كلية. لكن لعلها تكون كذلك تذكيراً للمبدعين على اختلاف المجالات التي يبدعون فيها بضرورة إحداث التوازن بين الوفرة والجودة، وبأن التجريب ليس ممكناً فحسب بوصفه استجابةً لخاطرة تمر سريعاً ببال المبدع، بل تكمن قيمته بالأساس في الطريقة التي يوظف بها داخل أبنية متماسكة؛ فجوهر التطور الفني ابتكار قوالب وأشكال جديدة، تصح بعد حين، من منظور تاريخ الفن الممتد، القوالب والأشكال التقليدية المعتمدة، التي يسعى فنانون جدد بدورهم إلى التجريب وتجاوزها لاحقاً

قالبا تجريديا من تتابع النغمات، بل هو تجسيدات ذهنية عدة، قد تكون كثيرة للغاية، لكنها في النهاية تحمل سمات مشتركة، يصعب على الملحن متوسط الموهبة أو التقليدي أن يتجاوزها، وهذا ما يجعل الألحان في المقام الواحد تتشابه عادة. سأضيف مثلاً لطريقة بليغ حمدي في التعامل مع مقام "الصبا"، ولمن لا يعرف الصبا فهو أكثر المقامات العربية تعبيراً عن الحزن والأسى. لننذكر على سبيل المثال "هو صحيح الهوى غلاب" "لأم كلثوم، و"سماح" لمحمد قنديل، والكوبليه الأول من الأطلال "يا حبيباً زرت يومه أيكه/...". لكن بليغ يستخدم "الصبا" في التيمة اللحنية السابقة على الكوبليه الثالث من "أساك" "لأم كلثوم" كان لك معاي/ أجمل حكاية/ في العمر كله، ولا يبدو للمستمع في البداية أنه سيسلمنا إلى مقام الصبا لكثرة الجوازات اللحنية (الخروج على المقام) أولاً، ولا استخدامه ثانياً لتكنيك شبيه جداً بالأريج الصاعد في الموسيقى الغربية (النغمة الأولى فالثالثة فالخامسة فالثامنة، التي هي الأولى نفسها من الدرجة الأعلى)، وروح القصبجي الخفيفة المتقافزة تحوم بوضوح في أجواء هذا اللحن. هذا التغريب المقامي مارسه أيضاً عبد الوهاب، لكن متأخراً عن بليغ (ومن المعروف عن عبد الوهاب أنه لم يكن من المغرمين بمقام الصبا) في أغنية وطنية قدمها بعد نسخة ١٩٦٧ هي "حي على الفلاح"، من كلمات الأخوين رحباني. وربما ليست مصادفة أنهما- عاصي ومنصور- قد قدما لاحقاً أغنية وطنية بمسحة فلكلورية، هي "خبطة قدمك عالارض هدارة" من مقام الصبا أيضاً، تلك التي اشتهرت بوصفها كلمة السر لبدء عمليات حرب أكتوبر/ تشرين على الجبهة السورية.

يلجأ لكثيرين عند الحديث عن دور بليغ في التجديد الموسيقي الإشارة إلى دوره في استلهام وإعادة تقديم الفلكلور، وصولاً إلى رأي أراه متطرفاً، يدّعي أن بليغ لم يفعل سوى أن قدم الخمر القديم في كؤوس جديدة. ويكفي النظر للطريقة التي نفذ بها لحن "وانا كل ما أقول التوبة" للتأكد من تطرف الرأي. أنا لا أتحدث هنا فحسب عن قبول بليغ بالتوزيع الصاخب لعللي إسماعيل مستعملاً الآلات النحاسية والدرامز؛ التوزيع الذي أغضب مؤلف الأغنية نفسه، عبد الرحمن الأبنودي، لأنه أفسد كل صلة لها بالتراث فيما رأى. بل أتحدث أيضاً عن التيمات اللحنية نفسها، وعلى رأسها تيمة راقصة جداً، حيث استخدام للأكورديون شبيه باستخداماته الشائعة في ألحان أوروبا الشرقية.

مثال آخر: فاجأتني الطريقة التي نفذ بها بليغ لحن "خدني معاك" لشادية، وهو مستلهم من تيمة فلكلورية معروفة كذلك، لكن القالب الفئائي أقرب إلى الموشح! بداية بالحضور الواضح لآلات الإيقاع العربية، واستخدام أحد تنويعات إيقاع "سماحي دارج"، الثابت من أول الأغنية إلى آخرها، وليس انتهاءً بالمرآوحة بين كورال نسائي يكرر المطلع وحده بأداء تقليدي محافظ "خدني معاك ياللي انت مسافر"، وآخر رجالي يكرر جملة واحدة، تبدأ من جواب المقام هبوطاً إلى قراره، ثم تصعد في مرة أخرى لتستقر عند النغمة الثالثة.

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع

عصر نادي السينما
قاهرة السبعينيات في زمن الصراع والثورة

● محمد يحيى

قناديل البحر المبعثرة
في «الكل يقول أحبك»..

● رانية خلاف

مراجعات

ارتبطت سنوات السبعينيات في مصر غالباً في الذاكرة ببعض الموضوعات المتوقعة؛ مثل حرب أكتوبر والانفتاح الاقتصادي ومعاهدة السلام وسفر المصريين للخليج وصعود التيار الإسلامي، ولكن يمكننا أن نشاهدها بعينين مختلفتين لطالب ثوري متمرد في كلية الطب، محب للسينما يبدأ خطواته في مشوار النقد السينمائي، من خلال كتاب الناقد السينمائي أمير العمري "عصر نادي السينما" الصادر عن الهيئة العامة للكتاب هذا العام. ويركز الكتاب على تجربة مؤلفه في عضوية نادي القاهرة للسينما الذي جمع العديد من الأسماء البارزة في النقد السينمائي والكثير ممن سيصبحون أبرز مخرجي السينما المصرية في السبعينيات والثمانينيات، ولكنه أيضاً يعبر بشكل كبير عن قاهرة السبعينيات ثقافياً واجتماعياً وسياسياً من منظور جيل الطلبة الغاضب والرافض للأوضاع السياسية والاجتماعية بعد هزيمة 67 والمتأثر بحركات وتظاهرات الطلبة في العالم، وأبرزها احتجاجات 68 في فرنسا.

أنشئ نادي القاهرة للسينما عام 1968، في عهد وزير الثقافة ثروت

عكاشة، أسوة بنوادي

السينما الموجودة

في العالم، وكما يرى

العمري فقد تأسس

كشكل من أشكال

احتواء تمرد الجيل

الجديد، آنذاك،

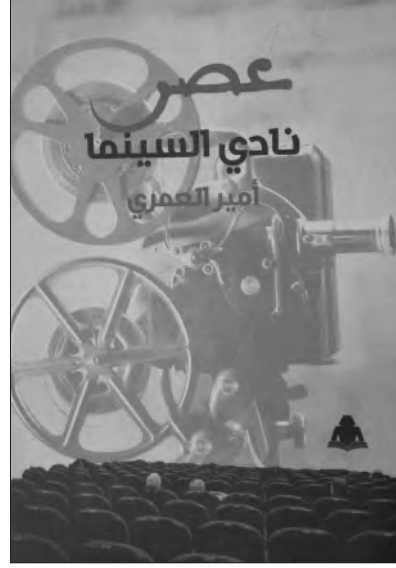
في مجالي الثقافة

والسينما، وكان

الناقد السينمائي

مصطفى درويش هو من يدير عروض النادي عند بدايته، وهو أيضاً من تولى رئاسة جهاز الرقابة الفنية عام 1968 ليواجه واحدة من أغرب جلسات مجلس الشعب التي يعرضها الكتاب، نقلاً عن الكاتب سعد الدين وهبة في مجلة "المسرح والسينما"، وتظهر من خلالها لعبة أنظمة الحكم المصري الدائمة بالدين والجنس والأخلاق من أجل أغراض سياسية واستخدامها للمتقنين والفنانين ككبش فداء سهل وفي متناول اليد.

بينما رأى الكثيرون أن تساهل الرقابة مع المشاهد الجنسية في الأفلام بعد هزيمة 67 كان مقصوداً بغرض إلهاء الشباب الغاضب من الهزيمة، كانت هناك في نفس الوقت أجنحة محافظة في النظام والمجتمع



عصر نادي السينما قاهرة السبعينيات في زمن الصراع والثورة

محمد يحيى

يعبر الكتاب عن قاهرة السبعينيات ثقافياً واجتماعياً وسياسياً من منظور جيل الطلبة الرافض للأوضاع السياسية والاجتماعية بعد هزيمة 1967، والمتأثر بحركات الطلبة في العالم وأبرزها احتجاجات 1968 في فرنسا



بعد 8 ساعات تنتهي الجلسة باحتواء الأزمة بمنع عرض فيلم "أقدم مهنة في التاريخ" وحذف مشهد من فيلم "انفجار" لترضية الأعضاء. وتنتهي الجلسة، ليقال مصطفى درويش بعدها في إطار لعبة التوازنات المفضلة لأجهزة الدولة دائماً.

الشيوعيون في مواجهة "خلي بالك من زوزو"!

كانت تلك الجلسة مقدمة لما سوف يحدث لاحقاً في السبعينيات، فيرحل ثروت عكاشة ثم يأتي يوسف السباعي وزيراً للثقافة ليقوم بمهمة تطهير المؤسسات الثقافية والفنية من "الشيوعيين" الذين يصنعون أفلاماً سماها "أفلام التلبك المعوي"، تبدأ المضايقات لنادي السينما الذي كان قد أبرم اتفاقاً مع هيئة المسرح والسينما لاستئجار قاعة سينما "أوبرا" لحفلة واحدة مساء كل أربعاء، وتبدأ الهيئة بمطالبة النادي بزيادة قيمة الإيجار أو الرحيل عن القاعة، وذلك بعد تحريض من تاكفور أنطونيان منتج فيلم "خللي بالك من زوزو" والذي كان غير راض عن خسارة إيرادات حفلة فيلمه المسائية، ولكن النادي انتصر في تلك المعركة عام 1972 ليخسر لاحقاً مع نهايات السبعينيات.

لم يخل النادي من الصراعات والتجاذبات الداخلية، التي كان أبرزها الصراع بين جيل النقاد الكبار نسبياً والقادمي في النادي مثل سمير فريد وسامي السلاموني وهاشم النحاس، وجيل العشرينيات من العمر مثل فايز غالي وعلي أبو شادي، على النشر في نشرة نادي السينما، ليصل الصراع ذروته في اجتماع عام في يوليو 1974 شهد مواجهة ساخنة بين الطرفين اتهم فيها الشباب سامي السلاموني ويوسف شريف رزق الله باحتكار أغلب صفحات النشرة، وتمتد المواجهة على صفحات النشرة نفسها فيصف السلاموني هؤلاء الغاضبين بأنهم يقومون "بحملة تشهير فاشية وغير أخلاقية واتهام بالشللية"، ويرد عليه الناقد محمود علي بأنها "ديموقراطية جديدة على الطريقة السلطانية يشنق بها الآراء المعارضة للمجلس"، وينتقده العمري نفسه لاستخدامه "نغمة علوية سلطوية".

تري أن سبب الهزيمة هو البعد عن الدين والأخلاق، وقد قامت بالاعتراض في جلسة صاحبة بتاريخ 21 فبراير 1968 لتناقش مشكلة "الجنس في الأفلام" لمدة 8 ساعات في نفس اليوم الذي شهد أحداثاً على الجبهتين المصرية والأردنية، وشهد تظاهرات حلوان التي انضمت لها تظاهرات الطلبة.

الجلسة التي حضرها عدد من كبار الشخصيات مثل خالد محيي الدين ونجيب محفوظ بوصفه رئيساً لمؤسسة السينما، وثروت عكاشة بوصفه وزيراً للثقافة، وسهير القلماوي رئيسة مؤسسة النشر، وسعد الدين وهبة رئيساً للشركة القومية للتوزيع، شهدت هجومًا على فيلم "قصر الشوق" واتهمته بالابتدال، ووصف عضو البرلمان المخرج حسن الإمام بأنه "ليس حسناً ولا إماماً"، ولم يعترض ثروت عكاشة على تلك الاتهامات، لكنه برر عرض الفيلم بأنه قد كان جاهزاً للعرض مع العيد، ولم يكن هناك وقت لإيقافه، وهو ما كان سيؤدي إلى خسائر قدرها 27 ألف جنيه، وأنه قد شاهد الفيلم وأمر بعرضه بعد حذف 13 لقطة أدت أن يكون الفيلم "مقبولاً"!

وبعد "قصر الشوق" نال نادي السينما نصيبه من هجوم عضو آخر اعتبره مائة ومفسدة ومكاناً لعرض الأفلام الداعرة، وذلك لما عُرف عن عرض النادي لأفلام قبل عرضها على الرقابة، ليدافع عكاشة عن النادي بأنه مكان لعرض الأفلام الطليعية، وأنه مماثل لنادي السينما في العالم، وهاجم عضو المجلس من الصعيد

المصري فكرة رقص الرجال، وأنها تصلح للرجال في أوروبا حيث الطقس البارد، ولا تصلح لنا، فالرجال عندنا لا تنقصهم "الحرارة"، وهاجمت إحدى العضوات "أفلام الجنس" المعروضة في القاهرة، والتي سمعت عنها من البيوت المصرية، ثم همست في أذن نجيب محفوظ بأن لديها قصة تصلح للسينما فأحالها لعبد الرزاق حسن رئيس شركة القاهرة للإنتاج السينمائي، الذي سمعه سعد الدين وهبة يهمس لها "فوق التابعي بتاع الفول" وهو مكان مكتبه في شركة القاهرة.

يوضح أمير العمري مدى تأثير الأيديولوجيا علمه الفن فالانقسام الشديد بين اليمين واليسار فيه السبعينيات فيه مصر لم يقتصر علمه السياسة والاقتصاد، بل تأثر به النقد السينمائي بشكل بالغ

"أغنية علمه الممر"، و"ظلال علمه الجانب الآخر"، كانت أفلاماً نضالية ولم تقدم سينما جديدة، بينما جاء التجديد الحقيقي من أفلام سعيد مرزوق ويوسف شاهين لتقدم لغة سينمائية جديدة بالفعل



في تلك الفترة من أفلام المخرجين سعيد مرزوق ويوسف شاهين التي قدمت لغة سينمائية جديدة بالفعل.

حسام الدين مصطفى ومعركة "الرصاصة" ..

تخطى صراع اليمين واليسار في مصر الحدود ليصل إلى تونس في معركة سياسية تسبب فيها فيلم حسام الدين مصطفى "الرصاصة" لا تزال في جيبي" الذي دعمته الدولة وعُرض في 6 أكتوبر 1974 احتفالاً بذكرى الحرب، واشترك الفيلم في مهرجان قرطاج وأثار نقاشاً حاداً بين ممثلي اليسار من مخرجي تونس ولبنان والسنغال والممثلة محسنة توفيق من مصر، وممثلي اليمين مخرج الفيلم وبطله محمود ياسين الذي ساند الفيلم، وحسين فهمي الذي اكتفى بالصمت، ويسجل يوسف شريف رزق الله وقائع الندوة كاملة على صفحات نشرة نادي السينما. وي طرح الفيلم أن سبب النصر هو التخلص من المستبدين أصحاب الكلمات الجوفاء ممثلين في شخصية "عباس" مدير الجمعية التعاونية كرمز للنظام الناصري، وقد قال حسام الدين مصطفى رداً على ناقد لبناني انتقد عدم إظهار السنوات من -1967 1972، إن الفيلم ليس محاضرة تاريخية "الشعب هو الذي هُزم وليس الجيش، وقد هُزم الشعب لعدم وجود حرية كلام ونقاش، وأن وجود قصة حب في الفيلم لأنه لا يميل للأفلام السياسية ويفضل أن يكون الفيلم جماهيرياً مع جرعة دواء صغيرة من السياسة". ودافع محمود ياسين عن الفيلم بأن يحوي شكلاً رمزياً لعرض قضايا المجتمع، ثم انفعل قائلاً "كان الجيش الذي حارب في 67 جيشاً محيئاً عن الشعب.. كان جيشاً نازياً، وكان الشعب يعلم سلفاً أن هذا الجيش سينكسر ويُضرب، ولم تكن النتيجة غريبة وإنما كان الغريب في المسألة أن الهزيمة كانت فادحة".

وكان الغريب أن يقف سامي السلاموني في صفوف المدافعين عن الفيلم على الرغم من خلافه السياسي مع إحسان عبد القدوس وحسام الدين مصطفى وبعض أفكار الفيلم، ولكنه أظهر تأييده لفكرة تسبب غياب حرية التعبير في الهزيمة، وأنه لا يعفي الشعب المصري من مسؤولية الهزيمة، لأنه كان يدرك أن هناك نظام ديكتاتوري يحكم من 52 لـ 67 دون أن يقاومه، وأن ثورة يوليو 52 كانت سلطة عسكرية بورجوازية منفصلة عن الجماهير ولم تكن ثورة شعبية، ثم تدخلت الممثلة محسنة توفيق في الحوار السياسي على الرغم من أنها لم تشاهد الفيلم، معارضة ما قيل عن الشعب والجيش المصري فتاريخ الشعب المصري لا يقول إنه السبب في الهزيمة والشعب لم يكن بليداً و"رمة"، والجيش المصري لم يكن نازياً لأن الجندي المصري الذي انسحب في 67 هو نفسه من

كذلك يوضح الكتاب مدى تأثير الأيديولوجيا على الفن، فالانقسام الشديد بين اليمين واليسار في السبعينيات في مصر لم يقتصر على السياسة والاقتصاد، بل تأثر به النقد السينمائي بشكل بالغ، فنجد سمير فريد وسامي السلاموني يهاجمان فيلماً من علامات السينما المصرية "شيء من الخوف" لا لأسباب فنية، بل لأنه يهاجم عبد الناصر لصالح الرجعية، ويصف لنا الكاتب معركة نقدية شرسة دارت على صفحات نشرة نادي السينما حول فيلم "كلاب من قش" للمخرج الأمريكي الذي اشتهر بأفلام العنف سام باكناه، ومن بطولة داستن هوفمان، والذي تدور أحداثه حول عالم فيزياء أمريكي مسالم يعيش في الريف البريطاني يتحول إلى شخص شديد العنف ينتقم ممن اغتصبوا زوجته.. قدم الفيلم الشاب سمير سيف، المخرج لاحقاً، وأثنى عليه باعتباره فيلماً مكتمل العناصر الفنية يقدم العنف من منظور متعمق في فهم النفس الإنسانية، ليرد عليه سامي السلاموني بمهاجمة الفيلم الذي يتجاهل مشكلة الأنظمة السياسية ويحولها إلى مشكلة فردية، وأن هذا النوع من الأفلام يستغل غرائز العنف البدائية "وهو من أردأ وأرخص ما يمكن أن تقدمه السينما في أحقر مستوياتها"، وينضم له سمير فريد في مقال بعنوان "فلسفة راعي البقر في كلاب من قش" وذكر فيه "يدعم باكناه فلسفة راعي البقر الإمبريالية الوثنية عندما يختار لأحداث فيلمه أن تدور في بريطانيا، أي في أوروبا، ويجعل الإنجليز يفتصبون زوجة البطل المسالمة، ويدورون حول منزله في النهاية مثل الهنود الحمر، يحطمون النوافذ ويشعلون النيران، ويصيحون صيحات الحرب".

لم يكن ذلك الصراع قاصراً على النقاد، بل امتد للسينمائيين أنفسهم، فكانت جماعة "السينما الجديدة" المكونة من شباب مثقفين من خريجي معهد السينما تطالب الدولة بدعم إنتاج السينما الجديدة والجادة، وهو ما قوبل بهجوم من مخرجي الأفلام التجارية القدامى مثل حسن الإمام الذي كان يسخر من الفيلم الأول لجماعة السينما الجديدة "أغنية على الممر"، ويسميه "أغنية على الممر"، وفي ندوة عن السينما في الجامعة عندما يعلن الشباب عن عدم رضاهم عن أفلام مثل "خلي بالك من زوزو" يكون رد السلاموني عليهم "اعترضوا.. اعملوا حاجة... احرقوا السينما"، وهو التصريح الذي تسبب في منع السلاموني من دخول الحرم الجامعي، وبعد مرور السنوات يرى العمري أن أفلام جماعة السينما الجديدة "أغنية على الممر" لعل عبد الخالق و"ظلال على الجانب الآخر" لغالب شعث، كانت أفلاماً نضالية، ولم تقدم سينما جديدة، بينما جاء التجديد الحقيقي

أمير العمري بعد ذلك مصر مع اختفاء مناخ الحرية الذي أتاحه السادات في الجزء الأول من حكمه، ثم تراجع عنه لاحقاً بقوانين وتعديلات مقيدة للحريات وصلت ذروتها في اعتقالات 1981.

يعطينا كتاب "عصر نادي السينما" بلغة السينما كادر مختلفاً نشاهد فيه السبعينيات بعين طلبة ومثقفين يحملون بتغيير السينما ثم تغيير العالم من خلال السينما، فتبدو مختلفة كثيراً عن ما نعتقده عن تلك الفترة، فعلى سبيل المثال ترى قطاعات عديدة أن مسرحية "مدرسة المشاغبين" التي تحولت إلى أيقونة السبعينيات عملاً فنياً أفسد الطلبة والتعليم، وعبر عن تدهور الأخلاق في عصر الانفتاح، ويفسر الكاتب إبراهيم عبد المجيد عرضها في أثناء تظاهرات يناير 1977 بالرغبة في إعادة الناس للبيوت وشغلهم عن التظاهرات نظراً لشعبية

المسرحية الكبيرة، يرى أمير العمري أن ظهور المسرحية عام 1973 مرتبط بتظاهرات الطلبة في عامي 1971 و1972، وأن المقصود منها تشويه احتجاجات الطلبة واعتبارهم مجموعة من الحمقى والأغبياء، ولذلك يتزامن عرض المسرحية في التلفزيون مع التظاهرات، وهو ما ينطبق على رؤيتنا لأفلام "الماضي الجميل" فبينما نحظى الآن بفيلم "قصر الشوق" ونعتبره من كلاسيكات السينما المصرية كان هناك من يراه في وقت عرضه فيلماً مبتدلاً وإهداراً للمال العام وإفساداً لرواية نجيب محفوظ بتركيز حسن الإمام على العوالم، وهو ما ينطبق على "خلي بالك من زوزو" الذي نستمتع بأغانيه

واستعراضاته التي خلدها سعاد حسني ونعتبره فيلماً رائداً يحارب التطرف والرجعية، كان الطلبة الثائرون غاضبين من نجاحه ويرفضون هذا الشكل من السينما اليمينية التقليدية التي تخدر الشعب في وقت الهزيمة. "عصر نادي السينما" كتاب يدفعنا للتفكير في تقلبات الزمن والسياسة وانفجار بركان الأحلام وخموده، والإعجاب بسحر السينما التي تجمع كل ذلك وتخلده على شاشتها، وفي كتبها وحكاياتها.

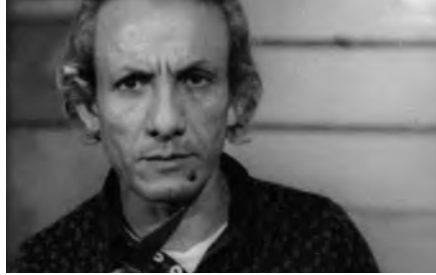
عبر في 73، وتطالب أن تكون أفلام الحرب مرتبطة بالحرب والسياسة فعلاً وإلا فلتتناول قصص الحب بعيداً عن الحرب. وبعد استمرار الهجوم على الفيلم واعتباره مشابهاً للأفلام الأمريكية الدعائية المعادية للفيتاميين والهنود الحمر ووصفه بالفيلم المخدر الذي لا يتناول مشكلات الشعب المصري، يلقي حسام مصطفى الكلمة الختامية التي يأسف فيها لتحول أيام قرطاج السينمائية لأيام سياسية، وأنه لم يأت للنقاش في السياسة بل لنقاش النواحي الفنية، ولكنه يضيف رداً على اتهام الفيلم بأنه يمثل السلطة بأنه لا توجد سلطة في مصر "هناك ناس تحكّم وناس تحكّم، وهناك الآن التحام بين الطرفين، ما يقوله "اللي فوق" ليس مختلفاً عما يقوله "اللي تحت"، و أن الفيلم قد حقق نجاحاً ساحقاً في القاهرة وأنه فخور

بتعلم السينما في "هوليوود" واستخدام التكنيك الأمريكي لتوصيل مفهوم عربي! وتنتهي تلك المعركة التي استغرقت ثلاث ساعات في قرطاج. لكن أمير العمري يضيف أنه عرف أن حسام الدين مصطفى تقدم بشكوى لوزارة الخارجية بعد عودته للقاهرة ضد المصريين الذين هاجموا فيلمه في الندوة باعتبارهم قد هاجموا نظام الحكم السياسي.

نهايات السبعينيات والسادات والرحيل

بدأ بريق نادي السينما في الخفوت عام 1977، بعد مرور 10 سنوات على تأسيسه لأسباب متعددة، مع ابتعاد الدولة عن السينما كصناعة وتوزيع وامتلاك لدور العرض، لتعود دار سينما "أوبرا" إلى أصحابها الأصليين الذين رفضوا استمرار العرض

الأسبوعي لنادي السينما، لينتقل بعدها النادي إلى قاعة النيل الصغيرة، على الرغم من زيادة أعضائه، بأضعاف ما كان يدفعه لسينما أوبرا، وتراكت آثار الانفتاح الاقتصادي والتضخم الهائل لترتفع تكاليف الأجور وطباعة النشرة التي سوف تتقلص صفحاتها، بالإضافة إلى عدم وجود نسخ من الأفلام لدى النادي يستطيع تبادلها مع أندية السينما العالمية، وظهور خلافات بين الأعضاء حول إدارة النادي التي كانت مرتبطة ببعض الأعضاء، وتدهورت مع رحيلهم، ليغادر



الناقد سامي السلاموني

يعطينا "عصر نادي السينما" كادراً مختلفاً نشاهد فيه السبعينيات بعين طلبة ومثقفين يحملون بتغيير السينما ثم تغيير العالم من خلال السينما، فتبدو مختلفة كثيراً عما نعتقده عن تلك الفترة



من القطع المتوسط، حياة خمسة مهاجرين من بلدان عربية مختلفة إلى كندا، في بانوراما معقدة من المشاعر والأفكار والشخصيات والعلاقات المعقدة والمتشابكة، العلاقات الزوجية أو الحب عن بعد، والعلاقات الثلاثية التي تتشكل بين الزوج والزوجة والعشيق/ العشيقة. تدور الرواية في سياق زمني محدد يبدأ من فبراير ٢٠٢٠، زمن اجتياح وباء الكورونا مضجرة مأزق التواصل والعزلة المركبة.

"الكل يقول أحبك" عنوان الرواية الأحدث للروائية مي التلمساني، بعد ثلاث روايات هي "دنيا زاد" ١٩٩٧، و"هليوبوليس" ٢٠٠٠، و"أكابيل" ٢٠١٢.

يبدأ المشهد الافتتاحي للرواية في القطار في رحلة داخلية من مدينة لأخرى في كندا، وتنتهي الرواية بمشهد مفتوح في محطة الباص المتجه إلى تورونتو. وتناقش الرواية التي صدرت مؤخراً عن دار الشروق في ١٨٨ صفحة

قناديل البحر المبعثرة فيه «الكل يقول أحبك»..

● رانية خلاف

أيضاً تساؤلات عن المسافة ما بين القول والفعل. فهل يتبع التصريح بالحب فعل يؤكد أم هو مجرد ترديد لكلمة ساحرة؟ في الحقيقة، بينما يومئ عنوان الرواية بالحديث عن الحب، أجدها رواية كاشفة بشكل كبير عن شكل العلاقات في المهجر وشخصيات المهاجرين، وربما أيضاً ما يمكن أن نطلق عليه نبض الهجرة، فحينما تكتمل القراءة يكون القارئ قد عبر خلال مدن وقارات وعوالم نفسية ثرية ومتعددة. إلا أن الهجرة والحب مرتبطان ومتشابكان بشكل ما. بين الهجرة والحب فعل شائك. ربما يتسم دوماً بالتردد والاشتياق. ولكن الرواية في النهاية تتمحور حول الهجرة وليس الحب، فبينما أشارت وبحث التلمساني في مفهوم الحب عن بعد والحب والزواج كمخلوقين منفصلين في الفصول الثلاثة الأولى، فإن فكرة الحب أو لنقل مناقشتها بشكل أعمق وأكثر مباشرة تراجع في الفصلين الأخيرين. ربما

التباس ومفارقة

تثير الرواية لدى الناقد شعوراً بالالتباس لخضوع الرواية لأكثر من تصنيف أدبي. فهي تندرج تحت رواية الهجرة ورواية السيرة الذاتية أو أدب الاعترافات وأدب الرحلات. تخضع الرواية لسمات الحساسية الجديدة وفقاً لتعريف إدوار الخراط في كونها تكسر الترتيب السردي المطرد، وتغوص في دواخل الشخصيات، وتدمر سياق اللغة السائد المؤلف، وتهدم بنيتها وتستخدم صيغة الأنا، لا للتعبير عن العواطف بل لتعرية أغوار الذات وصولاً إلى منطقة يمكن أن تسمى الذات الجمعية. كما يبدو العنوان للوهلة الأولى سلساً، مكتوباً بأسلوب تقريرية وكأنه يؤكد حقيقة مفترضة. إلا أن القارئ بعد انتهائه من قراءة الرواية سيفكر مجدداً: هل يقول الكل أحبك فعلاً؟ أي جملة تقريرية أم تهكمية؟ ذلك لأن كلمة الحب لم تتردد سوى مرات معدودة طيلة الرواية. يثير العنوان



مي التلمساني

نجحت التلمساني بشكل كبير، ولكنها ربما أخفقت قليلاً في الفصل الخاص بداينا، حيث أسهبت بتفاصيل كثيرة عن المطارات والحكي الذي لا ينتهي ما بين المذبة وتلك المرأة التي صادفتها في صالة الترانزيت، وهو ما جاء على حساب بنية الشخصية. اعتمدت الروائية منذ البداية بنية القصة؛ خمس قصص/ خمسة فصول يفضي كل منها للتالي له في سرد شيق. كل فصل يحكمه ما يشابه الكونشيرتو الموسيقي، حيث في مقابل كل شخصية هناك أخرى تحاورها وتستقي منها الحدث. وفي الفصلين الأخيرين يتحكم منطق البوليفونية في السرد بشكل أكبر، هناك تعدد؛ مزيج من الشخصيات المتفاعلة والمتحاوره بإيقاعات مختلفة في نسيج موسيقى متزن إلى حد كبير.

سيكتشف القارئ بعد انتهائه من الفصل الأول الذي يحمل اسم كمال المصري أنه فيما يشبه لعبة الكراسي الموسيقية، فكل شخصية ترتبط

اعتمدت على فطنة القارئ، وربما انتبهت ألا حب يستمر، وأن الكل يقول أحبك بلا معنى حقيقي.

خمسة بورتريهات متقاطعة

الرواية مقسمة إلى خمسة فصول، كل منها يحمل اسم شخصية مختلفة، كل فصل يقدم بورتريه ثرياً لشخصية.. لرجل أو امرأة في منتصف العمر، فيما عدا شخصية البروفيسور كمال المصري الذي تجاوز الستين. برعت التلمساني في بناء الشخصيات وصلها لتقدم لنا نموذجاً لإنسان معاصر يعيش في عالم متموج. عالم عابر للقارات أو الأوطان. كل شخصية تحكي عن عالمها الذي تتقاطع فيه بشكل باهت أو مكثف أحياناً مع الشخصيات الأخرى.

بشكل خاص، أثارتنني فكرة البورتريهات، ولكني رأيتها معضلة، فهناك صعوبة في الجمع ما بين فن البورتريه وبنية الرواية. البورتريه كفن مستقل والرؤية التي يحكمها تطور الحدث في الرواية.

أحياناً تتاديني بكلمة بابا فأغضب. لا أريد أن ألعب هذا الدور. أريد أن تضعني دائماً في مكانة الزوج أو الحبيب).

يبدو صوت الحكاءة مي التلمساني واضحاً بدرجة أكبر في الفصل الثالث، الذي يحمل عنوان نورهان عبد الحميد، إحدى الشخصيات المحورية في الرواية، حيث يعلو صوتها بدرجة أعلى وأكثر صدقاً وشغفاً. أحببت تعبير نورهان عن مشاعرها كامرأة مهجورة تحب بشكل متقطع عن بعد رجل لا أمل في الارتباط به. وهو أمر واقعي وليس محض رومانسية.. إنها قصة الخلل الحادث دوماً بين المثقفة والمثقف في واقعنا العربي، والذي ينتقل طواعية مع المهاجرين إلى أوطانهم البديل.

الفصل الخاص بنورهان هو ما يتجلى فيه العشق ممثلاً في علاقة نورهان السابقة ببسام الحايك. أما مشاعرها إزاء زوجها كريم فهو حب بمعنى الود الجميل، حب منزوع من الشبق، أو ربما يجتاحه شبق مدروس من وقت لآخر. وتلخص نورهان معنى الحب في صفحة ٩٤ في كلمة القرب الساحرة (حين استدرنا على ظهورنا وضعتُ ساقي فوق بطنه كما يحب، وعنّ لي أن أسأله عن أكثر شيء سيفتقده في غيابي. أجاب بعد تردد القرب منك.. لا أدري لماذا غمرني الفرح عند سماعي لتلك الجملة. قفزت من مكاني إلى جواره، وارتج ثدياي كعصفورين وأنا أجلس فوقه قائلة: كل السعادة والنعيم في القرب منك.. فعلت جملة القرب منك مفعول السحر. وجاء رد فعل بسام عذباً صافياً خالياً من التوتر الذي صاحب لقاءاتنا السابقة حين كان يللمل أغراضه

بسرعة ليعود للبيت في الموعد المتوقع). وهنا يكمن الصوت الوحيد للحب بمعنى العشق والشغف. في الحقيقة لم يقل الكل أحبك. سيأتي الحب في الفصلين التاليين مقرّوناً بالاعتقاد والرغبة في الاستقرار مع شريك أليف فحسب.

يحمل الفصل الرابع الخاص بداينا سليمان تفاصيل متعلقة بذاتها في المجتمع كمهاجرة مصورة فوتوغرافية تحاول أن تجد وظيفة وزوجاً يتلاءم مع وضعها في المجتمع ومع طموحها. يبدو البورتية

بالتالية لها وتكشف عنها تفاصيل جديدة لم نكن نعلمها. شخصية البروفيسور كمال المصري تتسم بالرتابة والاعتقاد والسلبية، ينعكس ذلك على علاقته بزوجته ناهد التي لا يبادلها سوى مشاعر باردة كبرودة الطقس في كندا.

(معاً منذ ما يربو على أربعين عاماً. منذ أن كانت هي ابنة الجيران في عمارة حدائق القبة، وكنت أنا ابن صاحب البيت في العمارة نفسها. يكفيها أن تنظر لوجهي أحياناً، وترتبت على ظهري أحياناً وتتذكر أياماً هائلة فتبتسم. يكفيها أننا صامدان في وجه الزمن وأوجاع الهجرة. لكن من يعوضني أنا عن وجع الروح وفتر الرغبة في جسدينا؟ وكيف لقلبي أن يكتفى بفترات المشاعر ونثار الذكريات؟).

في الفصل الثاني، الذي يقارب في مساحته باقي الفصول، ويحمل عنوان كريم ثابت، هناك بناء جديد لشخصية مغايرة ولكنها تتفق مع السابقة عليها في إعداد القارئ للدخول إلى العالم المتشابك لشخصية المهاجر وعاداته اليومية الرتيبة وأفكاره عن الوطن والحب. في هذا الفصل تبدأ التلمساني

في رسم بورتريه لمهاجر، تفاصيل حقيقية عن الاشتياق والرغبة وليس عن الحب. ربما تكون هناك مصادفة لم تنتبه لها الروائية، إذ تستدعي روايح الطهي لدى كمال وكريم مشاعر الاشتياق والألفة. فكمال المصري، تأتيه رائحة الفرن فيسيل لعابه في ثانية.. (ترى ماذا أعدت لي ناهد هذه المرة؟ لحماً ويامية من السوبر ماركت اللبناني أرز فوود.. خرشوفاً باللحم والجبن من مطبخ الكنيسة المجاورة؟). أما كريم

المصري فتبدو رائحة البامية باللحم والثوم في استقباله لدى عودته أيضاً، فيعقب متهللاً مخاطباً نورهان زوجته: كيف حالك يا حبي؟

تتفق شخصيتا كمال وكريم في الفتور بدرجات مختلفة، والخيانة. يشاقق كريم لزوجته نورهان ويتمنى لو تتركه يمص أصابعها الدقيقة بعد العشاء، ولكنه لا يفعل، ولا تمنحه هي الفرصة.

(يسبق كلمة حبيبي بالعربية اسم آدم الصغير. لا تقول حبيبي مالك، ولا حبيبي كريم إلا نادراً.



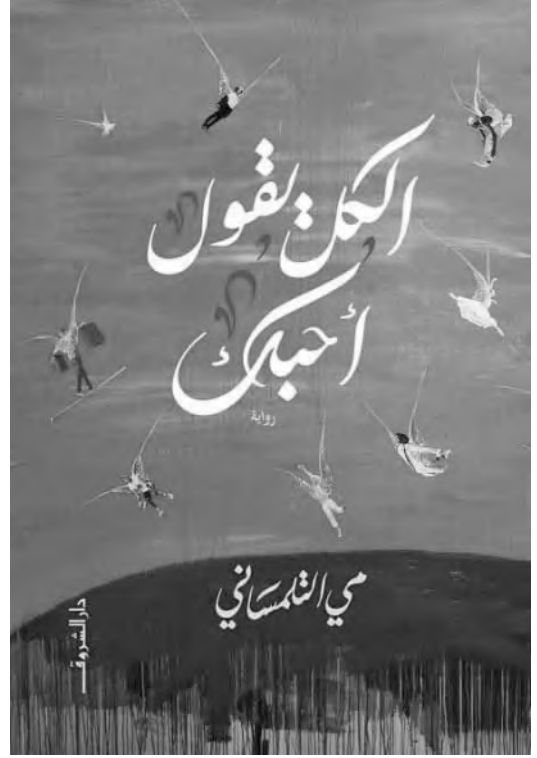
**أحببت تعبير نورهان عن
مشاعرها كامرأة مهجورة
تحب بشكل متقطع عن
بعد رجل لا أمل فيه الارتباط
به. وهو أمر واقعي وليس
محض رومانسية.. إنها
قصة الخلل الحادث دوماً
بين المثقفة والمثقف فيه
واقعنا العربي، والذي ينتقل
طواعية مع المهاجرين إلى
أوطانهم البديل..**

يكون نموذجًا للمثقف العربي الذي يبدو متماسكًا واثقًا في ظاهره رخوًا وهشًا في جوهره. (قبل أشهر قليلة، كنت أجلس وحيدًا على شاطئ بحيرة ميتشجن حين رأيت كأنما في حلم يقظة أسرابًا من قنديل البحر تسبح في البحيرة. فكرت كأنها تشع طاقة. تعمل بالطاقة. أين تختزنها؟ لا أحد يعلم. وحيدة في البحيرة. تتفتح كالوردة، تتغلق كالسر، بثوب فضفاض يختق في منطقة التقاء الرأس بالأطراف.. الحياة تمضي في طريقها وقنديل البحر يتكاثر دون أن يفكر في التكاثر، مثله مثل الأفكار، مثله مثل البهجة التي يشيعها الغناء في سياره). يحيلنا الرمز البديع لقنديل البحر هنا إلى صور في الذاكرة لأسراب المهاجرين العرب والأفارقة الذين يهاجرون يأسًا عبر البحار في قوارب منهكة ولا يصلون عادة للبر الآخر.

انتظرت أن أفهم لماذا ترك بسام حبيبته نورهان، أو بالأحرى رؤية بسام لعلاقته بنورهان الحبيبة ولكن الروائية لم تفصح، وبذكاء أشارت لقصة نورهان من بعيد، مجرد إشارة توحي بموقع الحبيبة الهامشي من حياة بسام الربية التقليدية المليئة بالمغامرات مع نساء من مختلف الأعمار والأشكال والجنسيات، ولا مكان حقيقي للحب في خريطته الخاصة. إشارة ذكية إلى مكانة الحب في حياة مثقف عربي تقليدي مثقل بأفكار عن الحرية والثورة والوجود ولكن الحجم الحقيقي لشخصية الحبيبة في حياته صفر.

وتبقى الأسئلة الوجودية لبسام الذي هاجر إلى كندا منذ ثمانية وثلاثين عامًا في أذهاننا. ذكرى المذابح والحروب الأهلية في المنطقة العربية وحركة اليسار السوري واللبناني وحلم عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم. وكما يقول (الغنف بين أبناء الوطن الواحد يجعل للموت رائحة العطن. تفوح من يد أخ قتل أخاه، جار صرع جاره، رفيق ذبح رفيقه. نتذكرها نحن العرب حين نلتقي. نظرة واحدة في العيون تجعلنا ندرك من نحن وماذا نعرف عن بعضنا البعض، نحن الهاربين أو الفارين، حتى من لم يشارك في القتل والدمار، نظل منكوبين بقتلانا وجرحانا ما دمنا أحياء). لا يجد بسام ولا نجد نحن أيضًا إجابات عن أسئلته الكبيرة ولا يتفوق عليه في لعبة الحياة سوى قنديل بحر تافه في بحيرة ساكنة.

وهكذا، إذا عدنا لعنوان الرواية نجده غامضًا لا يزال. الكل يقول أحبك، هل هي جملة تقريرية؟ أم تقولها التلمساني على سبيل التهكم أو التعجب؟ ففي النهاية ليس ثمة حب. مرة أخرى أحببت



هنا ناقصًا بشكل ما. لا يصور دينا كامرأة مكتملة ولكن كشخصية عملية انتهائية بعض الشيء. لم تطلق الكاتبة العنان لمشاعر دينا كما فعلت مع نورهان. في ص ١٢٤ تتحدث دينا عن الاقتناص وليس الحب. وتصف نفسها بأنها متروكة بامتياز كما وصفت نورهان نفسها. وفي صفحة ١٣٥ تقول إنها تنازلت عن رجال أحبوا لأسباب غير مفهومة، في إشارة إلى عدم اهتمامها بالحب. في هذا الفصل نحن إزاء شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية، زواج وليس حب. أما الفصل الأخير، الأكثر احتفالًا بالجدل والفلسفة، فيرسم ملامح أكثر عمقًا لشخصية بسام الحايك، ذلك المثقف السوري الذي أحبته نورهان وتزوجته دينا. هنا ثقل واضح وبحث مهم في مسألة الذات والمآزق العربي وتأثير الثورة السورية على المهاجرين السوريين. ما بين حزن وصمت ولا تعليق، كائنات صامتة كالروبوت، تتفاعل مع الواقع الجديد، وتتعامل بحياد مع الماضي القريب.

أحببت اللهجة السورية في الحوارات التي صيغت بشكل حقيقي ومنتقن وبلا افتعال فمنحت الرواية الكثير من الحيوية. ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي تظهر بهذا التكثيف في رواية مصرية. وأحببت فكرة قنديل البحر. بسام، ذلك الكائن المنكمش المحبط شديد الولوج بالنساء. يكاد

حينما يسرد كريم ثابت (نعود معاً للمطبخ. تشرع في وضع الصحون في غسالة الأطباق وإفراغ ما تبقى من طعام في علب الثلجة البلاستيكية وتنظيف سطح البوتاجاز الكهربائي بهمة تجعل إلبتها تهتران تحت الروب وتثيراني بحركتهما اللينة. أجمل ما في نورهان أردافها. متماسكة كأنها شابة في العشرين، ولكن حركتها تشي بخبرة امرأة في الأربعين. أقترب منها وألتصق بظهرها وأحيط خصرها بذراعي فتأود. تعرف اشتياقي لها، وتجب شوقي بإيقاع متمهل. تستبطني وأحثها). ألفت التلمساني هنا كونسيرتو رائع بين شخصيتين متجانستين ولكن هناك ما يحبط اكتمال وهج وحميمية الكونسيرتو؛ ربما ظل لرجل وامرأة.

في البورتية الخاص بداينا هناك رصد للحركة الدائمة والانتقال المستمر للشخصية على مستوى العمل أو المكان وربما المحبين أيضاً (كانت حياتي قبل الأربعين حياة ركض دائم. أركض وراء الصور والناس، مدفوعة بالغربة في مغامرة التعرف على العالم وأعود إلى ديربون، إلى الغرفة الكايبية نفسها. أحياناً كنت أبحث عن مصدر آخر للمعاش غير التصوير. أعمل ساقية في مطعم، أو بائعة في محل ملابس في انتظار مهمة جديدة. يظل التصوير شغلي الشاغل مصدر الطاقة والحياة. تفتري همتي كلما ابتعدت عنه وتعود إلى حيويتي كلما سافرت سعياً وراء موضوع).

في الفصلين الأخيرين أحببت المشاهد الخاصة بالمطارات، حيث تبدو الحركة بشكل أكبر في المطارات الشاسعة التي تصلح كصورة مقارنة لببيت أو لوطن مؤقت. هناك حيوية ونبض، تشابه ما بين المطارات والبشر. الترحال، البدايات الجديدة والموت، الحب والابتعاد عن الوطن أو عن الحبيب. هي مشاهد لن يشعر بصدقها سوى من مر بتجربة سفر متكرر.

الكل يقول أحبك رواية جديدة بمعنى الجدة والصدق والمصادقية. في النهاية تتركنا الروائية للتساؤل عن ماهية الحب، عن جدوى الزواج أو الحب في عالم مؤقت. تتركنا وقد بنينا معرفة جديدة وحقيقية عن شخصية المهاجر من زاوية نظر كاتبة مهاجرة تدعونا، بعد ما يقارب من ربع قرن من الهجرة، للتأمل مرة أخرى في مفاهيمنا الرومانسية وربما الساذجة عن الحب، عن الباهت والبراق، الأصيل والمزيف في حيواتنا القصيرة.

فكرة البورتية لولعي الخاص بها، سواء تشكلياً أو صحفياً. البورتية كاختصار ثري لملامح شخصية وسمات عصر وظروف اجتماعية وتاريخية. الانتقال من بورتية لآخر يشوبه حس طفولي باللعب، كلعبة الكراسي الموسيقية. من وجهة نظر تشكيلية هناك أيضاً اللون البارد والساخن، هناك خطوط خافتة وأخرى مضيئة في البورتية وفي اللوحة كعمل روائي برتمته.

مقطع مفتاحي

أرى مقطعاً مفتاحياً للرواية في ص ١٥٢، في نهاية الفصل الخاص بدائنا سليمان، حين تقول (تقترب الطائرة من مهبط الطائرات فتسأل عالياً: هل وصلنا؟ أجيبها باقتضاب: على وشك. وبينما نحن في سبيلنا للهبوط، أفكر أن كل شيء هناك على وجه الأرض متناه في الصغر والضآلة، مخلص في عاديته. وكل شيء لا يطير أو يحلق ضعيف واعتمادى ومثير للسخرية).

هنا تفصح الكاتبة عن فلسفتها الخاصة: إيمان وإخلاص وتأكيد حتى النهاية لمشروع الهجرة والترحال، وكيف يشكلان الوعي ويرسمان ملامح لشخصية قوية وحررة رغمًا عن التشتت والألم الذي يعاني منه المهاجرون. هذا المقطع يدعم تصنيف الرواية بكونها رواية هجرة بشكل أساسي.

الحركة

تحتفل الكاتبة بالحركة والتنقل منذ اللحظة الأولى. وقد اعتمدت عنصر الحركة ليكون المحرك والدافع لبناء الشخصيات. يبدو الأبطال والشخصيات الثانوية كلهم في حالة حركة من وإلى الوطن الأم إلى الوطن البديل ومن مدينة لأخرى ومن حبيب لآخر وهكذا.

في البورتية الخاص بكمال المصري حيث تبدأ رحلة القطار ينشغل ذهن القارئ وأذنه بصوت القطار المفترض (الركاب يروحون ويجيئون في الممر الفاصل بين المقاعد.. خمسة وعشرون عاماً، يا إلهي! ترى كم من العمر انقضى في محطات القطار، وكم من العمر تبقى لنا؟).

هناك أيضاً حركة مزدوجة إلى الأمام والخلف حيث يجلس كمال المصري وكريم ثابت بالمصادفة في مقعدين متقابلين في القطار، حركة مشابهة لأرجوحة see/saw أحدهما يتحرك نحو نهاية العمر والآخر لمنتصفه.

تأتي الحركة أيضاً على مستوى إيريوتيكى بامتياز

المشاركون في العدد ٢٥

- انتصار بدر
- أحمد حسن
- أسماء زيدان
- أميمة صبحي
- أحمد عبد الحميد عمر
- إيمان عوف
- إسلام نبيل منسي
- بسام مرتضى
- دينا قابيل
- رانية خلاف
- صلاح الأنصاري
- عادل عوض
- عمار فايد
- عاطف معتمد
- فؤاد مرسي
- فرح مروان
- محمد الخولي
- محمود الورداني
- مصطفى بسيوني
- محمد حسن عوف
- محمد دوير
- محمد عبد النبي
- محمد عبد السلام
- محمد يحيى
- نهى مصطفى
- هيثم محمددين
- باحثة وصحفية
- كاتب ومترجم
- صحفية
- كاتبة ومترجمة
- كاتب وأكاديمي
- صحفية
- كاتب ومترجم
- سنيماي
- كاتبة ومترجمة
- كاتبة وفنانة تشكيلية
- نقابي
- أستاذ بجامعة عين شمس
- كاتب وباحث
- أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب
- كاتب وباحث
- كاتبة وباحثة
- صحفي وكاتب
- كاتب وروائي
- صحفي وباحث
- نقابي
- باحث في الفكر الفلسفي
- روائي ومترجم
- نقابي
- كاتب
- مترجمة وصحفية
- محامي

للتصفح فقط وغير مخصص للبيع أو التوزيع



978-977-6648-91-3

